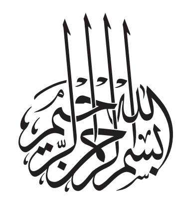

الكلمة المقدسة





دار الأمل للنشر والتوزيع والترجمة

الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

رقم الإيداع

٢٠١٣/١٣٣٣٤



دار الأمل للنشر والتوزيع والترجمة

٠١١١١٨١٩٤٨٠ – ٠١٠٠٠٢٨٢١٦٦

daralamal@hotmail.com

alamal-publications.com



إعداد

محمد إسماعيل المقدم

دار الأمل للنشر والتوزيع والترجمة


بسم الله الرحمن الرحيم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ العليِّ الأعلى، الذي أعلى كلمتَه العليا، وجعل كلمةَ الذين كفروا السفلى، والصلاة والسلام على من أرسله لينفيَ السِّوى، ويُثْبِتَ أنه لا يستحق أن يُعبدَ إلا المولى، وعلى آله وأصحابه وأتباعهم المستمسكين بالعروة الوثقى.

أما بعد

«فالحمد لله الذي فتح أبوابَ المشاهَدات على أرباب المجاهَدات بمفتاح «لا إله إلا الله»، وأحيا نفوس العارفين، وملأ كؤوس الذاكرين من أقداح «لا إله إلا الله»، وأبدع المصنوعاتِ وأوجد المخلوقاتِ ووسمها بمِيسَم[1] «لا إله إلا الله»، خلق الجنين من ماء مهين ليعبده «بلا إله إلا الله»، أرسل الرسلَ لأجلها مبشرين، وعن ضِدها محذرين، فدعَوُا الناسَ كلَّهم إلى العمل «بلا إله إلا الله»، فهي رأس الملة والدين، وهي حبل الله المتين، فما خاب من تعلق بحبل «لا إله إلا الله». غويت أحلام الجاهلين، وضلت أفئدة المعاندين، حيث جعلوا إلهين اثنين بعدما طلع بَدرُ «لا إله إلا الله».

أحمده ـ سبحانه ـ، وأشكره إذ جعلنا من أهل «لا إله إلا الله»، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له شهادةً تنجِّي قائلها إذا خاب أهلُ الشرك، ونجا أهل «لا إله إلا الله»، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الذي جدد الله به ما درس من معالم «لا إله إلا الله»، ومع ذلك قال له: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾، فصدع بها ونادى، ووالى عليها وعادى، وقال: «**أُمِرتُ أن أقاتل الناسَ حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق لا إله إلا الله**»، فدعى إلى الله سِرًّا

---

(١) المِيسَم: السِّمةَ، وأثر الحُسن والجمال، واسمٌ للآلة التي يُوسَم بها كالمكواة، يقال: وَسَمَ الشيءَ وَسْمًا وسِمَةً: كواه، فأثر فيه بعلامة.

وجِهارًا، وليلًا ونهارًا حتى انكشف الغطاء عن وجه «لا إله إلا الله»، اللهم صلِّ على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وأصحابه الذين حَمَوْا بمُرهَفاتهم[1] حَوْزَة «لا إله إلا الله»، وسلِّم تسليمًا كثيرًا.

ثم «أما بعد» أيضًا:

فيا أيها الناس اتقوا الله تعالى، وجددوا إيمانكم في المساء والصباح، بتأمل معنى «لا إله إلا الله»، فيا ذوي العقولِ الصحاح، ويا ذوي البصائر والفلاح، نادُوا بالفلاح، فلا فلاح إلا لأهل «لا إله إلا الله»، فكلمة الإسلام، ومفتاح دار السلام: «لا إله إلا الله»، فلا قامت السماوات والأرض، ولا صحت السُّنَّة والفرض، ولا نجا أحد يوم العرض، إلا بـ«لا إله إلا الله»، ولا جُرِّدت سيوف الجهاد، وأُرسِلت الرسل إلى العباد، إلا ليعلِّموهم العمل بـ«لا إله إلا الله»، فانقسم الناس عند ذلك فريقين، وسلكوا طريقين، فريق انقاد للعمل بـ«لا إله إلا الله»، والآخر خاب لعلمه أن دين آبائه تُبطِلُه «لا إله إلا الله»، فسبحان مَن فاوت بين عباده، بمقتضى حكمته ومراده، ذلك من أدلة «لا إله إلا الله»، فطوبى لمن عرف معناها فارتضاها، وعمل باطنًا وظاهرًا بمقتضاها، فيكون قد حقق «لا إله إلا الله»، وويلٌ لمن صابه الشيطان بالأشراك[2]، فرماه في هُوَّة الإشراك، فأبى واستكبر عن الانقياد لـ«لا إله إلا الله»، ألم تسمعوا قول الله ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ حقيقةَ «لا إله إلا الله»، الذي هو إفرادُه بجميع العبادات، وتخصيصُه بالقصد والإرادات، ونفيُها عما سواه من جميع المعبودات التي نفتها

---

(١) **المُرْهَف**: السيف، **والرهيف**: السيف المحدَّد المُرَقَّق.

(٢) يقال: صاب السهمُ ونحوه الهدفَ وغيرَه: أصابه، ولم يتجاوزه، والشَّرَك: حِبالة الصيد، جمعها، أشراك، وشُرُك.

«لا إلٰه إلا الله»، وذلك هو الكفر بالطاغوت والإيمان بالله الذي لا يُبقي في القلب شيئًا لغير الله، ولا إرادة لما حرم الله، ولا كراهة لما به أمر الله، هذا والله هو حقيقة «لا إلٰه إلا الله»، وأما من قالها بلسانه، ونقضها بفَعاله؛ فلا ينفعه قولُ «لا إلٰه إلا الله»، فمن صرف لغير الله شيئًا من العبادات، وأشرك به أحدًا من المخلوقات؛ فهو كافر، ولو نطق ألف مرة بـ«لا إلٰه إلا الله»، قيل للحسن ـ رحمه الله ـ: إن ناسًا يقولون: من قال: «لا إلٰه إلا الله» دخل الجنة، فقال: من قالها، وأدى حقها، وفَرْضَها أدخلَتْه الجنةَ «لا إلٰه إلا الله»، وقال وهب بن منبه لمن قال له: أليس مفتاح الجنة «لا إلٰه إلا الله»؟ قال: بلى! ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان، فإن جئتَ بمفتاح له أسنان فُتِح لك، وإلا لم يُفتَح لك؛ لأنك في الحقيقة لم تقل: «لا إلٰه إلا الله»، فيا ذوي الأسماع العتيدة[1]! لا تظنوا أمور الشرك منكم بعيدة فإن ههنا مهاوٍ شديدة تقدح في «لا إلٰه إلا الله»، أين مَن وحَّد الله بالحب والخوف والرجاء والعبادة؟ أين من خصه بالذل والخضوع والتعظيم والقصد، وأفرده بالتوكل فجعل عليه اعتماده؟ كل هذا من معاني «لا إلٰه إلا الله»، فسارِعوا عباد الله إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماوات والأرض أُعِدت للمتقين، الذين قاموا بواجبات «لا إلٰه إلا الله»، ولا تجعلوا مع الله إلهًا آخرَ إني لكم منه نذير مبين، وتمسكوا بعُرى «لا إلٰه إلا الله»، فمن نفى ما نفته، وأثبت ما أثبتته، ووالى عليها وعادى؛ رفعته إلى أعلى عليين منازلِ أهل «لا إلٰه إلا الله»، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾»[2] اهـ.

---

(١) **العتيد**: المُهَيأ، والحاضر.

(٢) هذا نص خطبة من خطب شيخ الإسلام، ومجدد القرن الثاني عشر الهجري، الإمام محمد ابن عبد الوهاب ـ رحمه الله تعالى ـ، انظر: «مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب» (١٢/ ٥٤-٥٧).

«لا إله إلا الله» كلمة أمرها عظيم، وخَطْبُهَا جسيم، وشأنها جليل، كلمة على الله كريمة، ولها عنده ـ سبحانه ـ مكان وشأن، أعلاها مُثمر، وأسفلها مُغْدِق[١]، لا توجد في الوجود كلمة أشرفُ منها، ولا توجد في الدنيا ولا في الآخرة كلمةٌ ثبت لها من الفضائل ما ثبت لها، فضائل لا يمكن عَدُّها وحَصْرُها، إذ يترتب عليها من الخير العميم، والأجرِ الجزيل، والثوابِ الجليل، ما لا يسنح[٢] بخيال، ولا يخطر على بال.

«لا إله إلا الله» كلمة لأجلها خُلِقت الدنيا والآخرة، والجنة والنار.

وبها قامت السماوات والأرض، ولأجلها خُلِقت الخلائق، قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦]، أي: يوحدوني، ويعرفوني.

بها أخذ الله الميثاق من بني آدمَ في عالَم الذَّرِّ، وهي منشأ الخلق والأمر، والثواب والعقاب.

وهي أول واجب على المكلف، يتحتم عليه استصحابُه إلى أن يفارق الحياة ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٢]، وقبول الأعمال متوقف على النطق بها، والعمل بمقتضاها، من قالها صادقًا أدخله الله بها الجنة، ومن قالها كاذبًا حَقَنت دمه، وأحرزَتْ ماله، ولقي الله غدًا فحاسبه عليها.

وتحقيقها بإفراد الله ـ تعالى ـ بالعبودية هو حق الله على العباد، قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**حق الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا**» الحديث[٣].

---

(١) **أغدق المطر**: كثُر قَطْرُه، وأغدقت العينُ: غَزُرَ ماؤها، والأرضُ: أخصبت، ويقال: أغدق عليه مالًا: أفاضه عليه، والغَدَق: الماء الغامر الكثير، وفي التنزيل العزيز: ﴿ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾ [الجن:١٦].

(٢) **سَنَحَ سُنُوحًا**: عَرَضَ، يقال: سنح لي رأيٌ في كذا.

(٣) أخرجه البخاري [١٢٨].

«لا إله إلا الله» كلمة الإسلام، ومفتاح دار السلام، وعنها يُسأل الأولون والآخِرون، فلا تزول قدما العبد بين يدي الله حتى يُسأل عن مسألتين: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟

فجواب الأولى ـ بتحقيق «لا إله إلا الله» معرفةً وإقرارًا وعملًا.

وجواب الثانية ـ بتحقيق أن «محمدًا رسول الله» معرفةً وإقرارًا، وانقيادًا وطاعة.

«لا إله إلا الله» أفضل الذكر، وأصدق الكلام، ومُفْتَتح الخطب، وكل خُطبة ليس فيها «لا إله إلا الله» فهي كاليد الجذماء[1].

«لا إله إلا الله» تاج الموحِّدين، ونور أفئدة المتقين، وحصن الأمان، وسفينة النجاة، كلمةُ الشهادة، ومفتاح دار السعادة.

بـ«لا إله إلا الله» أنزل الله الكتب، وأرسل الرسل، وشرع الشرائع.

«لا إله إلا الله» عليها أُسِّست الملة، ولأجلها نُصِبت القِبلة، وفي سبيلها جُرِّدت سيوفُ الجهاد، وبها قامت الحجة على العباد.

«لا إله إلا الله» أصل الدين وأساسه، ورأس أمره، وساق شجرته، وعمود فُسطاطه، وبقية أركان الدين متفرعة عنها، متشعبة منها، مكمِّلات لها، مقيَّدةٌ بالتزام معناها، والعمل بمقتضاها.

---

(١) وفي حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «الخطبة التي ليس فيها شهادةٌ، كاليد الجذماء» أخرجه الإمام أحمد (١٣/ ٣٩١) رقم [٨٠١٨]، (١٤/ ٢٠٦) رقم [٨٥١٨] طبعة مؤسسة الرسالة، وقال محققوه: «إسناده قوي»، والحديث أخرجه أبو داود [٤٨٤١]، والترمذي [١١٠٦].
واليد الجذماء: المقطوعة التي لا فائدة فيها لصاحبها، أو التي بها جُذام.

ومن أجل «لا إله إلا الله» نُصِبت الموازين، ووُضِعت الدواوين، وقام سوق الجنة والنار، وهي التي فَرَّقتِ الناسَ إلى مؤمنين وكفار، وميَّزتهم إلى السعداءِ أهلِ الجنة، والأشقياءِ أهلِ النار، وبها تكون السعادة والشقاوة، بل لا وصول للسعادة في الدارين إلا بها.

وبها النجاة من النار بعد الورود، وبعدم التزامها البقاءُ فيها والخلود، بها تؤخذ الكتب باليمين أو الشمال، ويثقل الميزان أو يخف، وعنها يُسأل الأولون والآخرون.

ولعظم معانيها، تعددت أساميها، ومع أن شرفها وفضلها وموقعها من الدين فوق ما يصفه الواصفون، ويعرفه العارفون؛ إلا أننا حاولنا في هذه السطور استقصاء ما تيَّسر من أساميها الشريفة، وفضائلها المنيفة، كما جاءت في القرآن المجيد، والسُّنةِ الشريفة، وكلامِ السلف الصالح، فَحَوَتْ فوائد جَمَّة، وفرائد يُعْنى بها ذوو الهمة.

فنسألك اللهم يا واسعَ المغفرة، يا باسطَ اليدينِ بالرحمة، يا كريمَ الصَّفْحِ، يا عظيمَ المَنِّ، يا مبتدئًا بالنِّعَم قبل استحقاقها، يا ربَّنا، ويا سيدَنا، ويا مولانا، ويا غاية رغبتِنا أن تُحْيِينَا عليها، وأن تثبتَنا عليها حتى تميتنا عليها، وأن تحشرنا عليها، وأن لا تحرمَنا من البركات المكنوزة لديها.

والحمد لله أولًا وآخِرًا، وباطنًا وظاهرًا، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

ونغغ

محمد أحمد إسماعيل المقدم

عطقنهفقيغ نيعافف

نم هه قغيل عاوه لىلىبمتنهذ

عههوعمنحمينههيهعيقينتنبنينه

لا إله إلا الله

(١) ركن الإسلام الأعظم

عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: قال[١] رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**بُني الإسلام على خمسٍ: شهادةِ أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله[٢]، وإقامِ الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت**»[٣].

فهذه هي الأركان والأعمدة الخمسة للإسلام: تصديق بالله ـ تعالى ـ ووحدانيته، وأنه لا شريك له، وإيمان برسالة رسوله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ثم أفعال تُصدق هذا الإيمان، وتُؤكد هذه الشهادة هي: الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج.

ولقد أجمعت الأمة على أن كلمتي الشهادة «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» هي الركن الأول للإسلام، وعليها تُبنى الأعمال، ولا يُقبل إسلام؛ ولا يصح عملٌ بدونهما.

---

(١) هذه الكلمة تكتب هنا «قال» لكنها تُقرأ: «قال: قال»، لأن من عادة المحدثين حذف كلمة «قال» إذا تكررت، مثل: «حدثنا صالح قال: قال الشعبي» تكتب: «حدثنا صالح قال الشعبي»، لكن ينبغي أن يلفظ القارئ بهما معًا.

(٢) اعلم ـ وفقك الله ـ أن الشهادتين متلازمتان، فلا تصح الشهادة بأن لا إله إلا الله إلا مع الشهادة بأن محمدًا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ولذلك كانت الشهادتان معًا ركنًا واحدًا من أركان الإسلام لا ركنين، ومن شهد بأن لا إله إلا الله، ولم يشرك بالله شيئًا، لكنه لم يشهد بأن محمدًا رسول الله، فهو كافر بالله مخلد في النار، إن مات على ذلك، وإن جاء بعبادة أهل الأرض.

(٣) رواه البخاري (١/ ٤٩)، ومسلم (١/ ٤٨).

فـ«لا إله إلا الله» رأس الإسلام، وأساس بنائه، وعمود فسطاطه، وبقية الأركان والفرائض متفرعة عنها، متشعبة منها، مكملات لها، مقيدة بالتزام معناها، والعمل بمقتضاها.

لا إله إلا الله

(٢) دعاية الإسلام

في حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن أبا سفيان بن حرب ـ رضي الله عنه ـ أخبره أن هرقل دعا بكتاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي بعث به دِحْيَةَ إلى عظِيم بُصرى، فدفعه إلى هِرقل، فقرأهُ، فإذا فِيهِ:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

من محمدٍ عَبْدِ الله وَرَسُولِهِ إلى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّوم، سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى، أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلامِ، أَسْلِم تَسْلَم يُؤتِك اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ، و﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤](١).

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «قوله: (**بدعاية الإسلام**) بكسر الدال، من قولك: دعا يدعو دِعاية، نحو: شكا يشكو شِكاية، ولمسلم: (**بداعية الإسلام**) أي: بالكلمة الداعية إلى الإسلام، وهي شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، والباء موضع (إلى)» اهـ(٢).

فـ«**دعاية الإسلام**» هي دعوته، وهي كلمة الشهادة التي يُدعى إليها أهل الملل الكافرة.

و«**داعية الإسلام**» مصدر بمعنى الدعوة؛ كالعافية والعاقبة(٣).

(١) جزء من حديث طويل رواه البخاري رقم [٧]، ومسلم رقم [١٧٧٣/ ٧٤].

(٢) «فتح الباري» (١/ ٣٨).

(٣) «لسان العرب» (٤/ ٣٦٠)، وانظر: «النهاية» لابن الأثير (٢/ ١٢٢).

(٣) أول واجب على المكلف

أجمع الصحابة والتابعون، وسائر أئمة الدين، وعلماء أهل السُّنَّة والجماعة ومن وافقهم من الطوائف الأخرى على أن أول واجب على المكلَّف(١) الإقرارُ بشهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمدًا رسول الله(٢)، مع النطق بهما(٣).

وقد استدلوا على ذلك:

١ـ بحديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما بعث معاذًا إلى اليمن قال: «**إنك تقدم على قوم أهلِ كتاب، فليكن أولَ ما تدعوهم إليه عبادةُ الله، فإذا عرفوا الله فأخبِرْهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا فعلوا فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم زكاة من أموالهم، وتُرد على فقرائهم، فإذا أطاعوا بها فخذ منهم، وتوقَّ كرائم أموال الناس**»(٤).

والمراد بالعبادة ـ هنا ـ النطق بشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، كما جاء في الرواية الأخرى(٥) مفسَّرًا «**فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله**»(٦).

---

(١) **المكلَّف**: هو البالغ العاقل.

(٢) وقد فصَّلتُ الكلام في هذه المسألة في كتابي «الإقرار بالشهادتين أول واجب على المكلفين».

(٣) اعلم ـ أصلحك الله ـ أن التلفظ بالشهادتين والنطق بهما ركن للتوحيد، وليس شرطًا فيه، ومن وصفه بالشرطية كمن قال: «من شروط الصلاة أن يصلي»، لأن النطق بالقول من حقيقتها وركنها، وانظر مزيد بيان لذلك في حاشية ص (٥٢، ٥٣).

(٤) رواه البخاري [١٣٩٥]، ومسلم (١/ ٥١) [٣١].

(٥) «المفهم» للقرطبي (١/ ١٨١)، و«فتح الباري» (١٣/ ٣٥٤) ط.السلفية.

(٦) «صحيح مسلم» (١/ ٥٠) [٢٩].

قال أبو العباس القرطبي ـ رحمه الله ـ: «الحديث حجة لمن يقول: إن أول الواجبات التلفظ بكلمتي الشهادة مصدقًا بها»[(١)].

وقال ابن حزم ـ رحمه الله ـ: «أول ما يلزم كلَّ أحد، ولا يصح الإسلام إلا به أن يعلم المرء بقلبه علم يقين وإخلاص، لا يكون لشيء من الشك فيه أثر، وينطق بلسانه ـ ولابد ـ بأن لا إلٰه إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.. وهو قول جميع الصحابة وجميع أهل الإسلام»[(٢)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «إن السلف والأئمة متفقون على أن أول ما يؤمر به العبد الشهادتان، ومتفقون على أن من فعل ذلك قبل البلوغ لم يؤمر بتجديد ذلك عقب البلوغ»[(٣)].

٢ـ وبما رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلٰه إلا الله، ويؤمنوا بي وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك؛ عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله**»[(٤)].

وفي الصحيحين من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: «**حتى يشهدوا أن لا إلٰه إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة**»[(٥)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ تعليقًا على هذا الحديث وعلى الحديث السابق: «وهذا مما اتفق عليه أئمة الدين، وعلماء المسلمين، فإنهم

(١) «المفهم» (١/ ١٨١، ١٨٢).

(٢) «المحلى» (١/ ٢، ٣).

(٣) «درء تعارض العقل والنقل» (٨/ ١١).

(٤) أخرجه مسلم (١/ ٥٢) [٣٤].

(٥) رواه البخاري (١/ ١١)، ومسلم (١/ ٥٣) [٣٦].

مجمعـون على ما عُلم بالاضطرار من دين الرسـول، أن كل كافـر فإنه يُدعى إلى الشـهادتين، سواء كان معطِّلًا، أو مشـركًا، أو كتابيًّا، وبذلك يصير الكافر مسلمًا، ولا يصير مسلمًا بدون ذلك»[(١)].

ثـم نقل قـول ابن المنذر: «أجمـع كل من أحفظ عنه من أهـل العلم على أن الكافـر إذا قـال: أشـهد أن لا إله إلا الله، وأشـهد أن محمـدًا عبده ورسـوله، وأن كل مـا جـاء به محمد حق، وأبرأ إلى الله من كل دين يخالف الإسـلام ـ وهو بالغ صحيح يعقل ـ أنه مسلم»[(٢)]اهـ.

وقد افتتح الإمام أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي (ت ٣٢١) عقيدتـه المنسـوبة إليه بقوله: «نقول في توحيـد الله، معتقدين بتوفيق الله: إن الله واحد، لا شريك له».

وقال شـارحها الإمـام علي بن أبـي العز الدمشـقي (ت ٧٢٢): «ولهذا كان الصحيـحُ أنَّ أوَّل وَاجِـبٍ يجـب علـى المكلَّـفِ شـهادةُ أَنْ لا إلهَ إلا اللهُ، لا النظرُ، ولا القَصْدُ إلى النظر، ولا الشَّـكُّ، كما هي أقوالٌ لأرباب الكلام المذموم[(٣)]، بل

(١) «درء تعارض العقل والنقل» (٨/ ٧)، وانظر: «صون المنطق والكلام» للسيوطي ص (١٧٢).
(٢) «درء التعارض» (٨/ ٧)، و«الإجماع» لابن المنذر ص (١٥٤).
(٣) اختلف المتكلمون في أول واجب على المكلف على أقوال:
الأول ـ قال بعضهم: إنه المعرفة، وحُكي هذا عن أبي الحسـن الأشـعري، انظر: «تحفة المريد على جوهرة التوحيد» ص (٢٣)، و «المواقف في علم الكلام» للإيجي ص (٣٢).
الثاني ـ إنه النظر، ويُعزى أيضًا إلى أبي الحسن الأشعري، وانظر: «تحفة المريد» ص (٢٣).
وقـال أبو بكر ابن الباقلانـي: (أول ما فرض الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على جميع العباد النظر في آياته، والاعتبـار بمقدوراته، والاسـتدلال عليـه بآثار قدرته، وشـواهد ربوبيته، لأنه ـ سـبحانه ـ غير معلوم باضطرار، ولا مشاهد بالحواس)اهـ. من «الإنصاف فيما يجب اعتقاده» ص (٣٣).
كما قرر ذلك عبد الجبار المعتزلي بقوله: (إن سـأل سـائل فقال: ما أول ما أوجب الله عليك؟ فقل: النظر المؤدي إلى معرفة الله ـ تعالى ـ، لأنه ـ تعالى ـ لا يعرف ضرورة، ولا بالمشـاهدة، فيجب أن نعرفه بالتفكر والنظر)اهـ. من «شرح الأصول الخمسة» ص (٣٩). =

أئمةُ السلف كُلُّهم مُتَّفِقُون على أن أوَّلَ ما يُؤْمر به العبدُ الشهادتانِ، ومُتَّفِقُون على أنَّ مَـنْ فعل ذلك قبل البلوغ لم يؤمر بتجديد ذلك عَقِبَ بلوغه، بل يؤمر بالطهارة والصـلاة إذا بَلَـغَ أو ميَّـز عند من يرى ذلـك، ولـم يُوجِبْ أحد منهـم على وليِّه أن

= **الثالـث ـ** إنـه القصد إلى النظـر، نص عليه أبو المعالي الجويني حيث قـال: (أول ما يجب على العاقل البالغ باسـتكمال سـن البلوغ أو الحلم شـرعًا القصد إلى النظـر الصحيح المفضي إلى العلم بحدوث العالم)اهـ. من «الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد» ص (٢٥).

الرابع ـ قال بعضهم: أول واجب على المكلف هو الشك، ونُقل عن أبي هاشم الجبائي المعتزلي كما في «المواقف» ص (٣٢)، وانظر: «الشامل في أصول الدين» ص(٣١، ٣٢)، وطائفةٍ من المعتزلة وغيرهم كما في «تحفة المريد» ص (٢٣)، و«شرح المقاصد» للتفتازاني(١/ ٣٠١-٣٠٣)، و«فتح الباري» (١٣/ ٣٥٠).

فهذه أشهر أقوال المتكلمين في أول واجب على المكلف، والخلاف بينهم فيها لفظي كما بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في «درء التعارض» (٧/ ٣٥٣).

ومـا ذهـب إليه هـؤلاء المتكلمون قول محـدث مخالف لإجمـاع أئمة المسـلمين كما قدمنا.

واعلم أن كون الإقرار بالشهادتين والنطق بهما أول واجب على المكلف لا يعني إهمال النظر والتفكر في خلق السـماوات والأرض، وسـائر الآيات التكوينية، وهذه المسـألة ـ أول واجب علـى المكلـف ـ ينبني عليها حكـم إيمان المقلِّد، أما النظر فلا يجـب إلا على من لا يحصل له الاعتقـاد الجازم إلا به، والمراد بذلك: النظر الشـرعي، لا على طريقة المتكلمين، ومناهجهم الفلسفية.

علـى أنـه يترتب علـى مذهب هؤلاء لوازم فاسـدة فيما يتعلـق بزمن الاسـتدلال ومدته، انظر: «الفصل» لابن حزم (٤/ ٤١، ٤٢).

والمقصود هنا بيان أن الخلاف في حكم إيمان المقلد قد انبنى على الخلاف في هذه المسـألة (أول واجب على المكلف) فبينهما صلة واضحة:

ـ فـإن مـن كان يرى أن النظر أول الواجبات على كل مكلف ذهـب إلى أن من لم ينظر وإنما آمن تقليـدًا: فإمـا أنه لا يصح إيمانه، على قول البعض، وإما أنه يكـون عاصيًا، وإن صح إيمانه، على قول آخرين.

ـ وأمـا مـن لا يرى أن النظر أول واجب على المكلف: فإنـه يذهب إلى صحة إيمان المقلد، ما دام أنه قد اعتقد الحق اعتقادًا جازمًا ولو لم ينظر أو يستدل.

يُخَاطِبه حينئـذٍ بتجديـد الشـهادتين، وإن كان الإقرارُ بالشـهادتين واجبـًا باتفاق المسلمين، ووجوبهُ يَسْبِقُ وجوبَ الصلاة، لكن هو أدَّى هذا الواجبَ قبلَ ذلك.

وهنا مسائلُ تكلَّم فيها الفقهاءُ: فَمَنْ صلَّى ولم يتكلمْ بالشهادتين، أو أتى بغير ذلك مِن خصائصِ الإسـلام، ولم يتكلَّمْ بهما: هل يصيرُ مسلمًا أم لا؟ والصحيحُ أنه يصير مسلمًا بكل ما هُو مِن خصائصِ الإسلام.

فالتوحيدُ أَوَّلُ ما يُدخَلُ به في الإسلام، وآخِرُ ما يُخْرَجُ به من الدنيا، كما قال النبـي ـ صلى الله عليه وسـلم ـ: «**مَنْ كَانَ آخِـرَ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الجَنَّـةَ**»(١).

فهو أَوَّلُ واجب، وآخِرُ واجب»(٢)اهـ.

---

(١) أخرجـه ابـن حبـان [٧١٩] (مـوارد) مـن حديث أبي هريـرة ـ رضي الله عنـه ـ أن النبي ـ صلى الله عليـه وسـلم ـ قال: «**من كان آخر كلامـه لا إله إلا الله عند الموت، دخل الجنة يومًا من الدهر، وإن أصابه ما أصابه**» وله شـاهد بسند حسن عند أبي داود [٣١١٦]، وأحمد (٥/ ٢٣٣و٢٤٧)، وغيرهمـا مـن حديث معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ مرفوعـًا: «**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**».

(٢) «شرح العقيدة الطحاوية» (١/ ٢٣) ط. مؤسسة الرسالة.

لا إله إلا الله

(٤) عاصمة الدم والمال

قال الله ـ تعالى ـ في (آية السيف): ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٥]، وقال بعدها: ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ١١].

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيرها: «ولهذا اعتمد الصديق ـ رضي الله عنه ـ في قتال مانعي الزكاة على هذه الآية الكريمة وأمثالها، حيث حَرَّمَتْ قتالهم بشرط هذه الأفعال، وهي الدخول في الإسلام، والقيام بأداء واجباته، ونَبَّهَ بأعلاها على أدناها، فإن أشرف الأركان بعد الشهادة الصلاة، التي هي حق الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وبعدها أداء الزكاة التي هي نفعٌ مُتَعَدٍّ إلى الفقراء والمحاويج، وهي أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين؛ ولهذا كثيرًا ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة، وقد جاء في الصحيحين، عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ، عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «**أُمرت**[1] **أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة**»... الحديث.

وقال أبو إسحاق: عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: «أُمرتم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ومن لم يُزَكِّ فلا صلاة له»،

(١) **أُمِرت**: أي: أمرني الله، إذ لا آمر سواه، وحُذِف الفاعل تعظيمًا وتفخيمًا.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «أَبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة. وقال: يرحم الله أبا بكر، ما كان أفقهه!»[(١)] اهـ.

وقال الإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ في تفسيرها: «قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ أي من الشرك ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ هذه الآية فيها تأمُّل؛ وذلك أن الله ـ تعالى ـ علَّق القتلَ على الشرك، ثم قال: ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾. والأصل أن القتل متى كان للشرك يزول بزواله، وذلك يقتضي زوال القتل بمجرد التوبة، من غير اعتبارِ إقامةِ الصلاة وإيتاءِ الزكاة؛ ولذلك سقط القتل بمجرد التوبة قبل وقت الصلاة والزكاة. وهذا بيِّنٌ في هذا المعنى؛ غير أن الله ـ تعالى ـ ذكر التوبة، وذكر معها شرطين آخرين، فلا سبيل إلى إلغائهما. نظيره قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**أمِرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عَصَموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله**». وقال أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ: «والله لأقاتلنَّ من فَرَّقَ بين الصلاة والزكاة؛ فإن الزكاة حق المال». وقال ابن عباس: «رحم الله أبا بكر ما كان أفقهه». وقال ابن العربي: «فانتظم القرآنُ والسُّنةُ واطَّردا».» اهـ[(٢)].

وقد تواترت الأحاديث[(٣)] عن خمسةَ عشرَ صحابيًّا ـ رضي الله عنهم ـ بألفاظ متقاربة، تُبين أن توبة المشركين التي تعصم أموالهم ودماءهم إنما تكون بشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتبين أن من حق هذه الشهادة: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة:

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ١٢٠)، ط. دار الحديث ـ القاهرة.

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٨/ ٧٤).

(٣) قاله السيوطي في «الجامع الصغير» ـ «فيض القدير» (١/ ١٨٩).

فعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**أُمِرتُ أن أقاتل الناس ـ وفي رواية: (المشركين) ـ حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، واستقبلوا قِبلتنا، وأكلوا ذبيحتنا، وصَلَّوْا صلاتنا؛ فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم**»[1].

وعن طارق بن أشيم الأشجعي ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: «**من قال: لا إله إلا الله ـ وفي رواية: من وحَّد الله ـ، وكفر بما يُعبد مِن دون الله، حَرُم مالُه ودمُه، وحسابُه على الله**[2] **ـ عزَّ وجلَّ ـ**»[3].

---

(١) أخرجه أبو داود [٢٦٤١]، والترمذي (٢/ ١٠٠)، والنسائي (٢/ ١٦١، ٢٦٩)، والإمام أحمد (٣/ ١٩٩)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح»، وصححه الألباني في «الصحيحة» [٣٠٣].

(٢) قال المناوي ـ رحمه الله ـ: «الحكم عليهم بما ذُكِر إنما هو باعتبار الظاهر، أما باعتبار الباطن: فأمرهم ليس إلى الخلق بل (حسابهم على الله) فيما يُسِرونه من كفر ومعصية، يعني إذا قالوها بلسانهم، وباشروا الأفعال بجوارحهم، قنعتُ منهم به، ولم أفتش عن قلوبهم، و(على) بمعنى اللام، فما أوهمه العلاوة من الوجوب غير مراد، ولئن سُلِّم فهو للتشبيه، أي هو كالواجب في تحقق الوقوع، فالعصمة متعلقة بأمرين: كلمةِ التوحيد، وحقِّها، أي حق الدماء والأموال على التقديرين، والحكم إذا تعلق بوجوده شرطان؛ لا يقع دون استكمال وقوعهما، وصدَّره بلفظ الأمر إيذانًا بأن الفعل إذا أُمِر به من جهة الله لا يمكن مخالفته، فيكون آكدَ من فعلٍ مبتدأ من الإنسان، قال الرافعي: «وبيَّن الشافعيُّ أن الحديث مخرجه عام، ويراد به الخاص، والقصد به أهل الأوثان، وهو أصل من أصول الإسلام».
(تتمة) ذكر الفخر الرازي عن بعضهم هنا أنه ـ تعالى ـ جعل العذاب عذابين أحدهما: السيف من يد المسلمين، والثاني: عذاب الآخرة، فالسيف في غلافٍ يُرى، والنار في غلافٍ لا تُرى، فقال لرسوله: من أخرج لسانه من الغلاف المرئي ـ وهو الفم ـ فقال: «لا إله إلا الله»، أدخلنا السيفَ في الغمد الذي يُرى، ومن أخرج لسانَ القلب من الغلاف الذي لا يُرى ـ وهو السر ـ فقال: «لا إله إلا الله»، أدخلنا سيفَ عذابِ الآخرة في غمد الرحمة، حتى يكون واحدٌ لواحدٍ، لا ظلم ولا جور» اهـ. من «فيض القدير» (٢/ ١٨٩).

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٤٧٢)، (٦/ ٣٩٤)، ومسلم في «صحيحه» رقم [٣٧].

فإيمان الكافر موقوف على النطق بها، ولا تُعصَم الدماء والأموالُ إلا بحقها:

وعن النعمان بن بشير ـ رضي الله عنهما ـ قال: كنا مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجاء رجل فسارَّه، فقال: «**اقتلوه**»، ثم قال: «**أيشهد أن لا إله إلا الله؟**»، قال: نعم! ولكنما يقولها تعوذًا، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**لا تقتلوه، فإنما أُمِرتُ أن أقاتل الناسَ حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم، وأموالهم، إلا بحقها، وحسابُهم على الله**»[1].

وعن المقداد بن الأسود أنه قال: يا رسول الله! أرأيت إن لقيتُ رجلًا من الكفار فقاتلني، فضرب إحدى يديَّ بالسيف فقطعها، ثم لاذ مني بشجرة، فقال: أسلمتُ لله، أفأقتله يا رسول الله بعد أن قالها؟ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**لا تقتله**»، قال: فقلت: يا رسول الله! إنه قطع يدي، ثم قال ذلك بعد أن قطعها، أفأقتله؟ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**لا تقتله، فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله، وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال**[2]»[3].

---

(١) رواه النسائي، «صحيح سنن النسائي» رقم [٣٧١٤]، وقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**فقد عصموا**» أي حفظوا «**مني دماءهم وأموالهم**» أي منعوها، إذ العصمة: المنعة، والاعتصام: الاستمساك، افتعال منه، فلا يحل سفكُ دمائهم، ولا أخذ أموالهم.
وقوله: «**إلا بحقها**» أي الدماء والأموال، يعني هي معصومة إلا عن حقٍّ يجب فيها، كقَود، وردة، وحدٍّ، وترك صلاة وزكاة بتأويل باطل، وحقِّ آدمي، فالباء بمعنى (عن) أو (من) أي: فقد عصموها إلا عن حقها أو من حقها، أو: إلا بحق كلمة التوحيد، وحَقُّها: ما تبعها من الأفعال والأقوال الواجبة التي لا يتم الإسلام إلا بها، فالمتلفظ بكلمة التوحيد يُطالَب بهذه الفروض بعدُ. اهـ. من «فيض القدير» (٢/ ١٨٨، ١٨٩).

(٢) قال النووي ـ رحمه الله ـ: «أحسن ما قيل في معناه وأظهرُه: أن معناه: فإنه معصوم الدم محرم قتلُه بعد قوله: (لا إله إلا الله) كما كنت أنت قبل أن تقتله، وإنك بعد قتله غير معصوم الدم ولا محرم القتل كما كان هو قبل قوله: (لا إله إلا الله)، قال ابن القصار: «يعني لولا عذرك بالتأويل المسقط للقصاص عنك» اهـ. من «شرح النووي» (١/ ٣٨٣) ط. دار أبي حيان.

(٣) رواه مسلم (١/ ٩٥)، رقم [١٥٥].

وقد قال أسامة بن زيد ـ رضي الله عنهما ـ: بَعَثَنَا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في سَرِيَّة، فصَبَّحْنا الحُرَقات من جهينة[١]، فأدركت رجلاً، فقال: «لا إله إلا الله» فطعنته، فوقع في نفسي من ذلك، فذكرتُه للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**أقال**: لا إله إلا الله، **وقتلته؟**»، قال: قلت: يا رسول الله إنما قالها خوفًا من السلاح، قال: «**أفلا شققتَ عن قلبه حتى تعلمَ أقالها أم لا؟**»، فما زال يكررها عَلَيَّ، حتى تمنيتُ أني أسلمت يومئذ[٢].

وعن صَفوانَ بنِ مُحْرِزٍ: «أن جُنْدَبَ بنَ عبدِ اللهِ البَجَليَّ بعث إلى عسعس بنِ سَلامة زمنَ فتنةِ ابنِ الزبيرِ فقالَ: اجمعْ لي نفرًا من إخوانك حتى أُحدثهم، فبعث رسولًا إليهم، فلما اجتمعوا جَاء جُنْدبٌ وعليه بُرنُس[٣] أصفرُ فقال: تحدثوا بما كنتم تحدثون به، حتى دار الحديثُ، فلما دار الحديثُ إليه حَسَرَ البرنُسَ عن رأسِه فقال: إني أتيتكم ولا أُريدُ أن أُخبرَكم إلا عن نبيِّكم ـ صلى الله عليه وسلم ـ. إن رسولَ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعث بعثًا من المسلمين إلى قومٍ من المشركين، وإنهم التقَوْا، فكان رجلٌ من المشركين إذا شاء أن يقصِدَ إلى رجلٍ من المسلمين قصد له فقتله، وإن رجلًا من المسلمين قصد غفلته، قال: وكنا نُحَدَّث أنه أُسامةُ ابنُ زيد، فلما رفع عليه السيف، قال: لا إله إلا اللهُ، فقتله، فجاء البشيرُ إلى النبيِّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسأله فأخبره خبرَ الرجلِ كيف صنع، فدعاه فسأله

---

(١) أي: أتيناهم صباحًا، **والحُرُقات**: موضع ببلاد جهينة، وفي رائه الضم والفتح.

(٢) رواه مسلم (١/ ٩٧)، رقم [١٦٠]، وأراد بقوله: «حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ»: أي: لم يكن تقدم إسلامي، بل ابتدأت الآن الإسلام ليمحوَ عني ما تقدم، وانظر: «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٥٥، ١٥٦).

(٣) **البرنس**: هو كل ثوب رأسه ملتصق به.

فقـال: «لِمَ قَتَلْتَه؟» فقال: يا رسـول الله أوجع[1] في المسـلمين فقتل فلانًا وفلانًا، وسمى له نفرًا، وَإِنِّي حَمَلْتُ عليه. فَلَمَّا رَأَى السَّيْفَ قالَ: لا إله إلا الله. قال رسول الله ـ صلى الله عليـه وسـلم ـ: «أَقَتَلْتَهُ؟» قـال: نَعَمْ. قـالَ: «فَكَيْفَ تَصْنَعُ بِـلا إله إلا اللهُ إِذَا جَـاءَتْ يَـوْمَ القِيَامَـةِ؟» قـالَ: يـا رسـول الله! اسْـتَغْفِرْ لِي. قـالَ: «وَكَيْـفَ تَصْنَعُ بِـلا إله إلَّا اللهُ إِذَا جَـاءَتْ يَوْمَ القِيَامَةِ؟»، قالَ: فَجَعَلَ لَا يَزِيـدُهُ عَلَى أَنْ يَقُولَ: «كَيْفَ تَصْنَعُ بلا إله إلَّا اللهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ القِيَامَةِ؟»[2].

قـال العلمـاء: «إذا قال الكافر: «لا إله إلا الله» فقد شـرع فـي العاصم لدمه، فيجب الكف عنه، فإن تمم ذلك تحققت العصمة، وإلا بطلت».

ويكـون النبي ـ صلى الله عليه وسـلم ـ قد قـال كل حديث في وقت، فقال: «أُمِـرتُ أن أقاتـل النـاسَ حتـى يقولـوا: لا إله إلا الله»؛ ليعلـم المسـلمون أن الكافر المحارب إذا قالها كُفَّ عنه، وصار مالُه ودمُه معصومَيْن.

ثـم بيَّن ـ صلى الله عليه وسـلم ـ في الحديـث الآخر أن القتال ممدود إلى الشـهادتين والعبادتيـن، فقـال ـ صلى الله عليه وسـلم ـ: «أُمِـرتُ أن أقاتل الناسَ حتـى يشـهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمـدًا رسـول الله، ويقيمـوا الصـلاة، ويؤتـوا الـزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسـلام، وحسـابهم علـى الله»[3].

(١) أي: أوقع بهم وآلمهم.

(٢) رواه مسلم (١/ ٩٧)، رقم [١٦٠].

(٣) رواه البخاري (١/ ١١)، ومسلم (١/ ٣٩).

فبيَّـن أن تمـام العصمة إنمـا يحصل بذلـك[1]، ولئلا تقع الشـبهة بأن مجرد الإقرار يعصم على الدوام»[2] اهـ.

وعـن أبـي هريـرة ـ رضي الله عنـه ـ قال: لمـا تُوُفِّي رسـول الله ـ صلى الله عليـه وسـلم ـ واسـتُخلِفَ أبو بكـر بعده، وكفـر مَن كفـرَ مِن العرب، قـال عمر: يـا أبـا بكر: كيف تقاتـل الناس؟ وقـد قال رسـول الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ: «**أُمِـرتُ أن أقاتل الناسَ حتـى يقولوا: لا إلٰه إلا الله، فمن قال: لا إلٰه إلا الله، فقد عصم مني ماله ونفسـه، إلا بحقه، وحسـابه علـى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ**»، قال أبـو بكر: «لأقاتلن مـن فرَّق بين الصـلاة والزكاة، فإن الزكاة حـق المال، فوالله لـو منعوني عِقالًا[3] كانـوا يؤدونهـا إلى رسـول الله ـ صلـى الله عليه وسـلم ـ لقاتلتهم علـى منعها»، قال عمر: «فوالله ما هو إلا أن رأيتُ الله قد شـرح صدر أبي بكر لقتالهم، فعرفت أنه الحق»[4].

فتأمل كيف أدخل أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ في «حقها» فعل الصلاة والزكاة.

قـال النـووي ـ رحمه الله ـ: «ولابد ـ مع هـذا ـ من الإيمان بجميع ما جاء به

---

(١) علَّق الشـيخ رشـيد رضا ـ رحمـه الله ـ على هذا الموضع قائلًا: «التحقيـق أن المراد بالحديثين واحـد، وهو الدخول في الإسـلام، ومفتاح الدخول فيه من المشـركين: النطـق بكلمة التوحيد، فهـو يعصـم صاحبـه فـي المعركـة ـ إذ لا مجـال فيها لصـلاة ولا زكاة ـ وأمـا الكفـار القائلون: «لا إلٰه إلا الله»؛ فلابد من نطق أحدهم برسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ...، وذِكْرُ الصلاة والـزكاة فـي الحديـث الآخر يُراد به قبولُ شـرائع الإسـلام، وركنُهـا الديني المحـض الأعظم: الصلاة، وركنها المالي: الزكاة، فمن دان بهما دان بغيرهما» اهـ. من هامش «الكلام المنتقى مما يتعلق بكلمة التقوى» ص (٣١، ٣٢).

(٢) «الكلام المنتقى مما يتعلق بكلمة التقوى» للشيخ سعيد بن حجي الحنبلي، ص (٣١، ٣٢).

(٣) قيل: المراد بها زكاة عام، وقيل: العِقال: الحبل الذي يُعقل به البعير.

(٤) رواه مسلم في «صحيحه» (١/ ٥١) [٣٢]، وغيره.

رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما جاء في الرواية الأخرى[(١)]: «**حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، ويؤمنوا بي وبما جئتُ به**»[(٢)].

والمقصود: أن حكم من قال: «لا إله إلا الله» أنها تعصم ماله ودمه، ثم يُطالَب بمعناها وحقِّها، كالكفر بعبادة غير الله، وشهادةِ رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وسائر شرائع الإسلام، وقد تظاهرت الأدلة على ذلك[(٣)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ في نُبذة له عن الحب في الله، والبغض في الله: «واعلم أن قول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**أُمِرتُ أن أقاتل الناسَ حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقِّها**»، يدل تحقيقًا على أن الصلاة من حقها، والزكاة من حقها، والصوم من حقها، والحج من حقها، فهذا تحقيق قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**إلا بحقِّها**»، يعني إذا أقروا بالشهادتين، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصاموا رمضان، وحَجُّوا البيت: «**فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم**».»[(٤)]اهـ.

ومما يدخل في «حقها» ـ أي في إباحة الدم ـ: ارتكاب ما يبيح دم المسلم من المحرمات، لقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: الثَّيِّبُ الزاني، والنفس بالنفس، والتاركُ لدينه، المفارقُ للجماعة**»[(٥)].

---

(١) رواه مسلم في كتاب: «الإيمان» (١/ ٥٢) [٣٤].

(٢) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١/ ٢٠٦، ٢٠٧).

(٣) «الكلام المنتقى»، ص (٣٤).

(٤) نقله عنه رشيد رضا كما في حاشية «الكلام المنتقى» ص (٣٥).

(٥) رواه البخاري (٨/ ٣٨)، ومسلم (٥/ ١٠٦)، واللفظ له.

تنبيه: اعلم ـ رحمك الله ـ أن المراد بقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**أُمرتُ أن أقاتلَ الناسَ**».. الحديث: أهلُ الأوثان ومشركو العرب، وهم كانوا أولَ من دُعي إلى الإسلام وقُوتِل عليه، أما أهل الكتاب إذا أبوا الإسلام، فإنهم يُقَرُّون على الجزية، ويبقون على دينهم، ويُكَفُّ عنهم.

فائدة: هل لازم كلمة التوحيد داخل في حكمها وحقها؟

بين ذلك الشيخ محمد رشيد رضا ـ رحمه الله تعالى ـ فقال: «اللزوم: الثبوت والدوام، وفسره بعضهم بعدم الانفكاك، فلازم الشيء: ما يصحبه، ولا ينفك عنه في الواقع، فلازم كلمة التوحيد: ما هو أثر فطري طبعي لاعتقاد مضمونها، وهو غير حقها وحكمها، اللذان هما من وضع الشرع، لا من تأثير الطبع.

فالمؤمن الموقن بأنه لا إلٰه يُعبد بحق إلا الله الخالق الذي بيده ملكوتُ كل شيء، من نفع وضُرٍّ، وعطاء ومنع، يلزم يقينَه هذا إخلاصُ الدعاء له وحده في كل شدة تعرض له، هذا ألصق لوازم الكلمة بصاحبها، مهما يكن مسرفًا على نفسه، فإذا أكمل يقينه بكثرة الذكر والعبادة، كان من لوازم توحيده كمالُ التوكل، والشجاعةُ في الحق، إلى غير ذلك.

فأظهر لوازم كلمة التوحيد أن لا يدعو صاحبُها غير الله فيما هو وراء الأسباب، ولا يستغيثَ غيره في الشدائد، ولا ينذر ولا يذبح لغيره نُسُكًا، فويل للمشركين الذين يبيحون انفكاك كل هذه اللوازم عن كلمة التوحيد، بدعاء غير الله... إلخ، ويسمونه توسلًا إلى الله لا شركًا به» اهـ[1].

---

(١) حاشية «الكلام المنتقى» ص (٣٧).

لا إله إلا الله

(٥) أعلى شعب الإيمان وأفضلها

عـن أبـي هريـرة ـ رضي الله عنـه ـ أن النبي ـ صلـى الله عليه وسـلم ـ قال: «**الإيمـان بضـع وسـبعون شـعبة، أعلاهـا** ـ وفي روايـة: **أفضلها** ـ **قـول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»[1].

والإيمان: أصل له شعب متعددة، وكل شعبة منه تسمى إيمانًا.

فالصلاة من الإيمان[2]، وكذلك الزكاة، والحج، والصيام، والأعمال الباطنة، كالحياء، والتوكل، والخشـية من الله، والإنابة إليه، حتى تنتهِيَ هذه الشـعب إلى إماطة الأذى عن الطريق فإنه شعبة من شعب الإيمان، وهذه الشعب منها ما يزول الإيمـان بزوالهـا كشـعبة الشـهادة، ومنها ما لا يـزول بزوالها كتـرك إماطة الأذى عن الطريق، وبينهما شـعب متفاوتة تفاوتًا عظيمًا، منها ما يلحق بشـعبة الشهادة، ويكون إليها أقرب، ومنها ما يلحق بشعبة إماطة الأذى، ويكون إليها أقرب.

---

(١) رواه البخاري رقم [٩]، ومسلم رقم [٣٥].

(٢) وفي حديث وفد عبد القيس أنهم قالوا لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: مُرْنا بأمرٍ نعمل به، وندعـو إليـه من وراءنا، فقال ـ صلى الله عليه وسـلم ـ: «**آمركمْ بأربـعٍ، وأنهاكمْ عن أربعٍ: آمركم بالإيمان بالله وحدهُ، أتدرونَ ما الإيمان بالله وحدهُ؟ شهادةُ أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسولُ الله، وإقـام الصـلاةِ، وإيتـاء الزكاةِ، وصيام رمضـانَ، وأن تؤدُّوا خُمـسَ ما غنمتم، وأنهاكم عـن الدُّبـاء، والنَّقيـر، والحنْتَـم، والمزفتِ، احفظوهـنَّ وأخبروا بهنَّ مَـن وراءَكم**» رواه البخـاري (١/ ١٢٩ - فتح)، ومسلم (١/ ٣٥)، وأبو داود [٣٦٩٢]، والترمذي [٢٦١١]، والنسائي (٢/ ٢٧٢).

وشعب الإيمان قد يتعلق بعضها ببعض تعلقَ المشروطِ بشرطه، فلا تنفع الصلاةُ مَن صلاها عمدًا بغير وضوء، ولا ينفع الإيمان بالله ووحدانيته وأنه لا إلٰه إلا هو؛ من أنكر رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

والمقصود: أن شعبة قول: «لا إلٰه إلا الله» باعتبارها أعلى وأفضل شعب الإيمان هي شرط في صحة ما تحتها من شعب الإيمان واعتبارِه عند الله ـ تعالى ـ، ولذلك كان مِن شروط الانتفاع بالعمل الصالح في الآخرة أن يكون العبد مسلمًا يشهد أن لا إلٰه إلا الله، وهاك تفصيلَ ذلك:

لا إله إلا الله

(٦) شرط في العمل الصالح

دل القـرآن العظيـم على أن العمل الذي ينفع العبـدَ هو العمل الصالح، وأن العمل الصالح هو ما استكمل ثلاثة شروط:

الأول ـ موافقته لمـا جـاء به النبي ـ صلى الله عليه وسـلم ـ، لقولـه ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ الآيـة، [الحشـر: ٧]، ولقولـه ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه؛ فهو رَدٌّ**»[1].

الثاني ـ أن يكـون خالصًـا لله ـ تعالى ـ؛ لقوله ـ عـزَّ وجلَّ ـ: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ الآيـة [البينـة: ٥]، وقولـه ـ جـلَّ وعـلا ـ: ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴾ [الزمـر: ١٤]، ولقولـه ـ صلـى الله عليـه وسـلم ـ: «**إنما الأعمال بالنيَّات**»... الحديث[2].

الثالث ـ أن يكون مبنيًّا على أسـاس العقيدة الصحيحة، لأن الله ـ سـبحانه ـ يقول: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ الآية [النحل: ٩٧]، فقيَّد ذلك بالإيمان، ومفهومه: أنه لو كان غير مؤمن لما قُبل منه ذلك العمل الصالح[3].

---

(١) رواه البخاري في «الصلح» [٢٦٩٧] (٦/ ٥٧٧ – طيبة)، ومسلم رقم [١٧١٨] في «الأقضية»، وأبو داود (٢/ ٥٠٦)، وابن ماجة رقم [١٤].

(٢) رواه البخاري [١] (١/ ٣٠)، ومسلم رقم [١٩٠٧]، وأبو داود [٢٢٠١]، والترمذي [١٦٤٧]، والنسائي (١/ ٥٩، ٦٠).

(٣) «أضواء البيان» (٣/ ٤٢٢، ٤٢٣).

وكذا قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء: ١٩].

وقوله ـ جل وعلا ـ: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٤]، وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [غافر: ٤٠]، ومفهوم هذه الآيات: أن غير المؤمن إذا أطاع الله بإخلاص لا ينفعه ذلك، لفقد شرط القبول الذي هو الإيمان بالله ـ جلَّ وعلا ـ.

وقد أوضح الله ـ سبحانه وتعالى ـ هذا المفهوم في آياتٍ أُخَر، كقوله في أعمال غير المؤمنين: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وقوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [النور: ٣٩]، وقوله ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [الأحزاب: ١٩]، وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

الدُّنيا جنة الكافر (١)

وقد بيَّن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في آياتٍ أُخَرَ أن عمل الكافر الذي يتقرب به إلى الله ـ كَبِرِّ الوالدين، وصلة الرحم، وإكرام الضيف، وحسن الجوار، وصدق الحديث، والوفاء بالعهد، والتنفيس عن المكروب، ونحو ذلك ـ فهو إنما يُجازَى به في الدنيا، ولا حَظَّ له منه في الآخرة، كقوله ـ سبحانه ـ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٥، ١٦]، وكقوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى: ٢٠].

---

(١) وقد روى مسلم [٢٦٥٦] وغيره عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر**» أي: أن كل مؤمن في الدنيا ممنوع من الشهوات المحرمة والمكروهة، مكلف بفعل الطاعات الشاقة، فإذا مات استراح من هذا، وانقلب إلى ما أعد الله ـ تعالى ـ له من النعيم الدائم، والراحة الخالصة من المنغصات. وأما الكافر فإنما له من ذلك ما حصل في الدنيا، مع قلته وتكديره بالمنغصات، فإذا مات صار إلى العذاب الدائم وشقاء الأبد.

وقد ذكر المناوي في شرح هذا الحديث حكاية لطيفة فقال:

ذكروا أن الحافظ ابن حجر لما كان رئيس القضاة مر يومًا بالسوق في موكب عظيم وهيئة جميلة فهجم عليه يهودي يبيع الزيت الحار، وأثوابه ملطخة بالزيت، وهو في غاية الرثاثة والشناعة، فقبض على لجام بغلته، وقال: يا شيخ الإسلام! تزعم أن نبيكم قال: «**الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**» فأي سجن أنت فيه؟ وأي جنة أنا فيها؟ فقال: «أنا بالنسبة لما أعده الله لي في الآخرة من النعيم ـ يعني الحافظ: بشرط الوفاة على الإسلام ـ كأني الآن في سجن، وأنت بالنسبة لما أُعِد لك في الآخرة من العذاب الأليم ـ يعني: إن مات على كفره ـ كأنك في جنة» فأسلم اليهودي. اهـ. من «فيض القدير» (٣/ ٥٤٦).

وثبت عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ نحوُ ما جاءت به هذه الآيات من انتفاع الكافر بعمله في الدنيا، وذلك فيما رواه أنس ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**إنَّ الله لا يظلم مُؤمنًا حسنةً**[(١)]**، يُعْطَى بِها فِي الدنيا، وَيُجْزَى بها في الآخرة، وأما الكافر فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِهَا لله فِي الدنيا حتَّى إذا أَفْضَى إلى الآخرة لم تكن له حَسَنَةٌ يُجْزَى بها**».

وفي رواية: «**إنَّ الكافرَ إذا عَمِلَ حسنةً أُطعِمَ بها طُعْمَةً من الدنيا، وأما المؤمن فإنَّ الله يَدَّخِرُ له حسناته في الآخرة، وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا في الدنيا على طاعته**»[(٢)].

واعلم ـ وفقك الله ـ أن انتفاع الكافر بالعمل الصالح مقيد بمشيئة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ كما نص على ذلك بقوله ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨] فهذه الآية الكريمة مقيِّدة لما سبق ذكره من الآيات والأحاديث[(٣)].

(١) أي: لا يترك مجازاته بشيء من حسناته، والظلم يُطلَق بمعنى النقص.

(٢) رواه مسلم (٤/ ٢١٦٢) حديث رقم [٢٨٠٨].

(٣) انظر: «دفع إيهام الاضطراب» ص(١٥١-١٥٥).

الكفار مسؤولون عن فروع الشريعة

واعلم ـ وفقك الله ـ أن الكفار مخاطبون بفروع الإسلام، مسؤولون عن تكاليف الشرع، كالصلاة والصوم والزكاة والحج، ولكنها لا تصح منهم إذا فعلوها إلا بالدخول في الإسلام أولًا، فالإسلام شرط لصحة هذه التكاليف، كالمحدِث يخاطَب بالصلاة، وبما لا تصح الصلاة إلا به كالطهارة، من باب: «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»، وكلمة التوحيد أعلى شعب الإيمان، وهي شرط في صحة باقيها.

أما الأدلة على أن الكفار مسؤولون عن فروع الشريعة: فمنها قوله ـ تعالى ـ: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴾ [المدثر: ٤٢ – ٤٤]، وفيها التصريح بأن من الأسباب التي سلكتهم في سقر عدمَ إطعامِ المسكين، وهو من فروع الشريعة.

ومنها قوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ [الحاقة: ٣٠ – ٣٢]، ثم بيَّن السبب فقال ـ عزَّ مِن قائل ـ: ﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ [الحاقة: ٣٣، ٣٤].

ومنها قوله ـ سبحانه ـ: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ إلى قوله: ﴿ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴾ [الفرقان: ٦٨ – ٦٩].

لأن الآية نص في مضاعفة العذاب في حق مَن جمع بين المحظورات المذكورة.

فـإن قيـل: كيف يكـون الكفـار مخاطبين بفروع الإسـلام في حيـن أنهم لا يُكَلَّفون بقضائها بعد إسلامهم؟

فالجـواب: مـا قاله رسـول الله ـ صلـى الله عليه وسـلم ـ: «**الإسـلام يَـجُبُّ** ـ وفـي رواية: **يهدم** ـ **ما كان قبله**»[1]، ومعنـى يـَجُبُّ: يقطع، «**ما كان قبله**» من كفرٍ وعصيان، وما يترتب عليهما من حقوق الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

أمـا حقوق عبـاده فلا تسـقط إجماعًا، فمجرد الإسـلام مكفِّر للسـوابق من الكفر والخطايا، فماذا عن حسنات الكافر السابقة؟

---

(١) رواه مسـلم رقم [١١٢]، وقد أجمع العلماء على أن توبة غير المسـلم بأن يُسلِم مقطوع بقبولها إذا وقعت قبل الغرغرة، وقبل طلوع الشـمس من مغربها، والحكمة من كونها مقبولة على سـبيل القطع أن يفتح لهم باب الإيمان لِيَلجوه، ويُساقوا إليه.

حسنات الكافر موقوفة

صح عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «**إذا أسلم العبدُ فحسُن إسلامُه؛ كتب الله له كلَّ حسنة كان أسلفها، ومُحِيت عنه كل سيئة كان أزلفها، ثم كان بعد ذلك القِصاصُ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسيئة بمثلها إلا أن يتجاوز الله - عزَّ وجلَّ - عنها**»[1].

وهذا الحديث الشريف يدل على أن حسناتِ الكافر موقوفة: إن أسلم تُقبل، وتنفعه في الآخرة، وإن بقي كافرًا حتى مات تحبط، وعلى هذا الأساس نفهم أن قوله - عزَّ وجلَّ -: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾ [النور: ٣٩]، وقوله - سبحانه -: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقوله - جلَّ وعلا -: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وقوله - سبحانه -: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ [الأحزاب: ١٩]، ونحوها إنما يقصد بها من مات على الكفر، وخُتم له به - والعياذ بالله - فإن الأعمال بالخواتيم، وقد قال الله - تعالى -: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ [محمد: ٣٤]، وقال - عزَّ وجلَّ -: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٩١]، وقال - سبحانه -: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ

(١) رواه النسائي - «صحيح سنن النسائي» رقم [٤٦٢٥]، وانظر: «الصحيحة» رقم [٢٤٧].

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [البقرة: ١٦١، ١٦٢].

كذلك ينبغي أن نفهم قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**الإسلام يَجُبُّ ما كان قبله**» على أن الإسلام يهدم ما قبله من الخطايا، فهو وارد في السيئات السابقة، وأما الحسنات السابقة فقد دلت عدة أحاديث على نفس ما دل عليه حديث أبي سعيد السابق من أن الكافر إذا أسلم نفعه عمله الصالح في الجاهلية، بخلاف ما إذا مات على كفره، فإنه لا ينفعه، بل يحبط بكفره[١]؛ منها: ما رواه حكيم بن حزام ـ رضي الله عنه ـ أنه قال لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «أيْ رسولَ الله! أرأيتَ أمورًا كنت أتحنث[٢] بها في الجاهلية من صدقة أو عَتاقة أو صلة رحم، أفيها أجر؟» فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**أسلمتَ على ما أسلفتَ من خير**»[٣].

وعن أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق ـ رضي الله عنهما ـ قالت: قلت: «يا رسول الله! ابن جُدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المساكين، فهل ذلك نافعه؟» فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**لا يا عائشة، إنه لم يقل يومًا، ربِّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين**»[٤].

وقد دلت بعض الأحاديث على أن هناك أعمالًا ينتفع المؤمن بها حتى وهو بين أطباق الثرى منها:

---

(١) ولذلك قيل: «سيئة المؤحِّد أفضل من حسنة المشرك، وسيئة المسلم تغفر، وحسنة الكافر لا تُقبل».

(٢) «**أتحنث**»: التحنث: التعبد، يقال: تحنَّث فلان، إذا فعل فعلًا يخرج به من الحِنث، وهو الذنب والإثم.

(٣) رواه البخاري رقم [١٤٣٦] (٤/ ٢٦٤ - طيبة)، ومسلم رقم [١٢٣].

(٤) رواه مسلم رقم [٢١٤]، وانظر: «موسوعة المسلم في التوبة» للدكتور منير البياتي (٢/ ١٣٥٠-١٣٥٤).

ما رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقةٍ جارية، أو علمٍ يُنتفع به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له**»[(١)].

وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**إن مما يلحق المؤمنَ من عمله وحسناته بعد موته، علمًا عَلَّمه ونشره، وولدًا صالحًا تركه، ومصحفًا ورَّثه، أو مسجدًا بناه، أو بيتًا لابن السبيل بناه، أو نهرًا أجراه، أو صدقةً أخرجها من ماله في صحته وحياته يلحقه من بعد موته**»[(٢)].

أما من مات على الكفر فإن شؤم كفره يحول دون وصول ثواب أي عمل له، فعن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ: «أن العاص بن وائل السهمي أوصى أن يُعْتَقَ عنه مائةُ رقبة، فأعتق ابنُه هشام خمسين رقبة، وأراد ابنه عمرو أن يُعتِق عنه الخمسين الباقية، قال: حتى أسأل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فأتى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فقال: يا رسول الله! إن أبي أوصى أن يُعْتَقَ عنه مائة رقبة، وإن هشامًا أعتق عنه خمسين، وبقيت عليه خمسون، أفأعتق عنه؟ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**إنه لو كان مسلمًا فأعتقتم عنه، أو تصدقتم عنه، أو حججتم عنه، بَلَغَهُ ذلك**»، وفي رواية للإمام أحمد: «**فلو كان أقر بالتوحيد فَصُمْتَ وتصدقتَ عنه، نفعه ذلك**»[(٣)].

ودل القرآن العظيم والسُّنَّة المشرفة على أن اليهودي أو النصراني إذا أسلم فإنه يُؤتَى أجره مرتين، أما القرآن فقوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ

---

(١) رواه مسلم رقم [١٦٣١]، وأبو داود [٢٨٨٠]، والترمذي [١٣٧٦]، والنسائي (٦/ ٢٥١).

(٢) أخرجه ابن ماجة (١/ ١٠٦)، وابن خزيمة في «صحيحه» [٢٤٩٠]، والبيهقي في «الشعب» [٣٤٤٨]، وحسَّنه الألباني في «أحكام الجنائز»، ص (٢٢٤).

(٣) أخرجه أبو داود [٢٨٨٣]، وحسنه عبد القادر الأرناؤوط في «تحقيق جامع الأصول» (١١/ ٦٣٩).

هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ ﴾ [القصص: ٥٢ - ٥٤].

وأما السُّنَّة الشريفة:

فعن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه -: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «**ثلاثة يُؤْتَوْنَ أجرَهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه، وأدرك النبي - صلى الله عليه وسلم - فآمن به، واتبعه، وصَدَّقه فله أجران**»[(١)]... الحديث.

وفيه بيان سبب مضاعفة أجره: فأجرٌ لإيمانه بنبيه موسى أو عيسى - عليهما السلام -، وأجر لإيمانه بمحمد - صلى الله عليه وسلم -، وكذا حكم الكتابية، لأن «**النساء شقائق الرجال**»[(٢)]، كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم -، وهذا مُطَّرِدٌ في معظم أحكام الشريعة، حيث يدخلن مع الرجال تبعًا إلا ما خصه الدليل.

وعن أبي أمامة الباهلي - رضي الله عنه - قال: «كنت تحت راحلة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في حجة الوداع، فقال قولًا حسنًا، فقال فيما قال: «**من أسلم من أهل الكتاب فله أجره مرتين، وله مثل الذي لنا، وعليه مثل الذي علينا، ومن أسلم من المشركين فله أجره، وله مثل الذي لنا، وعليه مثل الذي علينا**»[(٣)].

---

(١) رواه البخاري في «الجهاد» رقم [٣٠١١] (٧/ ٢٦٤)، ورقم [٢٥٤٤] (٦/ ٣٧٦)، ومسلم رقم [١٥٤].

(٢) رواه الإمام أحمد (٦/ ٢٥٦)، وأبو داود رقم [٢٣٦]، والترمذي رقم [١١٣] وصححه الشيخان: أحمد شاكر في «تحقيق الترمذي» (١/ ١٩٠)، والألباني في «صحيح الجامع» (٢/ ٢٨١).

(٣) رواه الإمام أحمد (٥/ ٢٥٩)، والطبراني في «الكبير» (٨/ ٢٢٤) [٧٧٨٦]، وحسنه الألباني في «الصحيحة» رقم [٣٠٤].

وفي هذا الحديث إبطال للحديث الشائع: أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال في أهل الذمة: «**لهم ما لنا، وعليهم ما علينا**»، وهذا مما لا أصل له عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، بل ذلك الحديث الحسن صريح في أنه إنما قال ذلك فيمن أسلم من المشركين وأهل الكتاب(1).

ومجمل القول:

١ ـ أن للعمل الصالح شروطًا ثلاثة هي: موافقة هدي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وإخلاص النية لله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وأن يكون فاعله مسلمًا.

٢ ـ أن غير المسلم إذا أطاع الله بإخلاص لا ينفعه ذلك في الآخرة، بل عمله حابط.

٣ ـ أن الله ـ سبحانه ـ يجازي الكافر على أعماله الحسنة في الدنيا فقط إذا شاء ـ عزَّ وجلَّ ـ.

٤ ـ أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة لكنها لا تُقبل منهم إذا عملوها إلا بعد أن يُسلِموا.

٥ ـ أن الإسلام يمحو عمن أسلم ما اقترفه في الشرك من كفر ومعاصٍ إلا حقوقَ العباد.

٦ ـ أن حسناتِ الكافر موقوفة:

ـ فإن أسلم فإنها لا تحبط، بل تُقبل منه، ويُجازَى عليها، وتنفعه في الآخرة.

ـ وإن مات على الكفر ـ عياذًا بالله من ذلك ـ تحبط، ولا تنفعه في الآخرة.

٧ ـ أن الكتابي إذا أسلم يُضاعَف له أجره، لإيمانه بنبيه ـ عليه السلام ـ وبرسول الله محمدٍ ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

---

(١) انظر: «السلسلة الضعيفة» للألباني رقم [١١٠٣] (٣/ ٢٢٢-٢٢٥)، و«السلسلة الصحيحة» له أيضًا رقم [٣٠٣].

لا إله إلا الله

(٧) روح الإيمان وسر حياته

الإيمان حياة، والكفر موت، و«لا إله إلا الله» هي روح الإيمان، وسر حياته.

والحياة الحقيقية لا تكون إلا بإخلاص الدين لله، ومتابعة الوحي المنزل على رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾[١] [الأنفال:٢٤]، فهذه الآية الكريمة تدل على أن «الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فَمَن لم تحصل له هذه الاستجابة؛ فلا حياة له ـ وإن كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات ـ فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله والرسول ظاهرًا وباطنًا، فهؤلاء هم الأحياء ـ وإن ماتوا ـ، وغيرهم أموات ـ وإن كانوا أحياء الأبدان ـ، ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فإن كل ما دعا إليه ففيه الحياة، فمن فاته جزء منه؛ فاته جزء من الحياة، وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ»[٢].

وأعظم أمر دعا إليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل جميع الرسل ـ هو توحيد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وإخلاص الدين له ـ تبارك وتعالى ـ، وأعظم نهي حذروا

---

(١) قال السدي في تفسيرها: «ففي الإسلام إحياؤهم بعد موتهم بالكفر» اهـ. من «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٣٧).

(٢) «الفوائد» لابن القيم ص (٨٧).

منه ونهوا عنه هو الإشراك بالله ـ تعالى ـ، قال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦]، وهذا معنى «لا إله إلا الله».

ولقد سمى الله ـ تعالى ـ الوحيَ رُوحًا في قوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ [النحل:٢].

قال الزجاج: «الروح: ما تحيا به القلوب من هداية الله ـ تعالى ـ لها».

قال القاضي أبو محمد عبد الحق بن عطية ـ رحمه الله ـ:

«وهذا قول حسن، وكأن اللفظة على جهة التشبيه بالمقايسة، أي: إن هذا الذي أُمِر الأنبياء أن يُنذروا به الناس من الدعاء إلى التوحيد هو بالمقايسة إلى الأوامر التي هي في الأفعال والعبادات كالروح للجسد، ألا ترى قوله ـ تعالى ـ: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا ﴾ [الأنعام:١٢٢]؟»(١).

فـ«لا إله إلا الله» للإيمان كالروح للجسد، إذا فارقته فارق الحياة، وصار جثة جامدة، بخلاف ما عداها من الأعمال فإنه ـ مع بقاء الروح تبقى الحياة، ولو تلفت بعض الأعضاء، وتعطلت بعض الجوارح.

وقال سفيان بن عيينة: «يقال: لا إله إلا الله في الآخرة بمنزلة الماء في الدنيا، لا يحيى شيء في الدنيا إلا على الماء، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء:٣٠].

فلا إله إلا الله بمنزلة الماء في الدنيا: من لم تكن معه لا إله إلا الله فهو ميت، ومن كانت معه لا إله إلا الله فهو حي»(٢).

---

(١) «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٢٧).

(٢) «حلية الأولياء» (٧/ ٢٧٢).

وقال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ [الشورى:٥٢]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾ [غافر:١٥]، فالروح في هذه الآيات يراد بها ـ على الأظهر ـ الوحي[1]، الذي من جملته القرآن الكريم، لأن الوحي به حياة الأرواح، كما أن الغذاء به حياة الأجسام، والقرآن يُحيي القلوب التي أماتها الجهل.

قال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[الأنعام:١٢٢].

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «أومن كان كافرًا فهديناه»، فالقرآن يُحيي القلوبَ التي أماتها الجهلُ[2].

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴾ [النمل:٨٠] أي: لا تُسمع الكفار، الذين أمات الله قلوبهم، وكتب عليهم الشقاء في سابق علمه إسماعَ هدىً وانتفاع، ويدل لهذا قرينة قوله ـ تعالى ـ بعده

(١) ومما يدل على أن المراد بالروح الوحي، إتيانه بعد قوله ـ تعالى ـ: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ ﴾، بقوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ ﴾، لأن الإنذار إنما يكون بالوحي، بدليل قوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ﴾ [الأنبياء:٤٥]، وكذلك إتيانه بعد قوله: ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ بقوله: ﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾»اهـ. من «أضواء البيان» (٣/ ١٩١).

(٢) وقد قال بعض شعراء البصرة في هذا المعنى:

وفي الجهل قبل الموت موتٌ لأهله ... فأجسامهم قبل القبور قبورُ
وإن امرءًا لم يَحْيَ بالعلم مَيِّتٌ ... فليس له حتى النشورِ نشورُ

مباشرة: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾[1] [النمل:٨١] فمقابلته ـ عزَّ وجلَّ ـ الإسماعَ المنفيَّ في الآية عن الموتى بالإسماع المثبَتِ فيها لمن يؤمن بآياته، فهو مسلم، دليل واضح على أن المراد بالموت في الآية: موتُ الكفر والشقاء، لا موتُ مفارقة الروح للبدن، ولو كان المراد بالموت في قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ مفارقة الروح للبدن، لما قابل قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ بقوله: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بل لقابله بما يناسبه، كأن يقال: إن تسمع إلا من لم يمت، أي: يفارق روحُه بدنَه.

وإذا علمت أن هذه القرينة القرآنية دلت على أن المراد بالموتى هنا الأشقياء الذين لا يسمعون الحق سماعَ هدى وقبول:

---

(١) وهذه الآية الكريمة أنزلها الله ـ تعالى ـ تسلية ومواساة لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحزنه عدم إيمان الكفار، قال ـ تعالى ـ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ الآية [الأنعام:٣٣]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر:٨]، وقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣]، فأنزل الله ـ تعالى ـ آياتٍ كثيرة تسليةً له ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين له فيها: أنه لا قدرة له على هدى من أضله الله، فإن الهدى والإضلال بيده ـ جل وعلا ـ وحده، وأوضح له أنه نذير، وقد أتى بما عليه فأنذرهم على أكمل الوجوه وأبلغها، وأن هداهم وإضلالهم بيد مَن خلقهم ـ سبحانه ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ [النحل:٣٧]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦]، وقال ـ جل وعلا ـ: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ الآية [المائدة:٤١]. فمن الآيات النازلة تسلية له ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قوله هنا: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: لا تُسمع من أضله الله إسماعَ هدى وقبول، ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يعني: ما تُسمع إسماعَ هدى وقبول، إلا من هديناهم للإيمان بآياتنا فهم مسلمون، ولو كان معنى الآية وما شابهها ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي الذين فارقت أرواحُهم أبدانَهم لما كان في ذلك تسليةٌ له ـ صلى الله عليه وسلم ـ، كما ترى. انتهى من «أضواء البيان» (٦/ ٤١٨، ٤١٩) بتصرف.

فاعلم أن استقراء القرآن العظيم يدل على هذا المعنى كقوله - تعالى -: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام:٣٦]، وقد أجمع من يُعتد به من أهل العلم أن المراد بالموتى في قوله: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾: الكفار، ويدل له مقابلة الموتى في قوله: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ بالذين يسمعون في قوله ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾، ويوضح ذلك قوله - تعالى - قبله: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ أي فافعل، ثم قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام:٣٥، ٣٦] الآية، وهذا واضح فيما ذكرنا، ولو كان يُراد بالموتى مَن فارقَتْ أرواحُهم أبدانهم لقابل الموتى بما يناسبهم، كأن يقال: إنما يستجيب الأحياء: أي الذين لم تفارق أرواحهم أبدانهم. وكقوله - تعالى -: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٢٢].

فقوله - تعالى - في هذه الآية الكريمة: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا﴾: أي كافرًا، ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾: أي بالإيمان والهدى. وهذا لا نزاع فيه، وفيه إطلاق الموت، وإرادة الكفر بلا خلاف. وكقوله: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يس:٧٠].

وكقوله - تعالى -: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطر:٢٢] أي لا يستوي المؤمنون والكافرون.

وقال الله ـ تعالى ـ في سورة فاطر: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ [فاطر:٢٢]، والمراد بقوله ـ تعالى ـ ﴿ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ هو نفس المراد في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [النمل:٨٠]، لأن المراد بالموتى ومَن في القبور واحد، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ [الحج:٧٠] أي: يبعث جميع الموتى: من قُبِر منهم، ومن لم يُقبر(١).

(١) انظر: «أضواء البيان» (٦/ ٤١٦-٤١٩)، وانظر أيضًا: «مفهوم الحياة في القرآن والحديث» وهي رسالة دكتوراة للدكتور/ محمد الأحمدي، طبعة دار السلام ـ مصر ـ (١٤٣٢هـ - ٢٠١١م).

لا إله إلا الله

(٨) تجديد الإيمان

عـن عبـد الله بن عمرو ٍ ـ رضـي الله عنهما ـ أن رسـول الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ قال: «**إن الإيمان لَيَخْلَقُ**[١] **في جَوْفِ أحدِكم**[٢] **كما يَخلَقُ الثوبُ، فاسـألوا الله ـ تعالى ـ أن يُجَدِّدَ الإيمانَ في قلوبكم**»[٣]. فشبَّه ـ صلى الله عليه وسلم ـ الإيمان بالشيء الذي لا يستمر على هيئته، والعبد يتكلم بكلمة الإيمان، ثم يدنِّسها بسوء أفعاله، فإذا عاد واعتذر؛ فقد جدَّد ما أخلق، وطهَّر ما دنَّس.

قوله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ: «**فاسـألوا الله ـ تعالى ـ أن يجدد الإيمان في قلوبكم**» حتى لا يكون لقلوبكم وجهةٌ لغيره، ولا رغبة لسـواه، ولهذا قال معاذ ـ رضـي الله عنـه ـ لبعـض صحبـه: «اجلس بنا نؤمـن»، أي نذكره ذكـرًا يملأ قلوبنا، وكان الصديق ـ رضي الله عنه ـ يقول: «كان كذا، لا إله إلا الله، فقلت: كـذا، لا إله إلا الله»، فـلا يتكلـم بكلمـة إلا ختمهـا بـه[٤].

---

(١) أي: يـكاد أن يبلـى، وإخلاق الثـوب: تقطيعه، يقال: خَلُـقَ الثوبُ، وأَخْلَقَ، وفـي الحديث: أن النبي ـ صلى الله عليه وسـلم ـ كسـا أمَّ خالدٍ خميصة، فألبسـها إياها بيده، وقال: «**أبلي وأخلقي**» مرتيـن، رواه البخـاري (١/ ٢٥٦)، ومعناه: الدعاء لها بطول العمر حتـى تُبلي الثوبَ، وتُخْلِقَه، وقد عاشت طويلًا ـ رضي الله عنها ـ حتى تغير لون قميصها إلى الاسوداد.

(٢) في جوف أحدكم أيها المؤمنون.

(٣) أخرجـه الحاكـم (١/ ٤) وقـال: «رواتـه مصريـون ثقات»، ووافقـه الذهبي، وقـال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٥٢): «رواه الطبراني في (الكبير)، وإسناده حسن»اهـ.

(٤) «فيض القدير» للمناوي (٢/ ٣٢٣، ٣٢٤).

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**أكثروا من شهادة أن لا إله إلا الله**[١]، **قبل أن يُحال بينكم وبينها**[٢]، **ولقِّنوها موتاكم**[٣]»[٤].

ويُروى عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لأصحابه: «**جَدِّدوا إيمانكم**»، قيل: يا رسول الله، وكيف نجدد إيماننا؟ قال: «**أكثروا من قول: لا إله إلا الله**»[٥].

فالمداومة على قول «لا إله إلا الله» تجدد الإيمان في القلب، وتملؤه نورًا، وتزيده يقينًا.

---

(١) أي: أكثروا النطق بها على مطابقة القلب.

(٢) بالموت، فلا تستطيعون الإتيان بها، وما للعمر إذا ذهب مسترجع، ولا للوقت إذا ضاق مستدرك.

(٣) الخطاب لمن حضر المحتضَر، رجاء أن يقولها فيفلح، والمراد بموتاكم: من حضره الموت، لأنه لا يزال في دار التكليف، بخلاف من مات فإنه خرج من دار التكليف إلى دار الجزاء. قال المناوي ـ رحمه الله ـ: «فيندب تلقينُه: لا إله إلا الله، ولا يلقن: محمد رسول الله، خلافًا لجمع»اهـ. من «فيض القدير» (٢/ ٨٩).

(٤) عزاه الألباني إلى أبي يعلى في «مسنده» (٤/ ١٤٦٠)، وابن عدي في «الكامل»، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٣/ ٣٨)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٧/ ٢٠٧/ ٢)، وحسَّنه في «الصحيحة» رقم [٤٦٨].

(٥) رواه الإمام أحمد (٢/ ٣٥٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٥٧)، وعبد بن حميد [١٤٢٤]، والبزار [٦٦٤ ـ كشف الأستار]، والحاكم (٤/ ٢٥٦)، وقال: «صحيح»، واعترضه الذهبي بأن فيه صدقةَ بنَ موسى، وقد ضعفه ابن معين، وأبو داود، والنسائي، وغيرهم، وقال أبو حاتم الرازي: «يُكتب حديثه، ولا يحتج به، ليس بالقوي»اهـ. ومع ذلك قال الهيثمي: «إن سند أحمد جيد»، وقال في موضع آخر: «إسناده ثقات»اهـ. من «فيض القدير» (٣/ ٣٤٥)، والحديث رمز له السيوطي بالصحة، وقال الشيخ أحمد شاكر في «تحقيق المسند»: «إسناده حسن»اهـ. رقم [٨٦٩٥] (١٦/ ٢٨٩).

وفي الحديث دلالة على أن هذه الكلمة الشريفة لـمَّا كانت محصِّلةً للإسلام ابتداءً؛ تكون مُجَدِّدةً له، ومحصِّلةً لمثل الثواب السابق، وكلما أكثر من ذكرها؛ ازداد قوةً في الإيمان، وكثرةً في الثواب، وفضلُ الله واسع[1].

كما أن «لا إلٰه إلا الله» تعالج الجرح الذي يخدش جناب التوحيد:

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**من حلف منكم فقال في حَلِفه[2]: باللات والعزى، فليقل[3]: لا إلٰه إلا الله**»[4].

قال محيي السُّنة البغويُّ ـ رحمه الله ـ: «فيه دليل على أنه لا كفارة على من حلف بغير الإسلام، بل يأثم به، ويلزمه التوبة، لأنه جعل عقوبته في دينه، ولم يوجب في ماله شيئًا، وإنما أمره بكلمة التوحيد، لأن اليمين إنما تكون بالمعبود، فإذا حلف باللات والعزى، فقد ضاهى الكفار في ذلك، فأُمِر بأن يتداركه بكلمة التوحيد»[5].

(١) «الفتح الرباني» للساعاتي (١٤/ ٢١٤).

(٢) أي: يمينه، لما تعوَّده من حَلِف أهل الجاهلية.

(٣) أي: متداركًا لدينه: «لا إلٰه إلا الله»، لأن الحلف إنما هو بالله ـ تعالى ـ فإذا حلف باللات والعزى أو بأحدهما، أو بغيرها من الأصنام، فقد ساوى الكفار في هذا الحلف، وإن لم يقصد مساواتهم، فأمَرَه الشارع أن يتدارك ذلك بكلمة التوحيد، قال ابن العربي ـ رحمه الله ـ: «من حلف بهما جادًّا فهو كافر، ومن قال جاهلًا أو ذاهلًا؛ يقول كلمة التوحيد تكفر عنه ذلك، وترد قلبه من السهو إلى الذكر، ولسانه إلى الحق، وتنفي عنه ما جرى به من اللغو» اهـ. نقله عنه في «فتح المنعم» (٣/ ١٦٧).

(٤) رواه البخاري (١١/ ٤٦٧) رقم [٦١٠٧]، ومسلم [١٦٤٧] (١١/ ٥٦٨-نووي)، وغيرهما.

(٥) «شرح السُّنة» (١٠/ ١٠).

(٩) زكاة النفوس وطهارة القلوب

نجاسة الثوب والبدن والمكان يطهرها الماء، أما من تنجست روحه بالشرك، فإنه لا يقوى على تطهيرها منه إلا شهادةُ أن لا إله إلا الله، وبدون هذه الشهادة لا يمكن إزالة هذه النجاسة مهما عمل من الأعمال الصالحة.

ولأنه ليس في الوجود نجاسة أشد خبثًا من الشرك قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان:١٣].

ذكر الدليل على نجاسة المشركين

قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في الكافرين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [المائدة:٤١].

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ ﴾ [التوبة: ١٢٥].

وقد صرح ـ سبحانه ـ بنجاسة الكفار في قوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٌ [(١)] ﴾.

---

(١) **النَّجَس**: مصدر يستوي فيه المذكر والمؤنث، والمفرد والمثنى والجمع، أو هو مجاز عن خبث الباطن، وفساد العقيدة.

قال الراغب الأصفهاني: «النجاسة: القذارة، وذلك ضربان: ضرب يُدرَك بالحاسة، وضرب يدرك بالبصيرة، والثاني وصف الله ـ تعالى ـ به المشركين، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ [التوبة:٢٨]» اهـ. من «المفردات» ص (٧٩١).

قال العلامة الطاهر بن عاشور ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسيرها: «و(نَجَسٌ) صفة مُشبِّهة، اسم للشيء الذي النجاسةُ صفةٌ ملازمة له، وقد أُنيط وصفُ النجاسة بهم بصفة الإشراك، فعلمنا أنه نجاسة معنوية نفسانية، وليست نجاسة ذاتية.

والنجاسة المعنوية: هي اعتبارُ صاحبِ وصفٍ من الأوصافِ مُحقَّرًا متجنَّبًا من الناس، فلا يكون أهلًا لفضل ما دام متلبسًا بالصفة التي جعلته كذلك، فالمشرك نَجِس لأجل عقيدة إشراكه، وقد يكون جسدُه نظيفًا مطيَّبًا لا يُستقذَر، وقد يكون مع ذلك مستقذَرَ الجسدِ ملطخًا بالنجاسات، لأن دينه لا يطلب منه التطهر، ولكن تنظفهم يختلف باختلاف عوائدهم وبيئتهم.

والمقصود من هذا الوصف لهم في الإسلام تحقيرهم وتبعيدهم عن مجامع الخير، ولا شك أن خباثة الاعتقاد أدنى بصاحبها إلى التحقير من قذارة الذات، ولذلك أُوجِب الغسلُ على المشرك إذا أسلم[1] انخلاعًا عن تلك القذارة المعنوية بالطهارة الحسية لإزالة خباثة نفسه، وإن طهارة الحدث لقريب من هذا.

---

(١) اختلف العلماء في إسلام الكافر الأصلي أو المرتد: هل يوجب الغسل؟ فقيل: يجب عليه الغسل مطلقًا، وقيل: لا يجب الغسل مطلقًا، وقيل: يستحب مطلقًا؛ وُجد منه ما يوجب الغسل أو لم يوجد، وقيل: يستحب الغسل إلا أن يُوجد منه ما يوجب الغسل حال كفره، فإنه يجب عليه الغسل، وتفصيل المسألة في المطولات، انظر: «بدائع الصنائع» (١/ ٩٠)، و«شرح فتح القدير» (١/ ٦٤)، و«حاشية الدسوقي» (١/ ١٣٠)، و«مواهب الجليل» (١/ ٣١١)، و«الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٨/ ١٠٣)، و«المجموع شرح المهذب» (٢/ ١٧٣)، و«الكافي» (١/ ٥٧)، و«الإنصاف» (١/ ٢٣٦)، و«زاد المعاد» (٣/ ٦٢٧).

تنبيه خطير:

قال الإمام النووي ـ رحمه الله تعالى ـ:

(إذا أراد الكافر الإسلام فليبادر به ولا يؤخره للاغتسال، بل تجب المبادرة بالإسلام، ويحرم تحريمًا شديدًا تأخيُره للاغتسال وغيره، وكذا إذا استشار مسلمًا في ذلك حرم على المستشار تحريمًا غليظًا أن يقول له: «أخِّرْه إلى الاغتسال»، بل يلزمه أن يحُثَّه على المبادرة بالإسلام.

هذا هو الحق والصواب، وبه قال الجمهور.

وحكى الغزالي ـ رحمه الله ـ في باب الجمعة وجهًا أنه يقدم الغُسلَ على الإسلام ليُسْلِمَ مغتسلًا.

قال: وهو بعيد. وهذا الوجه غلط ظاهر لا شك في بطلانه، وخطأ فاحش، بل هو من الفواحش =

= المنكرات، وكيف يجوز البقاء على أعظم المعاصي وأفحش الكبائر ورأس الموبقات وأقبح المهلكات لتحصيل غُسْلٍ لا يُحْسَبُ عبادةً لعدم أهلية فاعله.

وقد قال صاحب التتمة في باب الردة: «لو رضي مسلم بكفر كافر، بأن طلب كافر منه أن يلقنه الإسلام فلم يفعل، أو أشار عليه بألا يسلم، أو أَخَّر عرضَ الإسلام عليه بلا عذر، صار مرتدًّا في جميع ذلك؛ لأنه اختار الكفر على الإسلام».

وهذا الذي قاله إفراط أيضًا، بل الصواب أن يقال: ارتكب معصية عظيمة) اهـ.

من «المجموع شرح المهذب» (٣/ ١٢١) طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت.

وقال السندي ـ رحمه الله ـ في شرحه للحديث الذي رواه النسائي عن قيس بن عاصم ـ رضي الله عنه ـ أنه «أسلم، فأمره النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يغتسل بماءٍ وسِدْرٍ»:

«(فأمره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم) أي: بعدما أسلم كما هو الظاهر، وأما حَمْلُ (أسلم) على أنه أراد الإسلام، فأمره النبي ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ قبل أن يُسلم ليوافق الحديث الآتي فبعيد، فالظاهر أنه أمر بالاغتسال إزالة لوسَخ الكفر، ودفعًا لاحتمال الجنابة إذ الكافر لا يخلو عن ذلك» اهـ. من «حاشيته على سنن النسائي» (١/ ١٠٩)، ثم علق السندي على حديث ثمامة وفيه أنه اغتسل ثم دخل المسجد وشهد الشهادتين قائلًا: «فقدَّم الاغتسال على الإسلام، وهو ـ وإن كان فيه تعظيم الإسلام ـ لكن تقديمه على الاغتسال أولى، والله ـ تعالى ـ أعلم»اهـ. من حاشيته على النسائي (١/ ١١٠).

وقال في «كشاف القناع»: «وقت وجوب الغسل: إذا أسلم، أي بعد النطق بالشهادتين» اهـ. (١/ ١٤٥).

وقد أغرب بعض المالكية حيث صَرَّح بصحة الغسل قبل النطق بالشهادة، إذا أجمع بقلبه على الإسلام، لأن إسلامه بقلبه إسلام حقيقي متى عزم على النطق من غير إباء، لأن النطق ليس ركنًا من الإيمان، ولا شرط صحة على الصحيح، كما في «حاشية الدسوقي على الشرح الكبير» (١/ ١٣٠، ١٣١).

ولذلك استنكره القرطبي ـ رحمه الله ـ قائلًا: «وقد أجاز ابن القاسم للكافر أن يغتسل قبل إظهاره للشهادة بلسانه، إذا اعتقد الإسلام بقلبه، وهو قول ضعيف في النظر، مخالف للأثر، وذلك أن أحدًا لا يكون بالنية مسلمًا دون القول، هذا قول جماعة أهل السُّنة في الإيمان: إنه قول باللسان، وتصديق بالقلب، ويزكو بالعمل، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾» اهـ. من «الجامع لأحكام القرآن» (٨/ ١٠٤). =

اعتبارهم نجسًا، فهو للمبالغة في اتصافهم بالنجاسة، حتى كأنهم لا وصف لهم إلا النَّجَسِيَّة»[1]اهـ.

وقال علامة الشام القاسمي ـ رحمه الله تعالى ـ: «﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ أي المطهَّرة بواطنهم بالإيمان ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ ﴾ أي: ذوو نجس، لأن معهم الشركَ الذي هو بمنزلة النجس، فهو مجاز عن خبث الباطن، وفساد العقيدة، مستعار لذلك، أو هو حقيقة، لأنهم لا يتطهرون، ولا يغتسلون، ولا يجتنبون النجاسات، فهي ملابسة لهم، أو جُعلوا كأنهم النجاسةُ بعينها، مبالغةً في وصفهم بها»[2]اهـ.

وقال العلامة الشيخ محمد رشيد رضا ـ رحمه الله تعالى ـ: «﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ ﴾، أي: ليس المشركون ـ كما تعلمون من حالهم ـ إلا أنجاسًا فاسدي الاعتقاد، يشركون بالله ما لا ينفع ولا يضر، فيعبدون الرجس من الأوثان والأصنام، ويدينون بالخرافات والأوهام، ولا يتنزهون عن النجاسات ولا الآثام، ويأكلون الميتة والدم من الأقذار الحسية، ويستحلون القمار والزنا من الأرجاس المعنوية. وقد تمكنت صفات النجس منهم حسًّا ومعنىً حتى كأنهم عينُه وحقيقته، فلا

= وقال النووي ـ رحمه الله ـ: «واتفق أهل السُّنة من المحدثين والفقهاء، والمتكلمين على أن المؤمن الذي يُحكم بأنه من أهل القبلة، ولا يخلد في النار، لا يكون إلا من اعتقد بقلبه دين الإسلام، اعتقادًا جازمًا خاليًا من الشكوك، ونطق مع ذلك بالشهادتين، فإن اقتصر على أحدهما لم يكن من أهل القبلة أصلًا، بل يخلد في النار، إلا أن يعجز عن النطق لخلل في لسانه»اهـ. من «شرح النووي لصحيح البخاري» ص (١١٣)، كما نقله عنه الغنيمان في «شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري» (١/ ٣٩).

(١) «التحرير والتنوير» (٦/ ١٥٩، ١٦٠).

(٢) «محاسن التأويل» (٨/ ٣١٠١).

تمكّنوهم بعد هذا العام أن يقربوا المسجد الحرام بدخول أرض الحرم، فضلًا عن دخول البيتِ نفسِه وطوافِهم عراةً فيه، وقيل: المراد بنجاستهم تلبسُهم بها دائمًا لعدم تعبدهم بالطهارة كالمسلمين، وقول الجمهور بأن المرادَ النجاسةُ المعنوية أظهر، والجمع بين القولين أولى لأنه أعم.

وأما القول بنجاسة أعيانهم؛ فهو لا معنى له في لغة القرآن إلا قذاراتها الذاتية ونتنها، وذوات المشركين كذوات سائر البشر بشهادة الحس، ومَن كابر شهادة الحس كابر دلالة النظر العقلي واللغوي بالأولى. فمن المعلوم القطعي لكل مطلع على السيرة النبوية وتاريخ ظهور الإسلام بالضرورة أن المسلمين كانوا يعاشرون المشركين ويخالطونهم ولاسيما بعد صلح الحديبية إذ امتنع اضطهاد المشركين وتعذيبهم لمن لا عصبية له ولا جوار يمنعه منهم، وكانت رسلهم ووفودهم تَرِدُ على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويدخلون مسجده، وكذلك أهل الكتاب كنصارى نجران واليهود، ولم يعامل أحدًا منهم معاملة الأنجاس، ولم يأمر بغسل شيء مما أصابته أبدانهم[(١)]، بل رُوي عنه ما يدل على خلاف ذلك مما احتج به الجمهور على طهارة أبدانهم من الأحاديث الصحيحة، ومنها أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ توضأ من مَزادة[(٢)] مشركة، وأكل من طعام اليهود، وربط ثُمامة بنَ أُثال ـ وهو مشرك ـ بسارية من سواري المسجد، ومنها إطعامه هو وأصحابه للوفد من الكفار، ولم يأمر ـ صلى الله عليه وسلم ـ بغسل الأواني التي كانوا يأكلون ويشربون فيها، وروى أحمد وأبو داود من حديث جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: «كنا نغزو مع

(١) واعتبر ذلك أيضًا بأن الشريعة الشريفة أباحت للمسلم أن يتزوج كتابية، ولا يسلم من عَرَقِها، والواجب عليه من الطهارة كما هو الواجب على من تزوج بالمسلمة.

(٢) **المَزادة**: وِعاء يُحمل فيه الماء في السفر، كالقِربة ونحوها.

رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنصيب من آنية المشركين وأسقيتهم، فنستمتع بها، ولا يعيب ذلك علينا»[(١)]اهـ[(٢)].

وقال الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ: «﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ يجسم التعبيرُ نجاسَة أرواحِهم فيجعلها ماهيتهم وكيانهم، فهم بكليتهم وبحقيقتهم نجس، يستقذره الحس، ويتطهر منه المتطهرون! وهو النجس المعنوي لا الحسي في الحقيقة، فأجسامهم ليست نجسة بذاتها، إنما هي طريقة التعبير القرآنية بالتجسيم»[(٣)]اهـ.

ونجاسة المشرك ملازمة له، لا تطهرها المصائب المكفرة ولا الحسنات الماحية، بعكس المسلم، فإنه إذا تدنس بشيء من المعاصي ـ دون الشرك ـ فإنه قد تمحوها موانعُ إنفاذ الوعيد وهي: التوبة، والاستغفار، والحسنات الماحية، ودعاء المؤمنين، وإهداء القربات، والشفاعة، والمصائب المكفرة، والعفو الإلهي[(٤)].

وقد نزَّه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ المؤمن عن أن يوصف بالنجاسة:

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنه لقيه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في طريق من طرق المدينة وهو جُنُب، فانسَلَّ فذهب فاغتسل، فتفقده النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما جاءه قال: **«أين كنتَ؟ يا أبا هريرة!»** قال:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد [١٥٠٥٣] (٢٣/ ٢٩٢)، وأبو داود [٣٨٣٨]، والبيهقي (١/ ٣٢)، (١٠/ ١١)، وقال محققو المسند: «إسناده قوي».

(٢) «التفسير المختصر المفيد للقرآن المجيد»، أو «مختصر تفسير المنار» للقاضي محمد أحمد كنعان (٣/ ٢٦٥).

(٣) «في ظلال القرآن» (٣/ ١٦١٨).

(٤) انظر تفصيلها في كتاب «موانع إنفاذ الوعيد» للدكتور عيسى السعدي ـ ط. دار ابن الجوزي ـ ١٤٢٦هـ.

يـا رسـول الله! لقيتَني وأنـا جُنُـب، فكرهـتُ أن أجالسَـك حتـى أغتسـلَ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**سبحان الله! إن المؤمن لا يَنْجَس**»[(١)].

وعـن حذيفـة ـ رضـي الله عنـه ـ؛ أن رسـول الله ـ صلـى الله عليه وسـلم ـ لقيـه وهو جنب، فحاد عنه فاغتسـل، ثم جاء فقال: كنت جُنُبـًا، قال: «**إن المسـلم لا ينجَس**»[(٢)]

قال النووي ـ رحمه الله ـ: «هذا الحديث أصل عظيم في طهارة المسلم حيًّا وميتًا»[(٣)] اهـ.

ـ ومما يدل على نجاسة المشركين وصفهم بأنهم (لا يؤتون الزكاة) وهي شهادة أن لا إله إلا الله، فقد قال ـ تعالى ـ: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت:٦، ٧] قـال ابن عباس ـ رضي الله عنهمـا ـ: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: «لا يشهدون أن لا إله إلا الله، وهي زكاة الأنفس»[(٤)].

وعن عكرمة قال: «لا يقولون: لا إله إلا الله»[(٥)].

وقال قتادة: «لا يُقرون بها، ولا يؤمنون بها»[(٦)].

وقال السدي: «لا يَدِينون بها، ولو زكوا وهم مشركون لم ينفعهم»[(٧)].

وقال معاوية بن قرة: «ليسوا من أهلها»[(٨)].

---

(١) رواه البخاري (١/ ٣٩٠-فتح)، ومسلم [٣٧١].

(٢) رواه مسلم [٣٧١].

(٣) «شرح النووي على صحيح مسلم» (٢/ ٣٠٢) طبعة دار أبي حيان ١٤١٥هـ.

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٥/ ٣٤٠)، وانظر: «تفسير الطبري» (٢٠/ ٣٧٩، ٣٨١).

(٥) «تفسير الطبري» (٢٤/ ٩٢)، وعزاه في «الدر المنثور» (١٣/ ٨٨) لعبد بن حميد والحكيم الترمذي.

(٦) «نفسه» (٢٤/ ٩٣)

(٧) «نفس المرجع» (٢٤/ ٩٣).

(٨) «تفسير ا لقرآن العظيم» (٤/ ٩٢).

وقـال الإمام المحقق ابن قيـم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ: «قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [فصلت:٦، ٧].

أي لا يأتـون ما تُزَكَّى به أنفسُـهم مـن التوحيد والإيمان، ولهذا فسـرها غيرُ واحـدٍ من السـلف بـأن قالـوا: ﴿ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ لا يقولـون: لا إله إلا الله، فعبادة الله وحده لا شريك له، وأن يكون الله أحبَّ إلى العبد من كل ما سواه، هو أعظم وصية جاءت بها الرسل، ودَعَوْا إليها الأمم».

وقال ـ رحمه الله تعالى ـ: «وقال أكثر المفسـرين مِن السـلف ومَن بعدهم: هي التوحيد: شهادة أن لا إله إلا الله، والإيمان الذي به يزكو القلب، فإنه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب وذلك طهارته وإثبات إلهيته ـ سبحانه ـ، وهو أصـل كل زكاة ونماء فإن التزكي ـ وإن كان أصله[1] النماء والزيادة والبركة ـ فإنه إنما يحصل بإزالة الشر. فلهذا صار التزكي ينتظم الأمرين جميعًا، فأصل ما تزكو بـه القلوب والأرواح: هـو التوحيد، والتزكية: جَعْلُ الشـيءِ زكيًّا إما في ذاته وإما في الاعتقاد والخبر عنه، كما يقال: عدَّلته وفسَّـقته، إذا جعلته كذلك في الخارج، وفي الاعتقاد والخبر»[2] اهـ.

ومـن الجهـة المقابلـة أثنـى الله ـ عـزَّ وجـلَّ ـ علـى عبـاده المؤمنين، فذكـر ضمـن خصائصهـم الشـريفة وصفاتهـم المنيفة: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ﴾ [المؤمنـون: ٤].

(١) قال الواحدي: إن أصل مادة «زكا»: الزيادة، والنماء، يقال: زكا الزرع يزكو زكاءً، وكل شيء ازداد فقـد زكا. ولما كان الـزرع لا ينمو إلا إذا خلص من الدغل، كانت لفظة «الزكاة» تدل على الطهارة أيضًا. وإذا وصف الأشخاص بالزكاة ـ بمعنى الصلاح ـ فذلك يرجع إلى زيادة الخير فيهم، يقال: زكَّى القاضي الشهود: إذا بيَّن زيادتهم في الخير ـ وانظر: «فقه الزكاة» للقرضاوي (١/ ٣٧).

(٢) «بدائع التفسير» (٤/ ٩٥، ٩٦).

قال الراغب الأصبهاني: «أي: يفعلون ما يفعلون من العبادة ليزكيهم الله، أو ليزكوا أنفسهم، والمعنيان واحد. وليس قوله: «للزكاة» مفعولًا لقوله: «فاعلون»، بل اللام فيه للعلة والقصد»اهـ[1].

وقال موسى ـ عليه السلام ـ مخاطبًا فرعون: ﴿ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ [النازعات:١٨، ١٩] أي: تتطهر من هذا الشرك بالتوحيد، قال عكرمة: «أي: إلى أن تقول: لا إله إلا الله». فالتوحيد هو الأصل في التزكية، بل لا يمكن أن تزكو النفس بأي عبادة من العبادات حتى تزكو بشهادة التوحيد أولًا. ولهذا كان أول واجب على المكلف أن يتبرأ من الشرك، ويكفر بالطاغوت، ويزكيَ قلبه ولسانه بشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله قبل أي عبادة أخرى. ولهذا لما أرسل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ معاذًا ـ رضي الله عنه ـ إلى اليمن قال: **«فليكن أولَ ما تدعوهم إليه شهادةُ أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، فإن هم أطاعوك لذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة»** الحديث[2].

ولقد قال الله ـ عزَّ من قائل ـ: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران:١٦٤]، وجاء في دعاء إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة:١٢٩].

---

(١) «المفردات» ص (٣٨١).

(٢) تقدم تخريجه ص (١٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «فجمع بين التزكية من الكفر والذنوب»اه[(١)].

وقال مقاتل بن حيان: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ [البقرة:١٥١]: «يطهركم من الذنوب»[(٢)]، هكذا قال في آية البقرة.

وقال في آية الجمعة: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [الجمعة:٢]: «يطهرهم من الذنوب والكفر»[(٣)].

وقال ابن جريج: «يُطهرهم من الشرك، ويُخَلِّصهم منه»[(٤)].

وقال السدي: «يأخذ زكاة أموالهم»[(٥)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ: «ففسروا الآية بما يَعُمُّ زكاة الأموال وغيرها من الأعمال، فقال: بالإخلاص والطاعة؛ وتزكيتهم من الذنوب والكفر أعظم مقصود الآية، والمشركون نجس، والصدقة من تمام التطهر والزكاة، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣][(٦)]اه.

وقال ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه:٧٤-٧٦].

---

(١) «قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات» ص (٣٦).

(٢) «تفسير الطبري» (١/ ٥٥٨).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٨/ ٩٢).

(٤) «نفسه» (١٨/ ٩٢).

(٥) «نفسه» (١٨/ ٩٢).

(٦) «قاعدة حسنة» ص (٣٧).

وقال ـ تعالى ـ في دعاء إبراهيم وإسماعيل: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ الآية [البقرة ١٢٨]، وقد بيَّن في سورة الجمعة أن تلك الأمة: العرب، وأن الرسول هو سيد الرسل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وذلك في قوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ﴾ [الجمعة: ٢، ٣]، لأن الأميين: العربُ بالإجماع، والرسول المذكور: نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالإجماع، ولم يُبعث رسول من ذرية إبراهيم وإسماعيل إلا نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحده، وثبت في الصحيح أنه هو الرسول الذي دعاه به إبراهيم[(١)]، ولا ينافي ذلك عمومُ رسالته إلى الناس كافة.

فجعل الله ـ تعالى ـ تزكية المؤمنين ضمن المهام الجسيمة بل الغايات العظيمة التي بَعَثَ من أجلها عبدَه ورسوله محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ لإنقاذ البشرية، وإخراجها من الظلمات إلى النور.

وجميع عقائد الإسلام وشرائعه وآدابه تؤدي إلى تزكية النفوس وتطييبها[(٢)]، وفي مقدمة ذلك كله تأتي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، يليها الصلاة، وشقيقتها الزكاة التي جاءت مقرونة بها في كتاب الله ـ تعالى ـ في سبعة وعشرين موضعًا.

قال الزمخشري: «فإن قلت: لم خص مِن بين أوصاف المشركين منعَ الزكاة مقرونًا بالكفر بالآخرة؟

---

(١) وفي حديث أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت: يا رسول الله! ما كان أولُ بدء أمرك؟ قال: «**دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى بي، ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام**» أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٢٦٢)، والطبراني [٧٧٢٩]، وقال الهيثمي في «المجمع»: «إسناد أحمد حسن» اهـ. (٨/ ٢٢٢).

(٢) انظر بيان ذلك في «الأصول العلمية للدعوة السلفية» ص (٢٦-٣٥).

قلت: لأن أحبَّ شيءٍ إلى الإنسان مالُه، وهو شقيقُ رُوحه، فإذا بذله في سبيل الله فذلك أقوى دليل على ثباته واستقامته وصدق نيته ونصوع طويته، ألا ترى إلى قوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية [البقرة:٢٦٥] أي: يثبتون أنفسهم ويَدُلُّون على ثباتها بإنفاق الأموال..»[١].

وقد جمع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين تزكية النفوس بالتوحيد، وبذلِ الزكاة عن طِيب نفس، ومراقبةِ الله ـ تعالى ـ في الحديث الذي رواه عبد الله بن معاوية الغاضري ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**ثلاث من فعلهن فقد طعِم طعم الإيمان: من عبد الله وحده، وأنه لا إله إلا الله، وأعطى زكاةَ ماله طيبةً بها نفسُه رافدةً عليه**[٢] **كلَّ عام، ولا يُعطي الهَرِمة، ولا الدَّرِنة**[٣]**، ولا المريضة، ولا الشَّرَط**[٤]: **اللئيمة**[٥]**، ولكن من وسط أموالكم، فإن الله لم يسألكم خيرَه، ولم يأمركم بشره**»[٦]، زاد البيهقي في (سننه): «**وزكى نفسه**»، فقال رجل: وما تزكية النفس؟ فقال: «**أن يعلم أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ معه حيث كان**»[٧].

---

(١) «الكشاف» (٣/ ٣٨٣).

(٢) **رافدة**: فاعلة من الرِّفْد وهو الإعانة، يقال: رفدته أرفده إذا أعنته، أي تعينه نفسه على أداء الزكاة.

(٣) **الدرنة**: الجرباء، وأصل الدرن: الوسَخ.

(٤) **الشَّرَط**: قال أبو عبيد: هي صغار المال وشراره، وقال الخطابي: والشرط: رُذالة المال.

(٥) **اللئيمة**: البخيلة باللبن، ويقال: لئيم: للشحيح، والدني النفس، والمهين.

(٦) أخرجه أبو داود [١٥٨٢]، والطبراني في «الصغير» ص (١١٥)، والبيهقي في «السنن» (٤/ ٩٥)، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم [١٠٤٦].

(٧) قال الإمام محمد بن يحيى الذهلي: «يريد أن الله علمُه محيط بكل مكان، والله على العرش» اهـ من «مختصر العلو» رقم [٧٥].

(١٠) أعظم نعمة على المهديين إليها

ولذلك قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في صدر سورة النحل التي تسمى سورة النِّعَم[1] حيث عدَّد الله ـ تعالى ـ فيها نِعَمه على عباده: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [النحل:٢]، فقدَّم ذكرها قبل كل نعمة، فدل ذلك على أن التوفيق لهذه الكلمة هو أعظم نعم الله ـ تعالى ـ التي أسبغها على عباده، كما قال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان:٢٠]، قال مجاهد: «لا إله إلا الله»[2].

ولما كان التوفيق للا إله إلا الله أعظم نعمة قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات:١٧].

---

(١) ولسورة النحل اختصاص عظيم بالنِّعم، حيث ذُكِرت فيها تسع مرات، قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ (١٨)، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ (٥٣)، وقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (٧١)، وقال ـ تعالى ـ: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ (٧٢)، وقال تبارك اسمه: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (٨٣)، وقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (١١٤)، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ (٨١)، وقال جل وعلا: ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ (١١٢)، وقال ـ سبحانه ـ في شأن إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ (١٢١).

(٢) «جامع البيان» للطبري (١١/ ٧٨).

يعني بذلك الأعراب الذين يَمُنُّونَ بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ، يقول الله ـ تعالى ـ ردًّا عليهم: ﴿ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم ﴾ فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم، ولله المنة عليكم فيه ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أي: في دعواكم ذلك[1]، كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ للأنصار يوم حنين: «**يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضُلَّالًا فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألَّفكم الله بي؟ وكنتم عالةً فأغناكم الله بي؟**» كلما قال شيئًا قالوا: اللهُ ورسولُه أَمَنُّ[2].

إن الله ـ تعالى ـ هو مصدر كل نعمة، كما قال ـ سبحانه ـ: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل:٥٣].

وإذا كانت النعمة الحقيقية هي المُفْضية إلى السعادة الأخروية الأبدية الخالدة كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت:٦٤]، وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة**»[3].

وعن معاذ ـ رضي الله عنه ـ قال: مَرَّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ برجل يقول: اللهم إني أسألك تمام النعمة، قال: «**يابن آدم أتدري ما تمامُ النعمة؟**» قال: دعوةٌ دعوتُ بها أرجو بها الخير، قال: «**فإن تمامَ النعمةِ فوزٌ من النار، ودخولُ الجنة**»[4].

---

(١) انظر شرحه في «مجموع الفتاوى» (٧/ ٣٧٥، ٣٧٦).

(٢) أخرجه البخاري (٧/ ٦٤٤) رقم [٤٣٣٠]، ومسلم (٢/ ١٣٩/ ص ٧٣٨)، والإمام أحمد في «مسنده» (٤/ ٤٢).

(٣) رواه البخاري [٢٧٤١]، ومسلم [٣٣٦٦].

(٤) رواه الإمام أحمد [٢٢٠١٧]، وقال محققوه: «إسناده حسن».

فإن «لا إله إلا الله» كلمة الشهادة، ومفتاح دار السعادة، وإن التوفيق إليها هو المِنَّة العظمى والنعمة القصوى على من شاء الله ـ تعالى ـ هدايته.

ولذلك يقول أهل الجنة بعد استقرارهم فيها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:٤٣].

وعن البراء ـ رضي الله عنه ـ قال: رأيت النبيَّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينقل معنا التراب يوم الأحزاب، وقد وارى الترابُ بياضَ بطنه وهو يقول: «**اللهم لولا أنت ما اهتدينا، ولا تصَدَّقْنَا ولا صَلَّينا**» الحديث[(١)].

وكان من شأنهم أن يجلسوا يشكرون لله نعمة الإسلام:

فعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: خَرجَ معاوية على حَلْقَة في المسجد، فقال: «ما أَجلَسَكم؟» قالوا: جَلسنا نَذكُرُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، قال: آللّهِ ما أَجلَسكُم إلا ذاكَ؟ قالوا: الله ما أَجلَسنا إلا ذاك، قال: أَمَا إنِّي لم أستَحلِفْكُم تُهمَةً لكم، وما كانَ أحدٌ بمنزلتي من رسولِ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أقَلَّ عنه حديثًا منِّي، وإنَّ رسولَ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خَرجَ على حَلْقة من أصحابِه، فقال: «**ما أَجلَسَكُم؟**» قالوا: جَلسنا نَذكُرُ الله – عزَّ وجلَّ –، ونَحمدُهُ على ما هَدانا للإسلام ومَنَّ علينا بك، قال: «**آللّهِ ما أجلَسكُم إلا ذلكَ؟**» قالوا: الله ما أَجلَسَنا إلا ذلك، قال: «**أَما إنِّي لَمْ أستَحلِفْكُم تُهمَةً لكم، وإنَّهُ أتاني جِبريلُ ـ عليه السلام ـ فَأَخْبرَني أنَّ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ يُباهِي بِكُمُ الملائِكَةَ**»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري [٢٨٣٦]، ومسلم [١٨٠٣] [١٢٥]، وغيرهما.

(٢) رواه الإمام أحمد [١٦٨٣٥]، وقال محققوه: «إسناده صحيح»، ورواه مختصرًا مسلم [٢٧٠١]، والترمذي [٣٣٧٩]، وابن حبان [٨١٣]، والطبراني في «الكبير» (١٩/ ٧٠١).

وقال سفيان بن عيينة: «ما أنعم الله على العباد نعمةً أفضلَ مِن أن عرَّفهم (لا إله إلا الله)، فإن (لا إله إلا الله) لهم في الآخرة كالماء في الدنيا»[(١)].

ورُوي عن منصور بن صفية أنه قال: مرَّ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ برجل وهو يقول «الحمد لله الذي هداني إلى الإسلام، وجعلني من أمة أحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**لقد شكرتَ عظيمًا**»[(٢)] الحديث.

وعن عبد الملك بن مروان قال: ما قال عبدٌ كلمةً أحبَّ إليه وأبلغَ في الشكر عنده من أن يقول: «الحمد لله الذي أنعم علينا، وهدانا للإسلام»[(٣)].

وقال يوسف ـ عليه السلام ـ: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف:٣٧، ٣٨].

«فهي ملة التوحيد الخالص الذي لا يشرك بالله شيئًا قط.. والهداية إلى التوحيد فضل من الله على المهتدين، وهو فضل في متناول الناس جميعًا لو اتجهوا إليه وأرادوه. ففي فطرتهم أصوله وهواتفه، وفي الوجود مِن حولهم موجباتُه ودلائلُه، وفي رسالات الرسل بيانه وتقريره. ولكن الناس هم الذين لا يعرفون هذا الفضل ولا يشكرونه»[(٤)]اهـ.

---

(١) «حلية الأولياء» (٧/ ٢٧٢).

(٢) رواه البيهقي في «الدعوات الكبير» رقم [٢٤٧]، وقال عقبه: «هذا منقطع، وقد رُوي من أوجهٍ أُخَرَ موصولًا، وهذا ـ مع انقطاعه ـ أصح»اهـ. ص (١٧٨).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «الشكر» [١٠].

(٤) «في ظلال القرآن» (٤/ ١٩٨٩).

ورُوي عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال رسـول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**كل مولود**[(١)] **يولد على الفطرة**[(٢)] **حتى يُعْرِب عنه لسانه**[(٣)]، **فإذا أعرب عنه لسانه، إما شاكرًا**[(٤)] **وإما كفورًا**»[(٥)].

ولا شك أن التوفيق لشهادة التوحيد والانتظام في سلك الموحدين هو أعظم نعمـة ينعمها الله على العبـد، وأنها تدخل دخولًا أوليًّا في قولـه ـ تعالى ـ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ [المائـدة:٣]، وقولـه ـ تعالـى ـ: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ [الأحقاف:١٥]، وقوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ الآية [الفاتحة:٧].

وقـد ندبنـا الله ـ تعالـى ـ إلـى مقابلـة نعمـة الإسـلام والتوحيـد وبعثـة الرسـول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن نذكره، ونشكرَ له.

---

(١) **كل مولود**: من بني آدم.

(٢) **يولد على الفطرة**: اللام للعهد، والمعهود: فطرة الله التي فطر الناس عليها، أي: الخلقة التي خلق الناس عليها من الاستعداد لقبول الدين، والتأبِّي عن الباطل، والتمييز بين الخطأ والصواب.

(٣) **حتـى يعـرب عنه لسـانه**: فحينئـذ إن تُرك بحاله، وخُلِّـيَ وطبعَه، ولم يتعرض له مِـن الخارج مَن يصده عن النظر الصحيح من فسـاد التربية، وتقليد الأبوين، والإلف بالمُحَسَّات، والانهماك في الشهوات؛ عرف الصواب، ولزم ما طُبع عليه في الأصل، ولم يختر إلا الملة الحنيفية.

(٤) أي صار إما شاكرًا.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في «مسـنده» (٢٣/ ١١٣) [١٤٨٠٥] وفيه أبو جعفر عيسـى بن أبي عيسى الرازي، مشـهور بكنيته، ضعيف سـيئ الحفظ، وفـي روايته عن الربيع بن أنـس اضطراب، وقد صرح الحسـن بالسـماع من الأسود عند الطحاوي وغيره، انظر: «شرح مشكل الآثار» (٤/ ١٣) رقم [١٣٩٤].

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴾ [البقرة ١٥١، ١٥٢].

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «يُذكِّر ـ تعالى ـ عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمدٍ ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليهم، يتلو عليهم آياتِ الله مبينات ويزكيهم، أي: يطهرهم من رذائل الأخلاق ودَنَس النفوس وأفعال الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويعلمهم الكتاب ـ وهو القرآن ـ والحكمة ـ وهي السُّنة ـ ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون. فكانوا في الجاهلية الجهلاء يسفهون بالقول الفَرِيِّ، فانتقلوا ببركة رسالته، ويُمْنِ سِفارته، إلى حال الأولياء، وسجايا العلماء، فصاروا أعمقَ الناس علمًا، وأبرَّهم قلوبًا، وأقلَّهم تكلفًا، وأصدقَهم لهجة. وقال ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ ﴾ الآية [آل عمران: ١٦٤]، وذمَّ من لم يعرف قدر هذه النعمة، فقال ـ تعالى ـ: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴾ [إبراهيم: ٢٨].

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يعني بنعمة الله محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ولهذا ندب الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة ومقابلتها بذكره وشكره، فقال: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴾، قال مجاهد في قوله: ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ ﴾: كما فعلتُ فاذكروني»[(١)].

(١) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٤١٨، ٤١٩).

(١١) أفضل الذكر

عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يقول: «**أفضل الذكر**[١]: **لا إله إلا الله**[٢]، **وأفضل الدعاء: الحمد لله**»[٣].

---

(١) أي بعد القرآن الكريم، وذلك لحديث سمرة بن جندب الآتي: «**أفضل الكلام بعد القرآن أربع**» الحديث، وسأل رجل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «إني لا أستطيع أن آخذ شيئًا من القرآن، فعلِّمني ما يجزئني في صلاتي، قال: قل: «**سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر**» «صحيح أبي داود» (١/ ١٥٧)، فلا يُعدل عن القراءة الواجبة في الصلاة إلى الذكر إلا عند العجز عن القراءة، فدل على أفضلية القرآن الكريم.
كما أن الطهارة الكبرى تشترط للقراءة دون الذكر، وما لم يشرع إلا على الحال الأكمل فهو أفضل.
فالقرآن الكريم أفضل الذكر مطلقًا، لكن الذكر الموظَّف في وقته يكون أفضل من غيره، فالعمل المفضول قد يقترن به ما يجعله أفضل من غيره، وقد روى الطبري عن عمرو بن سلمة، قال: سألت الأوزاعي عن قراءة القرآن أعجبُ إليك أم الذكر؟ فقال: سل أبا محمد ـ يعني سعيد بن عبد العزيز التنوخي ـ فسألتُه، فقال: «بل القرآن»، فقال الأوزاعي: «إنه ليس شيء يَعدِلُ القرآن، ولكن إنما كان هَدْيُ مَن سلف يذكرون الله ـ تعالى ـ قبل طلوع الشمس وقبل الغروب» انظر: «التذكار في أفضل الأذكار» للقرطبي ص (٥٩).

(٢) إذ لا يصح الإيمان إلا به، ولأن فيه إثباتَ الإلهية لله ونفيها عما عداه، وليس ذا في سواه من الأذكار، ولأن للتهليل تأثيرًا في تطهير الباطن عن الأوصاف الذميمة، قال بعضهم: «إنما كانت أفضل لأنها كلمة توحيد، والتوحيد لا يماثله شيء، إذ لو ماثله شيء ما كان واحدًا، بل اثنين فصاعدًا، فما ثَمَّ ما يزنه إلا المعادل والمماثل، ولا معادل ولا مماثل، فذلك هو المانع لـ (لا إله إلا الله) أن تدخل ميزان أعمال المشرك يوم القيامة، فإن الشرك الذي يقابل التوحيد لا يصح وجوده من العبد مع وجود التوحيد، فإن الإنسان إما مشرك وإما موحِّد؛ فلا يزن التوحيد إلا الشرك، ولا يجتمعان في ميزانٍ أبدًا» ـ وانظر: «فيض القدير» للمناوي (٢/ ٣٣).

(٣) أخرجه الترمذي [٣٣٨٣] وقال: «هذا حديث حسن غريب»، وابن ماجة [٣٨٠٠]، والحاكم (١/ ٥٠٣)، وصححه، ووافقه الذهبي، وابن حبان [٨٣٦]، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم [١٤٩٧].

ورُوي عـن أميـر المؤمنين علي ـ رضي الله عنه ـ أن رسـول الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ قال: «**أفضل ما قلتُ أنا والنبيُّون قبلي عشـيةَ عَرَفَةَ: لا إلٰه إلا الله وحده، لا شريك له، له الملكُ وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيء قدير**»[1].

وعـن عبـد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعًا: «**خيـرُ الدعاءِ دعاءُ يوم عرفة، وخيرُ ما قلته أنا والنبيُّون من قبلي: لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، له الملكُ وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيء قدير**»[2].

وعن يحيى بن طلحةَ، قال: رأى عمرُ طلحةَ بنَ عبيد الله حزينًا، فقال: مالك؟ قال: إني سـمعتُ رسـول الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ، يقول: **إني لَأعلم كلماتٍ لا يقولهن عبدٌ عند الموت إلا نُفِّسَ عنه، وأشـرقَ لها لونُه، ورأى ما يسره**، فما يمنعني أن أسـأله عنهـا، إلا القـدرةُ عليها، فقـال عمر: إني لأعلم ما هـي؟ قال: هل تعلم كلمةً هي أفضلُ من كلمةٍ دعا إليها رسـولُ الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ عَمَّه عند الموتِ؟ قال طلحة: هي والله هي، قال عمر: «**لا إلٰه إلا الله**»[3].

وعـن سـمرة بـن جنـدب ـ رضـي الله عنـه ـ قـال رسـول الله ـ صلـى الله عليـه وسـلم ـ: «**أفضـل الـكلام بعـد القـرآن أربـع؛ وهنَّ مـن القـرآن: سـبحان الله، والحمد لله، ولا إلٰه إلا الله، والله أكبر**»[4].

---

(١) أخرجـه الطبراني في «الدعاء» رقـم [٨٧٤] (٢/ ١٢٠٦)، وصححه الألبانـي في «الصحيحة» [١٥٠٣]، وقال ـ رحمه الله ـ: «الحديث ثابت بمجموع طرقه».

(٢) أخرجـه الترمـذي [٣٥٨٥]، وحسـنه الألباني في «الصحيحة» (٤/ ٧، ٨) بشـواهده، وكذا في «الصحيحة» رقم [١٥٠٣].

(٣) قـال الهيثمـي فـي «المجمـع»: «رواه أبو يعلـى ـ رقـم [٦٥٥] (٢/ ٢٢، ٢٣) ـ، ورجاله رجال الصحيح»اهـ. (٢/ ٣٢٥).

(٤) رواه مسلم [٢١٣٧] [١٢] بلفظ: «**أحب الكلام إلى الله أربع...**» الحديث، واللفظ المذكور هنا رواه الإمام أحمد رقم [٢٠٢٢٣]، [٢٠١٢٦]، وصرح شـيخ الإسـلام ابـن تيمية في «الرد على المنطقيين» ص (٣٥) بتواتره.

وتقدم[1] أن «لا إله إلا الله» أعلى شعب الإيمان، فهي أفضلها على الإطلاق.

ولأنها أفضل الذكر؛ حث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمته على الإكثار منها وتكرارها، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**أكثروا من شهادة أن لا إله إلا الله، قبل أن يُحالَ بينكم وبينها، ولقنوها موتاكم**»[2].

ومن فضائلها أيضًا: ما رُوي عن ابن عمر عن أبيه ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**من قال في سوق: لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يُحيي ويميت، وهو حيٌّ لا يموت، بيده الخيرُ، وهو على كل شيء قدير؛ كتب الله له ألفَ ألفِ حسنةٍ، ومحىٰ عنه ألفَ ألفِ سيئةٍ، وبنى له بيتًا في الجنة**»[3].

---

(١) راجع ص (٢٨).

(٢) رواه أبو يعلى في «مسنده» رقم [٦١٤٧]، والخطيب في «تاريخه» (٣/ ٣٨)، وقال الهيثمي: «رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح غير ضمام بن إسماعيل، وهو ثقة»اهـ. «المجمع» (١٠/ ٨٢)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» رقم [٤٦٨].

(٣) أخرجه الترمذي [٣٤٢٩]، وابن ماجة [٢٢٣٥]، والإمام أحمد رقم [٣٢٧]، وقال محققوه: «إسناده ضعيف جدًا»، وغيرهم، وقال البغوي: «هذا حديث حسن غريب»اهـ. من «شرح السُّنة» (٥/ ١٣٣)، وقال المنذري: «إسناده متصل حسن، ورواته ثقات أثبات، وفي أزهر بن سنان اختلاف، وقال ابن عدي: أرجو أنه لا بأس به»اهـ. من «الترغيب والترهيب» (٢/ ٥٣١)، وقال الشوكاني: «أقل أحواله أن يكون حسنًا، وإن كان في ذكر العدد على هذه الصفة نكارة»اهـ. من «تحفة الذاكرين» ص (١٧٩، ١٨٠)، وقال الألباني: «الحديث حسن بمجموع طرقه»اهـ. من «تخريج أحاديث الكلم الطيب» ص (١١٧) ـ واعلم أن عظم الثواب الوارد في هذا الحديث ـ إن ثبت ـ إنما هو بسبب أنه يتضمن كلمة التوحيد التي هي أعظم الكلام وأفضله، أو لأن السوق موضع غفلة عن ذكر الله ـ تعالى ـ، والله أعلم.

وعـن أبـي عياش الزرقـي ـ رضي الله عنـه ـ قال رسـول الله ـ صلى الله عليه وسـلـم ـ: «**من قال إذا أصبح: لا إله إلا الله وحده، لا شـريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، كان له عِدْلُ رقبةٍ من ولد إسماعيل ـ عليه السلام ـ، وكُتب له عشـر حسنات، وحُطَّ عنه عشر سـيئات، ورفع له عشر درجات، وكان في حِرْزٍ من الشيطان حتى يُمسي، وإن قالها إذا أمسى كان له مثل ذلك حتى يصبح**»(١).

وعـن أبـي أيوب الأنصـاري ـ رضي الله عنـه ـ قال رسـول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**من قال حين يصبح: (لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملكُ، وله الحمدُ، يُحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير) عشر مرات، كتب الله له بكل واحدة قالها عشـر حسـنات، وحَطَّ عنه بها عشر سيئات، ورفعه الله بها عشر درجات، وكُنَّ له كعشر رقاب، وكُنَّ له مَسْلَحةً من أول النهار إلى آخره، ولم يعمل يومئذ عملًا يقهرهن، فإن قال حين يمسي فمثل ذلك**»(٢).

وعـن أبـي هريرة ـ رضـي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسـلـم ـ قال: «**من قال: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملكُ، وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيء قديرٌ) في يوم مائة مرَّة كانت له عِدْل عشرِ رقاب، وكُتب له مائة حسنة، ومُحي عنه مائة سيئة، ولم يأت أحدٌ بأفضلَ مما جاء به، إلا أحدٌ عملَ أكثرَ من ذلك**»(٣).

---

(١) رواه أبـو داود [٥٠٧٧]، وهـو في «صحيح أبي داود» رقم [٤٢٤٠]، و«صحيح ابن ماجة» رقم [٣١١٨].

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٤٢٠)، وقال الألباني: «هذا سـند صحيح، رجاله كلهم ثقات»اهـ. من «الصحيحة» رقم [١١٤]، [٢٥٦٣].

(٣) رواه البخاري [٣٢٩٣]، [٦٤٠٣]، ومسلم [٢٦٩١].

وعن أبي أيوب الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**من قالها عشرَ مرات كان كمن أَعتقَ أربعةَ أنفسٍ من وَلَدِ إسماعيل**»[1]

وعن سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**من قال: اللهم! إني أُشهدك، وأُشهِدُ ملائكتك وحملة عرشك، وأُشهد من في السموات ومن في الأرض: أنك أنت الله، لا إلٰه إلا أنت وحدك، لا شريك لك، وأَشهد أن محمدًا عبدك ورسولك، من قالها مرة؛ أعتق الله ثلثه من النار، ومن قالها مرتين؛ أعتق الله ثلثيه من النار، ومن قالها ثلاثًا؛ أعتق اللهُ كلَّه من النار**»[2].

فلـ«لا إلٰه إلا الله» فضائل عظيمة كثيرة، وقد اقترنت في كثير من النصوص بغيرها من ألفاظ الثناء على الله ـ تعالى ـ في الأذكار الموظفة، والأذكار المطلقة، وتتبُّع ذلك يطول.

---

(١) رواه البخاري [٦٤٠٤]، ومسلم [٢٦٩٣].

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ٥٢٣)، وقال: «صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي، ثم الألباني في «الصحيحة» رقم [٢٦٧].

لا إله إلا الله

(١٢) من الباقيات الصالحات

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف:٤٦].

وقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم:٧٦].

قيل: هي كل عمل صالح يُرضي الله من قول أو فعل يبقى للآخرة. وفسرها بعضهم: بالصلوات الخمس، أو أعمال الحج، أو الصدقات، أو الصوم، أو الجهاد، أو العتق، أو الذكر. وهذا كله على طريق التمثيل، واللفظ الكريم يتناولها لكونها من أفراده[١].

وذهب جمهور المفسرين إلى أنها قول: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر».

ـ وذلك لما رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**خُذوا جُنَّتكم**»، قلنا: يا رسول الله مِن عَدوٍّ قد حضر! قال: «**لا، بل جُنَّتكم من النار، قولوا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، فإنَّهنَّ يأتين يوم القيامة مُقدِّماتٍ ومُعَقِّباتٍ ومُجَنِّباتٍ، وهن الباقيات الصالحات**»[٢].

---

(١) وانظر: «أضواء البيان» (٤/ ١٠٩).

(٢) رواه النسائي في «الكبرى» [١٠٦٨٤]، وابن جرير (١٥/ ٢٧٨)، والطبراني في «الصغير» (١/ ١٤٥)، والحاكم (١/ ٥٤١) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، والبيهقي في «الشعب» [٦٠٦]، وقال الهيثمي: «رجاله في (الصغير) رجال الصحيح غير داود بن بلال، وهو ثقة»اهـ. من «مجمع الزوائد» (١٠/ ٨٩).

ـ وما رواه أبو سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**استكثروا من الباقيات الصالحات**»، قيل: وما هُنَّ يا رسول الله؟ قال: «**التكبير، والتهليل، والتسبيح، والتحميد، ولا حول ولا قوة إلا بالله**»[1].

ـ وعن النعمان بن بشير ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، هن الباقيات الصالحات**»[2].

وعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ أنه سُئل: ما الباقيات الصالحات؟ فقال: «هن: لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[3].

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنه سُئل عن الباقيات الصالحات، فقال: «لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[4].

وقد صحَّت في فضائل هذه الكلمات الأربع أحاديث كثيرة صحيحة، بدون وصفها بالباقيات الصالحات، لبسطها موضع آخر[5].

---

(١) رواه الإمام أحمد (١٨/ ٢٤١) [١١٧١٣]، وأبو يعلى [١٣٨٤]، وابن جرير (١٥/ ٢٧٩)، وابن حبان [٨٤٠]، والحاكم (١/ ٥١٢، ٥١٣)، وقالوا في «تحقيق المسند»: «حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف»اهـ.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣٠/ ٢٩٩) [١٨٣٥٣]، وقال محققوه: «صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف»اهـ.

(٣) رواه الإمام أحمد (١/ ٥٣٧) [٥١٣]، وابن جرير (١٥/ ٢٧٥، ٢٧٦)، وقال محققو المسند: «إسناده حسن».

(٤) رواه البخاري في «تاريخه» (١/ ٧٧)، وابن جرير (١٥/ ٢٧٧).

(٥) وانظر: «قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات وبيان اقتران التهليل بالتكبير، والتسبيح بالتحميد» من نفائس شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ ط. أضواء السلف (١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م)، وانظر أيضًا: «فقه الأدعية والأذكار» للشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر ص (١٥٦-١٦٦).

لا إله إلا الله

(١٣) واسم الله الأعظم

باستقراء الأحاديث الثابتة في تعيين اسم الله الأعظم [(١)] نخلص ـ بعد ترجيح تعدده ـ إلى أنه:

١ـ يشتمل على كلمة التوحيد «لا إله إلا الله».

٢ـ يقترن بالوعد بالاستجابة أو المغفرة أو تفريج الكربات.

(١) أنكر بعض الأئمة أن يكون لله ـ تعالى ـ اسم أعظم له خصائص تميزه عن سائر أسمائه ـ عزَّ وجلَّ ـ وقالوا: «لا يجوز تفضيل بعض الأسماء على بعض، بل كل اسم ذكر العبد به ربه عارفًا بعظمته ـ تعالى ـ فهو الاسم الأعظم». انظر: «جامع البيان» للطبري (١/ ٤٨١)، «فتح الباري» (١١/ ٢٢٧)، «لوامع البينات شرح أسماء الله ـ تعالى ـ والصفات» لفخر الدين الرازي ص (٩٢ ، ٩٣)، وزعم البعض أنه مما استأثر الله به في علم الغيب عنده. وذهب جمهور العلماء قديمًا وحديثًا إلى إثبات الاسم الأعظم لله ـ تعالى ـ لورود النص الصريح بذلك عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في عدة أحاديث، حتى أفردها بعض العلماء بتصانيف مستقلة كما في «كشف الظنون» (١/ ٦٠٩)، (٢/ ١١٩٤ ، ١٣٩١ ، ١٥١٩)، (٤/ ٣٥٣ ، ٤٩٩)، بينما بوب أئمة الحديث في كتبهم «باب الاسم الأعظم» كما فعل ابن ماجة في «سننه»، والطحاوي في «المشكل»، والبغوي في «شرح السُّنة»، وابن أبي شيبة في «المصنف»، والطبراني في «الدعاء»، وابن حبان في «صحيحه»، والمنذري في «الترغيب والترهيب». وبما أنه صحت أحاديث في إثباته وتعيينه، فإن الاسم الأعظم داخل في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾، وقول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**أوعلمته أحدًا من خلقك، أو أنزلته في كتابك**» انظر: «السلسلة الصحيحة» رقم [١٩٩] ـ فإن السُّنة وحي منزَّل كالقرآن الكريم، قال ـ تعالى ـ : ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ الآية [النساء:١١٣]. ولا تعني أعظمية هذا الاسم أن هناك تفاضلًا بين الفاضل والمفضول من حيث هو اسم وصفة لله ـ تعالى ـ فكل أسمائه عظمى، قال ابن حبان ـ رحمه الله ـ: «الأعظمية الواردة في الأخبار إنما يراد بها مزيد ثواب الداعي بذلك، فالأصل في التفضيل راجع لحاجة العبد لا لصفة الرب» اهـ. نقله في «فتح الباري» (١١/ ٢٢٧).

٣ـ يأتي مركبًا من عدة كلمات لا مفردًا[١].

ـ وأصح ما ورد في تعيينه: ما رواه عبد الله بن بريدة الأسلمي عن أبيه ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: سمع النبيُّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجلًا يدعو وهو يقول: «اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إلٰه إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفُوًا أحد»، قال: فقال: «**والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم؛ الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئِل به أعطى**». وفي أحد لفظي أبي داود: «**لقد سألت الله بالاسم الذي إذا سُئل به أَعطى، وإذا دُعِيَ به أجاب**»[٢].

الحديث الثاني ـ عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أنه كان مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جالسًا ورجل يصلي، ثم دعا: «اللهم إني أسألك بأن لك الحمدَ، لا إلٰه إلا أنت، المنانُ، بديعَ السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام،

---

(١) وذهب بعض العلماء إلى أنه لفظ الجلالة «الله»، وهو مروي عن جابر بن زيد قال: «اسم الله الأعظم هو الله» أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (١/١/٢٠٩)، واستدلوا بما لهذا الاسم الجليل من الخصائص المعنوية واللفظية، انظر: «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١/١٠٢)، «شأن الدعاء» للخطابي ص (٢٥)، «جِلاء الأفهام» لابن القيم ص(١٠٩ ، ١١٧ ، ١١٨)، «مدارج السالكين» له (١/ ٣٢ ، ٣٣)، «لوامع البينات» ص (٩٥،٩٧)، «الأسماء والصفات» للأشقر ص (٨٧)، «تيسير العزيز الحميد» ص (٣٠، ٣١).
وذهب بعضهم إلى أنه: «الحي القيوم» استنباطًا من حديث أبي أمامة الآتي ص (٧٩)، وإليه ذهب ابن القيم كما في «زاد المعاد» (١/ ٢٠٤)، «مدارج السالكين» (١/٤٤٨)، «شرح النونية» (١/ ٢٥٩)، و«شرح الطحاوية» (١/ ٩٢)، «مجموع الفتاوى» (١٨/ ٣١١).
وذهب بعضهم إلى أنه: «ذو الجلال والإكرام»، وقيل: «الرحمن»، وقيل: «ربِّ ربِّ»، وغيرها.

(٢) رواه أبو داود [١٤٩٣]، [١٤٩٠]، والترمذي [٣٤٧٥]، وقال: «حسن غريب»، والنسائي في «الكبرى» [٧٦٦٦]، وابن ماجة [٣٨٥٧]، والإمام أحمد [٢٢٨٤٨]، والحاكم (١/ ٦٩٠)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، وابن حبان [٨٩١] (٣/ ١٧٣)، وقال ابن حجر: «هو أرجح من حيث السند من جميع ما ورد في ذلك» اهـ. من «الفتح» (١١/ ٢٢٨)، ونقل المنذري عن شيخه أبي الحسين المقدسي قوله: «إسناده لا مطعن فيه، ولم يرد في هذا الباب حديث أجود إسنادًا منه» اهـ. من «الترغيب» (٢/ ٣٥١)، وصححه الألباني في «تحقيق المشكاة» [٢٢٨٩] (٢/ ٧٠٨).

يـا حـيُّ يا قيـومُ»، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسـلم ـ: «**لقد دعا باسـمه العظيم**[(١)] **الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى**»[(٢)].

الحديـث الثالـث ـ عـن أسـماء بنـت يزيـد ـ رضـي الله عنهـا ـ قالـت: إن النبي ـ صلـى الله عليـه وسـلم ـ قال: «**اسـم الله الأعظم في هاتين الآيتيـن**: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وفاتحة سـورة آل عمران ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [آل عمران:١، ٢]»[(٣)].

الحديث الرابع ـ عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**إن اسم الله الأعظم لفي سُوَرٍ من القرآن ثلاثٍ؛ البقرة وآل عمران وطه**»[(٤)].

زاد أبـو حفـص عمرو بن أبي سـلمة في هذا الحديـث: «فنظرت أنا في هذه السور فرأيت فيها شيئًا ليس في شيء من القرآن، مثل آية الكرسي: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾، وفي آل عمران: ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ وفي طه: ﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ﴾»[(٥)].

---

(١) وفي رواية الإمام أحمد: «الأعظم».

(٢) رواه أبـو داود [١٤٨١]، والنسائي [١٣٠٠] (٣/ ٥٢)، والبخـاري فـي «الأدب المفـرد» ص (١٠٤) رقـم [٧٠٥]، وابـن ماجـة [٣٨٥٨]، والإمـام أحمـد [١٢١٤٤]، [١٣٥٠٤]، [١٢٥٤٨]، وابن حبان [٨٩٣]، (٣/ ١٧٥)، والحاكم (١/ ٦٨٩، ١٩٠٨) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «تحقيق المشكاة» (٢/ ٧٠٩)، والشيخ شعيب في «تخريج ابن حبان» (٣/ ١٧٦).

(٣) رواه أبو داود [١٤٨٢ـ عون]، والترمذي [٣٤٧٨]، وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجة [٣٨٨٥]، والإمام أحمد (٦/ ٤٦١)، والبغوي في «شرح السُّنة» [١٢٦١] (٥/ ٣٩)، وقال: «غريب»، وضعفه الحافظ ابن حجر (١١/ ٢٢٦)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» [٩٨٠] (١/ ٣١٩).

(٤) رواه ابـن ماجـة [٣٨٥٦] (٢/ ١٢٦٧)، والطحـاوي في «مشـكل الآثـار» [١٧٧] (١/ ١٦٣)، والطبراني في «الكبير» [٧٧٥٨] (٨/ ٢١٤، ٢١٥)، وحسـنه المناوي كما في «تحفة الذاكرين» ص (٧٠)، والألبانـي فـي «الصحيحـة» [٧٤٦] (٢/ ٣٨٢)، وشـعيب الأرنـاؤوط في «تخريج المشكل» (١/ ١٦٣).

(٥) رواه الطحاوي في «مشكل الآثار» (١/ ١٦٣)، وانظر: «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٤٥٤) ط. الشعب.

وزاد القاسم ـ وهو الراوي عن أبي أمامة ـ: «فالتمستها أنه الحي القيوم»[(١)].

فهاتـان الزيادتـان مُدرَجتان مـن الرواة، وليستا من كلام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

الحديث الخامس ـ يُروى عن سعد بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسولَ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: «**هل أدلكم على اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى؟ الدعوة التي دعا بها يونس حين ناداه في الظلمات ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾**» فقال رجل: يا رسول الله! هل كانت ليونس خاصة أم للمؤمنين عامة؟ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**ألا تسمع قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾** [الأنبياء: ٨٨]»[(٢)].

وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت: (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين)، إنه لم يدع بها مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له بها**»[(٣)].

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٠٥).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٠٥، ٥٠٦)، وفيه عمرو بن بكر السكسكي، قال في «التقريب»: «متروك» ص (٤١٩)، وابن جرير في «تفسيره» (١٧/ ٨٢)،وفيه علي بن زيد وهو ابن جدعان، قال في «التقريب»: «ضعيف»ص (٤٠١)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» [٩٥٤] (١/ ٢٧٧).

(٣) رواه الإمام أحمد (١/ ١٧٠)، والترمذي [٣٥٠٥] (٥/ ٥٢٩)، والحاكم (١/ ٥٠٥)، وصححه، ووافقه الذهبي، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» [٦٥٦]، وليس فيه ذكر الاسم الأعظم، وحسنه ابن حجر كما في «الفتوحات الربانية» (٤/ ١١)، وصححه الألباني في «تخريج الكلم الطيب» [١٢٢] ص (٧٤).

ولفـظ الحاكـم: «ألا أخبركم بشـيء إذا نـزل برجلٍ منكم كـرب أو بلاء من بلايـا الدنيـا دعا به يُفْرَج عنه؟ فقيل له: بلـى، فقال: دعاء ذي النون: لا إلٰه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين»[1].

والحاصل: أن كلمة التوحيد «لا إلٰه إلا الله» قاسم مشترك بين الصيغ الواردة عن النبي ـ صلى الله عليه وسـلم ـ في اسـم الله الأعظم الذي إذا سـئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب.

---

(١) وهـذا أورده الألبانـي في «السلسـلة الصحيحة» رقم [١٧٤٤]، وفي معنـاه ما روته أم المؤمنين عائشـة ـ رضـي الله عنهـا ـ أن النبـي ـ صلى الله عليه وسـلم ـ كان يجمع أهل بيتـه، فيقول: «**إذا أصاب أحدَكم غَمٌّ أو كربٌ فليقل: اللهُ، اللهُ ربي، لا أُشرِك به شيئًا**» أخرجه ابن حبان في «صحيحه» [٢٣٦٩ – مـوارد]، والطبراني في «الأوسـط» [٥٤٢٣]، وأورده الألبانـي في «الصحيحة» رقم [٢٧٥٥].

لا إله إلا الله

(١٤) لا يحجبها عن الله عز وجل شيء

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ:
«ما قال عبد: (لا إله إلا الله) قطُّ مُخْلِصًا إلا فُتحت له أبوابُ السماء، حتى تُفْضِيَ إلى العرش، ما اجتنب الكبائر»[(١)].

ورُوي عن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعًا: **«.. لا إله إلا الله ليس لها دون الله حجاب حتى تخلُصَ إليه»**[(٢)].

ورُوي عن رجلين من الصحابة ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ أنهما سمعا النبيَّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: **«ما قال عبد قط: (لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير) مخلصًا بها روحُه، مصدقًا بها قلبُه لسانَه، إلا فُتِقَ له أبوابُ السماء حتى ينظر الله إلى قائلها، وحُقَّ لعبدٍ نظر الله إليه أن يُعْطِيَهُ سُؤْلَه»**[(٣)].

ورُوي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«ما من شيء إلا بينه وبين الله حجاب، إلا قول: لا إله إلا الله، كما أن شفتيك لا تحجبها، كذلك لا يحجبها شيء، حتى تنتهيَ إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ»**[(٤)].

---

(١) رواه الترمذي [٣٨٤٠]، وقال: «حسن غريب»، وحسَّنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» رقم [٢٨٣٩]، و«صحيح الترغيب والترهيب» رقم [١٥٢٤].

(٢) جزء من حديث رواه الترمذي رقم [٣٥١٨]، وقال: «هذا حديث غريب من هذا الوجه، وليس إسناده بالقوي»، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» رقم [٧٠٠]، و«ضعيف الترغيب والترهيب» (١/ ٤٧٠) رقم [٩٤٥].

(٣) رواه النسائي في «عمل اليوم والليلة» رقم [٢٨] ص (١٥٠).

(٤) انظر: (اللآلئ المصنوعة) للسيوطي (٢/ ١٨٥).

ورُوي عـن أنـس ـ رضـي الله عنـه ـ مرفوعًا : «**ليس شـيء إلا بينـه وبين الله حجاب، إلا قول: (لا إله إلا الله)، ودعاء الوالد**»[1].

وعن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ قال: «**ما من عبد يُهَلِّل تهليلة فيُنَهْنِهُها**[2] **شيءٌ دون العرش**»[3].

(١) عزاه في «الدرر المنثور» (١٣/ ٤٢٨) إلى ابن مردويه.

(٢) **نَهْنَه فلانًا عن الشيء**: كفه عنه وزجره، والدابةَ: صاح بها لتكُفَّ.

(٣) انظر: «جامع العلوم والحكم» (١/ ٢١٧).

لا إله إلا الله

(١٥) مضمون الوحي الشريف وقطب رحاه

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [النحل:٢].

قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ: «وقد أحاطت جملة ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ ﴾ إلى قوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَٱتَّقُونِ ﴾ بالشريعة كلها، لأن جملة ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾ تنبيه على ما يرجع من الشريعة إلى إصلاح الاعتقاد، وهو الأمر بكمال القوة العقلية.

وجملة ﴿ فَٱتَّقُونِ ﴾ تنبيه على الاجتناب والامتثال اللذين هما منتهى كمال القوة العملية»[(١)]اهـ.

وقال الشنقيطي ـ رحمه الله ـ: «فقد أُمِر في هذه الآية الكريمة أن يقول: إن ما أوحي إليه محصور في هذا النوع من التوحيد، لشمول كلمة (لا إله إلا الله) لجميع ما جاء في الكتب؛ لأنها تقتضي طاعة الله بعبادته وحده، فيشمل ذلك جميع العقائد والأوامر والنواهي، وما يتبع ذلك من ثواب وعقاب»[(٢)]اهـ.

ونظير آية (النحل) جملة من الآيات القرآنية الكريمة تواردت على تأكيد هذا المعنى:

---

(١) «التحرير والتنوير» (٧/ ١٠٠).

(٢) «أضواء البيان» (٣/ ٣٧٤).

فقد قال ـ سبحانه ـ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

وقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٨].

وقال ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف:١١٠].

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾ [فصلت:٦].

قال شارح (الطحاوية) ـ رحمه الله تعالى ـ:

«ثم التوحيد[(١)] الذي دعت إليه رسُلُ الله، ونزلت به كتبُه نوعان: توحيدٌ في الإِثبات والمعرفة، وتوحيدٌ في الطلب والقصد.

فالأول ـ هو إثباتُ حقيقةِ ذاتِ الرَّبِّ ـ تعالى ـ وصفاتِه وأفعالِه وأسمائه، ليس كمثلِه شيء في ذلك كُلِّه، كما أخبر به عن نفسه، وكما أخبر رسولُه ـ صلى الله عليه وسلم ـ. وقد أفصحَ القرآن عن هذا النوع كُلَّ الإِفصاح، كما في أول (الحديد)، و(طه)، وآخر (الحشر)، وأول (الم تنزيل) السجدة، وأول (آل عمران)، وسورة (الإِخلاص) بكمالها، وغير ذلك.

والثاني ـ وهو توحيدُ الطلبِ والقَصْدِ، مثل ما تَضَمَّنَتْهُ سورةُ ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون:١]، و﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ [آل عمران:٦٤]، وأول سورة (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ) وآخرها، وأول سورة

(١) انظر: «مدارج السالكين» لابن القيم (٣/ ٤٤٩-٤٥٥).

(يونس) وأوسطها وآخرها، وأول سورة (الأعراف) وآخرها، وجملة سورة (الأنعام).

وغالبُ سور القرآن متضمنة لنوعَي التوحيد، بل كل سورة[1] في القرآن، فإن القرآن إمَّا خبرٌ عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التوحيدُ العِلميُّ الخبري.

وإما دعوةٌ إلى عبادته وحدَه لا شريكَ له، وخَلْعِ ما يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ، فهو التَّوحِيدُ الإراديُّ الطَّلَبِيُّ.

وإمَّا أمرٌ ونهي وإلزامٌ بطاعته، فذلك مِن حقوقِ التوحيد ومكمِّلاته.

وإما خَبَرٌ عن إكرامه لأهلِ توحيده، وما فَعَلَ بهم في الدنيا وما يُكرِمُهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيدِه.

وإما خبرٌ عن أهلِ الشِّرْكِ، وما فَعَلَ بهم في الدنيا من النَّكال، وما يَحُلُّ بهم في العُقبى من العذاب، فهو جزاءُ مَنْ خرج عن حكم التوحيد.

فالقرآن كُلُّه في التوحيد وحقوقه وجزائِه، وفي شأنِ الشركِ وأهله وجزائهم، فـ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة:٢] توحيد، ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [الفاتحة:٣] توحيد، ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة:٤] توحيد، ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة:٥] توحيد، ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦]، توحيد متضمِّنٌ لِسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد الَّذينَ أَنْعَمَ عليهِمْ ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة:٧][2].

---

(١) وإن شئت قلت: «بل كل آية في القرآن الكريم متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه».

(٢) «شرح الطحاوية» بتحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط (١/ ٤٢، ٤٣).

لقد تضافرت نصوص القرآن الكريم وتظاهرت على وجوب إفراد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بالألوهية.

فتارة أمرت بذلك، فقد كانت أول صيغة أمر فِي القرآن المجيد هِي قوله ـ تعالى ـ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة:٢١].

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـًٔا ﴾ الآية [النساء:٣٦].

وقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ الآية [الإسراء:٢٣].

ـ وتارة ببيان أنه المقصود من وجود الخليقة، وإيجاد الثقلين، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦].

قال الحافظ ابن كثير في تفسيرها: أي: «إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي، لا لاحتياجي إليهم»[1].

ـ وتارة ببيان أن تحقيق هذا التوحيد هو المقصود من بعثة الرسل أجمعين.

ـ وتارة ببيان أنه المقصود من إنزال جميع الكتب الإلهية.

ـ وتارة ببيان عظيم ثواب أهله وحسن عاقبتهم في الدنيا والآخرة، قال ـ تعالى ـ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [الأنعام:٨٢].

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٧/ ٤٣٠) ط. دار الحديث.

ـ وتارة بالتحذير من ضده (الشرك)، وبيان عاقبة أهله، قال ـ عزَّ وجلَّ ـ:
﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة:٧٢].

وقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا﴾ [الإسراء:٣٩]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج:٣١]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان:١٣].

وقد استقرأ العلامة السلفي الجليل الدكتور محمد خليل هراس ـ رحمه الله تعالى ـ أساليب القرآن المجيد في دعوة الناس إلى توحيد الألوهية، فقال ـ رحمه الله ـ:

«يسلك القرآن الكريم إلى هذا المطلب أساليب متعددة.

١ ـ أهمها: سوق آيات الربوبية في الخلق والتدبير والملك والحفظ والرعاية والإحسان والرحمة، وجعل ذلك دليلًا على توحيد الإلهية.

فقد جرت عادة القرآن الكريم أن يُلزم المشركين بما أقروا به من توحيد الربوبية فيجعله برهانًا واضحًا على وجوب إفراده ـ سبحانه ـ بالإلهية، فإن الذي يستحق من العباد أن يعبدوه هو من كان ربًّا خالقًا ومالكًا مدبرًا، وأما من لا شأن له في خلق ولا في تدبير لا يصلح أن يكون إلهًا معبودًا إذ لم يصلح لأن يكون ربًّا مقصودًا.

ولهذا تراه يسوق الآيات والدلائل الشاهدة بربوبيته ـ تعالى ـ لكل شيء، ثم ينتقل منها إلى الدعوة لعبادته وحده.

قال ـ تعالى ـ من سورة (البقرة): ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢١-٢٢].

فهذا خطاب عام لجميع الناس أن يعبدوا ربهم أي: يخصوه وحده بالعبادة إذ لا رب لهم غيره؛ فهو الذي خلقهم وخلق آباءهم الأولين، وهو الذي جعل لهم هذه الأرض مهادًا يتقلبون عليها ويمشون في مناكبها، وهو الذي أنزل لهم من السحاب ماء فأجراه أنهارًا وسلكه ينابيع، فأخرج لهم به من جميع الثمرات، فلا تجعلوا لله أندادًا أي: نظراء مِن خَلْقه تساوونهم به في استحقاق العبادة وأنتم تعلمون أنها لم تخلق شيئًا.

وقال – جل شأنه – من نفس السورة: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:١٦٣-١٦٤].

وقال ـ سبحانه ـ من سورة (النمل): ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ

ٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [النمل:٦٠-٦٤].

فهذه الآيات تنفي أن يكون إلٰه معه ما دام هو الرب وحده.

ويقول ـ جل شأنه ـ في سورة (النحل) بعد أن ذكر آيات ربوبيته في الخلق والتدبير: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ [النحل:١٧-٢٢]، فنفى الإلهية عن كل ما يُدعى من دونه، لأنه لا يخلق شيئًا بل هو مخلوق، ولأنه ميت غير حي، ولا يدري متى يبعث.

ويطول بنا القول لو أردنا استقصاء ما جاء في الكتاب العزيز من آيات الربوبية التي سِيقَتْ برهانًا على توحيد الإلهية. وحسبنا أن نعلم أن معظم السور المكية مليئة من هذه الآيات لمن تدبرها.

وأما الأحاديث فهي أيضًا كثيرة مستفيضة، مثل قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في سيد الاستغفار: «**اللهم أنت ربي، لا إلٰه إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك عليَّ، وأبوء بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوبَ إلا أنت**»، ففي هذا إقرارُ العبد واعترافه بأن الله هو ربه الذي لا رب له غيره وأنه لا معبود بحق في الوجود كله سواه فإنه هو الذي

خلقه وسـواه، ثم يعاهده بأنه سـيظل قائمًا على عهده ووعده ما استطاع إلى ذلك سـبيلًا ثم يلتجئ ويحتمي به من شر ما جنى على نفسه ثم يبوء ويرجع إليه بسبب إنعامه عليه ثم يرجع إليه من ذنبه طالبًا أن يغفر له لأنه هو الغفور الرحيم.

ومثـل قوله: «**اللهم ربَّ السـمواتِ السـبع والأرضِ وربَّ العـرشِ العظيم، ربَّنا وربَّ كلِّ شـيء، فالـقَ الحَبِّ والنَّوى، مُنْـزِلَ التوراةِ والإنجيلِ والقـرآن، أعوذ بك من كل ذي شَـرٍّ أنتَ آخذٌ بناصيته، أنت الأولُ فليس قبلَك شيء، وأنت الآخِرُ فليس بعدَك شـيء، وأنت الظاهرُ فليس فوقَكَ شـيء، وأنت الباطنُ فليس دونَكَ شـيء، اقْضِ عني الدَّيْنَ، وأغنني مِن الفقر**».

ومثل قولـه: «**اللهم ربَّ جبريلَ وميكائيلَ وإسـرافيل فاطرَ السـمواتِ والأرض عالـمَ الغيـبِ والشـهادة، أنت تحكـم بين عبـادك فيما كانوا فيـه يختلفـون، اهدني لما اختُلِفَ فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**».

٢ ـ ومنها: التنديد بما يتخذه الناس آلهة من دون الله وإظهار حالها من العجز الشـنيع والفقـر البالغ، والغفلة عمن يدعوها ويفزع إليهـا كقولـه ـ تعالى ـ من آخر سـورة (الأعراف): ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [الأعراف:١٩١-١٩٥].

وقوله ـ سبحانه ـ من سورة (النحل): ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النحل:٢٠-٢١].

وكقوله من هذه السورة نفسها: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [النحل:٧٣].

وكقوله من سورة (الإسراء) عن بني إسرائيل: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء:٥٦، ٥٧].

وكقوله ـ تعالى ـ من سورة (طه) في شأن من عبدوا العجل من بني إسرائيل: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ [طه:٨٩].

وكقوله من سورة (الأنبياء): ﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ [الأنبياء:٤٣]، أي: يعانون.

وكقوله ـ تعالى ـ من سورة (الحج): ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج:٧٣].

وكقوله ـ تعالى ـ من سورة (العنكبوت): ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت:١٦، ١٧].

وكقوله من سورة (سبأ): ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ [سبأ:٢٢، ٢٣].

وكقوله من سورة (فاطر): ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر:١٣-١٤].

وكقوله من سورة (يس): ﴿ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾.

[يس:٢٢-٢٣]

وكقوله من سورة (الزمر): ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ﴾ [الزمر:٣٨].

وكقوله من سورة غافر على لسان مؤمن آل فرعون: ﴿ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ [غافر:٤١-٤٣].

وكقوله من سورة (الأحقاف): ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ

لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأحقاف:٤-٦].

ففي هذه الآيات السابقة كلها بيانٌ شافٍ لحال هذه الآلهة الباطلة من العجز والمهانة حتى إنها أقل شأنًا من عابديها، لا تملك ما يملكون من أسماع وأبصار وقوى العقل والإرادة والبيان، فكيف إذَنْ تصلح للإلهية.

٣ـ ومنها: التشنيع بحال العابدين لهذه الآلهة الباطلة ورميهم بالضلال والسفه حيث رَضُوا لأنفسهم أن يعبدوا ما لا يسمع ولا يبصر ولا يملك لهم ضرًّا ولا نفعًا، ولا تغني شفاعتُه عنهم شيئًا، وذلك مثل قوله ـ تعالى ـ على لسان إبراهيم ـ عليه السلام ـ في خطابه لقومه: ﴿ أُفٍّ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [الأنبياء:٦٧].

وقولِه لهم في مكان آخر: ﴿ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾. [الأنبياء:٥٤]

ومثل قوله من سورة (الرعد): ﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴾ [الرعد:١٤]، فشبَّه في هذه الآية حالَ الداعين لغير الله في ضياع دعائهم وعدم حصولهم منه على طائل بحال من جلس على نهر وهو ظمآن فبسط كفيه على صفحة الماء طامعًا أن يبلغ فاه، وليس الماء ببالغٍ فاه أبدًا حتى يغترف منه بيده، فكذلك هؤلاء لا يُستجاب دعاؤهم أبدًا.

ومثل قوله من سورة (الأحقاف): ﴿ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ﴾ [الأحقاف:٥].

٤ ـ ومنها: تصوير ما سيكون يوم القيامة بين العابدين والمعبودين، وبين الأتباع والمتبوعين من التبرؤ والمعاداه وتنصل المعبودين من جناية هؤلاء العابدين وإنكارهم أن يكون لهم يدٌ في إضلالهم وشركهم.

وذلك مثل قوله ـ تعالى ـ من سورة البقرة: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة:١٦٥-١٦٧].

ومثل قوله من سورة (المائدة): ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة:١١٦-١١٨].

ومثل قوله من سورة (الأعراف): ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَاۖ

حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابًا ضِعۡفًا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٧، ٣٨].

ومثل قوله من سورة (يونس) ـ عليه السلام ـ: ﴿ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾ [يونس:٢٨-٣٠].

ومثل قوله من سورة (سبأ): ﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ [سبأ:٤٠-٤٢].

٥ ـ ومنها: بيان انفراده ـ سبحانه ـ بما له من الأسماء الحسنى والصفات العليا التي لا يكون إلهًا إلا من اتصف بها: وذلك لأن الإله يجب أن يكون كاملًا حائزًا لجميع صفات الكمال: فإن النقص منافٍ للإلهية، فإذا ثبت اختصاصه ـ سبحانه ـ بهذه الأسماء والصفات دلَّ ذلك على تفرده بالإلهية.

وذلك مثل قوله ـ تعالى ـ من سورة البقرة: ﴿ وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة:١٦٣].

وقوله في آية الكرسي التي هي أعظم آية في كتاب الله: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ

﴿إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وقوله في آخر سورة (الحشر): ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الحشر:٢٢، ٢٣].

وقوله من أول سورة (طه): ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ ﴿ٱسۡتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [طه:٥-٨].

وقوله من سورة (سبأ): ﴿قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَۖ كَلَّاۚ بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [سبأ:٢٧]»[1].

(١) «دعوة التوحيد» ص(٢٩-٣٩) بتصرف.

(١٦) مفتاح دعوة الرسل عليهم السلام

كانت الدعوة إلى تحقيق أن «لا إله إلا الله»، الركنَ الركين، والأصلَ الأصيل الذي قدمه الأنبياء على غيره حين دَعَوْا أممهم إلى الإسلام، ابتداءً بنوح - عليه السلام - الذي مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى التوحيد، قال الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [المؤمنون:٢٣].

وقال - سبحانه -: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [هود:٢٥، ٢٦].

وكذلك فعل هود - عليه السلام - قال الله - عزَّ وجلَّ -:

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾.
[الأعراف:٦٥]

وتكررت هذه الكلمة، وهذه الدعوة، على لسان صالح وشعيب وسائر الأنبياء والرسل - عليهم الصلاة والسلام -، ثم ذكرها الله - تعالى - قاعدة عامة في دعوة كل الرسل، فقال - سبحانه وتعالى -: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦].

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾.
[الأنبياء:٢٥]

ثم أمر الله ـ تعالى ـ نبينا محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ، بهذا فقال:

﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾.

[الزمر: ١١، ١٢]

وقال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴾ [الزمر: ١٤].

وعندما بعث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ معاذَ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ، إلى اليمن قال له: «**إنك تأتي قومًا أهلَ كتاب، فليكن أولَ ما تدعوهم إليه: عبادةُ الله وحده، وفي رواية: فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك؛ فَأَعْلِمْهُمْ أن الله – عزَّ وجلَّ ـ، افترض عليه خمسَ صلواتٍ في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك؛ فأعلمهم أن الله ـ تعالى ـ افترض عليهم صدقة في أموالهم، تؤخذ من أغنيائهم وتُردُّ إلى فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك؛ فإيَّاك وكرائمَ أموالهم، واتَّق دعوةَ المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**»(١).

(١) تقدم تخريجه ص (١٤).

لا إله إلا الله

(١٧) القاسم المشترك الأعظم بين جميع الرسالات السماوية

قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف:٤٥].

الأمر بالسؤال هنا تمثيل لشهرة الخبر وتحققه، كما في قول السموأل أو الحارثي:

* قهدي يجـ عه فهغ يجـ عهعق لهع ولهمه *

فكلمة التوحيد الخالدة «لا إله إلَّا الله» قالها كل نبي ورسول من الله[1]، ودعا إليها قومه منذ نزل آدم على هذه الأرض وحتى أكمل الله دينه، وأتم نعمته على الناس جميعًا بدين الإسلام.

فهي أساس دعوة نوح ـ عليه السلام ـ، كما يفهم من قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [هود: ٢٥، ٢٦].

وهي دعوة هود ـ عليه السلام ـ إلى قومه عاد، كما يفهم من قوله ـ سبحانه ـ: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ [هود:٥٠].

(١) روى أمير المؤمنين عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أنه قال: «**أفضل ما قلت أنا والنبيون عشية عرفة: لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير**» انظر تخريجه ص (٦٩).

وهي دعوة صالح ـ عليه السلام ـ إلى قومه ثمود، كما يفهم من قوله ـ جل شأنه ـ: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود:٦١].

وهي دعوة شعيب ـ عليه السلام ـ إلى قومه أهل مدين، كما يشير قول الله ـ تعالى ـ : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾[هود:٨٤].

وهي دعوة إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى قومه؛ يقول الله ـ تعالى ـ فيما يقصه عنه: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

[العنكبوت:١٦، ١٧]

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿ ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

[الزخرف:٢٦-٢٨]

دعوة موسى ـ عليه السلام ـ إلى التوحيد

وهي دعوة موسى ـ عليه السلام ـ وأول كلام تلقاه عن الله، كما يشير إليه قوله ـ جلَّ شأنه ـ فيما يقصه عنه لما توجه في طريق عودته إلى مصدر النار التي رآها: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ١٢ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ١٣ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ [طه:١١-١٤].

إن العهد القديم ـ التوراة ـ يصرح بالتوحيد، ويدعو إليه، ويشدد في النهي عن الشرك بكل شعبه وكل أحواله، بل إنه يدعو إلى البراءة من المشركين أينما كانوا وحيثما حلوا، مثال ذلك قوله في سفر التثنية: «**أنا هو الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر، من بيت العبودية. لا يكن لك آلهة أخرى أمامي، لا تصنع لك تمثالًا منحوتًا، ولا صورة ما مما في السماء من فوق، وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض، لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأني أنا الرب إلهك إله غيور**»[(١)].

وقوله: «**لا تسيروا وراء آلهة أخرى من آلهة الأمم التي حولكم لأن ا لرب إلهكم إله غيور**»[(٢)].

وقوله: «**وراء الرب إلهكم تسيرون، وإياه تتقون، ووصاياه تحفظون، وصوته تسمعون، وإياه تعبدون، وبه تلتصقون**»[(٣)].

---

(١) «سفر التثنية» من كتاب العهد القديم (الإصحاح الخامس، عدد ٦-٩)، وانظر: «الخروج» (٢٠/٢-٤).

(٢) «سفر التثنية» من كتاب العهد القديم (الإصحاح السادس، عدد ١٤، ١٥).

(٣) «سفر التثنية» من كتاب العهد القديم (الإصحاح الثالث عشر، عدد ٤).

ماذا يعمل رؤساء النصارى الروحانيون أمام صراحة نصوص التوحيد في العهد القديم؟

وفي (سفر التثنية) من وصايا موسى ـ عليه السلام ـ التي كتبها الله لموسى على لَوْحَي الحجر، وأمر بني إسرائيل بحفظها، وجاء المسيح بعده فأكد عليها: **«اسمع يا إسرائيل، الرب إلهنا واحد، فتُحِب الربَّ إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك، ولتكن هذه الكلمات التي أوصيك بها اليوم على قلبك، وقُصَّها على أولادك، وتكلم بها حين تجلس في بيتك، وحين تمشي في الطريق، وحين تنام، وحين تقوم، واربطها علامة على يديك، ولتكن عصائب بين عينيك، واكتبها على قوائم أبواب بيتك وعلى أبوابك»**(١).

وفيه أيضًا: **«أنا هو الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية. لا يكن لك آلهة أخرى أمامي»**(٢).

وفي (سفر الملوك): **«ليعلم كل شعوب الأرض أن الرب هو الله، وليس آخَر»**(٣).

وجاء في (مزامير داود): **«كل الأمم الذين صنعتهم يأتون ويسجدون أمامك يا رب، ويمجدون اسمك، لأنك عظيم أنت، وصانع العجائب، أنت الله وحدك»**(٤).

هو وحده الله، وليس يشاركه في اسمه أو ألوهيته أحد، بما في ذلك المسيح ـ عليه السلام ـ.

---

(١) «سفر التثنية» (٦/ ٤-٩).

(٢) «نفسه» (٥/ ٦).

(٣) «سفر الملوك» [١] (٨/ ٦٠).

(٤) «المزمور» (٨٦/ ٩-١٠).

وجـاء في (إشـعيا): «يقول الرب:.. قبلي لم يصـور إله، وبعدي لا يكون، أنا أنا الرب، وليس غيري مُخَلِّص، أنا أخبرت وخلَّصت..»[١].

وفيـه: «أيها الـرب إلهنا، خلصنا من يـده، فتعلم ممالـك الأرض كلها أنك أنت الرب وحدك»[٢].

وفيه: «أنا الرب صانع كل شـيء، ناشـر السـماوات وحدي باسـط الأرض، من معي؟!»[٣]، فأين هذا ممن جعلوا الواحد ثلاثة؟!

وفيه: «أنا الرب وليس آخَر، لا إله سواي»[٤].

وجاء في نبوة إشـعيا أيضًا: «يقول الرب ملك إسـرائيل وفاديه ربُّ الجنود: أنا الأول وأنـا الآخِر، ولا إله غيري. ومن مثلي ينـادى، فليخبر به ويعرضه لي.. هل يوجد إله غيري؟»[٥].

ومثله كثير في أسفار العهد القديم[٦].

---

(١) «إشعيا» (٤٣/ ١٠-١٢).

(٢) «نفسه» (٣٧/ ٢٠).

(٣) «نفسه» (٤٤/ ٢٤).

(٤) «نفسه» (٤٥/ ٥).

(٥) «نفسه» (٤٤/ ٦- ٩).

(٦) انظر: «ملاخي» (٢/ ١٠)، «الملوك» [١] (٨/ ٢٧).

دعوة يحيى ـ عليه السلام ـ إلى التوحيد

عـن الحـارث الأشـعري ـ رضي الله عنه ـ أن رسـول الله ـ صلـى الله عليه وسلم ـ قال:

«إِنَّ اللهَ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ: أَنْ يَعْمَلَ بِهَا وَيَأْمُرَ بَنِي إِسْـرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، وَإِنَّهُ كَادَ أَنْ يُبْطِئَ بِهَا فَقَالَ عِيسَـى: إِنَّ اللهَ أَمَرَكَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ لِتَعْمَلَ بِهَا وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْـرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، فَإِمَّا أَنْ تَأْمُرَهُمْ، وَإِمَّا أَنْ آمُرَهُمْ؟ فَقَالَ يَحْيَى: أَخْشَـى إِنْ سَبَقْتَنِي بِهَا أَنْ يُخْسَفَ بِي أَوْ أُعَذَّبَ.

فَجَمَعَ النَّاسَ فِي بَيْتِ المَقْدِسِ، فَامْتَلَأَ المَسْـجِدُ، وَقَعَدُوْا عَلَى الشُّرَفِ، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ أَمَرَنِـي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ وَآمُرَكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ: أَوَّلُهُنَّ أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْـرِكُوا بِهِ شَـيْئًا، وَإِنَّ مَثَلَ مَنْ أَشْرَكَ بِاللهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اشْـتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِذَهَـبٍ أَوْ وَرِقٍ فَقَالَ: هَـذِهِ دَارِي وَهَذَا عَمَلِي فَاعْمَلْ وَأَدِّ إِلَيَّ، فَـكَانَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ فَأَيُّكُمْ يَرْضَى أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ؟! وَإِنَّ اللهَ أَمَرَكُمْ بِالصَّلَاةِ فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا فَإِنَّ اللهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ فِي صَلَاتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ.

وَآمُرُكُمْ بِالصِّيَامِ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ فِي عِصَابَةٍ مَعَهُ صُرَّةٌ فِيهَا مِسْكٌ فَكُلُّهُمْ يَعْجَبُ أَوْ يُعْجِبُهُ رِيحُهَا وَإِنَّ رِيحَ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ.

وَآمُرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَسَرَهُ الْعَدُوُّ فَأَوْثَقُوا يَدَهُ إِلَى عُنُقِهِ وَقَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ فَقَالَ: أَنَا أَفْدِيهِ مِنْكُمْ بِالْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ فَفَدَى نَفْسَهُ مِنْهُمْ.

وَآمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللهَ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ الْعَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ كَذَلِكَ الْعَبْدُ لَا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللهِ»(١). الحديث.

(١) رواه الترمذي رقم [٣٠٣٥]، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب»، وصححه الألباني في «صحيح سُنن الترمذي» رقم [٢٢٩٨].

دعوة عيسى ـ عليه السلام ـ إلى لا إله إلا الله

قال المسيح ـ عليه السلام ـ مخاطبًا قومه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [آل عمران:٥١].

وقال الله ـ سبحانه ـ: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة:٧٢].

وقال الله ـ جل شأنه ـ فيما قصَّه القرآن الكريم على لسان المسيح ـ عليه السلام ـ: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة:١١٧].

وقال ـ تعالى ـ في شأن المسيح ـ عليه السلام ـ: ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴾ [مريم:٣٠].

فدعوة عيسى ـ عليه السلام ـ هي التوحيد بكل شُعَبه، دعوة تنفي الوساطة بين الخالق والمخلوق بالمفهوم النصراني الشركي، ولم يدَّع المسيح ـ عليه السلام ـ قط أنه إله أو أنه وصل إلى مرتبة أعلى من مرتبة الرسالة التي كرَّمه الله بها، قال ـ تعالى ـ: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء:١٧٢].

جـاء فـي (دائرة المعـارف الأمريكية): «لقد بـدأت عقيدة التوحيـد ـ حركةً لاهوتيةً ـ بداية مبكرة جدًّا في التأريخ، وفي حقيقة الأمر إنها سبقت عقيدة التثليث بعشـرات السـنين[1]... إن عقيدة التثليث التي أُقِرت في القرن الرابع للميلاد، لم تعكـس بدقـة التعليم المسـيحي الأول فيمـا يتعلق بطبيعة الإله، بـل كانت ـ على العكس ـ انحرافًا عن هذا التعليم»[2].

بل إن وصف المسيح ـ عليه السلام ـ بالعبودية لله ـ تعالى ـ ما زال موجودًا فـي أسـفار (العهـد الجديد)، غيـر أن الترجمة العربيـة تذكر هذا اللفـظ ـ وهو ما يقابل لفظة: Servant في الإنكليزية ـ بشـيء من التضليل حتى يشتبه على القارئ العادي، فتجعله «فتى» وتتجنب لفظة «عبد»[3].

لقد جاءت أسـفار (العهد الجديد) ـ الإنجيل ـ تؤكد تفرد الخالق بالألوهية والربوبية، وتذكر ذلك على لسان المسيح ـ عليه السلام ـ وحوارييه.

ففي (إنجيل متى) أن المسـيح ـ عليه السـلام ـ أخذه الشيطان إلى قمة جبلٍ عـال جـدًّا، وأراه جميع ممالك العالم وعظمتها، وقال لـه: «أعطيك هذه كلها إن جثوتَ وسـجدتَ لي»، فقال له يسـوع: «**اذهب يا شـيطان! فقد كُتب: للرب إلهِك تسجد، وإياه وحده تعبد**»[4].

---

(١) لعلـه يقصـد بالنسـبة إلى تاريـخ النصرانية المحرَّفة، وإن كان في هذا التقدير بعشـرات السـنين تقصيـر، أما بالنسـبة للتاريخ البشـري ككل فـإن التوحيد كان هو الأصل لمدة عشـرة قرون، ثم طرأ الشـرك عليه في عهد نوح ـ عليه السـلام ـ، وتعود جذور ضلالة التثليث التي اقتبسـها مَن حرفوا عقيدة التوحيد التي دعا إليها المسيح ـ عليه السلام ـ إلى أُمَمٍ وثنية كالبراهمة والبوذيين وقدمـاء المصريين واليونانييـن والرومان، انظر: «العقائد الوثنية فـي الديانة النصرانية» لمحمد طاهر التنير ص (٢٩-٣٩).

(2) Encyclopedia Americana (27/ 294 L).

(٣) انظر مثلًا: «إنجيل متى» (١٢/ ١٨)، و«سفر أعمال الرسل» (٣/ ١٣).

(٤) «إنجيل متى» (٤/ ١٠)، ومثله في «إنجيل لوقا» (٤/ ٨).

وفي (إنجيل مرقص): «وتقدم إليه واحد من الكتبة، كان قد سمعهم يتجادلون، ورأى أنه أحسن الرد عليهم، فسأله «أيةُ وصيةٍ هي أولى الوصايا جميعًا؟» فأجابه يسوع: «**أولى الوصايا جميعًا هي: اسمع يا إسرائيل، الرب إلهنا رب واحدٌ، فأَحِبَّ الربَّ إلهك بكل قلبِك، وبكل نفسِك، وبكل فكرِك، وبكل قوتِك. هذه هي الوصية الأولى. وهناك ثانية مثلُها، وهي: أن تحب قريبك كنفسك، فما من وصية أخرى أعظم من هاتين**». فقال له: «**صحيح يا معلم! حَسَبَ الحقِّ تكلمتَ. فإن الله واحدٌ، وليس آخَرُ سواه، ومحبته بكل القلب، وبكل الفَهمِ، وبكل القوةِ، ومحبة القريب كالنفس، أفضل من جميع المُحرَقاتِ، والذبائح!**».

فلما رأى يسوع أنه أجاب بحكمة، قال له: «**لست بعيدًا عن ملكوت الله!**» ولم يجرؤ أحدٌ بعد ذلك أن يوجه إليه أيَّ سؤال»[(١)].

وفي (إنجيل يوحنا) أن المسيح ـ عليه السلام ـ قال: « **والحياة الأبدية هي أن يعرفوك أنت الإله الحق وحدك، والذي أرسلتَه: يسوع المسيح**»[(٢)].

وفيه أيضًا: أن المسيح خاطب امرأة قائلًا: «**وقولي لهم: إني أصعد إلى أبي وأبيكم، وإلهي وإلهكم**»[(٣)].

وجاء في (إنجيل متى) على لسان المسيح ـ عليه السلام ـ قوله: «**ولا تدعوا لكم أبًا على الأرض، لأن أباكم واحد، الذي في السماوات. ولا تدعوا معلمين، لأن معلمكم واحد، المسيح**»[(٤)].

---

(١) «إنجيل مرقص» (١٢/ ٢٨-٣٥).

(٢) «إنجيل يوحنا» (١٧/ ٣، ٤).

(٣) «إنجيل يوحنا» (٢٠/ ١٧).
وقد جاء تعبير «ابن الله» و«أبناء الله» مرات كثيرة في العهدين القديم والجديد مرادًا به: القريب من الله، أو: كل عبد مخلص لله ـ تعالى ـ ، وانظر: «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» (٢/ ٢٣٩، ٢٤٠)، «البيان الصحيح لدين المسيح» ص(٢٥٧-٢٦٠).

(٤) «إنجيل متى» (٢٣/ ٩ ، ١٠).

وجاء فيه أيضًا: «**وإذا واحد تقدم وقال له: أيها المعلم الصالح، أي صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية؟ فقال له: لماذا تدعوني صالحًا، ليس أحد صالحًا إلا واحد، وهو الله**»[(١)].

وكذا قول يوحنا: «**كَلَّم يسوع بهذا، ورفع عينيه نحو السماء، وقال: أيها الآب قد أتت الساعة، مَجِّدْ ابنَك ليُمَجِّدَكَ ابنُك أيضًا، إذ أعطيته سلطانًا على كل جسد، ليعطي حياة أبدية لكل من أعطيته، وهذه هي الحياة الأبدية: أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته**»[(٢)]، فليس من إله على الحقيقة إلا واحد، وهو الآب الذي كان المسيح يخاطبه في أول الفقرة «**أيها الآب**»، وأما سائر الأقانيم فقد أنكر المسيح ألوهيتها، حين قال بأن الآب وحده هو الإله الحقيقي.

وقال المسيح ـ عليه السلام ـ لليهود: «**أنتم تعملون أعمال أبيكم. فقالوا له: إننا لم نولد من زنا. لنا أب واحد، وهو الله. فقال لهم يسوع: لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني، لأني خرجت مِن قِبَلِ الله وأتيت، لأني لم آتِ من نفسي، بل ذاك أرسلني**»[(٣)].

والتوحيد معتقد تلاميذ المسيح وتلاميذهم، وقد أقر بذلك نصراني معاصر يُدعى (عوض سمعان) حيث قال: «إن المتفحص لعلاقة الرسل والحواريين بالمسيح يجد أنهم لم ينظروا إليه إلا على أنه إنسان، ولم يتصوروا على الإطلاق أنه إله»[(٤)].

---

(١) «نفسه» (١٩/ ١٧)، ولا شك أن المسيح وسائر الأنبياء هم أصلح الصالحين من البشر، فيتعين فهم وصف «الصالح» في هذا النص بأنه المستحق للعبادة وحده، كما يؤيده السياق، والله أعلم.

(٢) «إنجيل يوحنا» (١٧/ ٢، ٣).

(٣) «نفسه» (٨/ ٤١، ٤٢).

(٤) «الله: طرق علائه عن ذاته» نقلًا عن «النصرانية والإسلام» للمستشار محمد عزت الطهطاوي ص (١٩٠).

وقد نقل عنهم (العهدُ الجديد) ما يدل على ذلك:

فمن ذلك: ما جاء على لسان التلميذ يعقوب: «**أنت تؤمن أن الله واحد. حسنًا تفعل**»[(١)]، ولا شك أن القول بألوهية غير الله ليس من الحُسن في شيء.

ويقول: «**واحد هو واضع الناموس القادر أن يخلص ويهلك**»[(٢)].

ويقول يهوذا: «**الإله الحكيم الوحيد مخلصنا**»[(٣)].

بل إن (بولس) له بعض النصوص التي تعترف لله بالوحدانية، ومن ذلك قوله: «**يوجد إلٰه واحد، ووسيط بين الله والناس: الإنسان يسوع المسيح**»[(٤)].

ويقول واصفًا الله بالوحدانية وغيرها من صفات الجلال والكمال: «**المبارك العزيز الوحيد ملك الملوك ورب الأرباب، الذي وحده له عدم الموت، ساكنًا في نور، لا يدنى منه، الذي لم يره أحد من الناس، ولا يُقدر أن يراه، الذي له الكرامة والقدرة الأبدية**»[(٥)].

ويقول: «**لكن الله واحد**»[(٦)].

فهذه النصوص، وكثير مثلها تتحدث عن الإله الواحد، وليس في واحد منها أو غيرها حديث عن الإله المتعدد الأقانيم المتوحد في الجوهر الذي يدعيه النصارى.

---

(١) «يعقوب» (٢/ ١٩).

(٢) «نفسه» (٤/ ١٢).

(٣) «يهوذا» [٢٥].

(٤) «تيموثاوس» [١] (٢/ ٥)، ومعنى الوساطة هنا أنها في تبليغ الوحي، انظر: «الواسطة بين الحق والخلق» لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ.

(٥) «نفسه» [١] (٦/ ١٥، ١٦).

(٦) «غلاطية» (٣/ ٢٠).

لا إله إلا الله

(١٨) ملة إبراهيم الحنيفية

أفضـل من دعـا إلى «لا إله إلا الله» بعد رسـول الله محمد ـ صلى الله عليه وسلم[(١)] ـ، أبوه إبراهيم ـ عليه السلام ـ أبو الأنبياء وخليل الرحمن.

---

(١) فـإن الله ـ عـزَّ وجلَّ ـ فضَّل الأنبياء ـ عليهم السـلام ـ على الأولياء، وأفضل الأنبياء المرسـلون منهـم، وأفضـل المرسـلين أولوا العـزم؛ منهم: محمـد، وإبراهيم، وموسـى، وعيسـى، ونوح ـ عليهـم السـلام ـ، وأفضـل أولي العـزم على الإطـلاق: نبينا محمـد ـ صلى الله عليه وسـلم ـ بالإجماع، يليه في الأفضلية: إبراهيم ـ عليه السـلام، خليل الرحمن، وأبـو الأنبيـاء ـ. عن أنس ـ رضـي الله عنـه ـ قـال: قـال رجـل لرسـول الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ: «يـا خـير البريـة»، فقـال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**ذاك إبراهيم**» [رواه مسلم (٤/ ١٨٣٩)، وأبو داود (٤/ ٢١٨)، والإمـام أحمـد (٣/ ١٧٨ ، ١٨٤)]، وخُـصَّ من هذا النص محمد رسـول الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ بالإجمـاع، فبقيَ على عمومه. انظـر: «مباحث المفاضلة في العقيـدة» للدكتور محمد الشظيفي ص(١٣٦-١٤١).

قـال الإمـام النووي ـ رحمـه الله ـ: «قال العلماء: إنما قال ـ صلى الله عليه وسـلم ـ هذا ـ أي إن إبراهيم خير البرية ـ تواضعًا واحترامًا لإبراهيم ـ صلى الله عليه وسلم ـ لخلته وأبوته، وإلا فنبينا أفضل كما قال ـ صلى الله عليه وسـلم ـ: «**أنا سـيد ولد آدم**»، ولم يقصد به الافتخار ولا التطاول على مَنْ تقدمه، بل قاله بيانًا لِما أُمِرَ ببيانه وتبليغه، ولهذا قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**ولا فخر**»؛ لينفي ما قد يتطرق إلى بعض الأفهام السخيفة»اهـ من «شرح صحيح مسلم» (١٥/ ١٢١).

وقـال الحافـظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «وهذا كله لا ينافي مـا ثبت بالتواتر عنه ـ صلوات الله وسـلامه عليه ـ من أنه «**سـيد ولد آدم يوم القيامة**»، وكذلك حديث أُبي بن كعب في «صحيح مسـلم»: «**وأخـرت الثالثـة ليـوم يرغـب إلـيَّ الخلـقُ كلهم حتـى إبراهيـم**»، ولمـا كان إبراهيم ـ عليـه السـلام ـ أفضل الرسـل وأولـي العزم بعـد محمد ـ صلوات الله وسـلامه عليهـم أجمعين ـ أُمِـرَ المصلـي أن يقـول فـي تشـهدِهِ ما ثبـت فـي «الصحيحين» مـن حديث كعب بـن عجرة وغيـره، قال: قلنا: يا رسـول الله! هذا السـلام عليـك قد عرفناه؛ فكيـف الصلاة عليك؟ =

فقد افتتح إبراهيم ـ عليه السلام ـ عهدًا جديدًا، وسطَّر في تاريخ الدعوة إلى التوحيد فصلًا متميزًا فريدًا؛ إذ دعا إلى تحقيق هذه الكلمة في قوةٍ وحرارةٍ بالغتين، وجاهر قومه وأباه بالعداوة، وقال لهم في صراحة وجرأة: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة : ٤].

وقال لهم كذلك: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء : ٧٥-٨٢].

ولما حاجَّه قومه في الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وخوفوه عاقبة كفره بآلهتهم وشتمه لها، قال لهم مُوبِّخًا مُسَفِّهًا: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ

= قال: «قولوا: **اللهم صَلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم، إنكَ حميدٌ مجيد**»، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ قالوا: وفي جميع ما أُمِرَ به، وقام بجميع خِصال الإيمان وشعبه، وكان لا يشغله مراعاة الأمر الجليل عن القيام بمصلحة الأمر القليل، ولا يُنسيه القيام بأعباء المصالح الكبار عن الصغار»اهـ من «البداية والنهاية» (١/ ١٧١).

وقال الحافظ ابن كثير أيضًا: «وقد ثبت عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ في «صحيح مسلم» [٨٢٠].. أنه قال: «**سأقوم مقامًا يرغبُ إليَّ الخلقُ كلُّهم حتى إبراهيم**»، فمدح إبراهيم أباه مِدْحة عظيمة في هذا السياق، ودلَّ كلامه على أنه أفضل الخلائق بعده عند الخلَّاق، في هذه الحياة الدنيا، ويوم يُكشف عن ساقٍ»اهـ. من «البداية والنهاية» (١/ ٣٨٥، ٣٨٦) ط. دار هجر.

ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ٨٠-٨٣].

ولـم يكتـف إبراهيم بهذه الدعـوة القولية إلى التوحيد، بـل بلغت به الجرأة وبيع النفس لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن كاد لهذه الأصنام، فاهتبل فرصة خروج القوم إلى عيدٍ لهم فراغ إلى آلهتهم فقال لهم مُستهزئًا: «ألا تأكلون؟ ما لكم لا تنطقون؟!»، فراغ عليهم ضربًا باليمين، فجعلهم جُذاذًا إلا كبيرًا لهم لعلهم إليه يرجعون، فلما رجـع القوم إلى مدينتهم ووجدوا أصنامهم علـى هذا النحو من التفتت والهوان، قالـوا: مـن فعل هـذا بآلهتنا؟ إنهُ لمن الظالمين. قالوا: سـمعنا فتـىً يذكرهم يُقال له إبراهيم.

وهكـذا انحصـرت التهمـة فـي إبراهيـم ﴿ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦١-٧٠].

وهكـذا ضرب إبراهيم المثـل في التضحية والإخلاص والتفانـي في الدعوة إلى الله، واحتمـال كل ما يلقى في سـبيلها ولـو كان التحريق بالنار، واسـتحق بذلك مـا أثنـى الله به عليه في كتابه من قوله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ

﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣].

وقوله: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣٢].

ولم تكن أهمية الدور الذي قام به إبراهيم ـ عليه السلام ـ في الدعوة إلى التوحيد قاصرة على ما بذله في حياته؛ من جهدٍ استحق بهِ لقب الخلة للرحمن، وتبوأ به منصب الإمامة في الدين، بل إن أهميته لتظهر أكثر وأكثر في امتداد دعوته في الأجيال من بعده[1]، قال ـ سبحانه ـ: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [العنكبوت:٢٧]، فجميع الأنبياء بعد إبراهيم ـ عليه السلام ـ كلهم من ذريته؛ ولهذا لُقِّب بأبي الأنبياء.

وقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨].

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ:

«يقول ـ تعالى ـ مُخبرًا عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء، ووالد مَنْ بُعِثَ بعده من الأنبياء، الذي تنتسب إليهِ قريش في نسبها ومذهبها: إنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان، فقال: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ

(١) «دعوة التوحيد» ص (١٢٣، ١٢٤).

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ [٢٧] أي: هذه الكلمة وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان، وهي «لا إله إلا الله» أي: جعلها دائمة في ذريته يقتدي به فيها من هداه الله من ذرية إبراهيم ـ عليه السلام ـ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: إليها. وقال عكرمة، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم في قوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ يعني: لا إله إلا الله، لا يزال في ذريته من يقولها. ورُوِيَ نحوه عن ابن عباس. وقال ابن زيد: كلمة الإسلام، وهو يرجع إلى ما قاله الجماعة»[1] اهـ.

وجعل الله ـ سبحانه ـ خليله إبراهيم ـ عليه السلام ـ وأتباعه أسوة لعباده المؤمنين فقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

ومن يوم أن غرس إبراهيم شجرة التوحيد وهي مورقة يانعة الثمار بفضل مَن تعهدها بعده بالسقي والإنماء من الرسل والأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ.

نعم كانت تذبل أحيانًا، ويجف ورقها، وتتصوَّح أزهارها بسبب تفريط الأبناء وغفلتهم عن عهود الآباء، ولكنها على كل حال بقيت تغالب عوامل الموت والفناء. ولقد جاء عليها بعد عيسى ـ عليه السلام ـ آخِر أنبياء بني إسرائيل وقت من الزمان كادت تذهب فيه وينمحي أثرها لولا أن تداركتها عناية الله بالرسالة الجامعة الخاتمة التي جاء بها محمد بن عبد الله النبي القرشي الأمي الهاشمي ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، فبعث فيها الحياة قوية فتية، وجدَّد من شبابها حتى استغلظت واستوت على سوقها وصارت وارفة الظلال ممتدة الأفياء أصلها ثابت وفرعها في السماء[2].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٧/ ٢٢٦) ط. دار الحديث ـ القاهرة.

(٢) «دعوة التوحيد» ص (١٢٥).

ثناء الله ـ تعالى ـ على خليله إبراهيم ـ عليه السلام

أولًا ـ إبراهيم أمّة:

قال ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٢].

ـ ﴿ أُمَّةً ﴾ أي: يعدل وحده جماعة فيما رزقه الله من إيمانٍ وثباتٍ وشِيَمٍ.

ـ ﴿ قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ أي: قائمًا بأمر الله ـ تعالى ـ، مائلًا إلى ملة الإسلام ميلًا لا يزول عنه.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

«إن الله أثنى على إبراهيم خليله بقوله ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ الآية، فهذه أربعة أنواع من الثناء:

١ ـ افتتحها بأنه ﴿ أُمَّةً ﴾ وهو القدوة الذي يؤتم به.

قال ابن مسعود: (الأمة: المعلم للخير)، وهي فُعلة ـ بضم الفاء ـ من الائتمام كالقدوة وهو الذي يُقتدى به[1]، والفرق بين (الأمة) و(الإمام) من وجهين:

(١) وهذا المعنى هو المقصود من قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [البقرة: ١٢٤] أي: إمامًا للناس يُقتدى به في التوحيد جزاءً على ما فعل، وكما قام بالأوامر وتَرَكَ الزواجر جعلهُ للناس قدوةً وإمامًا يُقتدى به، ويُحتذى حذوه.

أحدهما ـ أن (الإمام) كل ما يُؤْتَم به، سواء كان بقصده وشعوره أوْ لا، ومنه سُميَ الطريق إمامًا، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ۝٧٨ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحِجر:٧٨، ٧٩]، أي: بطريقٍ واضحٍ لا يخفى على السالِك، ولا يُسمى الطريق أمة.

الثاني ـ أن ﴿ **الأمة** ﴾ فيه زيادة معنى، وهو الذي جمع صفاتِ الكمال من العلم والعمل، بحيث بقيَ فيها فردًا وحدهُ، فهو الجامع لخصالٍ تفرقت في غيره، فكأنهُ باين غيره باجتماعها فيه، وتفرقها أو عدمها في غيره، ولفظ (الأمة) يشعر بهذا المعنى؛ لما فيه من الميم المضعَّفة الدالَّة على الضم بمخرجها وتكريرها، وكذلك ضم أوله، فإن الضمة من الواو ومخرجها ينضم عند النطق بها، وأتى بالتاء الدالة على الوحدة كالغرفة واللقمة، ومنه الحديث: «**إن زيد بن عمرو بن نُفيل يُبعث يوم القيامة أُمة وحده**»[1]، فالضم والاجتماع لازم لمعنى الأمة، ومنه سُميت الأمة التي هي آحاد الأمم؛ لأنهم الناس المجتمعون على دينٍ واحدٍ أو في عصرٍ واحدٍ.

٢ ـ قوله: ﴿ قَانِتًا لِّلَّهِ ﴾ قال ابن مسعود: «**القانت**: المطيع»، والقنوت يُفسر بأشياء كلها ترجع إلى دوام الطاعة.

٣ ـ قوله: ﴿ حَنِيفًا ﴾، **والحنيف**: المقبل على الله.

ويلزم من هذا المعنى ميله عما سواه، فالميل لازم معنى الحنيف، لا أنه موضوعه لغةً.

---

(١) رواه الإمام أحمد (٣/ ١١٦، ١١٧) عن سعيد بن زيد ـ رضي الله عنه ـ، وصححه الشيخ أحمد شاكر، وانظر: «مجمع الزوائد» (٩/ ٤١٧).

٤ ـ قولـه: ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ والشـكر للنعـم مبنـي علـى ثلاثـة أركان: الإقـرار بالنعمة، وإضافتها إلى المنعم بها، وصرفها في مرضاته، والعمل فيها بما يجب؛ فلا يكون العبد شاكرًا إلا بهذه الأشياء الثلاثة.

والمقصود: أنه ـ سـبحانه ـ مدح خليله بأربع صفات كلها ترجع إلى العلم، والعمـل بموجبه، وتعليمه ونشـره، فعاد الكمال كله إلـى العلم والعمل بموجبه، ودعوة الخلق إليه»[1] اهـ.

ـ أجل! لقد كان إبراهيم ـ عليه السـلام ـ أُمةً في إيمانه وعبوديته لله وشـكره على نعمه.

ـ أُمةً في ثباته على الحق، وصبره على أذى قومهِ وظلمهم.

ـ أُمـةً في حِلْمِهِ، وسَـعَةِ صـدرهِ، ولين جانبه، وحُسـن خُلُقـهِ، وقوة حجته، وشدة ذكائه.

ـ أُمةً في سخائه، وكرمه، وإنفاقه على من يعرف ومن لا يعرف.

ـ أُمةً في تَبرُّئِهِ من المشركين، وعدم موالاتهم، وتميزه عنهم[2].

ـ أمـة في تمام تجرده، وشـدة إذعانه، وانقياده لأمـر الله ـ تعالى ـ في جميع أموره.

(١) «مفتاح دار السعادة» (١٨٩، ١٩٠) نقلًا عن: «بدائع التفسير» (٣/ ٦٢-٦٤) بتصرف.
(٢) «منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله» ص(٢١٢، ٢١٣).

ثانيًا ـ إبراهيم خليل الله:

قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء:١٢٥].

الخُلَّة: هي غاية المحبة، وسُمِّي الخليلُ خليلًا لأن محبته تتخلل القلب فلا تدع فيه خللًا إلا ملأته، كما قال بعضهم:

نف غفههغ هقهن عهقوفى هەي وغقع قهى عهفهيه فهي

ولم ينل هذه المنزلةَ إلا إبراهيمُ ـ عليه السلام ـ، والمصطفى ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ.

روى مسلم بسنده إلى جندب بن عبد الله البجلي ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «**إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله قد اتخذني خليلًا، كما اتخذ إبراهيم ـ عليه السلام ـ خليلًا، ولو كنتُ متخذًا من أمتي خليلًا لاتخذتُ أبا بكرٍ خليلًا**»(١).

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «**إني أبرأ إلى كل خليل من خُلته، ولو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، وإن صاحبكم خليلُ الله**»(٢).

وأخرج البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون قال: إن معاذًا لما قدم اليمن صلى بهم الصبح فقرأ: ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ فقال رجل من القوم: «لقد قَرَّتْ عينُ أمِّ إبراهيم»(٣).

---

(١) رواه مسلم (١/ ١٤٩).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» [٣٥٨٠]، ومسلم (٢/ ٢٣١)، والترمذي (٤/ ٣٠٨).

(٣) رواه البخاري (٨/ ٦٦٢)، رقم [٤٣٤٨].

وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ:

«وقوله: ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ وهذا من باب الترغيب في اتباعه؛ لأنه إمام يُقتدى به، حيث وصل إلى غاية ما يتقرب به العباد له، فإنه انتهى إلى درجة الخُلَّة التي هي أرفع مقامات المحبة، وما ذاك إلا لكثرة طاعته لربه، كما وصفه به في قوله: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴾ [النجم:٣٧]، قال كثيرون من السلف: أي قام بجميع ما أُمِر به، ووفَّى كل مقام من مقامات العبادة، فكان لا يشغله أمر جليل عن حقير، ولا كبير عن صغير، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [البقرة:١٢٤]. وقال ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النحل:١٢٠-١٢٢].

وإنما سُمِّي خليلَ الله لشدة محبة ربه ـ عزَّ وجلَّ ـ له، لما قام له من الطاعة التي يحبها ويرضاها؛ ولهذا ثبت في الصحيحين، عن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما خطبهم في آخر خطبة خطبها قال: «**أما بعد، أيها الناس، فلو كنت متخذًا من أهل الأرض خليلًا لاتخذت أبا بكر ابن أبي قحافة خليلًا، ولكن صاحبكم خليلُ الله**». وجاء من طريق جُنْدُب بن عبد الله البَجَلي، وعبد الله بن عَمرو بن العاص، وعبد الله بن مسعود، عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**إن الله اتخذني خليلًا، كما اتخذ إبراهيم خليلًا**»[1].

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٤٧٠-٤٧٢) بتصرف.

ثالثًا ـ إبراهيم أبو الأنبياء:

أخبر الله ـ تعالى ـ أنه منذ بَعَث نوحًا ـ عليه السلام ـ لم يرسل بعده رسولًا ولا نبيًّا إلا من ذريته، وكذلك إبراهيم ـ عليه السلام ـ خليل الرحمن، لم يُنزِّل من السماء كتابًا ولا أرسل رسولًا، ولا أوحى إلى بشر من بعده، إلا وهو من سلالته، فقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد:٢٦].

وقال ـ سبحانه ـ في شأن إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [العنكبوت:٢٧].

رابعًا ـ تعظيم الله ـ تعالى ـ لملة إبراهيم ـ عليه السلام ـ:

من شرف إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن أضافه الله ـ تعالى ـ إلى دين الإسلام، ونسب الملة الحنيفية إلى اسمه الشريف فقال: «ملة إبراهيم» وقد عظم الله ـ سبحانه ـ «ملة إبراهيم» بأساليب شتى:

ـ فقد نص على أن جميع الأنبياء مِن بعده افتخروا بانتمائهم إلى ملة إبراهيم ودعوا قومهم إليها:

ـ فقد قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٠-١٣٢].

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيرها:

«يقول ـ تبارك وتعالى ـ ردًّا على الكفار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك بالله، المخالف لملة إبراهيم الخليل، إمام الحنفاء، فإنه جَرَّد توحيد ربه ـ تبارك وتعالى ـ، فلم يَدْعُ معه غيره، ولا أشرك به طرفة عين، وتبرأ من كل معبود سواه، وخالف في ذلك سائر قومه، حتى تبرأ من أبيه، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٧٨، ٧٩]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف:٢٦، ٢٧]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾ [التوبة:١١٤]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرٗا لِّأَنْعُمِهِۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النحل:١٢٠-١٢٢]، ولهذا وأمثاله قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ أي: عن طريقته ومنهجه، فيخالفها ويرغب عنها ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ أي: ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره بتركه الحقَّ إلى الضلال، حيث خالف طريق من اصْطُفِيَ في الدنيا للهداية والرشاد، من حَداثة سِنِّه إلى أن اتخذه الله خليلًا، وهو في الآخرة من الصالحين السعداء، فترك طريقه هذا ومسلكه وملّته واتبع طُرُقَ الضلالة والغي، فأي سفه أعظم من هذا؟! أم أي ظلم أكبر من هذا؟! كما قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٞ﴾.

وقال أبو العالية وقتادة: «نزلت هذه الآية في اليهود؛ فأحدثوا طريقًا ليست من عند الله، وخالفوا ملَّة إبراهيم فيما أخذوه»، ويشهد لصحة هذا القول قول الله ـ تعالى ـ : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:٦٧، ٦٨].

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي: أمره الله بالإخلاص له والاستسلام والانقياد، فأجاب إلى ذلك شرعًا وقدرًا، وقوله: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾، أي: وصى بهذه الملَّة، وهي الإسلام لله لحرصهم عليها ومحبتهم لها حافظوا عليها إلى حين الوفاة ووصَّوْا أبناءهم بها مِن بعدهم: ﴿ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أي: أحسِنوا في حال الحياة، والزموا هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه. فإن المرء يموت غالبًا على ما كان عليه، ويُبعث على ما مات عليه. وقد أجرى الله الكريم عادته بأن من قصد الخير وُفِّق له ويُسِّر عليه. ومن نوى صالحًا ثبت عليه. وهذا لا يعارض ما جاء في الحديث الصحيح: «**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باعٌ أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها. وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**»(١)؛ لأنه قد جاء في بعض روايات هذا الحديث: «**فيعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، ويعمل بعمل أهل النار فيما يبدو**

---

(١) هذا جزء من حديث رواه أحمد في «المسند» [٣٦٢٤]، من حديث ابن مسعود، وكذلك رواه البخاري ومسلم وغيرهما. وهو الحديث الرابع من الأربعين النووية.

للناس». وقد قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [الليل: ٥-١٠]»[1].

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣، ١٣٤].

يقول ـ تعالى ـ محتجًّا على المشركين من العرب أبناء إسماعيل، وعلى الكفار من بني إسرائيل ـ وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام ـ بأن يعقوب لما حضرته الوفاة وصى بنيه بعبادة الله وحده لا شريك له، فقال لهم: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ وهذا من باب التغليب لأن إسماعيل عمه. ﴿ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ أي: نُوَحِّدُه بالألوهية، ولا نشرك به شيئًا غيره ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ أي: مطيعون خاضعون كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٣].

والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة، وإن تنوَّعت شرائعهم، واختلفت مناهجهم، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. والآيات في هذا كثيرة والأحاديث، فمنها:

---

(١) هذا جزء من حديث آخر، عن سهل بن سعد، وإنما اعتبره المؤلف الحافظ من بعض روايات الحديث الذي قبله ـ باعتبار المعنى، لا باعتبار اتحاد الصحابي. وحديث سهل بن سعد رواه مسلم (٢/ ٢٩٩، ٣٠٠) مختصرًا. ورواه البخاري (٦/ ٦٦)، ومسلم (١/ ٤٣) مطولًا في قصة.

قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**نحن مَعْشَرَ الأنبياء أولاد عَلَّات ديننا واحد**»[(١)]. الحديث.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ أي: مضت ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ﴾ أي: إن السلف الماضين من آبائكم من الأنبياء والصالحين لا ينفعكم انتسابكم إليهم إذا لم تفعلوا خيرًا يعود نفعُه عليكم، فإن لهم أعمالهم التي عملوها ولكم أعمالكم: ﴿ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾»[(٢)]اهـ.

وهذا يوسف ـ عليه السلام ـ يفخر بانتسابه إلى ملة إبراهيم، فقد قص الله علينا في حواره ـ عليه السلام ـ مع صاحبي السجن:

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يوسف:٣٧، ٣٨].

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ:

«يخبرهما يوسفُ ـ عليه السلام ـ أنهما مهما رأيا في نومهما من حُلْم، فإنه عارف بتفسيره، ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه؛ ولهذا قال: ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ ﴾ قال مجاهد: في نومكما ﴿ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾. ثم قال: وهذا إنما هو من تعليم الله إياي؛ لأني اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر، فلا

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٣٥٢)، ومسلم [٢٣٦٥][١٤٥].

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٣٩٨ - ٤٠١) بتصرف.

يرجون ثوابًا ولا عقابًا في المعاد ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَاءِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ الآية، يقول: هجرت طريق الكفر والشرك، وسلكت طريق هؤلاء المرسلين ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ، وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى، واتبع طريق المرسلين، وأعرض عن طريق الظالمين فإنه يهدي قلبه ويعلِّمه ما لم يكن يعلمه، ويجعله إمامًا يُقتدى به في الخير، وداعيًا إلى سبيل الرشاد.

﴿مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾: هذا التوحيد، وهو الإقرار بأنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له ﴿مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾ أي: أوحاه إلينا، وأمرنا به ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾، إذ جعلنا دعاة لهم إلى ذلك ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم، بل ﴿بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم:٢٨]» اهـ[(١)].

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال:

قيل للنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: من أكرم الناس؟ قال: «**أكرمهم أتقاهم**». قالوا: يا نبي الله، ليس عن هذا نسألك. قال: «**فأكرم الناس يوسفُ نبيُّ الله ابنُ نبيِّ الله ابنِ نبيِّ الله ابنِ خليل الله**..» إلى آخر الحديث[(٢)].

- الجواب الأول ـ أكرم الناس يوسف ـ من جهة الشرف بالأعمال الصالحة، والثاني من جهة الشرف بالنسب الصالح.

وافتخر رسول الله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بانتمائه لملة أبيه إبراهيم ـ عليه السلام ـ:

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٣٩٧، ٣٩٨).

(٢) رواه البخاري [٣٣٧٤]، [٣٣٨٣]، [٤٦٨٩]، والنسائي في «الكبرى» [١١٢٥٠].

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [الأنعام:١٦١-١٦٣].

يقول ـ تعالى ـ آمرًا لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ سيد المرسلين أن يخبر بما أنعم به عليه من الهداية إلى صراطه المستقيم، الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ﴿ دِينٗا قِيَمٗا ﴾ أي: قائمًا ثابتًا ﴿ مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ كقوله: ﴿ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ ﴾ [البقرة :١٣٠][1].

وأمر الله ـ تعالى ـ خليلَه ورسولَه محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يتبع ملة إبراهيم:

﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [النحل : ١٢٠-١٢٣].

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ: «يمدح ـ تعالى ـ عبده ورسوله وخليله إبراهيم، إمامَ الحنفاء ووالدَ الأنبياء، ويبرئه من المشركين ومن اليهودية والنصرانية فقال: ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا ﴾، فأما «الأمة»، فهو الإمام الذي يُقتدى به. والقانت: هو الخاشع المطيع. والحنيف: المنحرف قصدًا عن الشرك إلى التوحيد؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾.

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤٢٣ ، ٤٢٤).

وقوله: ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ أي: قائمًا بشكر نعم الله عليه، كما قال: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ [النجم: ٣٧]، أي: قام بجميع ما أمره الله ـ تعالى ـ به ﴿ٱجْتَبَٰهُ ﴾ أي: اختاره واصطفاه ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرع مرضيٍّ. وقوله: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ أي: جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه في إكمال حياته الطيبة ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾. وقال مجاهد في قوله: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ أي: لسان صدق. وقوله: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ أي: من كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه، أنا أوحينا إليك يا خاتم الرسل وسيد الأنبياء: ﴿ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاوَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾، كما قال: ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١]»[(١)] اهـ.

«وليس يلزم من كونه ـ عليه السلام ـ أُمِرَ باتباع ملة إبراهيم الحنيفية أن يكون إبراهيمُ أكملَ منه فيها؛ لأنه ـ عليه السلام ـ قام بها قيامًا عظيمًا، وأُكملت له إكمالًا تامًّا لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال؛ ولهذا كان خاتَمَ الأنبياء، وسيدَ ولد آدم على الإطلاق، وصاحبَ المقام المحمود الذي يرغب إليه الخلق كلهم، حتى إبراهيم ـ عليه السلام ـ. وقد روى ابن مَرْدُوَيه عن ابن أَبْزَى، عن أبيه قال: كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا أصبح قال: «**أصبحنا على مِلَّة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد، وملة أبينا إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين**»[(٢)].

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قيل لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ:

(١) «نفس المرجع» (٤/ ٦١٧).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٤٠٦)، والنسائي في «العمل» ص (١٣٤)، وقال الهيثمي: «رواه أحمد والطبراني ورجالهما رجال الصحيح»اهـ. من «مجمع الزوائد» (١٠/ ١١٦).

أي الأديـان أحب إلـى الله ـ تعالى ـ؟ قال: «الحنيفية السـمحة»[1]. وروى أحمد عن عائشـة، قالت: وضع رسـول الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ ذقني على منكبه، لأنظر إلى زَفْن الحبشـة، حتى كنت التي مللـتُ فانصرفتُ عنه. قال لي عروة: إن عائشـة قالت: قال رسـول الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ يومئذ: «**لتعلم يَهود أن في ديننا فُسْحَةً، إني أُرسلت بِحَنيفيَّة سَمْحَة**»[2]. أصل الحديث مُخَرَّجٌ في الصحيحين، والزيادة لها شواهد من طرق عدة، وقد استقصيت طرقها في شرح البخاري، ولله الحمد والمنة[3]»اهـ.

ـ وأمر الله ـ سبحانه ـ أتباع رسوله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ المؤمنين به؛ أن يتبعوا ملة إبراهيم ـ عليه السلام ـ، فقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران:٩٥].

قـال الحافـظ ابن كثيـر ـ رحمه الله ـ: «ثم قـال ـ تعالـى ـ: ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ﴾ أي: قل يا محمد: صدق فيما أخبر به، وفيما شرعه في القرآن ﴿ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ أي: اتبعوا ملة إبراهيم التي شـرعها الله في القرآن على لسـان محمد ـ صلى الله عليه وسـلم ـ، فإنه الحق الذي لا شك فيه ولا مِرْية، وهي الطريقة التي لم يأتِ نبيٌّ بأكملَ منها ولا أبين ولا أوضح ولا أتم»[4]اهـ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٢٣٦)، وحسنه الحافظ في «الفتح» (١/ ١١٧)، وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر [٢١٠٧].

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ١١٦)، وأورده الألباني في «الصحيحة» (٤/ ٤٤٣).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤٢٤، ٤٢٥).

(٤) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٨٢).

وقال الله ـ سبحانه ـ: ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [البقرة:١٣٥].

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «روى محمد بن إسحاق: عن ابن عباس، قال: قال عبد الله بن صُوريا الأعورُ لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ما الهدى إلا ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد تهتد. وقالت النصارى مثل ذلك. فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ﴾ . وقوله: ﴿ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ﴾ أي: لا نريد ما دعوتمونا إليه من اليهودية والنصرانية، بل نتبع ﴿ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ﴾ أي: مستقيمًا. وقال مجاهد: مخلصًا.

﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٦].

أرشد الله ـ تعالى ـ عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ مفصلًا، وما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملًا، ونص على أعيان من الرسل، وأجمل ذكر بقية الأنبياء، وأن لا يفرقوا بين أحد منهم، بل يؤمنوا بهم كلِّهم، ولا يكونوا كمن قال الله فيهم: ﴿ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّا ۚ ﴾ الآية [النساء:١٥٠، ١٥١].

وروى البخاري: عن أبي هريرة، قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبْرَانيَّة ويُفَسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تُكَذبوهم، وقولوا:** ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا ﴾ الآية». وقد روى مسلم وأبو داود والنسائي عن ابن عباس، قال، كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أكثر ما يصلي الركعتين اللتين قبل الفجر بـ ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا ﴾ الآية، والآخرى بـ ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران:٥٢]. وقال الخليل بن أحمد وغيره: الأسباط في بني إسرائيل، كالقبائل في بني إسماعيل.

﴿ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٧، ١٣٨].

يقول ـ تعالى ـ: ﴿ فَإِنۡ ءَامَنُواْ ﴾ يعني: الكفار من أهل الكتاب وغيرهم ﴿ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ ﴾ أيها المؤمنون، من الإيمان بجميع كتب الله ورسله، ولم يفرقوا بين أحد منهم ﴿ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْ ﴾ أي: فقد أصابوا الحق وأرشدوا إليه: ﴿ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ ﴾ أي: عن الحق إلى الباطل، بعد قيام الحجة عليهم ﴿ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ أي: فسينصرك عليهم ويُظْفرُك بهم ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ .

وقوله: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ﴾ : قال ابن عباس: دين الله. وانتصاب ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ﴾: إما الإغراء كقوله: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ﴾ [الروم:٣٠] أي: الزموا ذلك عليكموه. وقال بعضهم: بدلًا من قوله: ﴿ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾ . وقال سيبويه: هو مصدر مؤكد انتصب عن قوله: ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ كقوله: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ﴾ [المائدة:٩]»[1] اهـ.

وقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا ﴾ الآية [الحج:٧٨].

فقوله ـ تعالى ـ: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ فيه حث وإغراء للمؤمنين على ما جاءهم به رسول الله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه ملة أبيهم إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ.

وأثنى الله ـ سبحانه ـ ثناءً عامًّا على كل من اتبع ملة إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقال: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ الآية. [النساء:١٢٥].

قال الحافظ ابن كثير: «ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾ أي: أخلص العمل لربه ـ عزَّ وجلَّ ـ فعمل إيمانًا واحتسابًا ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أي: اتبع في عمله ما شرعه الله له، وما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق، وهذان الشرطان لا يصح عمل عامل بدونهما، أي: يكون خالصًا صوابًا، والخالص. أن يكون لله. والصواب: أن يكون متابعًا للشريعة. فيصح ظاهره بالمتابعة، وباطنه بالإخلاص، فمتى فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد. فمن

(١) «نفس المصدر» (١/ ٤٠١-٤٠٤) بتصرف.

فقد الإخلاص كان منافقًا، وهم الذين يراؤون الناس، ومن فقد المتابعة كان ضالًّا جاهـلًا. ومتـى جمعهمـا فهو عمـل المؤمنيـن ﴿ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف:١٦]؛ ولهـذا قـال ـ تعالى ـ: ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا﴾، وهم محمد وأتباعه إلى يوم القيامـة، كمـا قـال ـ تعالـى ـ: ﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران:٦٨]. وقـال ـ تعالى ـ: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٣] والحنيف: هـو المائل عن الشـرك قصدًا، أي تاركًا له عن بصيرة، ومقبـل على الحق بكليته، لا يصده عنه صاد، ولا يرده عنه راد»[١] اهـ.

(١) «نفسه» (٢/ ٤٧٠).

ذكر إبراهيم ـ عليه السلام ـ في الكتاب المقدس عند أهل الكتاب

قـد جـاء ذكـر الخليل ـ عليه السـلام ـ فـي الكتب المقدسـة الثلاثـة التوراة والإنجيل والقرآن، وكلها تشـير إلى مكانته العالية في الدين، وتضفي عليه ما هو أهل له من المديح والثناء.

فقد جاء في (سفر التكوين) في الإصحاح الثاني عشر «إن الرب قال لإبراهيم: **«اذهـب مـن أرضك ومن عشـيرتك ومن بيت أبيـك إلى الأرض التي أريـك فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة. وأبارك من يباركك، ومن يلعنك ألعنه وفيك تتبارك جميع قبائل الأرض»** فذهب إبراهيم كما قال له الرب، وذهب معه لوط.

وفي الإصحاح السـابع عشـر جاء «ظهر الرب لإبرام وقال: **«أنا الله القدير سـر أمامـي وكن كامـلًا فاجعـل عهدي بينـي وبينـك وأكثرك كثيـرًا جدًّا، فخـر إبرام سـاجدًا وتكلـم الله معـه قائلًا: «أما أنـا فهو ذا عهـدي معك وتكون أبًـا لجمهور من الأمـم وأثمرك كثيرًا جـدًّا وأجعلك أممًا ومنـك ملوك يخرجون، وأقيـم عهدي بيني وبينـك وبين نسـلك من بعدك فـي أجيالهم عهـدًا أبديًّا لأكون إلهًا لك ولنسـلك من بعدك وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكًا أبديًّا وأكون إلههم»** إلى أن يقول:

«وأما إسـماعيل فقد سـمعت لك فيه ها أنا أباركه وأثمره وأكثـره كثيرًا جدًّا اثنى عشر رئيسًا يلد وأجعله أمة كبيرة».

وجاء في الإصحاح الحادي والعشرين عند ذكر قصة الفداء «**ونادى ملاك الرب إبراهيم ثانية من السماء وقال: بذاتي أقسمت إني من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك ووحيدك أباركك مباركة وأكثر نسلك تكثيرًا كنجوم السماء**».

وفي (العهد القديم) كذلك عدا ما ذكرنا إشارات كثيرة إلى إبراهيم ـ عليه السلام ـ منها ما يذكره ليذكر عهد الرب له ومنها ما يصفه ويصف بعض أخباره.

وقد جاء وصف إبراهيم بالخلة في (كتاب الأيام الثاني) حيث يقول في الإصحاح العشرين «**ألست أنت إلهنا الذي طردت سكان هذه الأرض أمام شعب إسرائيل وأعطيتها لنسل إبراهيم خليلك إلى الأبد**».

وجاء ذكر إبراهيم أيضًا في المصادر النصرانية، وإن كان ذلك على ندرة ففي الإصحاح الثامن من (إنجيل متَّى) يقول المسيح ـ عليه السلام ـ: «**الحق أقول لكم لم أجد في إسرائيل إيمانًا بمقدار هذا، وأقول لكم: إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب في ملكوت السموات، وأما بنو الملكوت فيطرحون إلى الظلمة الخارجية**».

وفي الإصحاح الثاني من (إنجيل يوحنا) أن المسيح قال لليهود الذين آمنوا به: «**إنكم إن ثبتم في كلامي فبالحقيقة تكونون تلاميذي وتعرفون الحق والحق يحرركم، فأجابوه: إننا ذرية إبراهيم ولم نستعبد لأحد قط فكيف تقول إنكم تصيرون أحرارًا؟ قال: الحق أقول لكم إن كل من يعمل بالخطيئة، فهو عبد للخطيئة، والعبد لا يبقى في البيت أبدًا، أما الابن فيبقى للأبد، ثم قال: لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم**».

فائدة:

تعظيم إبراهيم ـ عليه السلام ـ في القرآن الكريم:

رأينا في الفصول المتقدمة كيف عظَّم الله ـ سبحانه وتعالى ـ في كتابه المجيد ذكر إبراهيم ـ عليه السلام ـ، وذلك بعبارات تفيض ببالغ الثناء، وفريد التكريم والتعظيم والتبجيل.

لقد ذُكر اسم إبراهيم ـ عليه السلام ـ في القرآن الكريم تسعًا وستين مرة، وذكرت قصتُه في خمس وعشرين سورة، وفي ثلاث وستين آية، كما ارتبطت سيرته بسيرة ابن أخيه لوط ـ عليه السلام ـ، وبسيرة وَلَدَيْه إسماعيل وإسحق ـ عليهما السلام ـ، بل ارتبطت سيرته بسيرة كل من جاء بعده من الأنبياء لأنهم جميعًا من نسله وذريته، وكان مسكَ الختام سيدُ ولد آدم محمد عليه أفضل الصلاة والسلام[1].

وحفلت السُّنة الشريفة بأحاديث نبوية صحيحة كلها تفصِّل فضائل إبراهيم ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ كأحاديث المعراج، وذكر كونه أولَ من يُكْسى يوم القيامة، وتنزيهه عن الاستقسام بالأزلام، ووصفه بأنه خير البرية، وارتباط اسمه بكثير من شعائر الإسلام كالصلاة، وعامة مناسك الحج كالطواف والسعي وشرب زمزم، ورمي الجمرات، وذبح الهدي.

(١) انظر: «منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله» (١/ ٩٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ في سياق كلامه عن موضوعات سورة البقرة:

«ثم أخذ ـ سبحانه ـ في بيان شرائع الإسلام التي هي ملة إبراهيم: فذكر إبراهيم الذي هو إمام، وبناء البيت الذي بتعظيمه يتميز أهل الإسلام عما سواهم، وذكر استقباله، وقرر ذلك، فإنه شعار الملة بين أهلها وغيرهم؛ ولهذا يقال: أهل القبلة، كما يقال: «من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فهو المسلم»[1]»اهـ.

(١) «دقائق التفسير» (١/ ١٩٦).

تنزيه إبراهيم ـ عليه السلام ـ من اليهودية والنصرانية

من خصائص خليل الرحمن أبي الأنبياء إبراهيم ـ عليه السلام ـ أنَّ تعظيمه وحبه واحترامه والتباهي بالانتساب إليه قاسم مشترك بين المسلمين واليهود والنصارى، بل حاول كل من اليهود والنصارى ادعاء نسبته إلى ديانتهم، حتى فضح الله كذبهم، فقال ـ عزَّ وجلَّ ـ:

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.

[آل عمران: ٦٥-٦٨]

قال الحافظ بن كثير ـ رحمه الله ـ:

«ينكر ـ تعالى ـ على اليهود والنصارى في محاجتهم في إبراهيم الخليل، ودعوى كل طائفة منهم أنه كان منهم، كما روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس قال: اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهوديًّا، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانيًّا، فأنزل الله ـ تعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ الآية، أي: كيف تَدَّعُون أيها اليهود أنه كان يهوديًّا، وقد كان زمنُه قبل أن يُنـزِّل اللهُ التوراة على موسى؟ وكيف تدعون أيها النصارى أنهُ كان نصرانيًّا، وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر؟! ولهذا قال: ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾.

ثـم قـال: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ هـذا إنـكار على من يحـاج فيما لا علم له بـه، فـإنَّ اليهود والنصارى تَحَاجُّوا في إبراهيم بلا علم، ولو تحاجوا فيما بأيديهم منه عِلْم مما يتعلق بأديانهم التي شرعت لهم إلى حين بعثة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكان أولى بهم، وإنما تكلموا فيما لم يعلموا، فأنكر الله عليهم ذلك، وأمرهـم بردِّ ما لا علم لهم به إلى عالم الغيب والشـهادة، الذي يعلم الأمور على حقائقها وجلياتها، ولهذا قال: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾، أي متحنِّفًا ـ مائلًا ـ عن الشرك قاصدًا إلى الإيمان ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾، وهذه الآية كالتي تقدمت في سورة البقرة: ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٥]»[١] اهـ.

ثـم قال ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾. «يقـول ـ تعالـى ـ: أحق النـاس بمتابعة إبراهيم الخليل الذين اتبعوه على دينه، وهذا النبي ـ يعني محمدًا صلى الله عليه وسـلم ـ والذين آمنوا من أصحابه المهاجرين والأنصار ومَنْ بعدهم[٢].

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٦٢، ٦٣).

(٢) فكل من اتبع إبراهيم في القديم والحديث من حقه أن ينتمي إليه ويعتز به، وهو باتباعه له أولى الناس به، وقد رأينا فيما مضى أنه ـ عليه السلام ـ تبرأ من أبيه وأقرب الناس منه، فكيف لا يتبرأ ممن هم على عقيدة أبيه وقومه في هذا العصر وكل عصر؟!.
كيف لا يتبرأ منهم والله ـ جل وعلا ـ أخبره بأن الظالمين من أبنائه ليسـوا أئمة ولا ينالهم عهده، بل كيف لا يتبرأ منهم وهو القائل: ﴿ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وانظر: «منهج الأنبياء» ص (٢١٥).

روى سعيد بن منصور: عن ابن مسعود أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ وُلاَةً مِـن النَّبِيِّينَ وَإِنَّ وَلِيِّي مِنْهُم أَبِي وَخَلِيـلُ رَبِّي ـ عزَّ وجلَّ ـ**»، ثم قرأ: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ الآية. ورواه الترمذي والبزار، ورواه وكيع في تفسيره عن ابن مسعود بنحوه، وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، أي: ولي جميع المؤمنين برسله»[(١)] اهـ.

وقال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ مُخاطبًا أهل الكتاب:

﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٩-١٤١].

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ:

«يقول الله ـ تعالى ـ مُرشدًا نبيه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إلى درء مجادلة المشركين: ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ ﴾، أي: أتناظروننا في توحيد الله، والإخلاص له والانقياد، واتباع أوامره، وترك زواجره ﴿ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ المتصرف فينا وفيكم، المستحق لإخلاص الإلهية له وحده لا شريك له؟! ﴿ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾، أي: نحن برآء منكم ومما تعبدون وأنتم بُرآء منا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ٤١]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٦٣).

ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ٢٠]، وقال ـ تعالى ـ إخبارًا عن إبراهيم: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام:٨٠]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٩]، أي: نحن براء منكم كما أنتم براء منا، ونحن له مخلصون، أي: في العبادة والتوجه.

ثم أنكر ـ تعالى ـ عليهم في دعواهم أن إبراهيم ومَنْ ذكر من الأنبياء والأسباط كانوا على ملتهم، إما اليهودية وإما النصرانية، فقال: ﴿ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾ يعني: بل الله أعلم، وقد أخبر أنهم لم يكونوا هودًا ولا نصارى، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ الآية والتي بعدها [آل عمران: ٦٧، ٦٨].

وقوله: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾.

قال الحسن البصري: كانوا يقرؤون في كتاب الله الذي أتاهم: إن الدين الإسلام، وإن محمدًا رسول الله، وإن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا براء من اليهودية والنصرانية، فشهد الله بذلك، وأقروا به على أنفسهم لله، فكتموا شهادة الله عندهم من ذلك. وقوله: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ تهديد ووعيد شديد، أي: علمه محيط بعملكم، وسيجزيكم عليه، ثم قال: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾، أي: قد مضت ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ﴾،

أي: لهم أعمالهم ولكم أعمالكم ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وليس يغني عنكم انتسابكم إليهم، من غير متابعة منكم لهم، ولا تغتروا بمجرد النسبة إليهم حتى تكونوا مثلهم منقادين لأوامر الله واتباع رسله الذين بُعِثوا مبشرين ومنذرين، فإنه من كفر بنبيٍّ واحدٍ فقد كفر بسائر الرسل، ولاسيما من كفر بسيد الأنبياء وخاتم المرسلين ورسول رب العالمين إلى جميع الإنس والجن من المكلفين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله أجمعين»[1] اهـ.

(١) «نفسه» (١/ ٤٠٤، ٤٠٥).

التحذير من مصطلح: الأديان الإبراهيمية الثلاثة

يُـروج دُعاة ما يسـمى: (التقريب بين الأديان) لضلالتهم بإشـاعة مصطلح: (الأديان الإبراهيمية) إشـارةً إلى الإسـلام والنصرانيـة واليهودية، بحجة إيمانهم جميعًا بإبراهيم ـ عليه السلام ـ، ولا شك أن مَنْ رامَ القربَ مِن اليهودية والنصرانية ـ فضـلًا عـن سـائر الملل الوثنيـة ـ فقد رغب عن ملـة إبراهيم التي هـي الحنيفية المسـلمة، وقـد أمر الله عبـاده المؤمنيـن بلزومها، فقـال: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ ﴾ [الحج: ٧٨]، يعني: فالزموها، وقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٥].

وملته ـ عليه السلام ـ هي ملة الأنبياء قبلَهُ وبعدَهُ، وهي الإسلام بمعناه العام، الذي يعني إسلام الوجه لله ـ تعالى ـ بالإخلاص له وحده دونما سواه، ونبذ الشرك والبراءة من أهله، والإحسان في عبادته باتباع شرعه الذي شرعه على لسان نبيه الذي أرسـله، والإيمان بالمعاد، وذلك أحسن الدين، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا ﴾ [النساء: ١٢٥].

وقد سَـفِه اليهودُ والنصارى أنفسـهم حين رغبوا عن ملة إبراهيم بوقوعهم فـي أنواع الشـرك والبدع والكفر والفسـوق والعصيـان، كما قال قتـادة: «رغب عـن ملته اليهـود والنصارى، واتخذوا اليهودية والنصرانية بدعةً ليسـت من الله، وتركوا ملة إبراهيم».

ومع ذلك فقد حاولوا انتحاله، والانتساب إليه، فأكذبهم الله، وأبطل دعواهم، وبَرَّأ نبيه الكريم من كفرهم وضلالهم، فقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران:٦٧]، وأنكر عليهم أن يكون أحد من أنبيائه من ذريته على اليهودية أو النصرانية، فقال: ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ١٤٠]، كما حاولوا استزلال المؤمنين في عهد النبوة إلى طريقهم، بدعوتهم إلى التهود أو التنصر، فرد الله دعوتهم في نحورهم: ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٥]، وامتثل ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمر ربه فدعاهم إلى ملة إبراهيم، في خطة رشد، وكلمة سواء، فقال: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:٦٤]، ولكن أتباع عِزرا ـ لا موسى ـ، وبولس[(١)] ـ لا المسيح ـ شَرِقوا بدعوته، ولجُّوا في طغيانهم، واستنكفوا واستكبروا عن اتباع الهدى، ورغبوا عن ملة إبراهيم.

(١) انظر: قصة تحريفه لدين المسيح ـ عليه السلام ـ في «مصادر النصرانية» للدكتور عبد الرزاق ألارو (٢/ ٦٣٦-٦٧٦). ط. دار التوحيد ـ الرياض ـ ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م، و«كواشف وزيوف» للأستاذ عبد الرحمن حبنكة الميداني ص (٢٥-٢٩)، و«الذات الإلهية بين الإسلام والنصرانية» للدكتور عبد الشكور العروسي ص (٣١٧-٣٥٢)، و«النصرانية والإسلام» للمستشار محمد عزت الطهطاوي ص (٢٤٥-٢٨٣).

ومن هنا يجب التنبيه إلى خطورة ما يدعو إليه في زماننا بعض الضالين مما يسمونه (الإبراهيمية) كي يلتقىَ المسلمون مع اليهود والنصارى تحت شعار إبراهيم، وهذا زُخرف من القول، لا ينخدع به إلا السُذج، وإبراهيم الذي يقصدونه هو إبراهيم (التاريخي) وليس إبراهيم الموحد الحنيف، مع أنهم رغبوا عن ملته، وانتحلوا اسمه الشريف لاقتناص ضحاياهم، ولينتزعوا من أهل الإسلام اعترافًا ضمنيًّا ـ بل صريحًا ـ بأنهم على ملة إبراهيم؛ الأمر الذي يُعد ـ في حد ذاته ـ رغبةً عن ملة إبراهيم ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ[1].

تنبيه:

حاول كل من اليهود والنصارى نسبة إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى ملتهم، وهم يحاولون اليوم التقريب بين ما يُسمى (الأديان الإبراهيمية الثلاثة) حتى ينتزعوا اعترافًا من المسلمين بصحة نسبتهم ـ أي اليهود والنصارى ـ إلى إبراهيم ـ عليه السلام ـ، بيد أن هناك محاولةً تدور في إطارٍ ثالث يحاول أن يُخفي انتساب المسلمين إلى إبراهيم ـ عليه السلام ـ، وذلك من خلال نشر فكرة (السامية) التي تركز على أن هناك أصلًا واحدًا مشتركًا بين العرب واليهود، هو (سام بن نوح)، في حين أن القصد الحقيقي من وراء ذلك هو التعمية على انتساب العرب إلى إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما السلام ـ، وربط تاريخ إسماعيل وذريته إلى مصدر غامض بعيد في أحقاب التاريخ، وبالتالي صرف الأنظار عن هويتنا الحقيقية التي هي ملة أبينا إبراهيم ـ عليه السلام ـ التي أولاها القرآن الكريم أعظم الاهتمام، ونسبنا إليها، وحثنا على اتباعها، وَبرَّأ إبراهيم ـ عليه السلام ـ من كونه يهوديًّا أو نصرانيًّا أو مشركًا.

---

(١) بتصرف من «دعوة التقريب بين الأديان» ص(١٤٢٧-١٤٣١).

(١٩) هي الدين المقبول عند الله

منذ وُجِدَ الشـركُ والفسـاد في الأرض، كانت الأنبياء والرسـل يدعون إلى عبـادة الله وحده، وينهَوْن عن كل صور الفسـاد فـي الأرض، وكان الذين يتبعون الأنبياء هم المؤمنين، كان نوح مؤمنًا، وكان من تبعه مؤمنين، وكذلك كان إبراهيم خليل الرحمن أبو الأنبياء والمرسـلين مؤمنـًا، وكان أتباعُه مؤمنين. وكذلك كان إسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، وموسى، وكذلك كان الأنبياء من بعده إلى عيسى مؤمنين، وكان أتباعُهم مؤمنين، حتى بعث الله إلى البشـرية كلها خاتَمَهم محمدًا – صلى الله عليه وسلم – مؤمنًا، وأتباعه المؤمنون.

واليوم يُعرف الذين انتسـبوا إلى موسـى باليهود أو (الموسـويين)، ويُعرف الذيـن انتسـبوا إلى المسـيح بـ النصـارى أو (المسـيحيين)، ويُعـرف الذين آمنوا بمحمدٍ ـ صلى الله عليه وسـلم ـ بالمسـلمين، وكلٌّ يؤمن أن دينه هو دينُ الله، أو هو الدين عند الله، فما هو الدين المَرْضِيُّ المقبول عند الله؟

الحقيقة التي اتفق عليها المسلمون واليهود والنصارى

لا يستطيع مسلم ولا يهودي ولا نصراني أن ينفي الإيمان عن نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وغيرهم من الأنبياء قبل موسى ـ عليه السلام ـ، فالجميع يؤمنون أن هؤلاء كانوا رسلَ الله المؤمنين، وأن من تبعوهم كانوا مؤمنين، وأنهم كانوا على الدين المَرْضِيِّ المقبول ـ عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وفي الوقت نفسه لا يستطيع أحد أن ينسبهم إلى الموسوية (اليهودية)، ولا إلى المسيحية (النصرانية)، لسبب بديهي هو أن (اليهودية) و(النصرانية) لم تكن قد عُرفت بعد في عهد أي واحد من هؤلاء الأنبياء، والسؤال الآن:

ما هذا الدين الذي آمن به الأنبياء من لدن آدم ـ عليه السلام ـ إلى نوح، إلى إبراهيم، إلى آخر نبي بُعث قبل موسى ـ عليه السلام ـ؟ نعم، ماذا كان دين هؤلاء الأنبياء الذي يتفق اليهود والنصارى والمسلمون على أنه دين الله، وأنه هو الدين المقبول المَرْضِيُّ عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ؟

لا نقف في توراة اليهود، ولا في إنجيل النصارى الحاليين، على إثباتٍ لاسم هذا الدين الذي آمن به هؤلاء الأنبياء ومن تبعوهم[1]، فكيف نستطيع معرفة هذا الدين؟

(١) لكن القرآن الكريم الكتاب السماوي الوحيد الذي حُفِظ من التحريف ينص على تسميته «الإسلام» وتسمية المؤمنين به «المسلمين»، وهذا يكفي لأن القرآن المجيد مهيمن على الكتب السابقة وحاكم عليها، بل إن اليهود والنصارى لا يملكون من خلال كتابيهما المعدومَيْ الأسانيد أن يثبتوا حقيقة وجود كتابين هما التوراة والإنجيل، وحقيقة وجود نبيين كريمين هما موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ إلا من خلال القرآن العظيم فقط لأنه الكتاب الوحيد المحفوظ والثابت عن طريق التواتر القطعي. =

الجواب: هو أن السبيل إلى التعرف عليه هو التفكر في جوهر هذا الدين وحقيقته ومقاصده، ونحن نعلم أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لما أرسل هؤلاء الأنبياء إلى أممهم فإنه أرسلهم بعقيدة واحدة هي توحيد الله، وبشرائعَ يدعون الناسَ إليها تتضمن أوامر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ونواهيَه، فَمَن قبلها وانقاد لله فيها: فهو المؤمن الذي آمن بالله ورسوله المبعوثِ إليه، ودان بالدين الذي يرضاه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ويقبله، فهذا الدين عند الله هو توحيد الله، والانقياد لشرائع الله، والاستسلام لحكم الله، والخضوع لأمره ونهيه، والإخلاص له ـ عزَّ وجلَّ ـ في ذلك كله، وإذا حاولنا أن نعبر عن هذه المعاني كلِّها في لغة العرب بكلمة واحدة تتضمن: الاستسلام (الذي هو الخضوع والانقياد)، والسلامة (التي هي الإخلاص)، فلن نجد سوى كلمة واحدة هي: (الإسلام)[1].

نعم، فإن (الإسلام لله) هو التعريف الوحيد الذي يمكن أن يُعبَّر به عن الدين المعتبرِ والمَرْضِيِّ والمقبولِ عند الله، هو القاسم المشترك بين رسالات جميع الأنبياء[2]، هو وحده الذي نستطيع أن نقول: إنه كان دين نوح، وإبراهيم،

= هذا وقد صرَّح حاخام يهودي ـ يُدعى (بنيامين إبرامسون) وهو مستشار تاريخي لمحاكم القدس ـ بأن بني إسرائيل كان يُطلَق عليهم في اللغة العبرية القديمة اسم «مُسْلِمَايْ» أو «سَلَماي»، وانظر في: (www.youtube.com) المواضع التالية:

- Israeli Jewish Rabbi confirms Islam was religion of Noah & Adam.
- Jewish Rabbi Admits Islam is the Oldest.
- Jewish Rabbi: Islam is religion of future.
- Jewish Rabbi: Admitted (Islam is the truth).

(١) قال ابن منظور: «وأما الإسلام فإن أبا بكر محمد بن بشار قال: يقال: فلان مسلم، وفيه قولان: أحدهما: هو المُستلم لأمر الله، والثاني: هو المخلِصُ لله العبادة، من قولهم: سَلَّم الشيء لفلانٍ أي: خلصه، وسَلِمَ له الشيءُ أي: خَلَصَ له»اهـ. من «لسان العرب» (١٢/ ٢٩٣).

(٢) انظر ص (٩٨) وما بعدها.

وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب ـ عليهم السلام ـ، ومن تبعهم من المؤمنين: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران:١٩].

من أجل ذلك لم يكن لفظُ (الإسلام) مجرد اسمٍ خاصٍّ للتعبير عن رسالة محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ولكنه ـ في حقيقته ـ هو التعبير الوحيد عن جوهر جميع الرسالات السماوية، بما في ذلك رسالة موسى، ورسالة عيسى ـ عليهما السلام ـ ولم يكن وصف (المسلمين) مجردَ اسمٍ لأتباع رسولِ الله محمدٍ ـ صلى الله عليه وسلم ـ، بل هناك معنىً (عام) للإسلام وللمسلمين، دلت عليه النصوص الآتية:

قال ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران:١٩].

وقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة:١١٢].

وقال ـ سبحانه ـ حاكيًا دعاء إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ [البقرة:١٢٨].

وقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ﴾.

[آل عمران: ٢٠]

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [النساء:١٢٥].

وقال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الأنعام:٧١]

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ﴾ [الحج:٣٤].

وقد تغيب هذه الحقيقة عن فريقين من الناس:

الفريـق الأول ـ **غير المسـلمين، والذيـن لا يعرفون اللغـة العربية على وجه الخصوص**، وهؤلاء لايكاد يتطرق إلى أذهانهم هذا المعنى العظيم الذي يُعبَّر عنه بكلمـة (الإسـلام)، نعم هم ينطقونها نفس النطق العربـي Islam باعتبارها عَلَمًا علـى دين خـاص، دون أن يفقهوا معناها الحقيقي لكونهـم جاهلين بلغة العرب، فينبغي إشاعة هذا اللفظ مقرونًا بمعناه بلغة القوم المخاطَبين، بحيث كلما ذُكِرت كلمة (الإسلام) ذُكر معناها في لغة العرب، ومعناها الاصطلاحي.

والفريق الثاني ـ **غير المسلمين ممن يعرفون اللغة العربية**: فإنهم إذا سمعوا قوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ﴾ [آل عمران:١٩]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥]، تنصـرف أذهانهـم إلـى الإسـلام (الخـاص) الـذي دعـا إليـه محمد رسـولُ الله ـ صلـى الله عليه وسـلم ـ، ويحسـبون أن رسـالة موسـى التي يُعبَّر عنهـا ـ الآن ـ بالموسـوية، أو رسـالة عيسـى التي يُعبر عنها ـ الآن ـ بالمسـيحية، لا تدخلان في عموم الإسلام المذكور في الآيتين السابقتين.

وممـا يؤسـف عليه أشـد الأسـف أن هـذه الحقيقة قـد تغيب عـن كثير من المسلمين، فيحملون الآيتين على الإسلام (الخاص)، ولا يفطنون إلى أن الإسلام هو دين جميع الأنبياء والمرسـلين، وأنهم وأتباعهم أجمعين كانوا مسلمين، ومن أجل توضيح هذه الحقيقة، نذكر شواهدها وأدلتها من القرآن الكريم.

فقـد خاطـب الله ـ عزَّ وجـلَّ ـ رسـلَه الكـرام ـ عليهم وعلى نبينـا الصلاة والسلام ـ قائلًا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١

وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون:٥١-٥٢]، أي: هذه ملتكم واحدة، لأن كلمة (أمة) هنا معناها: الدين والملة، وقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى:١٣].

وقال ـ سبحانه ـ في حق الأنبياء ـ عليهم السلام ـ: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:٧٩، ٨٠].

وذكر ـ سبحانه ـ أن أول رسول منه إلى أهل الأرض[(١)] نوحًا ـ عليه السلام ـ قال لقومه: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس:٧٢].

وقال ـ تعالى ـ عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران:٦٧].

وقال ـ تعالى ـ عن إبراهيم ويعقوب ـ عليهما السلام ـ: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم

---

(١) انظر: «فتح الباري» (٢/ ١٤، ١٥) ط. دار طيبة ـ الرياض.

مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٠-١٣٣].

وقال ـ عزَّ وجلَّ ـ في شأن يعقوب ـ عليه السلام ـ: ﴿ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٣].

وحكى عن يوسف ـ عليه السلام ـ دعاءه: ﴿ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف:١٠١].

وحكي عن لوط ـ عليه السلام ـ أنه: ﴿ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [الذاريات:٣١-٣٦].

وقال ـ تعالى ـ عن موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴾ [يونس:٨٤].

وقال ـ تعالى ـ حكاية عن سحرة فرعون الذين آمنوا بموسى ـ عليه السلام ـ: ﴿ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴾ [الأعراف:١٢٦].

وقال ـ تعالى ـ حكاية عن فرعون: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [يونس:٩٠].

وقال ـ سبحانه ـ حاكيًا عن بلقيس: ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل: ٢٩-٣١].

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل:٤٢] إلى قوله: ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [النمل:٤٤].

وقال ـ سبحانه ـ في شأن عيسى ـ عليه السلام ـ: ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:٥٢].

وقال ـ تعالى ـ عن الحواريين أيضًا: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة:١١١].

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة:٤٤].

قال الزمخشري في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ ﴾ [المائدة:٤٤]: «وأُريدَ بإجرائها ـ يعني هذه الصفة ـ التعريضُ باليهود، وأنهم بُعداءُ من

ملة الإسلام التي هي دين الأنبياء كلهم في القديم والحديث، وأن اليهودية بمعزل منها»[1] اهـ.

وقال ابن منظور في (لسان العرب): وقوله ـ تعالى ـ: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾ [المائدة:٤٤]، فسره ثعلب فقال: «كل نبي بُعِثَ بالإسلام غير أن الشرائع تختلف»[2] اهـ.

وقال ـ تعالى ـ عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص:٥٢، ٥٣].

يعني أن المؤمنين منهم بدينهم حقًّا يقولون: إنا كنا من قبل نزول القرآن مسلمين، فلم يقولوا: إنا كنا من قبله يهودًا أو نصارى.

وقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٣-٨٥].

---

(١) «الكشاف» (١/ ٣٤١).

(٢) «لسان العرب» (١٢/ ٢٩٥).

أن الدين عند الله الإسلام، وأنه لا يُقبل من أحدٍ دينٌ سوى الإسلام، وأن من في السموات والأرض قد أسلموا لله ـ عزَّ وجلَّ ـ طوعًا وكرهًا، وأن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب (إسرائيل) والأسباط وموسى وعيسى وجميع الأنبياء مسلمون.

وقال ـ تعالى ـ مخاطبًا هذه الأمة المحمدية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

وقال ـ عزَّ وجلَّ ـ أيضًا: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة:٣].

يتحصل لنا من كل ما سبق أن (الإسلام) ليس ـ فقط ـ اسمًا لدين خاص، وإنما هو ـ أيضًا ـ اسمٌ للدين المشترك الذي هتف به جميع الأنبياء ـ عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ، وأن هذا الإسلام يعني الطاعة، والانقياد، والاستسلام لله ـ تعالى ـ، بفعل ما يأمر به، وترك ما ينهى عنه.

ولذلك فإن الإسلام في عهد نوح ـ عليه السلام ـ كان يتحقق باتباع ما جاء به نوح، وكانت كلمة النجاة في رسالته إلى قومه: «لا إله إلا الله، نوحٌ رسول الله»، وفي عهد موسى ـ عليه السلام ـ مثلًا كانت: «لا إله إلا الله، موسى رسول الله»، وفي عهد عيسى ـ عليه السلام – كانت كلمة النجاة: «لا إله إلا الله، عيسى رسول الله»، وهكذا كانت كلمة النجاة في الرسالة الخاتمة الخالدة إلى الناس كافة: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

ومـن هنا كان مقتضى إيمان قوم موسـى ـ عليه السـلام ـ عبـادة الله وحده، لا شـريك له، والإيمان بالتوراة، والانقياد لشـريعة موسى ـ عليه السلام ـ، وليس الدين لموسى، ولكنه دين الله، وموسى رسوله والمبلغ عنه، والذين اتبعوا موسى، وآمنوا بالتوراة التي أُنزِلت عليه كانوا مسـلمين خاضعين لله ـ سـبحانه وتعالى ـ، فإنهم بهذا الإيمان والانقياد والخضوع والاستسلام لله ـ عزَّ وجلَّ ـ إنما يكونون قد (أسلموا) لله فيما أرادهم أن يُسلموا له فيه.

وتوالـى رسـلُ الله بعـد موسـى ـ عليـه السـلام ـ، وكان مقتضـى الإسـلام لله ـ عـزَّ وجـلَّ ـ الإيمان بالرسـل جميعًا وبرسـالاتهم، وهكذا إلـى أن بعث الله عبدَه ورسـولَه عيسـى المسـيح ـ عليه السـلام ـ، فدعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شـريك لـه، والانقياد لشـرعه، والإيمان بكتابـه الإنجيل المنزل مـن عند الله، وليـس الدين للمسـيح، وإنما هـو دين الله الذي أَرسـل به جميع رسـله وأنبيائه، والذين آمنـوا بالمسـيح ـ عليـه السـلام ـ وبالإنجيـل كانوا مسلمين خاضعين لله ـ سبحانه ـ، لأنهم (أسلموا لله) فيما أرادهم أن يُسلموا له فيه.

وهكـذا أيضًـا كان مقتضـى إيمـان الأمة المحمديـة: التصديـق بتوحيد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا شـريك له، والإيمان برسـول الله محمد ـ صلى الله عليه وسـلم ـ، وبالقرآن العظيم، فليس الدين لمحمد ولا لعيسـى ولا لموسـى إنما هو دين الله، دين واحد، هو الإسلام ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران:١٩].

وهه مهع يغنقق ظهوقخه.

الأول ـ خطـأ تسـمية البعض هـذا الدين بـ (الموسـوية) أو (المسـيحية) أو (المحمدية)، إنما هو (الإسـلام) دين واحد أرسـل الله به جميع الرسـل ـ عليهم السلام ـ داعين أممهم إليه، فمن أجابهم كان مسلمًا.

الثاني ـ خطأ إطلاق عبارة (الأديان السماوية) بصيغة الجمع، فلا توجد (أديان) سماوية متعددة، إنما الذي أُنزِل من السماء (دين واحد) هو الإسلام ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ﴾ [آل عمران:١٩]، ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥].

وإنما الذي يتعدد هو (الرسالات) أو (الشرائع السماوية)، والأحكام العملية التي تختلف من نبي إلى آخر، كتفاصيل وأحكام الطهارة، والصلاة، والصيام، والزواج، والمعاملات، وغيرها.

وهذا ما يبينه قولُه ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**الأنبياء إخوة لعَلَّاتٍ، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد**»[1]، قال العلماء: أولاد العَلات هم الإخوة لأبٍ من أمهات شتى، وأما الإخوة من الأبوين فيقال لهم: أولاد الأعيان.

ومعنى الحديث أن أصل دينهم واحد، فهم متفقون في أصول التوحيد والطاعة، أما شرائعهم فيقع فيها الاختلاف.

الثالث ـ بطلان الفكرة الضالة الداعية إلى (التقريب بين الأديان السماوية) لأنه ليس هناك (أديان) سماوية، وإنما الدين السماوي واحد هو (الإسلام)، فمحاولة التوفيق بين الإسلام وغيره من الأديان إنما هي محاولة للتوفيق بين الحق والباطل، وبين الكفر والإيمان، وبين الهدى والضلال، وبين دين سماوي أنزله الله وبين دين صنعه البشر أو حَرَّفُوه وغيَّروه، وإذا كان الدين عند الله واحدًا ـ كما سبق توضيحه ـ فكيف يمكن الدعوة إلى التقريب بين الشيء ونفسه؟![2].

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٣٥٢)، ومسلم [٢٣٦٥][١٤٥].

(٢) وقد صنف الدكتور أحمد بن عبد الرحمن القاضي ـ حفظه الله ـ دراسة علمية في إبطال دعوى «التقريب بين الأديان» وطبعتها دار ابن الجوزي بالدمام ١٤٢٢هـ في أربعة مجلدات.

الرابع ـ أن العقيدة الوحيدة الصحيحة على وجه الأرض منذ بعث الله محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى اليوم لا توجد إلا في الإسلام، لأن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ تكفل بحفظه من التحريف والتغيير: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحِجْر:٩]، وهي نفس العقيدة التي دعا إليها كل الرسل الكرام في كل زمان ومكان، لا تختلف من رسولٍ إلى رسول، ولا من زمانٍ إلى زمان. أما ما عداها فهي عقائد فاسدة متعددة، وفسادها ناشئ من كونها نتاجَ أفكار البشر وأهوائهم، وقد يكون أصل بعض هذه العقائد صحيحًا لكن التغيير والتحريف طرأ عليها كما هو الحال في زماننا هذا بالنسبة لليهودية والنصرانية.

الخامس ـ أن هذه العقائد الأرضية أو المحرفة هي التي تقبل التعدد فتوصف بأنها (أديان) لأن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ سمى الوثنية دينًا، فقال عزَّ وجلَّ ـ مخاطبًا مشركي قريش: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ ﴾ [الكافرون:٦]، وقال ـ سبحانه ـ حاكيًا عن فرعون قوله: ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ [غافر:٢٦]، وكان دينهم عبادة فرعون، وقال ـ سبحانه ـ في حق يوسف ـ عليه السلام ـ: ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ ﴾ [يوسف:٧٦].

وقال ـ عزَّ وجلَّ ـ عن اليهود: ﴿ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ [آل عمران:٢٤]، وذمَّ ﴿ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ﴾ [الأنعام:١٥٩]، بل سمَّى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ما أحدثه المنحرفون من اللعب واللَّهو دينًا فقال ـ سبحانه ـ: ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا ﴾ [الأنعام:٧٠]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا ﴾ [الأعراف:٥١].

فتبين بذلك جوازُ إطلاقِ لفظ (الدين) و(الأديان) على ما سـوى الإسـلام، باعتبـار تدينهـم بها، كما جاز إطلاق لفظ (الآلهة) على مـا يُعبد من دون الله، مع أنه (الإله) الواحد الحق، باعتبار تأليههم لها.

وممـا يـدل علـى ذلـك أن الله ـ سـبحانه وتعالـى ـ قيَّـد لفـظ (الديـن) في مواضـع مـن كتابـه الكريـم، كقولـه ـ عـزَّ وجـلَّ ـ: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ [آل عمران:٨٣]، ووصفـه بمـا يخصصـه فقـال: ﴿دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة:٢٩]، وقال: ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [التوبة:٣٦]، وقـال: ﴿دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥] و﴿دِينًا قِيَمًا﴾ [الأنعام:١٦١].

لا إله إلا الله

(٢٠) مقتضى الميثاق القديم

قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٢-١٧٣].

ووجه دلالة الآية على فطرية التوحيد، وأن المعرفة به ضرورية أن الله ـ تعالى ـ قد أخبرنا بأنه قد أشهد جميع بني آدم على أنفسهم أنه هو ربهم، وأنهم قد أقروا وشهدوا جميعًا على أنفسهم بذلك، كما أخبر ـ تعالى ـ أن هذا الإشهاد حُجة على الناس جميعًا، فلا يمكن لأحدٍ يوم القيامة أن يعتذر بالجهل بالتوحيد، وأنه لم تبلغه فيه حجة، لأن الحجة فيه قد قامت على كل أحد بذلك الإشهاد، وأنه لا يمكن لأحد تبعًا لذلك أن يعتذر إذا كان قد وقع في الشرك بمتابعة الآباء عليه، لأن عنده من العلم بالتوحيد وبطلان ما عليه الآباء من الشرك ما يدفع به ذلك، بحيث لا يقع في الشرك إلَّا بإرادته واختياره، مع العلم ببطلان الشرك، لا لمجرد متابعة الآباء عليه.

ويلزم من ذلك أن يكون العلم بتوحيد الله ـ تعالى ـ من المعارف الضرورية التي لا يحتاج أحد أن يتعلمها، بل يكون ذلك الإشهاد على التوحيد وإقراره به كافيًا في العلم به وعدم الوقوع في الشرك.

وقد بيَّن شيخ الإسلام ابن تيمية وجه دلالة الآية على فطرية التوحيد، وكونه من العلوم الضرورية، فقال ـ رحمه الله ـ:

«فالشهادة هي الإقرار، كما قال: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء:١٣٥]، وكما قيل لماعز: (شهد على نفسه أربعًا) فإشهادهم على أنفسهم جعلُهم شاهدين على أنفسهم، أي: مُقِرِّين له بربوبيته، كما قال في تمام الكلام: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف:١٧٢].

فقولهم: بلى شهدنا، هو إقرارهم بربوبيته، وهو شهادتهم على أنفسهم بأنه ربهم، وهم مخلوقون له، فشهدوا على أنفسهم بأنهم عبيده.

كما يقول المملوك: هذا سيدي، فيشهد على نفسه بأنه مملوك لسيده.

وذلك يقتضي أن هذا الإشهاد من لوازم الإنسان، فكل إنسان قد جعله الله مُقرًّا بربوبيته، شاهدًا على نفسه بأنه مخلوق، والله خالقه.

ولهذا جميع بني آدم مُقرُّون بهذا، شاهدون به على أنفسهم، وهذا أمر ضروري لهم لا ينفك عنه مخلوق، وهو مما خُلِقوا عليه، وجُبِلوا عليه، وجُعل علمًا ضروريًّا لهم، لا يمكن أحدًا جَحْدُه.

ثم قال بعد ذلك: ﴿أَن تَقُولُوا۟﴾، أي كراهةَ أن تقولوا، ولئلا تقولوا: إنا كنا عن هذا غافلين: عن الإقرار لله بالربوبية، وعلى نفوسنا بالعبودية.

فإنهم ما كانوا غافلين عن هذا، بل كان هذا من العلوم الضرورية اللازمة لهم، التي لم يخل منها بشر قط، بخلاف كثير من العلوم التي قد تكون ضرورية، ولكن قد يغفل عنها كثير من بني آدم، من علوم العدد والحساب وغير ذلك، فإنها إذا تُصُوِّرت كانت علومًا ضرورية، لكنْ كثير من الناس غافل عنها.

وأما الاعتراف بالخالق، فإنه علم ضروري لازم للإنسان، لا يغفل عنه أحد بحيث لا يعرفه، بل لابد أن يكون قد عرفه، وإن قُدِّر أنه نسيه، ولهذا يُسمَّى التعريفُ بذلك: تذكيرًا، فإنه تذكير بعلوم فطرية ضرورية قد ينساها العبد.

كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر:١٩].

وفي الحديث الصحيح: يقول الله للكافر: «**فاليوم أنساك كما نسيتني**»[(١)].

ثم قال: ﴿ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٣] ذكر لهم حجتين يدفعهما هذا الإشهاد.

إحداهما ـ ﴿ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٧٢].

فبيَّن أن هذا علم فطري ضروري، لابد لكل بشر من معرفته. وذلك يتضمن حجة الله في إبطال التعطيل، وأن القول بإثبات الصانع علم فطري ضروري، وهو حجة على نفي التعطيل.

والثاني ـ ﴿ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾، فهذا حجة لدفع الشرك، كما أن الأول حجة لدفع

---

(١) ثبتت هذه العبارة في حديث في صحيح مسلم عن طريق أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ في أول كتاب «الزهد والرقائق»، ووردت في حديث في «سنن الترمذي» من رواية أبي سعيد، وأبي هريرة ـ رضي الله عنهما ـ قالا: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**يُؤتى بالعبد يوم القيامة، فيقول له: ألم أجعل لك سمعًا، وبصرًا، ومالًا، وولدًا، وسخَّرتُ لك الأنعام، والحرث، وتركتك ترأس، وتربع، فكنت تظن أنك مُلاقيَّ يومك هذا؟**»، فيقول: لا، فيقول له: «**اليوم أنساك كما نسيتني**».
قال أبو عيسى الترمذي: «ومعنى قوله: «**اليوم أنساك كما نسيتني**» اليوم أتركك في العذاب. وكذا فسر بعض أهل العلم هذه الآية: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ ﴾ (الأعراف:٥١)، قالوا معناها: اليوم نتركهم في العذاب» اهـ.
وصحح الألباني ـ رحمه الله تعالى ـ الحديث، راجع: «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٢٩٢).

التعطيل، فالتعطيل مثل كفر فرعون ونحوه، والشرك مثل شرك المشركين من جميع الأمم.

وقوله: ﴿ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٣]، وهم آباؤنا المشركون، وتعاقبنا بذنوب غيرنا؟ وذلك لأنه لو قُدِّرَ أنهم لم يكونوا عارفين بأن الله ربهم، ووجدوا آباءهم مشركين وهم ذرية من بعدهم، ومقتضى الطبيعة العادية أن يحتذيَ الرجلُ حَذْوَ أبيه حتى في الصناعات، والمساكن، والملابس، والمطاعم؛ إذ كان هو الذي ربَّاه، ولهذا كان أبواه يُهوِّدانه ويُنصِّرانه، ويُمجِّسانه، ويُشرِّكانه، فإذا كان هذا مقتضى العادة الطبيعية، ولم يكن في فطرتهم وعقولهم ما يناقض ذلك، قالوا: نحن معذورون، وآباؤنا هم الذين أشركوا، ونحن كنا ذرية لهم بعدهم، اتبعناهم بموجب الطبيعة المعتادة، ولم يكن عندنا ما يُبين خطأهم.

فإذا كان في فطرتهم ما شهدوا به من أن الله وحده هو ربهم، كان معهم ما يبين بطلان هذا الشِّرك، وهو التوحيد الذي شهدوا به على أنفسهم، فإذا احتجوا بالعادة الطبيعية من اتِّباع الآباء، كانت الحجة عليهم الفطرة الطبيعية العقلية السابقة لهذه العادة الأبوية.

كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**كل مولودٍ يُولد على الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه، ويُنصِّرانه، ويُمجِّسانه**»، فكانت الفطرة الموجبة للإسلام سابقة للتربية التي يحتجون بها.

وهـذا يقتضـي أن نفس العقل الـذي به يعرفـون التوحيد، حجـة في بطلان الشرك، لا يحتاج ذلك إلى رسول، فإنه جعل ما تقدم حجة عليهم بدون هذا [١].

وهـذا لا يُناقـض قولـه ـ تعالـى ـ : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء:١٥]، فإن الرسـول يدعو إلـى التوحيد، لكن إن لم يكن فـي الفطرة دليل عقلي يُعلَم به إثباتُ الصانع، لم يكن في مجرد الرسالة حجة عليهم.

فهذه الشـهادة على أنفسهم، التي تتضمن إقرارهم بأن الله ربهم، ومعرفتهم بذلـك، وأن هـذه المعرفـة والشـهادة أمـر لازم لكل بنـي آدم، به تقـوم حجة الله ـ تعالى ـ في تصديق رسله.

فلا يمكن أحدًا أن يقول يقوم القيامة: إني كنتُ عن هذا غافلًا، ولا أن الذنب كان لأبي المشـرك دوني، لأنه عارف بأن الله ربه لا شـريك له، فلم يكن معذورًا في التعطيل، ولا الإشراك، بل قام به ما يستحق به العذاب.

ثـم إن الله بكمـال رحمتـه وإحسـانه لا يُعذِّب أحدًا إلا بعد إرسـال رسـول إليهم، وإن كانوا فاعلين لما يسـتحقون به الذم والعقاب، كما كان مشركو العرب وغيرهم، ممن بُعث إليهم رسـول، فاعلين للسيئات والقبائح التي هي سبب الذم والعقاب، والرب ـ تعالى ـ مع هذا لم يكن معذبًا لهم حتى يبعث إليهم رسولًا.

والناس لهم في هذا المقام[٢] ثلاثة أقوال، قال بكل قول طائفة من المنتسبين إلى السُّنة من أصحاب الأئمة الأربعة، أصحابِ أحمدَ وغيره.

---

(١) الإشارة إلى: «رسول».

(٢) انظـر: تفصيـل مبحث: «فطريـة التحسـين والتقبيـح» فـي «المعرفـة فـي الإسـلام» ص (٢٧١-٣٠٤).

١ ـ طائفة تقول: إن الأفعال لا تتصف بصفات تكون بها حسنة ولا سيئة ألبتة، وكون الفعل حسنًا وسيئًا إنما معناه: أنه منهي عنه أو غير منهي عنه، وهذه صفة إضافية لا تثبت إلا بالشرع.

وهذا قول الأشعري، ومن اتَّبعه من أصحاب مالك، والشافعي، وأحمد، كالقاضي أبي يعلى وأتباعه، وهؤلاء يُجَوزون أن يعذب الله من لم يذنب قط، فيُجَوِّزون تعذيبَ الأطفال والمجانين.

٢ ـ وطائفة تقول: بل الأفعال متصفة بصفاتٍ حسنة وسيئة، وإن ذلك قد يُعلم بالعقل، ويستحق العقاب بالعقل، وإن لم يَرِدْ سمعٌ، كما يقول ذلك: المعتزلة، ومن وافقهم من أصحاب أبي حنيفة وغيرهم، كأبي الخطاب وغيره.

٣ ـ وطائفة تقول: بل هي متصفة بصفات حسنة وسيئة تقتضي الحمد والذم، ولكن لا يُعاقب أحدًا إلا بعد بلوغ الرسالة، كما دل عليه القرآن في قوله ـ تعالى ـ: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ [الملك:٨، ٩].

وقال ـ تعالى ـ لإبليس: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [ص:٨٥].

وهذا أصح الأقوال، وعليه يدل الكتاب والسُّنة، فإن الله أخبر عن أعمال الكفار بما يقتضي أنها سيئة، قبيحة، مذمومة، قبل مجيء الرسول إليهم، وأخبر أنه لا يعذبهم إلا بعد إرسال رسول إليهم.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء:١٥]. حجة على الطائفتين، وإن كان نفاة التحسين والتقبيح العقلي يحتجون بهذه الآية على منازعيهم، فهي حجة عليهم أيضًا، فإنه يجوِّزون على الله أن يُعذِّب من لا ذنب

لـه، ومن لم يأتهِ رسـول، ويجـوِّزون تعذيب الأطفال والمجانيـن الذين لم يأتهم رسول، بل يقولون: إن عذابهم واقع.

وهـذه الآيـة حجة عليهـم، كما أنها حجـة على من جعلهـم معذَّبين بمجرد العقول من غير إرسال رسول.

والقرآن دلَّ على ثبوت حُسْـنٍ وقُبْحٍ قد يُعلم بالعقول، ويعلم أن هذا الفعل محمـود ومذمـوم، ودلَّ علـى أنـه لا يعذب أحـدًا إلا بعد إرسـال رسـول، والله ـ سبحانه ـ أعلم»[1]اهـ.

وبيَّن شـيخ الإسـلام ـ في موضع آخر ـ أن اسم الشرك ثابت لأصحابه، ولو لَم تُقَمْ عليهم الحجة الرسالية، بيد أن العذاب عليه لا يكون إلا بعد قيامها، فقال: ـ رحمه الله ـ:

«وقـد فـرق الله بين ما قبل الرسـالة وما بعدها في أسـماء وأحـكام، وجمع بينهما في أسـماء وأحكام، وذلك حجة على الطائفتين: على من قال: إن الأفعال ليس فيها حَسَنٌ وقبيح، ومن قال: إنهم يستحقون العذاب على القولين.

أمـا الأول – فإنه سـماهم ظالمين وطاغين ومفسـدين؛ لقوله: ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ [طه:٢٤]، وقولـه: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء:١٠، ١١]، وقوله: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص:٤].

---

(١) «درء تعارض العقل والنقل» (٨/ ٤٨٢-٤٩٤).

فأخبر أنه ظالم، وطاغ، ومفسد هو وقومه، وهذه أسماء ذم الأفعال؛ والذم إنما يكون في الأفعال السيئة القبيحة، فدلَّ ذلك على أن الأفعال تكون قبيحة مذمومة قبل مجيء الرسول إليهم، لا يستحقون العذاب إلا بعد إتيان الرسول إليهم؛ لقوله: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء:١٥].

وكذلك أخبر عن هود أنه قال لقومه: ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ [هود:٥٠]. جعلهم مفترين قبل أن يحكم بحكم يخالفونه؛ لكونهم جعلوا مع الله إلهًا آخر.

فاسم المشرك ثبت قبل الرسالة؛ فإنه يشرك بربه، ويَعْدِلُ به، ويجعل معه آلهة أخرى، ويجعل له أندادًا قبل الرسول...، وكذلك اسم الجهل والجاهلية، يُقال: جاهلية وجاهل قبل مجيء الرسول، وأما التعذيب فلا.

والتولي عن الطاعة، كقوله: ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [القيامة:٣١-٣٢]، فهذا لا يكون إلا بعد الرسول، مثل قوله عن فرعون: ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴾ [النازعات:٢١]. كان هذا بعد مجيء الرسول إليه، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴾ [النازعات:٢٠، ٢١]، وقال: ﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ ﴾ [المزمل:١٦][1].

إن أصل الإقرار بالصانع، والاعتراف به، مع الالتزام بعبادته وحده مستقر في قرار قلوب الخلائق، بل هو من لوازم خلقهم، ومما جُبِلوا عليه، حتى أصبح علمًا ضروريًّا لا يمكن لبشرٍ أن ينفك عنه، ما دام مستقيمًا على مقتضى فطرته، وهذا هو الإقرار، والإشهاد المذكور في آية الميثاق.

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٣٧-٣٨).

والذريـة كلهـا كانت محـلًّا للأخذ والإشـهاد، وأقررنا جميعًـا لله بالربوبية والألوهيـة، وعلى أنفسـنا بالعبوديـة، ومِن ثَـمَّ جُعِل هذا الإشـهادُ حجة لله على خلقه يوم القيامة.

وعلـة أخـذ الميثـاق تتمثـل فـي دحـض حجتي الشـرك عنـد المشـركين، المتوارثتين فيما بينهم قرنًا بعد قرن، وجيلًا بعد جيل:

الأولى ـ ادعاء الغفلة عن معرفة الخالق.

فبيَّـن ـ سـبحانه ـ أن معرفته فطرية ضرورية، تلزم النفس لزومًا، لا تسـتطيع الانفكاك عنه، وهذه حجة في إبطال التعطيل ككفر فرعون ونحوه.

الثانيـة ـ اقتراف الشـرك عن طريـق التقليد والاتباع لدين الآبـاء، مع الجهل ببطلانه،وعدم العلم باعوجاجه، فيقع الاتباع على جهل بمعرفة الحق، وتلك هي حجة المشركين الثانية والغالبة على جميع الأمم.

فلـو لـم يكن في فِطَـر الخلائق وعقولهم مـا يناقض الشـرك ويبطله لاحتج المشركون باتباع الآباء، وادَّعَوا العذر.

وذلـك لأن الطفل يشـب على اتبـاع أبويه في كل ما يأتي ويـذر. فلما كانت حجيـة الميثاق والفطرة والعقل سـابقة على كافة حجج المشـركين المفتراة أتت على جميعها بالبطلان.

فالشهادة لله وحده بالربوبية، وعلى أنفسنا بالعبودية كافية في بطلان الشرك، وهو التوحيد الذي شهدت به الذرية.

وهـذا يقتضـي: أن العقل الفطري الـذي يُعرف به التوحيـد حجة في بطلان الشـرك، حتى ولو لم يأتِ رسـول بحرمته، فكيف بالأمر بعد بعثة الرسل، وإنزال الكتب؟!!

واقتراف الشـرك قبل قيام الحجة الرسـالية لا ينفي عنه وصف الشـرك، إلا أن الله لكمـال رحمته، وحبه للعذر قضـى أن لا يُعذِّب قومًا، أو أحدًا حتى يبعث رسـولًا، وإن كان المشـركون فاعليـن لمـا يسـتحقون بـه الذم والعقـاب، وذلك لمخالفتهم حجية الميثاق، والفطرة، والعقل.

كحال مشـركي العرب، وغيرهم قبل إرسـال رسـلهم إليهم، كانـوا فاعلين للسـيئات والقبائـح، التي هي سـبب للذم والعقـاب، ومع هذا فلـم يعذبهم ربهم ـ سـبحانه وتعالى وجلَّ في علاه ـ حتى أرسـل إليهم رسـله، تلك الحجة الأخيرة الموجبة للعذاب في الدارين لفاعلي الشرك والذنوب التي يُعلم قُبحها بالفطرة.

ومما جاء في إشـهاد الناس على أنفسـهم بالتوحيد ممـا يقتضي أن يكون من العلوم الفطرية الضرورية، حديثُ أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ، أن النبي ـ صلى الله عليه وسـلم ـ قال: «**يقول الله لأهون أهل النار عذابًا: لو أن لك ما في الأرض مـن شـيء كنتَ تفتـدي به؟ قال: نعم، قال: فقد سـألتك ما هو أهون من هذا وأنت في صُلْب آدم، ألا تُشرك بي، فأبيتَ إلَّا الشرك**»[1].

وهذا الحديث صريح في أن الله قد أخذ الميثاق على الناس بالتوحيد وهم فـي صلـب أبيهم آدم، وأن ذلـك يقتضي أن الحجة قد قامـت عليهم بالتوحيد،

---

(١) أخرجه البخاري رقم [٣٣٣٤]، [٦٥٥٧]، ومسلم رقم [٢٨٠٥].
ومـراد الحديث: «أردتُ منك حين أخذت الميثاق، فأبيت إذ أخرجتك إلى الدنيا إلَّا الشـرك».
انظر: «فتح الباري» (١١/ ٤١١).

وأنه لا حجة لمن وقع في الشرك مع ذلك الميثاق، وهذا يقتضي أن معرفة الله وتوحيده من العلوم الضرورية التي لابد من تحققها عند كل أحد، وهذا هو مقتضى القول بفطرية التوحيد.

وليس في هذا الحديث تفصيل كيف أخذ الله الميثاق على بني آدم، وإنما فيه الخبر أنه قد أخذ عليهم ذلك الميثاق وهم في صلب أبيهم آدم.

وقد ورد في أحاديثَ أخرى ـ اختلف العلماء في ثبوتها ـ تفصيلُ كيفية أخذ الله الميثاقَ على بني آدم، وأن الله أشهدهم على أنفسهم حينذاك.

فقد ورد في حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن الميثاق أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها، فنثرهم بين يديه كالذَّرِّ، ثم كلمهم قُبُلًا، قال:** ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا...﴾ الآية [الأعراف:١٧٢]»[(١)].

وفي هذا الحديث النص على أن الله أخرج ذرية آدم من ظهره، وأنه كلمهم وأشهدهم على أنفسهم، وأنهم أقروا على أنفسهم بالتوحيد، وأن ذلك هو تفسير آية الإشهاد، فيكون هذا الحديث قد دلَّ على ما لم يرد في حديث أنس السابق.

لكن العلماء اختلفوا في هذا الحديث، فرجح بعضهم رفعه، ورجح آخرون وقفه على ابن عباس.

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٥٤٤)، وقال: «صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي، وأحمد (١/ ٢٧٢). وانظر: «السلسلة الصحيحة» للألباني (٤/ ١٥٨-١٦٣)، ورجح ابن كثير وقفه على ابن عباس، وقال في الروايات الموقوفة: «فهذا أكثر وأثبت»، وانظر: «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٢٧٢)، و«البداية والنهاية» (١/ ٩٠).

كما ورد في حديث عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ في تفسير آية الميثاق: أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**أُخِذوا من ظهره كما يؤخذ بالمِشْطِ من الرأس، فقال لهم:** ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا...﴾، **قالت الملائكة:** ﴿شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾»[(١)].

لكن هذا الحديث قد ورد مرفوعًا، وموقوفًا أيضًا، وقد رجح الإمام ابن جرير وقفه على عبد الله بن عمرو[(٢)].

ولم يُرْوَ في غير هذين الحديثين من طريق صحيح تفصيل كيفية الإشهاد، ولا أن الله خاطب الذرية حين أخذهم من ظهر أبيهم آدم، وإنما ورد ما يدل على أن الله استخرج ذرية آدم من ظهره، وميز بين أهل السعادة وأهل الشقاوة. وليس هنا مجال التفصيل في ذلك، ولا ذكر الأحاديث التي ورد فيها الإخبار بأخذ الذرية من ظهر أبيهم دون الإشهاد عليهم، لأن المقصود هنا ما يتعلق بما ورد من النصوص في الإشهاد على التوحيد[(٣)].

وقد استوفى الإمام ابن كثير الأحاديث في ذلك، ثم قال: «فهذه الأحاديث دالة على أن الله استخرج ذرية آدم من صلبه، وميز بين أهل الجنة وأهل النار، وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم فما هو إلّا في حديث كلثوم بن جبر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، وفي حديث عبد الله بن عمرو، وقد بينا أنهما موقوفان لا مرفوعان، ومن ثَمَّ قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فَطْرهم على التوحيد»[(٤)].

---

(١) «جامع البيان» (٦/ ١١٣).

(٢) «نفس المرجع» (٦/ ١١٨).

(٣) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٢٦٢-٢٦٥)، و«السلسلة الصحيحة» (٤/ ١٥٨-١٦٣).

(٤) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٢٦٥).

وإلـى نحو هـذا القول ـ وهو: أن المقصود بالإشـهاد مجـرد الفطرة على التوحيـد ـ ذهـب الإمام ابـن القيم، حيث نفـى حصول الإشـهاد الأول، وذكر أن المقصـود بإشـهاد النـاس علـى أنفسـهم هـو ما جعلـه الله مـن الآيات في الآفـاق والأنفـس على أن الله هـو الخالق، وليس بمعنى حصول إشـهاد معين قبـل الـولادة، وعلل ذلك بأن معنى (وأشـهدهم على أنفسـهم)، «أي: جعلهم شاهدين على أنفسهم، فلابد أن يكون الشاهد ذاكرًا لما شهد به، وهو إنما يذكر شهادته بعد خروجه إلى هذه الدار لا يذكر شهادة قبلها»[1].

وحاصل هذا القول نفي الإشـهاد السابق، وإقرار الله للناس على أنفسهم بالتوحيد قبل أن يولدوا. لكن هذا مُعارض لحديث أنس السابق؛ إذ هو صريح أن الله قـد أخـذ الميثـاق على بنـي آدم بالتوحيد وهم في صلـب آدم، بل إن آية الإشـهاد صريحة في الدلالة على حصول الإشـهاد قبل الولادة، سـواء قيل إن ذلـك الإشـهاد كان حيـن أخذهم مـن ظهـر آدم، أو كان الإشـهاد عليهم حين أخذهم من ظهور آبائهم.

وعلى هذا لا يمكن أن يكون الإشـهاد هو مجرد الخلق على الفطرة، وإن كان الإشـهاد يقتضي أن يكون التوحيد هـو الأصل الذي يولد عليه كل مولود، إذ لا بـد مـع إثبات فطرية التوحيـد من إثبات ما دلت عليـه النصوص من وقوع الإشـهاد وأخذ الميثـاق بذلك على الناس جميعًا، وإن لـم يلزم إثبات تفاصيل ذلـك لورودهـا في أحاديث لا تقوم بها الحجة كما تقـدم، ولا تنافي بين إثبات أصل الإشهاد وبين التوقف في تفاصيله أو نفيها.

---

(١) «الروح» ص (٢٢٦).

والمقصود هنا أنه إذا ثبت حصول الإشهاد والإقرار على التوحيد، وأخذ الميثاق على الناس بذلك، فإن مقتضى ذلك أن يكون الإشهاد حجة على الناس بالتوحيد، وهذا يستلزم أن توحيد الله ـ تعالى ـ من المعارف الضرورية التي لا يمكن لأحد أن يجهلها، وهذا هو المراد في هذه المسألة، وأما تفاصيل كيفية الإشهاد والجزم بكونه إشهادًا عامًّا في وقتٍ واحد على جميع الذرية، أو أنه إشهاد فردي يكون حين أخذ الذرية من ظهور الآباء فلا ينافي هذا الأصل.

بل إن القول بأن الإشهاد هو مجرد خلق الناس على الفطرة، وأنه لم يحصل أن الله قد أقر الناس قبل ولادتهم على أنفسهم بالتوحيد لا ينافي هذا الأصل أيضًا؛ إذ هو يقتضي أن يكون التوحيد من العلوم الفطرية الضرورية.

وإذا ثبت ذلك عُلم أن التوحيد من العلوم الضرورية، وأن الإنسان لا يحتاج في العلم به إلى النظر والاستدلال، وبهذا تجتمع نصوص الفطرة ونصوص الإشهاد في الدلالة على هذا الأصل[(١)].

---

(١) انظر: «المعرفة في الإسلام» للدكتور: عبد الله بن محمد القرني، ص(٢٢٧-٢٤٢).

لا إله إلا الله

(٢١) مقتضى فطرة الله

الإقـرار بوجود الله ـ عزَّ وجـلَّ ـ، وإثبات الكمال المطلق له ـ تبارك وتعالى ـ، هـو إقرار يقتضي ويسـتلزم تحقيـق «لا إله إلا الله»، وإفـرادَه بالعبودية وإخلاصَ الدين له. وهذا كله هو ما تقتضيه الفطرة التي فطر الله الناسَ عليها.

إن معرفـة الـرب ـ سـبحانه ـ وأنـه لا إلٰه إلا هـو، معرفة فطريـة ضرورية[(١)]، بديهية أولية، لأنها مركوزة في الفِطَر بغير استدلال ولا نظر.

فإذا تُرِكَت الفِطَر بلا فسادٍ يطرأ عليها فإن القلب يعرف ربه ـ ضرورةً ـ ويحبه، ويعبـده وحده دون سـواه، ولو قُدِّر أن إنسـانًا نشـأ وحده، وتربى وحـده دون مؤثرٍ خارجي من البيئة المحيطة حتى يبلغ فإنه ينشأ مؤمنًا موحِّدًا عارفًا بالله ـ تعالى ـ.

ومَثَـل الفطـرة مع الحق كبصر العين مع الشـمس، فـكل ذِي عينٍ مُبصرة لو تُرِكَـتْ عينهُ بغيـر حجاب عليها فإنـه يرى الشـمس، والعقائد الباطلـة كاليهودية والنصرانية والمجوسـية مثل الحجاب على العيـن، فهي تحول بين البصر ورؤية الشمس، كما أنَّ كلَّ ذِي حِسٍّ سليم يحب الحُلْوَ، إلا أن يعرض في طبيعته فساد، يجعل الحُلْوَ في فمه مُرًّا:

وهه يِّن قع نهي هِّقي هقيك يففِ هقع غه عههعظ عهق»»

(١) **العلـم الضـروري**: هو ما لـم يقع عن نظر واسـتدلال، كالعلم الواقع بإحـدى الحواس الخمس الظاهرة وهي: السمع والبصر واللمس والشم والذوق، أو بالتواتر.
ومـن العلم مـا يحصل لا عن نظر ولا اسـتدلال، وليس مُـدركًا بالحواس الخمـس، بل ببديهة العقل، كالعلم بأن الكل أعظم من الجزء، وأن الوجود والعدم لا يجتمعان في محل واحد.

للفطرة حقيقتان

فيما يتعلق بمعرفة الله ـ تعالى ـ وتوحيده، فإن للفطرة حقيقتين: حقيقة نفسية، وأخرى شرعية.

الحقيقة النفسية للفطرة:

هي مقتضى العلم الضروري الذي يجده الإنسان من نفسه بحيث لا يحتاج في ذلك إلى النظر والاستدلال، فكل إنسان مفطور على أن يريدَ الله، ويحبه لذاته، ويتقربَ إليه[(١)].

الحقيقة الشرعية للفطرة:

هي مقتضى دلالة النصوص على فطرية معرفة الله وتوحيده.

ـ نقول في الحقيقة النفسية: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾.

ـ ونقول في الحقيقة الشرعية: «هذا شرع الله».

وخلق الله وشرعه لا يتناقضان بل يتطابقان لأنهما ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾.

وقد جمع القرآن الكريم هاتين الحقيقتين في قولهِ ـ تعالى ـ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾، وهذه هِي الحقيقة الشرعية، ثم أضاف إليها الحقيقة النفسية، فقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾، ثم أكَّد هذه الحقيقة بقوله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾.

---

(١) جاء في معجم لاروس للقرن العشرين: (إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية، حتى أشدها همجية وأقربها إلى الحياة الحيوانية، وإن الاهتمام بالمعنى الإلهي و بما فوق الطبيعة هي إحدى النزعات العالمية الخالدة) اهـ. نقلًا من «الدين» للدكتور محمد عبد الله دراز ص (٨٣).

الدليل الأول -

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم:٣٠].

ووجه دلالة الآية على فطرية التوحيد هو أن الأمر بالاستقامة على الدين الحنيف اقترن ببيان أن ذلك هو مقتضى الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وأن خلق الله للناس على تلك الفطرة سنة مطردة لا تبديل لها.

وفي بيان التلازم بين الأمر بتحقيق التوحيد وأن ذلك هو مقتضى الفطرة، يقول الإمام ابن جرير في تفسير الآية: «يقول ـ تعالى ـ ذكره: فسدد وجهك نحو الوجه الذي وجهك إليه ربك يا محمد لطاعته، وهي الدين حنيفًا، يقول: مستقيمًا لدينه وطاعته: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم:٣٠]، يقول: صنعة الله التي خلق الناس عليها» اهـ[١].

و(فطرةَ) منصوبة بفعل مقدر، أي اتبع فطرة الله، وقيل: منصوبة على المصدرية التي دل عليها الفعل الأول (أقم)، ومعناها: فطر الله الناس على ذلك فطرة، وعلى كل تقدير تكون إقامة الوجه حنيفًا وهو فطرة الله التي فطر الناس عليها، وأن ذلك مأمور باتباعه إما صراحة، أو تلميحًا، لأنه جاء في صيغة مدح.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ في بيان وجه نصب كلمة (فطرة) في الآية: «هذا نصب على المصدر دل عليه الفعل الأول عند سيبويه

(١) «جامع البيان» (١١/ ٤٠).

وأصحابه، فدل على أن إقامة الوجه للدين حنيفًا هو فطرة الله التي فطر الناس عليها، كما في نظائره، مثل قوله: ﴿ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ ﴾ [النساء: ٢٤]، وقوله: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾ [الفتح:٢٣]، فهذا عندهم مصدر منصوب بفعل مضمر لازم إضماره، دل عليه الفعل المتقدم، كأنه قال: كتب الله ذلك عليكم، وسن الله ذلك، وكذلك هنا: فطر الله الناس على ذلك على إقامة الدين لله حنيفًا، وكذلك فسره السلف»[1].

وبذا يظهر أن الفطرة في الآية تقتضي التوحيد، ولو أن الله قد خلق الناس خلقة قد تقتضي التوحيد، وقد لا تقتضيه لم يأمر بلزوم مقتضاها بإطلاق. فدل على أن الفطرة لا بد أن تقتضيَ التوحيد، وأن ذلك سنة لا يمكن أن تتبدل، وهذا مطابق للعموم في حديث الفطرة في قول النبي - صلى الله عليه وسلم -: «**كل مولود يولد على الفطرة**».

ولذا أخبر - تعالى - أن الاستقامة على الدين الحنيف الذي هو مقتضى الفطرة هو الدين القيم. فلا يكون تحقيق التوحيد والدين القيم إلَّا بتحقيق مقتضى الفطرة.

ومما يبين أن الفطرة المأمور بالاستقامة عليها تقتضي الإسلام إضافتُها إلى الله - تعالى -، فلا بد أن تكون ممدوحة، ولا تكون كذلك إلَّا إذا كانت مقتضية للإسلام.

وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «فطرة الله أضافها إليه إضافة مدح لا إضافة ذم، فعُلِم أنها محمودة لا مذمومة»[2].

(١) «درء تعارض العقل والنقل» (٨/ ٣٧٢).

(٢) «نفس المصدر».

ما المراد من قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾؟

قال الطبري ـ رحمه الله ـ: «وقوله: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾[الروم:٣٠]، يقول: لا تغيير لدين الله، أي لا يصلح ذلك، ولا ينبغي أن يُفعل».

وقد فسَّر أئمة التفسير كمجاهد، وعكرمة، وقتادة، وسعيد بن جبير، والضحاك، والنخعي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾: لدين الله.

قال الطبري ـ رحمه الله ـ: «وروي أيضًا عن ابن عباس أنه سُئل عن إخصاء البهائم فكرهه، وقال: لا تبديل لخلق الله. وعن حميد الأعرج قال: قال عكرمة: الإخصاء. وعن حفص بن غياث، عن ليث، عن مجاهد قال: الإخصاء. قلت: مجاهد وعكرمة: رُوي عنهما القولان، إذ لا منافاة بينهما، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: ١١٩]، فتغيير ما خلق الله عليه عباده من الدين تَغْييرٌ لخلقه، والخِصَاءُ وقطع الأُذُن أيضًا تغييرٌ لخلقه»[(١)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «ولهذا شبه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحدَهما بالآخر في قوله: «**كلُّ مولود يُولَدُ على الفطرة فأبواه يُهوِّدانه ويُنصِّرانِه ويُمجِّسانِه، كما تُنتج البهيمةُ بهيمةً جمعاء، هل تُحسُّون فيها من جدعاء؟**».

فأولئك يُغيِّرون الدين، وهؤلاء يُغيِّرون الصورة بالجَدْع والخصاء، هذا تغيير لما خُلقت عليه نفسه، وهذا تغيير ما خُلق عليه بدنه»[(٢)]اهـ.

(١) انظر: «جامع البيان» (١١/ ٤٠).

(٢) انظر: «درء التعارض» (٨/ ٣٧٤-٣٧٧).

وقال الإمام المحقق ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «فجمع ـ عليه الصلاة والسلام ـ بين الأمرين: تغيير الفطرة بالتهويد والتنصير، وتغيير الخلقة بالجدع، وهما الأمران اللذان أخبر إبليس أنه لابد أن يغيرهما، فغير فطرة الله بالكفر، وهو تغيير الخلقة التي خُلِقوا عليها، وغيَّر الصورة بالجدع والبتك، فغير الفطرة إلى الشرك، والخلقة إلى البتك والقطع، فهذا تغيير خِلقة الروح، وهذا تغيير خلقة الصورة»[(١)] اهـ.

وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾: «للعلماء في تأويلها قولان:

الأول ـ أنها خبر بمعنى الطلب، أي لا تبدلوا خلق الله، فتغيروا الناس عن فطرتهم، ثم قال الحافظ: «وهو معنى صحيح» .

الثانى ـ أنها خبر على بابه، وهو أنه ـ تعالى ـ ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجِبِلَّة المستقيمة، لا يولد أحد إلا على ذلك، ولا تفاوت بينهم في ذلك، وهذا هو ظاهر النص[(٢)].

وعقد الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ في صحيحه[(٣)]: باب: لا تبديل لخلق الله: لدين الله، (خُلُقُ الأولين): دين الأولين، والفطرة الإسلام، ثم روى حديث أبي هريرة ـ بعد الترجمة ـ «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة ...**» إلخ.

وصنيع البخاري ـ هذا ـ يدل على أن الفطرة عنده الإسلام، في الآية والحديث جميعًا.

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ١٠٧).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٦/ ٤٣٠).

(٣) «صحيح البخاري» (٨/ ٥١٢) [٤٧٧٥].

الفرق بين تبديل الفطرة وتغييرها

ظاهر قوله ـ تعالى ـ : ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾ الخبرُ عن أن خلق الله لا يُبَدِّله أحد، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «وظاهر اللفظ أنه خبر فلا يُجعل نهيًا بغير حجة، وهذا أصح.

وحينئذ فيقال: المراد ما خلقهم عليه من الفطرة لا تبدل، فلا يُخلقون على غير الفطرة، لا يقع هذا قط.

والمعنى أن الخلق لا يتبدل فيُخلقون على غير الفطرة، ولم يُرِد بذلك أن الفطرة لا تتغير بعد الخلق، بل نفس الحديث يبيِّن أنها تتغير، ولهذا شبهها بالبهيمة التي تُولد جمعاء ثم تُجدَع، ولا تُولد بهيمة قط مخصيَّة ولا مجدوعة.

وقد قال ـ تعالى ـ عن الشيطان: ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِ﴾ [النساء:١١٩]، فالله أقدر الخلقَ على أن يغيروا ما خلقهم عليه بقدرته ومشيئته.

وأما تبديل الخلق، بأن يُخلقوا على غير تلك الفطرة، فهذا لا يقدر عليه إلا الله، والله لا يفعله. كما قال: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم:٣٠]، ولم يقل: لا تغيير، فإن تبديل الشيء يكون بذهابه وحصول بدله، فلا يكون خَلْقٌ بدل هذا الخلق، ولكن إذا غُيِّر بعد وجوده، لم يكن الخلق الموجود عند الولادة قد حصل بدله.

وأما قول القائل: لا تبديل للخلقة التي جُبل عليها ولدُ آدم كلهم من كفر وإيمان، فإن عنى بها أن ما سبق به القدر من الكفر والإيمان لا يقع خلافه، فهذا حق. ولكن ذلك لا يقتضي أن تبديل الكفر بالإيمان وبالعكس ممتنع، ولا أنه غير مقدور، بل العبد قادر على ما أمره الله به من الإيمان، وعلى ترك ما نهاه عنه

من الكفر، وعلى أن يبدل حسناته بالسيئات بالتوبة، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النمل: ١٠، ١١]، و﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

وهذا التبديل كله هو بقضاء الله وقدره، وهذا بخلاف ما فُطُروا عليه حين الولادة، فإن ذاك خلقُ الله الذي لا يَقْدر على تبديله غيرهُ، وهو ـ سبحانه ـ لا يُبدِّله قط، بخلاف تبديل الكفر بالإيمان وبالعكس، فإنه يبدله دائمًا، والعبد قادر على تبديله بإقدار الله له على ذلك.

ومما يبين ذلك أنه قال ـ تعالى ـ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، فهذه فطرة محمودة، أمر الله بها نبيَّه، فكيف يكون فيها كفر وإيمان مع أمر الله ـ تعالى ـ بها؟ وهل يأمر الله ـ تعالى ـ قط بالكفر؟» اهـ[(١)].

(١) «درء تعارض العقل والنقل» (٨/ ٤٢٤-٤٢٦).

الفطرة مقتضية للتوحيد وليست مجرد القابلية للتوحيد

ذهب بعض العلماء[(١)] إلى أن الفطرة لا تقتضي التوحيد، وإنما هي مجرد القابلية للتوحيد، بمعنى أن الإنسان قد خُلق خِلقةً تختلف عن خلقة البهائم بحيث يمكن أن يوحِّد أو يشرك باختياره، دون أن يكون في خلقته ما يقتضي ترجيح التوحيد على الشرك، بل تكون النفس قابلة لأي منهما على السواء.

وحاصل الفرق بين هذا القول والقول بأن الفطرة مقتضية[(٢)] للتوحيد، أن الفطرة إذا كانت مجرد القابلية للتوحيد، كان تحقق التوحيد للإنسان من الممكنات التي قد تحصل وقد لا تحصل، بخلاف ما إذا كانت الفطرة مقتضية للتوحيد،فإن تحققه لا يكون ممكنًا بل واجبًا مع وجود شروطه وانتفاء موانعه[(٣)].

---

(١) وهم فريق من العلماء فسَّر «الفطرة» بالمعنى اللغوي الذي هو الخِلْقة، ففسَّروا قوله ـ تعالى ـ: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾، وقول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**كل مولود يولد على الفطرة**» الحديث، بأنها تعني الخِلْقة، وهذا يقتضي أن الفطرة محايدة بين التوحيد والشرك، وأنها مجرد القابلية لكل منهما على حَدٍّ سواء، وعلى هذا التقدير لا يكون في القلب سلامة ولا عطب، ولا استقامة ولا زيغ، إذ نسبته إلى كل منهما نسبة واحدة، وليس هو بأحدهما أولى منه بالآخر، كما أن الرَّق قبل الكتابة فيه لا يثبت له حكم مدح كالمصحف، ولا حكم ذم كقرآن مسيلمة، والتراب قبل أن يُبنى مسجدًا أو كنيسة، لا يثبت له حكمُ واحدٍ منهما. ولكن الأدلة تؤيد أن الفطرة هنا يراد بها المعنى الشرعي الذي هو أخص من المعنى اللغوي، وهو كونها تعني الإسلام، وعليه فإن الفطرة مرجِّحة للتوحيد، ومنحازة إليه.

(٢) الاقتضاء هنا: الطلب والاستلزام.

(٣) «المعرفة في الإسلام» ص (٢٤٢).

الدليل الثاني -

أن الفطرة أثر من آثار العهد والميثاق، الذي أخذه الله ـ سبحانه ـ بنفسه المقدسة من بني آدم، وهم في عالم الذر قبل الخلق. قال الله ـ تعالى ـ : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٤]، وبذلك خلقت الذرية كلها مقرة بالإسلام، ومستقيمة على ملته، وظلت الخليقة على ذلك وقتًا مقدرًا من الزمان، حتى دبَّ فيهم الاختلاف، وابتدع الشرك، فنقض العهد، وفسدت الفطر، وضلت العقول عن المراد من علة الخلق وحكمة التكوين...

فعندئذ رحمة من الله بعباده أرسل رسله مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب ليحكموا بين الناس فيما كانوا فيه يختلفون، وليُذَكِّروا الخلقَ بمقتضى فِطَرِهم من قبل أن يأتيهم عذاب أليم.

قال الله ـ تعالى ـ : ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقد رجَّح بعض المحققين أن الميثاق المذكور في آية الأعراف هو خلقهم مفطورين على التوحيد، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ: «أما قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**كل مولود يُولَد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجِّسانه**»: فالصواب أنها فطرة الله التي فطر الناس عليها، وهي فطرة الإسلام، وهي الفطرة التي فطرهم عليها يوم قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف:١٧٢]. وهي : السلامة من الاعتقادات الباطلة، والقبول للعقائد الصحيحة.

فإن حقيقة (الإسلام) أن يستسلم لله؛ لا لغيره، وهو معنى لا إله إلا الله، وقد ضرب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مثل ذلك فقال: «**كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟**».

بين أن سلامة القلب من النقص كسلامة البدن، وأن العيب حادث طارئ.

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما يروي عن الله: «**إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا**»[1].

الدليل الثالث -

دلت آيات القرآن الكريم على أن جميع الرسل افتتحوا دعوتهم بقولهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [هود: ٥٠]، وأول صيغة أمر في (المصحف الشريف) هي قوله - تعالى - : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، وذلك لأن معرفة الله فطرية ضرورية أولية، وهي أشد رسوخًا في النفوس من مبدأ العلم الرياضي كقولنا: «إن الواحد نصف الاثنين»، ومبدأ العلم الطبيعي، كقولنا: «إن الجسم لا يكون في مكانين».

فمِن ثَمَّ دعا الأنبياء أول ما دَعَوْا قومهم إلى عبادة الله وحده، لأنهم - بحكم الفطرة - يعرفون الله، فإذا دُعوا إلى الإقرار بوجود الله - تعالى - أولًا؛ كان ذلك تحصيل حاصل، وإذا دُعوا إلى عبادته وحده تضمن ذلك الأمرُ أنهم يعرفونه.

وأكثر الناس غافلون عما فُطروا عليه من العلم، فيذكِّرهم الرسل بالعلم الذي فُطروا عليه، ولذلك قال - تعالى -: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٨]،

(١) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٤٥).

وقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴾ [الغاشية: ٢١]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ﴾ [الأعلى: ١١، ١٢]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾ [طه:٤٤]، حتى لو غفلوا عن هذه الفطرة في حال السراء، فلا شك أنها تستيقظ في حال الضراء.

قال ـ تعالى ـ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [يونس: ٢٢]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ ﴾ [الإسراء:٦٧].

لقد أرسل الله الرسل لتقرير الفطرة وتكميلها لا لتغييرها وتحويلها، ولا بد لهذه الفطرة من قُوتٍ وغذاء يمدها بنظير ما هو مغروس فيها وما قد فُطرت عليه علمًا وعملًا، ولهذا كان كمال الدين التام، بالفطرة المكمَّلة، بالشريعة المنزلة.

قال ـ تعالى ـ في أول ما أنزل من كتابه الكريم: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق:١]، وقال أيضًا: ﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴾ [العلق: ٣].

قال شيخ الإسلام: «ذُكر ـ أي الرب ـ في الموضعين بالإضافة التي توجب التعريف، وأنه معروف عند المخاطَبين، إذ الرب ـ تعالى ـ معروف عند العبد بدون الاستدلال بكونه خلق، وأن المخلوق ـ مع أنه دليل، وأنه يدل على الخالق ـ لكن هو معروف في الفطرة قبل هذا الاستدلال؛ ومعرفته فطرية، مغروزة في الفطر، ضرورية، بديهية، أولية»[(١)] اهـ.

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٣٢٤).

الدليل الرابع -

ما رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**كل مولود يُولَد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجِّسانه، كمثل البهيمة تنتج بهيمة، هل ترى فيها جدعاء؟**»، وفي رواية: «**تنتج بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟**»، ثم يقول أبو هريرة: «اقرؤوا إن شئتم ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:٣٠]». وفي رواية سألوه عن أطفال المشركين، أي من يموت منهم صغيرًا، فقال: «**الله أعلم بما كانوا عاملين**»[١].

وهذا الحديث يدل بوضوح على أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يقصد بالفطرة فيه معناها اللغوي[٢]، وإنما أراد معناها الشرعي المعهود في نصوص الوحيين، وذلك من وجوه:

الأول ـ روايات هذا الحديث المختلفة الألفاظ المتفقة المعاني، بحيث يفسِّر بعضها بعضًا مثل: «**ما من مولود يولد إلا وهو على الملة**»، وفي أخرى: «**إلا على هذه الملة**»[٣].

الثاني ـ أن هذا المعنى هو الشائع المعهود في كثير من النصوص النبوية:

ـ **فمنها**: حديث البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك**

---

(١) أخرجه البخاري [١٣٥٩]، [١٣٨٥]، ومسلم [٢٦٥٨]، والترمذي [٢١٣٨]، وأبو داود [٤٧١٤].

(٢) ولو أراد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مجرد المعنى اللغوى، لبين المقصود بالخلقة التي يولد عليها كل مولود، لأن القول بأن كل مولود يولد على الفطرة التي هي الخلقة لا يفيد لذاته معنى محددًا ما لم توصف تلك الخلقة بما يقطع النزاع في معناها، ولا يمكن ذلك إلَّا إذا فسرت الفطرة على معناها الشرعي، فلزم أن يكون هو المقصود في الحديث دون المعنى اللغوي.

(٣) رواه مسلم في «صحيحه» [٢٦٥٨] (٤/ ٢٠٣٨).

الأيمن ثم قل: اللهم أسلمتُ وجهي إليك، وفوضتُ أمرى إليك، وألجأتُ ظهرى إليك، رغبةً ورهبةً إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلَّا إليك، آمنتُ بكتابك الذي أنزلتَ وبنبيك الذي أرسلت، فإن مت من ليلتك فأنت على الفطرة»[(١)].

قال الحافظ ابن حجر: «وقوله: «**على الفطرة**»، أى: على الدين القويم، ملة إبراهيم، فإنه ـ عليه السلام ـ أسلم واستسلم...»[(٢)].

فهذا الحديث اشتمل على تحقيق التوحيد من الاستسلام لله، وتفويض الأمور إليه، والتوكل عليه، والتأله له وحده، وقد بشر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في هذا الحديث أن من قال تلك الكلمات المحقِّقة لهذه المعاني مات على الفطرة، فدل على أن الفطرة مقتضية لتوحيد الله ـ تعالى ـ، وأن من حقق التوحيد فقد حقق مقتضى الفطرة.

ـ **ومنها**: ما كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقوله إذا أصبح وهو: «**أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، وعلى دين نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وعلى ملة إبراهيم حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين**»[(٣)] الحديث.

قال ابن الأثير: «فطرة الإسلام. الفطرة: ابتداء الخلقة، وهي إشارة إلى كلمة التوحيد، حين أخذ الله العهد بها على ذرية آدم فقال: ألست بربكم؟ قالوا: بلى»[(٤)] اهـ.

---

(١) أخرجه البخاري [٢٤٧]،[٦٣١١]،[٦٣١٣]،[٦٣١٥]، ومسلم [٢٧١٠]، والترمذى [٣٣٩١]، وغيرهم.

(٢) «فتح الباري» (١١/ ١١١).

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٤٠٦)، (٥/ ١٢٣)، وصححه النووي في «الأذكار» ص (٦٨) بتحقيق الشيخ عبد القادر الأرناؤوط، وقال الهيثمي: «رواه أحمد والطبراني، ورجالهما رجال الصحيح» اهـ. «مجمع الزوائد» (١٠/ ١١٦)، وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقوله إذا أمسى أيضًا: «**أمسينا**» إلخ.

(٤) «جامع الأصول» (٤/ ٢٥٣).

وكلمات هذا الدعاء مترادفة في معانيها، ففطرة الإسـلام وكلمة الإخلاص ويـن النبـي ـ صلى الله عليه وسـلم ـ وملـة إبراهيم ـ عليه السـلام ـ هي مقتضى تحقيق التوحيد، فمن حقق مقتضى الفطرة فقد حقق التوحيد.

ـ **ومنهـا**: أن رسـول الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ سـمع رجـلًا يؤذن، فحين قـال الرجل: الله أكبر، الله أكبر، قال رسـول الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ: «**على الفطرة**»[1].

قال الإمام النووي: «قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**على الفطرة**»، أي: على الإسلام»[2].

ووجـه الدلالـة في هـذا الحديـث أن النبي ـ صلى الله عليه وسـلم ـ شـهد للرجـل حيـن أعلن التوحيد بالتكبيـر أنه على الفطرة، فعُلِـم أن الفطرة في معناها الشرعي تقتضي التوحيد.

ـ **ومنها**: قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**خمس من الفطرة: الختان، والاستحداد، وتقليم الأظافر، ونتف الإبط، وقص الشارب**»[3].

فهـذه النصـوص وغيرها ممـا في معناها تـدل على أن للفطـرة في نصوص الكتاب والسُّـنة معنى خاصًّا معهودًا غيـر المعنى اللغوي العام. وأن ذلك المعنى الشـرعي هو المقصود في حديث الفطرة، فلا بـد أن يكون النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أخبر أن كل مولود يولد على خلقة تقتضي التوحيد.

---

(١) رواه مسلم [٣٨٢].

(٢) «صحيح مسلم بشرح النووي» ط. دار ابن أبي حيان (٢/ ٣٢٠).

(٣) رواه مسلم [٢٥٧] (١/ ٢٢١).

الوجه الثالث ـ الدال على أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أراد بالفطرة في الحديث ما يقتضي التوحيد أنه قد ذكر التهويد والتنصير والتمجيس في مقابل الفطرة، بحيث تكون تلك الأديان مخالفة لمقتضاها، لأن الفطرة هي الأصل الذي يولد عليه كل مولود، واتباع تلك الأديان الباطلة انحراف عنها، فلابد أن تكون الفطرة مقتضية للإسلام، ولهذا لم يذكر في الحديث تأثير الأبوين في جعل المولود مسلمًا، لأن ذلك هو مقتضى الفطرة التي خُلق عليها، فدل على أن الخلقة التي يولد عليها كل مولود تقتضي الإسلام.

وفي ترجيح أن المراد بالفطرة في الحديث الإسلام بناء على ما تقدم يقول الحافظ ابن حجر: «يؤيد المذهب الصحيح أن قوله: «**فأبواه يهودانه ...**»، ليس فيه لوجود الفطرة شرط، بل ذكر ما يمنع موجبها، فحصول اليهودية مثلًا متوقف على أشياء خارجة عن الفطرة بخلاف الإسلام»[(١)].

الوجه الرابع ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد شبه المولود يولد على الفطرة بالبهيمة تولد جمعاء، أي: مجتمعة الخَلْق وهذه صفة كمال فيها، كما شبه الانحراف عن الفطرة في المولود بجدع البهيمة[(٢)] وهي صفة نقص عن الكمال الذي كانت عليه، فلابد أن تكون الخلقة التي يولد عليها المولود صفة كمال يولد عليها، وأن يكون التهويد والتنصير والتمجيس صفة نقص يلحق بها، وصفة الكمال الذي يولد عليه المولود لا يمكن أن تكون مجرد القابلية لأن يكون مسلمًا

---

(١) «فتح الباري» (٣/ ٢٥٠).

(٢) فقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**هل تحسون فيها من جدعاء؟**» يعني أن البهيمة خلقت سليمة، ثم جُدعت بعد ذلك، فكذلك الولد يولد سليمًا من الكفر؛ مؤمنًا مسلمًا، ثم يطرأ عليه الكفر بعد ذلك، فالعيب الذي طرأ على البدن، يقابله العيب الذي طرأ على الدين، وهو الكفر.

أو كافرًا[١]، لأن ذلك لا يقتضي لذاته مدحًا ولا ذمًّا وإنما يكون المدح أو الذم بما يلحقه بعد ذلك، فلا بد أن تكون الفطرة صفة كمال يولد عليها المولود، وهي لا تكون كذلك إلَّا إذا وُلِد على ما يقتضي الإسلام، فلا بد أن يولد كل مولود على خلقة مقتضية للإسلام.

الوجه الخامس ـ أن أبا هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال بعد روايته للحديث: «اقرؤوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾» [الروم:٣٠]، مما يبين أنه فسر الحديث بالآية، وقد أجمع العلماء على أن المراد بالفطرة في الآية الإسلام، وتفسير الراوي أرجح لأنه أعلم بما سمع.

ولذلك لما سُئِلَ أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن رجل عليه رقبة مؤمنة، أيجزئ عنه الصبي أن يُعتقه وهو رضيع، فقال: «نعم، لأنه ولد على الفطرة»[٢] يعني الإسلام.

قال ابن شهاب الزهري: «يُصلَّى على كل مولود متوفى وإن كان لِغيَّة، من أجل أنه وُلد على فطرة الإسلام»[٣]، وأفتى الزهري ـ أيضًا ـ رجلاً عليه رقبة مؤمنة أن يُعتق رضيعًا، لأنه ولد على الفطرة[٤].

---

(١) ولو كانت الفطرة هي مجرد القابلية لأن يكون مسلمًا أو كافرًا لقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «أو يُسَلِّمانه»، ولو كانت الفطرة مجرد القابلية للحالين لما شبَّهها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالبهيمة المجتمعة الخلق، ولما شبَّه ما يطرأ عليها من الكفر بجدع الأنف والأذن، ومعلوم أن كمالها محمود، ونقصها مذموم، فكيف تكون قبل النقص لا محمودة ولا مذمومة؟!

(٢) «تجريد التمهيد» ص (٣٠٠).

(٣) رواه البخاري في «صحيحه» [١٣٥٨] (٣/ ٢١٩)، وقوله: (لِغيَّةٍ) أي ولو كان ولد زنا، لأنه محكوم بإسلامه تبعًا لأمه.

(٤) «تجريد التمهيد» ص (٣٠٠).

قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: «من مات أبواه وهما كافران حُكِمَ بإسلامه» واستدل بحديث: «**كل مولود يولد على الفطرة..**» فدل على أنه فسر الفطرة بالإسلام[(١)].

الوجه السادس ـ أنه لو لم يكن المراد بالفطرة الإسلام، لما سألوا عقب ذلك عمن يموت من أطفال المشركين وهو صغير؛ لأنه لو لم يكن هناك ما يغير تلك الفطرة لما سألوه، والعلم القديم وما يجري مجراه لا يتغير.

وقد أجمع العلماء على أن أولاد المؤمنين ناجون يوم القيامة، واختلفوا في أولاد المشركين الذين ماتوا قبل أن يبلغوا، والراجح نجاتهم لكونهم ماتوا على الفطرة قبل أن تُغير[(٢)].

وقال النووي ـ رحمه الله ـ: «إن هذا هو المذهب الصحيح الذي ذهب إليه المحققون لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥] اهـ[(٣)].

ومن الأدلة على نجاتهم: ما رواه البخاري عن سمرة بن جندب ـ رضي الله عنه ـ في حديث الرؤيا الطويل، وفيه: «**وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإنه إبراهيم ـ عليه السلام ـ، وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة**»[(٤)]،

(١) انظر: «فتح الباري» (٣/ ٢٤٨).

(٢) ولا يمنع هذا أن أحكام الكفر تجري عليهم في الدنيا لكونهم تبعًا لآبائهم، فإنهم يرثونهم، ويُدفنون في مقابرهم، وفي صحيح مسلم: «**هم من آبائهم**».

(٣) «صحيح مسلم بشرح النووي» ط. دار أبي حيان، (٨/ ٤٦٢).

(٤) وفي رواية النضر بن شميل: «**وُلد على الفطرة**» قال الحافظ: وهي أشبه بقوله في الرواية الأخرى: «**وأولاد المشركين**»اهـ. من «فتح الباري» (١٦/ ٤٢٩).

قال: فقال بعض من المسلمين: يا رسول الله! وأولادُ المشركينَ؟ فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **وأولاد المشركين**»[(١)] الحديث[(٢)].

الوجه السابع ـ أن هذا القول هو المعروف عند عامة السلف، وأهل العلم بالتأويل، وفي مقدمتهم صحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذين هم أعلم الناس بمراد الله ـ تعالى ـ ومراد رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فإذا صح عنهم تفسير الفطرة بالإسلام ولم يُعرفْ بينهم خلاف في ذلك فالحق ما قالوه، فكما يُقبل منهم ما نقلوه من الدين، فكذلك ما فهموه، ما لم يختلفوا.

الدليل الخامس -

حديث عياض بن حمار المجاشعي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يروي عن ربه وفيه: «**وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا ..**»[(٣)].

حنفاء: جمع حنيف، والحنيف في كلام العرب: المستقيم المخلص، ولا استقامة أكثر من الإسلام.

وقد رُوي عن الحسن قال: الحنيفية: حج البيت، وهذا يدلك على أنه أراد الإسلام، وكذلك رُوي عن الضحاك والسُّدِّي: «حنفاء: حُجَّاجًا»، وعن مجاهد: «حنفاء» قال: متبعين.

وهذا كله يدلك على أن الحنيفية: الإسلام.

---

(١) قال الحافظ في «الفتح»: «قوله: (وأولاد المشركين) ظاهره أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ألحقهم بأولاد المسلمين في حكم الآخرة، ولا يعارض قوله: «**هم من آبائهم**» لأن ذلك حكم الدنيا»اهـ. (١٦/ ٤٢٩).

(٢) رواه البخاري في «صحيحه» (١٦/ ٤١٧) [٧٠٤٧] ط. «دار طيبة ـ الرياض».

(٣) أخرجه مسلم [٢٨٦٥]، والإمام أحمد (٤/ ١٦٢).

وقال الشاعر ـ الراعي النميري ـ:

ظفهينغ عهقفهه عهع هدإ ... فهنعظ هقفف غنقغ وظكيـ﴾

لقغ هقو ئ نيـ ظهوعههع ... فن عهقنعغ ههق﴾ غهقيـ﴾

قـال ابن فارس: «الحنيف: المائل إلى الدين المسـتقيم، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسۡلِمًا﴾ [آل عمران:٦٧]»[(١)].

وقال الزمخشـري: «قد تحنَّف إلى الشـيء إذا مال إليـه، ومنه قيل لمن مال عن كل دين أعوج: هو حنيف، وله دين حنيف، وتحنف فلان إذا أسلم»[(٢)].

وحاصـل معنى هذا الحديث أن الله قد خلق عبـاده خلقة مقتضيَة للتوحيد، وأنهم لو اسـتمروا عليها دون صارف يصرفهم عنها لكانوا حنفاء موحدين، لكن الشياطين صرفتهم عن مقتضى تلك الخلقة إلى الشرك.

فإخبـار الله ـ تعالـى ـ أنـه خلـق عباده حنفاء يـدل على أنه خلقهـم على ما يقتضي أن يكونوا موحِّدين، لأن الحنيف في اللغة وفي نصوص الكتاب والسُّـنة هو المائل عن الشرك إلى التوحيد.

وأمـا النصـوص الدالة علـى أن الحنيف بمعنـى الموحِّد فكثيـرة. منها قوله ـ تعالـى ـ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينـة:٥]، ومنهـا قولـه: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [آل عمـران:٦٧]، وقولـه ـ تعالـى ـ: ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [آل عمـران: ٩٥]، وقولـه ـ تعالـى ـ: ﴿وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [يونس: ١٠٥].

---

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ١١٠، ١١١).

(٢) «أساس البلاغة» ص (٩٧).

ومما ورد في السُّنة ما جاء في قصة زيد بن عمرو بن نفيل وخروجه إلى الشام ولقائه الأحبارَ والرهبانَ، وكلهم يقول له إنه لا يعلم الدين الحق إلَّا أن يكون حنيفًا على دين إبراهيم ـ عليه السلام ـ: «**فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم ـ عليه السلام ـ خرج، فلما برز رفع يديه فقال: اللهم إني أشهد أني على دين إبراهيم**»[(١)].

قال الحافظ ابن حجر عن زيد هذا: «وكان ممن طلب التوحيد، وخلع الأوثان، وجانب الشرك، لكنه مات قبل المبعث»[(٢)].

وقال عنه ابن كثير: «وكان زيد بن عمرو قد ترك عبادة الأوثان، وفارق دينهم، وكان لا يأكل إلَّا ما ذُبح على اسم الله وحده»[(٣)].

إن موقف المتحنفين يدل على أن العبد قد يصيب الحق بخواطر تجول في نفسه، وأدلة قد انتظمت وترتبت بداخله على وجوب التمسك به دون أن تُلقى عليه حُجج وبينات من خارج ذاته، ويدل أيضًا على أن بالفطرة قوة تقتضي: حب الفاطر ووجوبَ عبادته وحده، وأن هذا يتم في النفس بغير سبب منفصل عنها، فوجوده فيها لا يتوقف على توفر شرط، ولكن على انتفاء مانع، وهذا بخلاف إحداث الكفر فهو متوقف على وجود شرط منفصل عن الفطرة وليس على انتفاء مانع خارج عنها، مثل تربية وتنشئة الوالدين لطفلهما عليه. قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه**».

ولو لم يكن ذلك كذلك لاستحال أن يصل عبد إلى الحق إلا بعد أن يسمعه مُدَلَّلًا عليه بالبينات والحُجَج من خارج نفسه، وهذا بخلاف الواقع.

---

(١) أخرجه البخاري [٣٨٢٧].

(٢) «فتح الباري» (٧/ ٢٤٣).

(٣) «البداية والنهاية» (٢/ ٢٣٧).

ومما يبين هذا المعنى من الحديث أيضًا أن الله ـ تعالى ـ أخبر أن الشياطين قد صرفت الناس عن مقتضى الخلقة التي خلق الله الناس عليها إلى الشرك، فدل ذلك على أن الشياطين قد أخرجتهم واجتالتهم عن مقتضى الفطرة إلى ما يناقض مقتضاها وهو الشرك، ولذلك سمى الله ما كانوا عليه قبل صرف الشياطين لهم عنه دينًا، ولو كانوا قبل إغواء الشياطين لهم على خلقة لا تقتضي أن يكونوا موحدين لم توصف بهذا الوصف، ولم يكن لاجتيال الشياطين لهم حينئذٍ معنى.

ولهذا لم يذكر في الحديث إلَّا ما يمنع من تحقيق مقتضى الفطرة، وهو اجتيال الشياطين للناس وأمرهم إياهم بالشرك، فدل على أن الخلقة التي خلقوا عليها مقتضية للتوحيد ما لم يمنع من تحقق ذلك المقتضى مانع، وهذا هو المقصود بفطرية التوحيد[1].

ويؤكد ذلك المعنى قول من ذهب من المفسرين إلى أن قوله ـ تعالى ـ في المنافقين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ [البقرة:١٦]، فيه إشارة إلى فطرة الإسلام: قال الزمخشري: «فإن قلت: كيف اشتروا الضلالة بالهدى وما كانوا على هدى؟ قلت: جُعلوا لتمكنهم منه وإعراضه لهم كأنه في أيديهم، فإذا تركوه إلى الضلالة فقد عطَّلوه، واستبدلوها به، ولأن الدين القيم هو فطرة الله التي فطر الناس عليها، فكل من ضلَّ فهو مستبدل خلافَ الفطرة»[2]اهـ.

ونقل الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيرها قول قتادة: «استحبوا الضلالة على الهدى» ثم قال: «أي الكفر بالإيمان، وهذا الذي قاله قتادة يشبهه

---

(١) «المعرفة في الإسلام» ص (٢٣٥).

(٢) «الكشاف» (١/ ٣٦).

فـي المعنـى قولـه ـ تعالى ـ فـي ثمـود: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾[1] [فصلت:١٧].

وقال البقاعي: «أي لجوا في هواهم فكلَّفوا أنفسـهم ضدَّ ما فطرها الله عليه مع ما نصب من الأدلة حتى أخذوا (الضلالة) أي التي هي أقبح الأشياء (بالهدى) الذي هو خير الأشـياء ومدار كل ذى شـعور عليه، فكأنه لوضوح ما قام عليه من الأدلة مع ما رُكِز منه في الفِطَر كان في أيديهم فباعوه بها»[2] اهـ.

وقـال الخطيب الشـربيني: «والمعنى أنهـم أخذوا بالهدى الـذي جعله الله لهـم بالفطرة التي فطر النـاس عليها مُحَصِّلين الضلالة التي ذهبوا إليها، واختاروا الضلالة واستحبوها على الهدى»[3]اهـ.

وقال الألوسـي: «أو يقال: المراد بالهـدى الهدى الجِبِلِّي، وقد كان حاصلًا لهم حقيقة ـ فإن كل مولود يولد على الفطرة»[4] اهـ.

والحاصـل أنه ـ عزَّ وجـلَّ ـ جعل الهدى هو رأس المـال الحاصل عندهم، والذي منحهم الله إياه، إلا أنهم عرَّضوه للزوال، وخسروه حين بدَّلوا هذه الفطرة المستقيمة القريبة منهم، واشتروا بها الضلالة البعيدة عنهـم ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ [البقرة:١٦].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١/ ١٤١).
(٢) «نظم الدرر» (١/ ١١٧).
(٣) «السراج المنير» (١/ ٥٤).
(٤) «روح المعاني» (١/ ١٦١).

تنبيهات

الأول -

أن الخلاف في المقصود بالفطرة هو في مسألة محددة ألا وهي:

هل الخِلقة التي يُولد عليها المولود مقتضية (أي: مستلزمة) للتوحيد والإسلام، أم أنها قابلةٌ له فحسب؟

وبيَّنا فيما مضى الأدلة التي ترجح اقتضاء الفطرةِ الإسلام، وهذا لا يلزم منه أن يتحقق مقتضى الفطرة للإنسان منذ ولادته، فالمولود لا يكون عارفًا بالتوحيد منذ ولادته، وهو ليس مسلمًا بالفعل لأنه لا يعقل شيئًا، ولا يُكَلَّفُ إلا عند البلوغ، قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ [النحل: ٧٨].

لكن المقصود أنه قد خُلِق خِلقة مُهَيِّئة لمعرفة الله وتوحيده إذا أدرك وميز وعقل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فنفس الفطرة تستلزم: الإقرار بخالقه ومحبته وإخلاص الدين له، وموجبات الفطرة ومقتضاها تحصل شيئًا بعد شيء، بحسب كمال الفطرة، إذا سَلِمت عن المعارض.

شأنها في ذلك شأن كافة الحواس كالسمع، والبصر والنطق... فكما يجوز لنا أن نقول: إن الإنسان ولد ناطقًا مع أننا نجزم بعجزه عنه ساعة ولادته، إلا أنه ينمو معه بنمو جسده، ويتحقق فيه إذا سلم عن معارضه، فكذلك الفطرة سواء بسواء.

وبالجملـة: فكلما حصـل في الطفل قدر من العلـم والإرادة، حصل له قدر من معرفته بربه وحبه مع إخلاص الدين له بما يناسب ذلك»[1] اهـ.

الثاني -

أن القـول بفطريـة التوحيـد لا يقتضـي أن يكـون الطفل موحِّـدًا منذ ولادته عالمًا بذلك، بحيث يكون مخلوقًا عليه خلقة ليس له فيها اختيار، فلا يكون حينئذ موحِّدًا باختياره، وإنما لأن الله قد خلقه على التوحيد.

ولكـن القـول بفطرية التوحيد لا يسـتلزم ذلـك، وإنما يدل علـى أن الفطرة خِلقـة تقتضي التوحيد، وأنه ليس متحققًا للمولـود بالفعل منذ الولادة، وإنما هو متحقق له بالقوة المقتضية له مع تحقق شروطه وانتفاء موانعه.

ولهـذا ذكـر النبي ـ صلى الله عليه وسـلم ـ في حديـث الفطرة إمكان عدم تحقـق مقتضـى الفطرة، مع أنه أراد بهـا الخلقة المقتضية للإسـلام، ولو كان لا يمكن تخلف مقتضاها لم يمكن أن يكفر أحد. فعلم أن اقتضاء الفطرة للإسلام ليـس مطلقًا غير مشـروط، كمـا أنه لا يمكـن أن يتحقق ذلـك المقتضى قبل أن يعقـل الطفـل ويميز، ويكـون له الاختيـار بين أن يلتـزم بمقتضى الفطـرة أو أن ينحرف عنها.

الثـالث -

أن المقصـود بالفطـرة فـي قوله ـ صلى الله عليـه وسـلم ـ: «**كل مولود يولد على الفطرة**»: الإسلام، ولسنا نعني بالإسلام هنا الإيمان الذي هو اعتقاد بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالجوارح، ولا الإسلام (الخاص) الذي يعبر به عن جملة

(١) «درء تعارض العقل والنقل» (٨/ ٣٨٣).

من العقائد والشرائع وغيرها مما لا يعلم إلا من جهة الوحي الشريف، لأن هذا كله معدوم من الطفل.

لكن المقصود هو: الإسلام (العام) أي التوحيد وإخلاص القصد لله وحده، الذي وصف الله به جميع الأنبياء وأتباعهم.

والفرق بينهما هنا: أن الإسلام (العام) فطري ضروري بديهي أولي لا يستطيع المرءُ له دَفْعًا، ولا يحصل عن طريق الكسب بالنظر والفكر والاستدلال، وهذا مركوز ومغروس في كل البشر، وهم فيه سواء.

أما الإسلام (الخاص): فكسبي يُدرَك بتعلم الأدلة التفصيلية، ويتفاوت فيه الناس تفاوتًا عظيمًا.

(٢٢) محور الصراع في تاريخ البشرية

إن المتأمل في حركة التاريخ البشري ـ من خلال القرآن الكريم ـ لا تكاد تخطئ عينه أن الصراع في كل حلقاته إنما دار حول «لا إله إلا الله» الكلمة المقدسة التي أرسل الله بها رسله، وأنزل بها كتبه، والتي مازال الأنبياء وأتباعهم يجابهون بها أهل الشرك والكفران ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ [الحج:١٩].

إنه صراع بين دين سماوي واحد هو الإسلام، وبين أديان باطلة تدعو إلى عبادة غير الله، صراع بين حزب الله وهم رسل الله وأتباعهم، وحزب الشيطان وهم أتباع الأديان الباطلة، سواء أكانت ذات أصل سماوي صحيح ثم حُرِّفت، أم كانت أديانًا أرضية صنعها البشر.

لقد بيَّنا فيما مضى كيف كان توحيد العبادة مُفْتَتَحَ دعوة الرسل جميعًا، فما مِن رسول بعثه الله إلا وكان أول ما يدعو قومه إليه هو توحيد الله، ولذا كانت الخصومة بين الأنبياء وأقوامهم في ذلك، فالأنبياء يدعونهم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له، والأقوام يصرون على البقاء على الشرك وعبادة الأوثان إلا من هداه الله منهم.

قال الله ـ تعالى ـ عن قوم نوح ـ عليه السلام ـ: ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴾ [نوح:٢٣، ٢٤].

وقال عن قوم هود ـ عليه السلام ـ: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الأحقاف:٢٢].

﴿ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ [هود:٥٣].

وقال عن قوم صالح ـ عليه السلام ـ: ﴿ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴾ [هود:٦٢].

وقال عن قوم شعيب ـ عليه السلام ـ: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود:٨٧].

وقال عن كفار قريش: ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ﴾ [ص:٤-٧].

وقال: ﴿ وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ٤١ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ٤٢ أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ٤٣ أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان:٤١-٤٤].

فهذه النصوص وما جاء في معناها تدل أوضح دلالة أن المعترك والخصومة بين الأنبياء وأقوامهم إنما كان حول توحيد العبادة والدعوةِ إلى إخلاص الدين لله.

وقد ثبت في الصحيح أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله**»[1].

إن الأمة الحنيفية لم تزل على مر العصور هي القادرة على نشر نور الإسلام في آفاق الدنيا، امتثالًا للتكليف الإلهي، وتحقيقًا للغاية النبيلة التي عبَّر عنها ربعي ابن عامر ـ رضي الله عنه ـ أصدق تعبير حين قال: «الله ابتعثنا لِنُخْرِجَ الناسَ من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سَعَة الدنيا والآخرة».

وإن أهل «لا إله إلا الله» هم القادرون ـ على مر الدهور ـ على منازلة الباطل، ومقارعة الملل المارقة عن فطرة الكون، ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء:١٨].

وقصة الصراع تحاك وتعاد.. قصة متكررة منذ فجر التاريخ البشري إلى آخر الزمان، يتغير فيها فقط الزمان والمكان وأسماء الرجال المتنازعين، قصة واحدة بين فريقين اختصموا في ربهم، مؤمنين وكافرين: الأحداث متشابهة، تسلسل الفصول واحد، طبيعة الصراع لا تتغير، والنهاية معلومة، والنتائج محتومة[2]:

---

(١) انظر تخريجه ص (١٥).

(٢) انظر: «الطريق إلى جماعة المسلمين» للأستاذ حسين بن محمد جابر ـ رحمه الله تعالى ـ ص (٢١١-٢٥٣).

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴾ [غافر:٥١]، ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص:٨٣]، ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ [الأعراف:١٣٧]، ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ﴾ [المجادلة:٢١].

قصة نوح هي قصة هود، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، وهي نفسها تتكرر مع حبيب النجار، ومؤمن آل فرعون، وأبي بكر الصديق، وعمر الفاروق إلى عصور التابعين وتابعيهم إلى يومنا هذا.

ولقد حاول الذين فسروا التاريخ بعامة وتاريخ الإسلام بخاصة أن يفسروه بمنهج مادي قاصر، متشبع بالروح العالمانية[1] التي تدأب لفصل الدين عن

---

(١) و(عالماني) في هذا السياق لا تعني القائم على العلم، وإنما تعبر عن فهمٍ محدودٍ لمعنى العلم، فكلمة علماني تعني التفكير المادي الذي لا يؤمن إلا بالمحسوس، ويستبعد المغيبات تمامًا من مجال بحثه، ولا يسلم أصلًا بوجودها.
يقوم المنهج العلماني على أساس مبدأ (التطور) الذي ظهر كبديل عن (الخالق)، وأدى تقدم الأبحاث العلمية مع الإلحاد إلى المبالغة في إمكانيات العلم البشري، والإيمان بقدرة الإنسان المطلقة على التقدم والارتقاء.
وحين عجز العلم عن معرفة العلاقة الحقيقية بين السبب والمسبَّب، وحين أعرض عن مصدر الحقائق اليقينية التي يرتكز عليها تاريخ العالم ألا وهو الوحي الشريف، هُرِع (العلم) إلى التفكير الأسطوري الخرافي الذي طالما هُرعت إليه الشعوب البدائية التي نسيت ذكر الله وضاعت منها كتب الله، فجعل (العلم) المزعوم يملأ الفجواتِ المجهولةَ في التاريخ بالخيال الأسطوري، ومنها مبدأ (التطور) ذاته الذي يستند عند (داروين) إلى محض الصدفة.
وعلى أساس من بعض المعلومات الجزئية المبتورة في مجالات المادة الجامدة والحية، وفي مجال النفس والاجتماع نسج العقل الغربي أساطيره الجديدة، ونحن من ناحيتنا يجب أن لا ننساق وراءه في تخبطه الأعمى، ونحن نملك العلم الصحيح الذي يعصمنا من الوقوع في شباك الأساطير.

أعمى يقود بصيرًا لا أبا لكم   قد ضل من كانت العُميان تهديه

الحياة، وحبسه داخل القفص الصدري، وبين حدود جدران المساجد[١].

وإن أصدق مصدر على الإطلاق يُوَثِّق تاريخ البشرية هو الوحي الإلهي المتمثل في القرآن العظيم وسنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ثم مصادر التأريخ الإسلامي المسندة المحققة.

ونحن لا ننكر وجود مدارس مختلفة للتحليل التاريخي كمدرسة التفسير الأخلاقي الديني[٢]، ومدرسة التفسير العقلاني المثالي، ومدرسة التفسير الاجتماعي، ومدرسة التفسير المادي الاقتصادي، لكننا ننكر أن نتنكر لتاريخنا ومصدرنا المحفوظ، وتراثنا الثري، لنتطفل على موائد هذه المدارس التي هي نتاج رؤية بشرية قاصرة أو نتاج هوًى متبع، وضلال عن هَدْي السماء[٣]، والتي تتعامل مع تاريخنا باستعلاء وانتقاء وتشويه، الأمر الذي يُوجِب على أهل الاختصاص المخلصين تحرير عقول شبابنا ومثقفينا من آثار هذه المناهج المنحرفة التي شوَّهت الفكر التاريخي، وملآت آفاقه بغيوم ضبابية كالحة تخفي ملامح الحقائق التاريخية بل تزورها وتتلاعب بها.

---

(١) انظر: «المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره» للدكتور محمد رشاد خليل، و«في التاريخ فكرة ومنهاج» للأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله ـ.

(٢) وهذه المدرسة قد تتفق مع «المدرسة الإسلامية» في بعض معطياتها، ولكنها تختلف عنها بسبب عدم إدراكها لوحدة الدين السماوي وأنه دين واحد فقط، انظر: «مصادر التاريخ الحديث» للدكتور إسماعيل ياغي ص (١٩٨-٢٠٦).

(٣) انظر: «المسلمون وكتابة التاريخ» للدكتور عبد العليم خضر ص (٢٧١-٢٩٧)، و«الموقف من التاريخ الإسلامي وتأصيل الهوية» للدكتور حامد محمد الخليفة ص (٢٥٤-٢٥٦).

لا إله إلا الله

(٢٣) ميثاق المحبة

أسـرد فيمـا يلي تجربـة صادقة بطلها الأسـتاذ الدكتـور فريـد الأنصاري[١] ـ رحمـه الله ـ الذي يسـلط مـن خلالها الضوء على (جمال كلمـة التوحيد)، ويركز على (البعد الوجداني)، و(توحيد المحبة)، الذي تنبض به شهادة أن «لا إله إلا الله»، وهي تتحدث بعمق واقتدار وصراحة عن كثير مما يدور في أذهان الشـباب بل ما يعانونه من (التصحر الروحي)، وتقصر عبارتهم عنه.

قال ـ رحمه الله تعالى ـ:

أول واجـب في الإسـلام هو قـول: «لا إله إلا الله»، وهـي كلمة عظمى في غاية اللطف والبهاء، نعم! كل المسـلمين يقولونها، ولكن القليل منهم هم الذين يعرفونهـا حقًّا؛ ذلك أن انصرافهم إلى التصورات الكلامية في مجال العقيدة، قد صرفهم عن فضاءاتها الجميلة، وأبعادها الجليلة.

وقـد كان المسـلمون عندمـا يتلقَّـوْن العقيـدة بعباراتهـا القرآنيـة الجليلـة، يتفاعلون معها تفاعلًا عجيبًا؛ إذ يتحولون بسـرعة، وبعمق كبير من بشـر عاديين، مرتبطين بعلائق التراب إلى بشر ربانيين ينافسون الملائكة في السماء؛ وما هم إلا بشـر يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق؛ ولذلك حقق الله بهم المعجزات في الحضارة والتاريخ.

---

(١) الأستاذ الدكتور «فريد الأنصاري» ـ رحمه الله ـ (١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م - ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م) عالم أصولي، وواعظ رباني، وأديب وشاعر مغربي، كان حقًّا «فريدًا» متميزًا في أدائه الدعوي وإبداعه التربوي، وكان يهتم كثيرًا بالنقد الذاتي البناء، كما يُلحظ من هذه المقالة التي نشرت في مجلة «البيان» عدد [٢٠٩] ص (٦-١٠).

إن بعض التقسيمات الكلامية للعقيدة الإسلامية التي أملتها ضرورةٌ حِجاجية حينًا وضرورةٌ تعليمية حينًا آخر، ليست ذات جدوى في عالم التربية الإيمانية؛ لخلوها من روحها الرباني، وسرها التعبدي الذي لا تجده إلا في كلمات القرآن وأحرفه: «**من قرأ حرفًا من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: «الٓمٓ» حرف؛ ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف**»[1]. ثم إن الإخبار عن حقيقة الذات الإلهية لا يكون على كمال صدقه، جلالًا وجمالًا إلا إذا كان بما أخبر الله به عن ذاته ـ سبحانه ـ وصفاته. وما كان للمخلوق المحدود أن يحيط وصفًا وعلمًا بالخالق غير المحدود؛ ومن هنا كان التوقيف في مجال التعبير العقدي في الإسلام.

كثير من الناس يتكلم في العقيدة اليوم، ولكن قليلًا منهم من يتفاعل معها؛ لأن العلم الجدلي ما كان له أن يؤتيَ ثمارًا قلبية، وهو قد أُنتج أساسًا لإشباع رغبات العقل المماري، لا لإشباع حاجات القلب الساري. وقد كان الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يخاطب بالعقيدة الإيمانية العقول خطابًا ينفذ من خلالها إلى القلوب؛ حيث تستقر بذرة تُنبت جناتٍ وأشجارًا.

إن السر الذي تتضمنه عقيدة «لا إله إلا الله»، والذي به غيرت مجرى التاريخ مراتٍ ومرات، والذي به صنعت الشخصيات التاريخية العظيمة في الإسلام؛ إنما يكمن في (جمالها)!.. الجمال: ذلك الشيء الذي لا يُدرَكُ إلا بحاسة القلب. إنه إحساسُ: (كم هو جميل أن يكون المرء مسلمًا!).. ودون هذا الإدراك اللطيف للدين إدراكات أخرى من أشكال التدين، لا تغني من الحق شيئًا. لقد ضاع صفاء

---

(١) رواه الترمذي (٨/ ١١٥)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب»، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٦٦)، وصححه، وكذا صححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٦/ ٣٤٠) [٦٣٤٥].

الديـن وجماله السـماوي في غبار التأويلات، ورسـوم التقسـيمات، وقد ذم قومٌ (الـكلامَ)، لكنهـم لم يدركـوا أنهم في خضم الصـراع المذهبي، رَدُّوا وقَسَّـموا؛ (فتكلموا)؛ وسـقط عنهم بذلك بهاء الدين وجماله، وهم لا يشـعرون، أو ـ على الأقـل ـ لم يتـرك ذلك في الأتباع لمسـاتِ الجمال، وأذواقَ الصفاء في السـلوك الذي يُصَنَّفون به على أنهم (مسـلمون)؛ فكانت التصوراتُ في وادٍ، والتصرفات في وادٍ آخر.

إن القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية يقولان لنا حقيقةً جليلة عظيمة لم يستطع أن يوصلَها إلينا علمُ الكلام: هي أن عقيدتنا جميلة.

وَلَكَـمْ هو مؤسـف حقًّا أن يَضيع هـذا المعنى من تدين كثير من المسـلمين اليـوم، فـلا يَـرَوْنَ فـي الديـن إلا خشـونة وخُزونـة ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞ﴾ [المنافقون:٤]، هذا التخشـب فـي الأقوال والفعال، الذي سـيطر علـى تدين كثير مـن الناس اليوم إنما كان لأسـباب سياسـية واجتماعية مختلفة، ليس هذا مجال بيانها، ولا يجوز أبدًا أن تكون مسـوِّغًا للانحراف عن بهاء الدين وجمالـه، وإنما أنزله الله ليكون جميلًا، تتذوقـه القلوب، وتتعلق به الأنفس؛ فلا تستطيع منه فكاكًا، فتُسْلِمُ ـ بجذبه الخفي وإغرائه البهي ـ لله ربِّ العالمين.

«لا إله إلا الله» ـ إذ يقولهـا العبـد مستشـعرًا دلالتهـا اللطيفـة ـ كلمة (قلبية) مدارهـا على وصف حال، والاعتراف بذوق صفات الكمال والجلال. إنها تعبير عن الخضوع الوجداني التام لله. نعم! قلت: (الوجداني)؛ لأنها ـ ببساطة ـ كذلك وردت في سياقها القرآني الأصيل.

ولـو تأملـت هـذه العبـارة العظيمة فـي اللغـة لوجدتهـا تقوم علـى لفظتين أساسيتين: هما مدار الإسلام كله: (الله) و(الإله).

فأما كلمة: (الله): فهو لفظ الجلال، الاسمُ العَلَم على الذات الإلهية، الاسم الجامع لكل الأسماء الحسنى والصفات الإلهية العُلى. ولفظ (الله) فرد في اللغة، فلا يُجمع، ولا يتعدد.

وأما كلمة: (الإله) فهو لفظُ وصفٍ، يدل على معنًى شـعوريٍّ قلبي؛ ولذلك فهو يتعدد؛ إذ يُجمع على (آلهة). وأما باقي العبارات في (لا إله إلا الله) فهي (لا) النافيـة، و(إلا) الحاصرة، تقومان بـدور البناء والتركيب اللغوي؛ للنفي والإثبات الذي يربط نوع العلاقة في قلب المؤمن بين الصفة: (إله) والاسم: (الله). وحقيقة تلك العلاقة هي ما يهمنا هاهنا. إنها علاقة تملأ الوجدان بما يفيض به قلب العبد المعبر بها حقًّا وصدقًا من الاعتقاد والشعور تجاه مولاه ـ جل وعلا ـ.

ذلك أن كلمة (إله) في أصل الاسـتعمال اللغـوي كلمة قلبية، وجدانية، كما ذكرنـا. أعني أنها لفظ من الألفاظ الدالة علـى أحوال القلب، كالحب، والبغض، والفـرح، والحـزن، والأسـى، والشـوق، والرغبـة، والرهبـة.. إلـخ. أصلها قول العـرب: «أَلِهَ الفَصيـلُ يَأْلَهُ أَلَهًا»، إذا ناح شـوقًا إلى أمه. والفصيـل: ابن الناقة إذا فُطِمَ وفُصِل عن الرَّضاع، يُحبس في الخيمة، وتُترك أمه في المرعى، حتى إذا طال به الحال ذكر أمه؛ وأخذه الشوق والحنين إليها ـ وهو آنئذٍ حديثُ عهدٍ بالرضاع ـ فناح، وأرغى رُغاء أشبهَ ما يكون بالبكاء. فيقولون: «أَلِهَ الفصيلُ»، فأمه إذن هاهنا هي (إلهه) بالمعنى اللغوي. ومنه قول الشاعر:

* ظهمغ عهيهع وعهقنع[٩ ونذ *

جاء في (اللسان): «اسم: (الله): تفرد ـ سبحانه ـ بهذا الاسم، لا يشركه فيه غيره، فإذا قيل: (الإلاه) انطلق على الله ـ سبحانه ـ، وعلى ما يُعبد من الأصنام. وإذا قلتَ: (الله) لم ينطلق إلا عليه ـ سبحانه وتعالى ـ، ...وقيل في اسم الباري ـ سبحانه ـ: إنه مأخوذ من ألِهَ يَأْلَهُ: إذا تحيَّرَ؛ لأن العقول تَأْلَهُ في عظمته. وأَلِهَ يَأْلَهُ أَلَهًا: أي تحيَّرَ، وأصله وَلِهَ يَوْلَه وَلَهًا، وقد أَلِهْتُ على فلان: أي اشتد جزعي عليه؛ مثل وَلِهْتُ، وقيل: هو مأخوذ من: أَلِهَ يَأْلَهُ إلى كذا، أي: لجأ إليه؛ لأنه ـ سبحانه ـ الْمَفْزَعُ الذي يُلْجَأُ إليه في كل أمر»[1]؛ إذ (الإله) في هذا السياق اللغوي هو: ما يَشُوقُ القلب، ويأخذ بمجامع الوجدان إلى درجة الانقياد له والخضوع. قال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [الجاثية:٢٣].

والراجح فعلًا أن (أَلِهَ) هومن (وَلِه) ومنه اشتُق الاسم العلم: (الله)؛ لأن مدار كلا المادتين على معاني القلب، فأبدلت من الواو همزة. قال الراغب الأصفهاني: «أَلِهَ فلانٌ يأله: عَبَدَ، وقيل: أصله وِلاه؛ فأبدل من الواو همزة، وتسميته بذلك؛ لكون كل مخلوق والِهًا نحوه، إما بالتسخير فقط كالجمادات والحيوانات، وإما بالتسخير والإرادة كبعض الناس، ومن هذا الوجه قال بعض الحكماء: الله محبوب الأشياء كلها»[2].

و(الوَلَهُ): هو الجنون الحاصل بسبب الحب الشديد، أو الحزن الشديد. يقال: امرأة وَلُوهٌ: إذا أحبت حتى جُنت، أو إذا ثكلت؛ فحزنت حتى جُنت. قال ابن منظور: «الوله: الحزن. وقيل هو ذَهابُ العقل والتحيُّر من شدة الوَجْد، أو الحزن أو الخوف. والوَلَه: ذهاب العقل لِفقدان الحبيب... [و] ناقة ميلاه: هي

(١) «لسان العرب»: مادة (أله) (١٣/ ٤٦٩).

(٢) «المفردات في غريب القرآن»: مادة (أله) ص (٨٣).

التي فقدت ولدها فهي تَلِهُ إليه. يقال: وَلَهَتْ إليه تَلِهُ أي تَحِنُّ إليه... وناقة وَالِهٌ: إذا اشتد وَجْدُها على ولدها»[1].

وهكذا فأنت ترى أن مدار المادتين (أله) و(وله) هو على معان قلبية، ترجع في مجملها إلى التعلق الوجداني والامتلاء بالحب، فيكون قول المؤمن: «لا إله إلا الله» تعبيرًا عما يجده في قلبه من تعلق بربه -تعالى-، أي لا محبوب إلا الله، ولا مرهوب إلا الله، ولا يملأ عليه عمارة قلبه إلا قصد الله. إنه أشبه ما يكون بذلك الفصيل الصغير الذي ناح شوقًا إلى أمه، إذا أحس بألم الفراق، ووحشة البعد.

إن المسلم إذ (يشهد) أن لا إله إلا الله، يقر شاهدًا على قلبه أنه لا يتعلق إلا بالله رغبة ورهبة وشوقًا ومحبة. وتلك لَعَمْري (شهادة) عظيمة وخطيرة؛ لأنها إقرار واعتراف بشعور لا يدري أحدٌ مصداقَ ما فيه من الصدق إلا الله، ثم الشاهدُ نفسه. ومعاني القلب لا تُحَدُّ بعباراتٍ، ولا تحصرها إشارات. ومن هنا كانت شهادة أن «لا إله إلا الله» من اللطافة بمكان؛ بحيث لا تُدرَك على تمام حقيقتها إلا ذوقًا.

قال ابن القيم -رحمه الله-: «إن محبة العبد لربه فوق كل محبة تقدر، ولا نسبةَ لسائر المحابِّ إليها، وهي حقيقة: (لا إله إلا الله!)»[2] إلى أن يقول في نص نفيس تُشد إليه الرحال: «فلو بطلت مسألة المحبة لبطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان، ولتعطلت منازل السير إلى الله؛ فإنها روح كل مقامٍ ومنزلةٍ وعملٍ. فإذا خلا منها فهو ميت لا روح فيه. ونسبتها إلى الأعمال كنسبة الإخلاص إليها، بل هي حقيقة الإخلاص، بل هي نفس الإسلام: فإنه الاستسلام بالذل والحب

---

(١) «لسان العرب»: مادة (وله) (١٣/ ٥٦١، ٥٦٢).

(٢) «مدارج السالكين»، لابن القيم (٣/ ١٨).

والطاعـة لله؛ فمـن لا محبـة لـه؛ لا إسـلام لـه ألبتـة. بـل هـي حقيقـة شـهادة: أن لا إله إلا الله؛ فـإن (الإلـه): هـو الذي يألهه العبـاد حبًّـا وذُلًّا، وخوفًا ورجاءً، وتعظيمًـا وطاعة له، بمعنى (مألوه): وهو الذي تألهه القلوب. أي تُحبه وتَذِلُّ له؛ فالمحبة: حقيقة العبودية»[1].

ذلك أن معنى (الإسلام) هو الخضوع لله رب العالمين، والاستسلام لأمره ـ تعالى ـ. إنه الاعتراف الوجداني، أي التعبير العملي عن الشعور الحقيقي الذي يلامـس القلـب عندما يدرك العبـد و(يجد) أنه (عبد) لسـيد هـذا العالم العظيم. وحقيقة كون المسـلم عبدًا هي الحقيقة التي تغيب عن أكثر المسـلمين؛ فيحدث بسبب ذلك الانحرافُ بشتى ألوانه وأشكاله.

إن (العبد) مسلوب الإرادة، ليس بالمعنى الكلامي ولكن بالمعنى الوجداني، أعنـي: أن تجدَ الشـعور بأنك ـ أيها المسـلم ـ مِلْكٌ لله الواحـد القهار، تدور في فلـك العبوديـة والخدمة كما تـدور الكواكب في الأفـلاك: ﴿ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الزمر:٦٣]، وتلـك هـي مـدارات لفـظ (عبد) فـي اللغة: إنهـا لا تخرج عـن معاني الذلـة والخضوع والخنوع والانقياد، كما تنقاد الأنعام المذللة لمالكيها رغبةً ورهبةً انقيادًا لا تشنج فيه ولا تَفَلُّت.

والعبـد لا يكـون إلا فـي بـاب الخدمة بين يـدي مـولاه، واقفًا علـى العتبة ينتظـر الأمر والنهي بشـوق المحب، ليبـادر إلى التنفيذ دون سـؤال: علامَ ولِمَهْ؟ ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٣]، إنـه الـرب المحبـوب الأعظـم،

---

(١) «نفس المصدر» (٣/ ٢٦).

المرغـوب المرهـوب، رب الكـون والخلق أجمعيـن. يمكنك أن تُعَـرِّف عقيدة الإسلام في نهاية المطاف، فتقول: **إنها ميثاق المحبة بين الله وعباده.**

وحينمـا نقول (المحبـة) فهي بمفهومهـا القرآني، لا ما ذهبـت إليه طوائف مـن الغـلاة من هذا الاتجـاه أو ذاك ممن قالوا بها، فأبطلـوا كل منازل الإيمان من خوف ورجاء؛ فانتهى بهم الأمر إلى دعاوى عريضة يتشـدقون بها ما أنزل الله بها من سلطان، كلا! بل لا تقوم المحبة بقلب العبد الصادق إلا على جناحي الخوف والرجاء، وما تفرَّع عن ذلك من معاني الرَّغَب والرَّهب، والقرآن العظيم والسُّـنة النبويـة واضحان فـي هذا غاية الوضـوح. ولا يزيغ عنهمـا إلا جاهل أو صاحب هـوى، والمحـب الحقيقـي الصادق يخـاف من الحرمان، ويخشـى مـن العقوبة بقدر ما يرجو ويشـتاق؛ فإذا جَرَّدَ المحبةَ عن الخوف والرجاء كان من الكاذبين، كيـف لا؟ ورب العالميـن يقـول عن صفوة مـن أنبيائه ورسـله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وهذا محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سيد الأولين والآخرين يعلنها في الأمة: «**أمَا والله إني لأخشـاكم لله وأتقاكم له**»! وفيه[(١)] قال: «**فمن رغب عن سـنتي فليس مني**»[(٢)].

ألا وإن أي انحراف عن هذه السـبيل لا يكـون إلا جهلًا بالدين، أو زيغًا من الضلال المبين.

فعلـى هـذا الـوِزَان إِذن؛ نقـول: إن عقيدة الإسـلام قائمة علـى المحبة، بل إنهـا **ميثـاق المحبة**؛ وبذلك المعنى كانت تفيض بأنـوار الجمال ومباهج الجلال؛

---

(١) أي: في نفس الحديث.

(٢) أخرجه البخاري (٩/ ٨٩، ٩٠) ومسلم رقم [١٤٠١].

ولذلك يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: **«إن الله -تعالى- قد حرَّم على النار من قال: «لا إله إلا الله» يبتغي بذلك وجه الله»**[1]، أكلمة واحدة تتلفظ بها فتدخل الجنة؟ نعم! ولكن.. إنها ليست بكلمة ولا كلمات؛ إنها تَوَجُّهٌ قلبي وميل وجداني، إنها مسألة (حب)، وإن من أحب اللهَ أحبه اللهُ، ومن أحبه الله وفقه إلى عبادته وطاعته. إنها حقيقة جميلة وعظيمة، وإن عدم إدراكها ذوقًا ووجدانًا قد كان سببًا في تضييع معاني الدين، وانحراف كثير من الناس عن منهاجه المستقيم.

ولقد تُهْتُ شخصيًّا عن هذا المعنى زمنًا!

ولي في هذا الشأن قصة أذكرها لعل فيها ما ينبئ عما تعانيه حركة التدين في المجتمع اليوم، عسى أن نتمكن من تشخيص مكمن الداء.

وذلك أني في فهمي للدين عمومًا، وللعقيدة منه خصوصًا، مررت بثلاث مراحل: المرحلة الأولى هي التي ورثتها عن بيئتي الإسلامية التقليدية؛ حيث كان الدين بالنسبة لي سلوكًا خاصًّا بالشيوخ، وكأنما هو على طائفة الشباب نفل وتطوع، ثم إن معنى «لا إله إلا الله» كان أقرب عندي إلى الشعار منه إلى (الشهادة)! فلم أكن أفهم منها أكثر من مجرد كونها عنوانَ الدخول إلى الإسلام، واكتساب صفة (مسلم)، كما هي عند سائر الناس. لكن هذا المعنى -والحمد لله- لم يدم في تصوري طويلًا؛ فقد انتبهت في مرحلة الشباب الأولى إلى شيء اسمه (الحركة الإسلامية)؛ وذلك بسبب ما كان يصلني عنها من أصداء وصراعات، خاصة في الصف الطلابي بالجامعة! وأنا آنئذٍ ما أزال تلميذًا بالصف الثانوي.

---

(١) رواه البخاري رقم [٤٢٥]، [١١٨٦]، [٥٤٠١]، ومسلم رقم [٣٣] [٢٦٣].

فكانـت تلـك إذن هي المرحلـة الثانية في حياتـي الدينيـة، وبحلولها زالت الصورة الأولى التقليدية من ذهني، وأبدلتها بما صرت أتلقاه من أدبيات إصلاحية، ومقولات دعوية جديدة، مثل: (الإسـلام دين ودولة، ومصحف وسيف.. إلخ). ثـم بدأ الوعي يتطور في الاتجاه نفسـه، إلى تقريـر أن «لا إله إلا الله» منهج حياة! وأن (الحاكمية لله)، وهكذا بدأ الوعي الديني يتسع في وجداني شيئًا فشيئًا، حتى انخرطتُ في حركة الوعي الإسلامي عاملًا بهذه المفاهيم مجاهدًا في سبيلها.

لكني أصدقكم القول: لقد مر عليَّ دهر وأنا أعمل على هذه التصورات، دون أن أجـد للدين لـذة في وجداني؛ هذه هي الحقيقة. إننـي لا أتهم تلك التصورات بالقصور، كلا؛ فما زلت أؤمن بأن الإسـلام مصحف وسـيف، ودين ودولة! وأن «لا إله إلا الله» منهـج حيـاة بالفعـل. ومـا أحسـب أن ذلـك يخالف فيـه أحد من المسـلمين الصادقين. ولكن.. كانت ظروف التلقي سيئة للغاية. لقد انفتح وعيي الجديد هذا على مرحلة (رد الفعل غير المتوازن) في تاريخ الأمة المعاصر، فكان أن تلقيت كل التصورات الجديدة في سـياق مواجهـة الغرب، ومقاتلة العَلَمانية، ومدافعة الماركسية؛ ومجاهدة الطغيان السياسي، والظلم الاجتماعي؛ فاكتسبت مـن صفـات المحامـي كثيرًا، بيـد أني لم أكتسـب من سـلوك المؤمـن إلا قليلًا، فعشـتُ مع الناس أكثر مما عشـتُ مع الله؛ لأن هذه الظروف جعلتني أفهم عقيدة «لا إله إلا الله» في سـياق واحد ووحيد: هو أن (الحاكمية) إنما هي لله. وبدا لي زمنًا أن ما سـوى تصحيح قضية الحكم والتشـريع في الدولة جزئيات من الدين، لا تسـتحق أي اهتمام! وكانت لنا أنشـطة في هـذه الاتجاهات،فبدأت ألاحظُ أن معـي على الجبهة الواحدة، مـن يخطب الليل كله، ولا يصلـي لله فريضة واحدة في وقتها! فإن فَعَلَ فبلا خشوع ولا طمأنينة، ينقرها نقر الغراب. لقد تعلمنا شهوة

الـكلام. نعـم! اتبعنا الشـهوات وأضعنـا الصلاة إلا قليـلًا. وبـدأتُ أرى الآفاتِ الخطيـرةَ تعصـف بالصف الإسـلامي: العُجْب، وحـب الرياسـة، والتصدر أمام وسـائل الإعـلام. ورأيت بأم عيني أن هنـاك فتنة أخرى، لم أعرفهـا من قبل: هي فتنة (الكاميرا)، أو فتنة (الميكروفون) كما سـماها بعض الظرفاء! ورأيت رقة في الديـن تجتاح الصفوف المتدينة كالوباء الفتاك، وسـقوطًا هنـا وهناك، يتتابع بين الإخوان والأخوات على السواء!

المنـادي ينـادي للصـلاة: حيَّ علـى الصلاة! حـيَّ على الفـلاح! وخطاب الواجهة الفاتنة المفتونة مسـتمر كأنه لا يسـمع شـيئًا. وضربت الصفـوفَ الدينية آفـاتُ المجتمـع المريـض، مـن رعونة وتحلـل خلقـي، وانسـياق وراء كثير من مغريـات الحيـاة الدنيـا وفتنتها. وبدأت أسـأل نفسـي متهمًا إياهـا: أي دين هذا؟ وأي صلاح هذا؟ وبدل أن يتنافس شـباب الصحوة الإسلامية حول منازل العلم، ومقامات التقوى والورع، بدؤوا يتنافسـون حول حدود الشبهات، ويتبارَوْنَ أيهم أقـدر علـى الرعي حول الحمـى دون أن يقع فيه! زعموا..! وانطلق السـباق نحو الهاوية. أين المشكلة إذن؟

هـذه هـي البرامـج التربويـة تتـرى تأليفًـا وتنظيرًا، وهـذه هـي المطبوعات التصوريـة تتواتـر، ولكن بلا جدوى، وبلا فائدة؛ فإنهـا جميعها تبقى على رفوفِ مقـراتِ الحركاتِ ومكاتبها موقَّرة إلى إشـعار آخر؛ فأيـن الخلل؟ ولطالما وُضع هذا السؤال، ولكن أين من يتابعه؟

وبقي الأمر بالنسـبة لـي غامضًا، حتى لقيتُ بعضَ أسـاتذتي الأجلاء، ممن تتلمذتُ عليهم، وأخذت عنهم علم الدعوة وعلم البحث العلمي، فكانت لي معه جلسـة مذاكرة حول بعض مفاهيم القرآن الكريم، وتحدثنا عن بعض النماذج من

بينهـا مفهـوم (الإله) في القرآن الكريم، فنبهني إلى الأصـل اللغوي لهذه العبارة، مـن أنه راجـع إلى معنًى قلبـي وجداني، وذكر لي شـيئًا من الدلالـة اللغوية على المحبـة، مما بينته قبل قليل، فكانت بالنسـبة لي مفاجأة حقيقية، لا على مسـتوى الفهم فقط؛ ولكن على مستوى الوجدان والشعور.

نعـم! أذكـر أني قرأت مثل هـذا قبل ذلك بكثير، ولكـن اندماجي الكلي في تصوراتي الأخرى، وانغلاقي على (توحيد الحاكمية) إن صح التعبير، أعماني عن مشـاهدة (توحيد المحبة!) الذي هو الأصل، والمفتاح الحقيقي لتوحيد الإلهية، والذي منه تفرعَتْ فروع شتى منها توحيد الحاكمية نفسُه. لقد جعلتُ الجزءَ محلَّ الكل، وجعلتُ الفرعَ محلَّ الأصل؛ وعشت في فهمي متناقضًا. فسِرْتُ في تديني مختلًّا كسـائر المختلين؛ حتى مَنَّ الله باللحظـة التي انتقلت خلالها إلى مرحلتي الجديدة: حيث بدأت المراجعة في حياتي كلية، واكتشـفت حقيقة أن هناك شـيئًا اسـمه (حـلاوة الإيمان)، ذَوْقًا لا تصـورًا! وحقيقة لا تخيلًا! ثـم بدأت أعود إلى القـرآن.. فوجـدت أني كنـت بعيدًا جدًا عن بشاشـته وجماله، وبـدأت أعود إلى السُّـنة؛ فوجدت أني كنت أجهلَ الناس بأخلاق محمد ـ عليه الصلاة والسـلام ـ. وبدأت أراجع ما قرأته عن العقيدة، فوجدت صفحات مشـرقة مما كتب السـلف الصالح، قد مررت عليها مرورَ الأعمى ـ لا مرور الكرام ـ بسبب ما غطى بصري من فهوم سابقة حتى كأني لم أقرأ قط.

قلت: لم تكن مفاجأتي علمية بقدر ما كانت وجدانية! لقد كنت أقرأ عبارات «المحبة، والشـوق، والخـوف، والرجاء»، ولكن دون أن أجد لها شـيئًا من نبض الحياة بقلبي.

فمثلًا هذا كتاب (فتح المجيد شرح كتاب التوحيد)، للشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب ـ وهو خلاصة للعقيدة السلفية ـ قد خُضْتُ به معاركَ ضد أهلي وعشيرتي زمنًا، وأنا أقرب إلى المراهقة يومئذٍ مني إلى الشباب؛ ولقد ظللت أحارب به البدع والضلالات والمنكرات، في الاعتقاد والعبادات، اقتداءً بشيخ شيوخنا العلامة الدكتور محمد تقي الدين الهلالي ـ رحمه الله ـ؛ بَيْدَ أني كنت ألحظ أن كثيرًا من هؤلاء (المبتدعة) هم أفضل مني حفظًا للصلاة وأوقاتها! إني لا أتهم الكتابَ المذكور، ولكني أتهم نفسي ومنهجي في القراءة والاستعمال. لقد كانت العقيدة السلفية عندي عصًا من خشبٍ أصمَّ أضرب بها غيري.. ولم أدرك أنما هي تربية ورحمة للعالمين. وإني لأعجب كيف لم أنظر إلى هذا المعنى من قبلُ في الكتاب المذكور؟

عجبًا!.. أين كنت أنا إذن من مثل هذا الكلام؟ (السكون إلى حب الله.. الذي تألهه القلوب) أهي عقيدة قلبية وجدانية إذن؟ وهو إجماع من العلماء؟

أي عمًى هذا الذي ركضت وراءه في نقع الخصومات والجدالات التي لا تغني ولا تسمن من جوع؟ وهذا قلبي ظل فارغًا من عبادة الحب وأذواق التعبد. أليس ذلك هو الضلال المبين؟ لقد أسأت زمنًا طويلًا في فهم عقيدة السلف الصالح.

لقد رسخ في ذهني ـ بعد المشاهدة والمعاينة للآثار السلبية التي ترتبت عن التكوين العقدي القائم على نفسية ردود الأفعال المتشنجة، وعقلية التفتيش المذهبي ـ أننا في حاجة ماسة ومستعجلة؛ لإعادة قراءة عقيدة السلف الصالح من مصادرها الأولى، وإلى إعادة قراءة أعلامها الكبار الذين تميزوا في التاريخ الإسلامي بالريادة والقيادة، وأسهموا في بناء صرح الأمة وتجديد حياتها،

كالأئمة الأربعة أبي حنيفة، ومالك بن أنس، والشافعي، وأحمد بن حنبل، ومَن جاء بعدهم مِن المتميزين في هذا السياق، مثل حافظ المغرب أبي يوسف عمر ابن عبد البر، ومجدد زمانه شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم.. إلخ.

هؤلاء وأضرابهم جميعًا، وقع خطأ منهجي كبير في قراءتهم. لقد كان الفكر السلفي المعاصر ـ في بعض تجلياته ـ إذ يقرأ تراثهم إنما يقرؤه ـ في كثير من الأحيان ـ بمنهج تجزيئي إسقاطي.

فأما كونه تجزيئيًّا؛ فلأنه كان يقرؤه بعين واحدة، فلا يرى من حقيقته إلا ما تتيحه له تلك الرؤية الجزئية المحدودة، فلا يتصور حقيقته في شموليته الكلية. فهذا شيخ الإسلام ابن تيمية مثلًا، لا تصوره كثير من المصنفات المعاصرة إلا شخصًا مقاتلًا محاربًا متخصصًا في تفصيل مذاهب أهل النار، دون مذاهب أهل الجنة؛ فكل من أراد أن يَصِمَ شخصًا بصَكِّ الجحيم، فما عليه إلا أن يُخرج عليه سيفَ المقولة المشهورة. (قال شيخ الإسلام ابن تيمية)، وكأن ابن تيمية ـ رحمه الله ـ ما خلقه الله إلا للاستشهاد به على أهل الضلال وحسب؛ وكأنما تحولت نصوصه وفتاواه إلى مجرد صكوك اتهام، تُقرأ على الضحية عند تنفيذ حكم الإعدام.

أين ابن تيمية الداعية إلى الله؟ أين ابن تيمية المربي؟ وأين ابن تيمية السالك إلى مولاه عبر منازل الخوف والرجاء، والشوق والمحبة؟ وأين ابن تيمية صاحب الأذواق الإيمانية والأحوال السَّنية؟.. ولقد حفلت كتبه وفتاواه بمعاني (الجمالية)، ومقاصد (الربانية) في الدعوة والتربية والتعليم، مما يصعب ـ لغزارته ـ حصره واستقصاؤه، كما أن تلميذه الإمام الرباني ابنَ القيم ـ رحمه الله ـ قد حكى عنه من ذلك الشيء الكثير! فأين ضاع ذلك كله؟

وأما كونه إسقاطيًّا، فلأنه تم استعمال ابن تيمية للتعبير عن مشكلات العصر النفسية والسياسية بصورة حرفية! ففُسِّرت نصوصُه بما تقتضيه حالة رد الفعل النفسي والاجتماعي ـ بصورة غير متوازنة ـ عن ظروف الظلم السياسي، ومظاهر الخلاف العقدي والمذهبي، بين طوائف وجماعات، ودول وتحالفات! وتم إسقاط زماننا على زمانه ـ رحمه الله ـ، وإلباس أحوالنا لأحواله دون مراعاة الفروق بين الثوابت والمتغيرات، سواء منها ما تعلق بالنصوص أو بتحقيق المناطات[1]؛ وفي ذلك ما فيه من الشطط العلمي والانحراف المنهجي.

ولذلك فقد تمت عملية (إخراج) سيئة لشخص ابن تيمية ـ لدى بعضهم ـ على أنه شخص لا ذوق له ولا وجدان؛ وإنما هو السب والشتم واللعان، وما أبعد شيخَ الإسلام ـ رحمه الله ـ عن ذلك وأبرأه!

ولو تتبع متتبع نصوصَ فتاواه ومؤلفاته جميعًا، لجمع من مشاهد الجمالية وأذواقها عنده في الدين والتدين الشيء الكثير، ولولا أن نخرج عن غرض هذا المقال لعرضنا من نصوصه مواجيدَ وأذواقًا وأحوالًا رِقَاقًا، ولكن لك أن تقرأ من ذلك هذه الإشارات، فقد تحدث ـ رحمه الله ـ عن أحوال المؤمن لدى سماع القرآن الكريم، وذلك في سياق ذكر (السماع) بمعناه الشرعي، وأورد فيه آياتٍ وأحاديثَ، ثم قال: (وهذا كان سماعَ سلف الأمة، وأكابر مشائخها، وأئمتها، كالصحابة والتابعين، ومَن بعدهم مِن المشائخ كإبراهيمَ بنِ أدهمَ، والفُضَيلِ بن عياض، وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، ويوسف ابن أسباط، وحذيفة المرعشي، وأمثال هؤلاء.. وكان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول لأبي موسى الأشعري: يا أبا موسى! ذَكِّرنا رَبَّنا! فيقرأ،

---

(١) **تحقيق المناط**: هو نظر الفقيه في تحقق (العلة) في (الفرع) أو عدم تحققها، وهو من مباحث (العلة)، تجد تفاصيله عند كلام الأصوليين عن (القياس).

وهم يسمعون ويبكون. ولهذا السماع من المواجيد العظيمة، والأذواق الكريمة، ومزيد المعارف، والأحوال الجسيمة، ما لا يتسع له خطاب، ولا يحويه كتاب.
كما أن في تدبر القرآن وتفهمه؛ من مزيد العلم والإيمان، ما لا يحيط به بيان.

قال الشارح[١] ـ رحمه الله ـ في سياق ذكر كلام العلماء في معنى (لا إله إلا الله): «وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: الإله هو المعبود المطاع؛ فإن الإله هو المألوه، والمألوه هو الذي يستحق أن يُعبد. وكونه يستحق أن يعبد هو: بما اتصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون هو المحبوبَ غايةَ الحب، المخضوعَ له غايةَ الخضوع، قال: فإن الإله هو المحبوب المعبود الذي تألهه القلوب بحبها، ...وتسكن إلى حبه، وليس ذلك إلا لله وحده. ولهذا كانت «لا إله إلا الله» أصدقَ الكلام، وكان أهلُها أهلَ الله وحِزبه؛ ...فإذا صحت صح بها كل مسألة وحالٍ وذوق، وإذا لم يصححها العبد؛ فالفساد لازم له في علومه وأعماله.

وقال ابن القيم: (الإله) هو الذي تألهه القلوبُ محبةً، وإجلالًا، وإنابةً، وإكرامًا، وتعظيمًا، وذلًّا، وخضوعًا، وخوفًا، ورجاءً، وتوكلًا.

وقال ابن رجب: (الإله) هو الذي يُطاع فلا يُعصى، هيبةً له وإجلالًا، ومحبة وخوفًا ورجاء، وتوكلًا عليه...

وقال البقاعي: «لا إله إلا الله»: أي انتفاءً عظيمًا أن يكون معبودٌ بحق غير الملك الأعظم؛ فإن هذا العِلْمَ هو أعظم الذكرى المنجية من أهوال الساعة...

---

(١) يعني: الشيخ العلامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ ـ رحمه الله ـ صاحب كتاب «فتح المجيد شرح كتاب التوحيد».

وقـال الطيبي: «الإله»: فِعال بمعنى مفعول، كالكِتاب بمعنى المكتوب، من ألِه إلهةً، أي: عَبَدَ عبادةً.

قال الشارح: وهذا كثير في كلام العلماء وإجماع منهم»[1].

«ومما ينبغي التفطن له أن الله ـ سبحانه ـ قال في كتابه: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران:٣١]؛ فبين ـ سبحانه ـ أن محبته توجب اتباع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وأن اتباع الرسول يوجب محبة الله للعبد، وهذه محبةٌ امتحن الله بها أهلَ دعوى محبةِ الله؛ فإن هذا الباب تكثر فيه الدعاوى والاشتباه؛ ولهذا يُروى عن ذي النون المصري أنهم تكلموا في مسألة المحبة عنده؛ فقال: «اسكتوا عن هذه المسألة؛ لئلا تسمعَها النفوسُ فتدعيها».

...وكان المشائخ المصنفون في السُّنة يذكرون في عقائدهم مجانبةَ من يكثر دعوى المحبة، و الخوض فيها من غير خشية، لما في ذلك من الفساد الذي وقع فيه طوائف من المتصوفة.

وما وقع في هؤلاء من فساد الاعتقاد والأعمال أوجب إنكار الطوائف لأصل طريقة المتصوفة بالكلية، حتى صار المنحرفون صنفين: صنف يُقر بحقها وباطلها، وصنف ينكر حقَّها وباطلَها! كما عليه طوائف من أهل الكلام، والفقه.

والصواب: إنما هو الإقرار بما فيها وفي غيرها من موافقة الكتاب والسُّنة، والإنكار لما فيها وفي غيرها من مخالفة الكتاب والسُّنة»[2].

فأي جمال هذا وأي إحسان؛ وأي فقه هذا وأي ميزان!

ألا رحم الله شيخ الإسلام!

---

(١) «فتح المجيد شرح كتاب التوحيد»، لعبد الرحمن آل الشيخ (٥٣، ٥٤).

(٢) انظر: «مجموع فتاوى ابن تيمية» (١٠/ ٨١، ٨٢).

لا إله إلا الله

(٢٤) صرخة الحرية وطريق التحرير

(الحريـة) كلمـة جميلة تأخـذ بالألباب، ومقصد سـامٍ يسـعى كل عاقل إلى تحقيقه، إنها كلمة رنانة محببة إلى النفس، لها عذوبة في الأفواه، ولذة في الأسماع، تهتـز لذكرهـا النفوس الأبيـة، ويتألم الأحـرار لفقدهـا، الحرية عند بني الإنسـان أنشـودة لـم ينقطعوا عن ترديدها عبـر الزمان، تغنى بها الشـعراء، ونادى بتحقيقها المصلحـون ورجالات الأمم، ووُضِعَـت المخططاتُ للحصول عليها والتخلص من أسـر العبودية، وبذلت الأمم في سـبيل تحصيلها الأموال والأرواح، وجعلت اليـوم الذي حصلت فيـه عليها عيدًا، ومهما قلَّبتَ صفحـاتِ التاريخ، ونظرتَ في حياة الشعوب فإنك لن تجد أمة تستعذب طعم العبودية، وتمقت الحرية.

ولكـنَّ دائـرة العبودية التي يهـرب منها البشـر دائرة ضيقة، يظنـون أنهم إن تخلصـوا منهـا فقد تحرروا، وواقـع الأمر ليس كذلك، فتراهم يرسـفون في قيود العبوديـة المقيتة وهم لا يشـعرون، ويحتفلون بأعياد الحرية وهم غرقى في أسـر العبودية.

إن العبودية التي يمقتها الناس هي التي تجعل الإنسـان مملوكًا لغيره بحيث يُصبح متاعًا يُباع ويُشترى لا يملك أمر نفسه، ويَعُدُّ البشر من العبودية والهوان أن تَستذلَّ دولةٌ دولة، وجماعة جماعة، وأمة أمة.

ولـم تزل التجمعات البشـرية في مختلف العصور يبغـي بعضها على بعض فيستعبد القوي الضعيف، ويقهر الغالب المغلوب، ويسخره في مصالحه، ويأخذ ثمـرة تعبه، وخير أرضه، وقد يصل قهر الأقوياء إلـى حد ذبح الرجال والأطفال،

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص:٤].

والعالم المعاصر لم يتخلص من هذه اللعنة، وإن كان يغلفها بغلاف جميل براق، فالأمم القوية في هذا العصر استعبدت الأمم الضعيفة باسم التمدن والتحضر والأخذ بيد هذه الأمم الضعيفة، وقد أصابنا نحن المسلمين هذا البلاء، فقد تجمع علينا أعداؤنا، فحطموا دولة الخلافة العثمانية، وقسموا الديار الإسلامية، وامتصوا خيراتنا، وقتلوا رجالنا، وأذلونا أيّما إذلال، ولا يزال الظلم يحيق بنا في كل مكان حللنا فيه، ومآسي المسلمين في فلسطين وأفغانستان والفلبين والعراق، والبوسنة والهرسك، شاهدة على هذا البلاء.

وهذا النوع من استعلاء البشر يرفضه من أصابهم ويجاهدون في سبيل الخلاص منه، وإن رضيه ضعاف النفوس الذين استمرؤوا الظلم، ورضوا بمعيشة الهوان[1].

قه هه يلغك عهقهيه غليك   قغ ليك ظفن ههه عهفهعه

تفاوت الناس في فهمهم للحرية:

الحرية كلمة واحدة، لكن فهمها الناس بصور متعددة[2]، ولذلك استُعملت في غير معناها الحقيقي، واستُغلت كشعار براق تُزَيَّن به مذاهب فكرية، ونظم سياسية، واجتماعية، وجعلته الماسونية أحد مبادئها، ورفعته الثورة الفرنسية شعارًا لها.

---

(١) انظر: «أثر الإيمان في تحرير الإنسان» للدكتور عمر الأشقر ـ حفظه الله ـ ص (٥-٧).

(٢) الحرية من أوسع المفاهيم الإنسانية، وأكثرها تعريفًا، وقد ذكر بعض الباحثين أن لها أكثر من مائتي تعريف، انظر «حقيقة الليبرالية» للدكتور عبد الرحيم السلمي هامش ص (١٢٣)، وقد قال مونتيسكيو في كتابه «روح القوانين»: «ليس هناك لفظ تلقى من الدلالات المختلفة أكثر مما تلقاه لفظ الحرية» انظر: «نقد الليبرالية» للدكتور الطيب بو عزة ص (١٣٨).

وحاولت (الوجودية) تعريف الحرية بأن لا يكون هناك جهة تفرض على الإنسان أي قيد، لأن هذا في زعمها يعني عدم الاختيار.

وحاول بعضهم تقييدها برفع شعار: «أنت حر ما لم تضر»،وقالوا: «القيد الوحيد الذي يَرِدُ على حرية الفرد هو التعارض مع حرية الآخرين، وما عداه من قيود إهدار للحرية».

وهذا القيد يهدم مبدأ: «إن الحرية غير قابلة للتقييد»، ومع ذلك قد تبين أن هذا القيد وحده لا يكفي لتحقيق الحرية الحقيقية التي يتطلع البشر إليها، بل إنه يدمر الحرية، فليس للإنسان أن يتبع هواه بغير هدًى من الله، وكما أن الإنسان يجب عليه أن لا يؤذي الآخرين؛ فكذلك ليس من حقه أن يؤذي نفسه، واتباع الهوى بغير هدى من الله ـ وإن كان ظاهره أنه لا يعارض حرية الآخرين أحيانًا ـ بيد أنه في الواقع يخرق سفينة المجتمع، ويستدعي حصول العذاب العام[(١)]، ومن أجل ذلك شرع الإسلامُ الحدود والتعزيرات، وأمرنا بالأخذ على يد السفيه امتثالًا لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً ﴾ [الأنفال:٢٥].

وعن النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «مثل القائم على حدود الله والواقع (وفي رواية: والراتع) فيها، [والمُدْهن فيها]، كمثل قوم استهموا على سفينة [في البحر]، فأصاب بعضهم أعلاها، و[أصاب] بعضهم أسفلها [وأوعرها]، فكان الذي (وفي رواية: الذين) في أسفلها إذا استقوا من الماءِ فمروا على من فوقهم [فتأذوا به]، وفي رواية: فكان الذين في أَسفلها

(١) انظر: «السنن الاجتماعية» للدكتور محمد أمحزون (٣/ ٤١٥-٤٣٠)، و«السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية» للدكتور عبد الكريم زيدان ص (٢٠٦-٢٠٩)، و«أسباب هلاك الأمم» للشيخ عبد الله التليدي ص (٢٣-٢٥).

يصعدون فيستقون الماء، فيصبون على الذين في أَعلاه، فقال الذين في أَعلاها: لا نَدعكم تصعدون فتؤذوننا)، فقالوا: لو أَنا خرقنا في نصيبنا خرقًا [فاستقينا منه] ولم نؤذ من فوقنا، (وفي رواية: ولم نمر على أصحابنا فنؤذيهم)، [فأخذ[1] فأسًا فجعل ينقر أسفلَ السفينة، فأَتوه فقالوا: ما لك؟ قال: تأذيتم بي، ولابد لي من الماء]، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا وأَنجوا جميعًا»[2].

وعن أم المؤمنين زينب ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: دخل عليها فزِعًا يقول: «**لا إله إلا الله، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ من شَرٍّ قد اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ من رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هذه، وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا**» قالت: فقلت يا رَسُولَ اللهِ: أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قال: «**نعم إذا كَثُرَ الخَبَثُ**»[3].

(١) أي: أحدهم.

(٢) رواه البخاري [٢٦٨٦]، والترمذي [٢١٧٣]، والبيهقي في «السنن» (١٠/ ٩١)، وفي «الشعب» [٧٥٧٦]، والإمام أحمد [١٨٣٦١]، [١٨٣٧٠]، وانظر: «السلسلة الصحيحة» رقم [٦٩].

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٣/ ١٢٢١) [٣١٦٨]، (٣/ ١٣١٧) [٣٤٠٣]، (٦/ ٢٥٨٩) [٦٦٥٠]، ومسلم (٤/ ٢٢٠٧) [٢٨٨٠]، (٤/ ٢٢٠٨) [٢٨٨٠].

المفهوم الصحيح للحرية

الطريق إلى الحرية الحقيقية واحدٌ لا ثاني له، ألا وهو العبودية لله ـ عزَّ وجلَّ ـ، كما بينه الله ـ تعالى ـ القائل: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].

إن الحرية الحقيقية هي التحرر من عبادة غير الله، وإفراد الله ـ سبحانه ـ باستحقاق العبودية، وهذا هو معنى «لا إله إلا الله»: الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله.

إن (الكلمة المقدسة) التي هي (صرخة الحرية) تبدأ بثورة ممثلة في شق النفي: «لا إله» التي تعني الكفر بكل ما عُبد من دون الله، قال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ (١) وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة:٢٥٦].

وقال ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

وهو نفس ما صَرَّح به خليل الرحمن ـ عليه السلام ـ حين خاطب قومه قائلًا: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف:٢٦-٢٧].

---

(١) الطاغوت: مشتق من الطغيان، وهو مجاوزة الحد، ويُطلق على الشيطان والكُهان، وكل ما عُبد من دون الله، وقد حَدَّه الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ حدًّا جامعًا، فقال: «الطاغوت: كل ما تجاوز به العبدُ حَدَّه، من معبود أو متبوع أو مطاع، فطاغوت كل قوم: مَن يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله» اهـ. بواسطة النقل من «العقائد السلفية» للشيخ أحمد بن حجر آل بوطامي هامش ص (٤٤).

إن الإنســان فقير بذاته يتطلع بفطرته إلى الخضوع والذل و(العبودية) لخالقه وفاطره الغني بذاته:

وعهننة وكنةقعغ ﴾قهي هيظغفيع   نهع عهلهو ظغفيع وكني هه قعغي

فِمِن ثَمَّ لا يستقيم حاله، ولا يطمئن قلبه، إلا إذا آوى إلى مولاه، وطرح نفسه على عتبته، وأمعن في العبودية الخالصة له دون سواه، إذ إن هذه (العبودية) هي أرقى مراتب الحرية، لأن العبد إذا تذلل إلى مولاه وحده فإنه يتحرر من كل سـلطان، فلا يتوجه قلبه، ولا يطأطئ رأسه إلا لخالق السماوات والأرض.

ولابد للإنسـان من (العبودية) فـإن وضعها موضعَها، وإلا تلطـخ بالعبودية لغير الله ـ تعالى ـ من الأنداد والشياطين، والمسلم يتحرر بإسلامه من سيطرة الهوى والشهوة، والسـلطان الذي يسـيطر عليه هو سـلطان الدين الحنيف، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:٤٠-٤١]، إذن هي حرية في صورة العبودية، ولا يمكن للبشرية أن تتحرر حقًّا إلا بتحقيق هذه العبودية.

إن الحرية في غير الإسلام تصبح جوفاء لا معنى لها، بل هي العبودية المذلة المهينة، وإن بـدت في صورة الحريـة، إن الخضوع للطواغيت والمناهـج والقوانين التي بُنيت على مـا تهـواه الأنفس بعيدًا عـن تشريع الخالق ـ جل وعـلا ـ إنما هو عبوديـة لغير الله، وأيُّ عبودية؟!

مقغوعهه عهقني عهقيفهىنوع هه   نغهوع غقني عهمنق وعهحكعه

وقال الشاعر:

* وقنّ قوي عالكهعل قني هفهف *

وقيل: «عبد الشهوة أذل من عبد الرق».

ومن ذلَّ وخضع لغير الله؛ فقد انتقص من حرية نفسه، بمقدار خضوعه وذلته لغير ربه ـ عزَّ وجلَّ ـ.

«إن مفهوم العبودية لله في الإسلام يعني الحرِّيةَ في أرقى صورها وأكمل مراتبها، العبودية لله إذا كانت صادقة تعني التحرر من سلطان المخلوقات والتعبد لها، فالمسلم ينظر إلى هذا الوجود نظرة صاحب السلطان، فالله خلق كل ما فيه من أجلنا، وسخَّره لنا: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية:١٣].

وما دام الأمر كذلك فالمسلم لن يخضع لهذه المخلوقات، ولن يقصدها؛ لأنها أقل منه شأنًا، فهي مخلوقة لنفعه وصلاحه.

والمسلم لن يستعبده إنسان مثله، فالناس جميعًا عبيد الله، فإن حاول بعض المتمردين من بني الإنسان أن يطغى ويبغي ـ وقف المسلم في وجهه يقول كلمة الحق، ويذكِّر هؤلاء بأصلهم الذي منه خُلِقوا، ومصيرِهم الذي لا بدَّ لهم منه، ويذكِّر هؤلاء بضعفهم وعجزهم، علَّهم يفيقون ويرجعون، وبالعبودية لله يتحرَّر الإنسان من أَهْوائِهِ، فالهوى شَرٌّ وثنٍ يُعْبد: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [الفرقان:٤٣] فالهوى قد يُجعل إلهًا معبودًا يسيطر على نفس صاحبه، فلا يصدر إلَّا عن هواه، ولا يسعى إلَّا لتحقيق ما يبعثه إليه، والإسلام يعتبر الخضوع لأهواء النفس التي تدعو إلى المحرمات والآثام عبودية لهذه الأمور، أمَّا التسامي عمَّا تدعو إليه النفس من المحرَّمات ـ وإن كانت محبوبة للنفوس ـ فإنه يمثل في الإسلام الحرية الحقَّة، لأنَّه وإن قيدت حرِّيته من جهة، بأن أُلزِم بترك بعض ما يشتهي، إلَّا أنَّه تحرَّر من سلطان الهوى من جهة أخرى.

والذين يزعمون أنهم يستطيعون تحقيق الحرية بعيدًا عن الله ومنهجه مخطئون، لأنَّ الإنسان، بل كل مخلوق، سيبقى عبدًا شاء أم أبى، إلَّا أنَّه إن رفض الخضوع لله اختيارًا؛ فسيخضع لمخلوق مثله، لا يملك له نفعًا ولا ضرًّا، بل قد يخضع لمن هو أقل منه شأنًا، وبذلك يكون قد استبدل عبودية بعبودية، ولم يخرج من العبودية إلى الحرية، بل خرج من عبودية الله إلى عبودية الطاغوت، وثنًا، أو صنمًا، أو بشرًا، أو شمسًا، أو قمرًا...، وقد ذمَّ الله كلَّ من كانت هذه صفته قال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [المائدة:٦٠]، فمما ابتلاهم به جزاءَ تكذيبهم أن جعلهم عبيدًا للطواغيت بعد أن كانوا عبيدًا لله.

وفي هذه الأيام تتردَّد كلمة الحرية، ويزعمون أنَّ الثورة الفرنسية أعلنت هذا المبدأ، وأنَّ هيئة الأمم المتحدة أقرت الحرية مبدأ، وليس الأمر كذلك، فإنَّ ما فعله هؤلاء أنَّهم أخرجوا النَّاس من عبودية نظام وقانون وطائفة، إلى عبودية نظام آخر، وقانون آخر، وطائفة أخرى، ولكنَّ هؤلاء جميعًا بقوا عبيدًا، وإن ظَنُّوا أنفسهم أحرارًا، ولن يحرِّرهم من سلطان البشر ويخلصهم من العبودية الظالمة إلا أن يكونوا عبيدًا لله، يقصدونه وحده، وعند ذلك يتحرَّرون من سلطان الآخرين، حتى من هوى النفوس التي تتردَّد في أجسادهم.

وأكثر الناس بعدًا عن العبودية لله هم أكثر الناس عبودية لغير الله، فهؤلاء الشيوعيون أعظم الناس تمردًا على الله وبُعدًا عنه، يستكبرون حتى عن التصديق بوجوده، وهم أعظم الناس عبودية لغير الله، فالفئة التي حكمت الاتحاد السوفيتي قبل انهياره، والتي ما زالت تحكم الصين تسيطر على رقاب الناس سيطرة كبيرة، فلا يكادون يجدون طعم الحياة. والحرية هناك وهم كبير،

وسـراب خـادع، أراد الشـيوعيون أن يتحرروا من سـلطان الله، فأقامـوا الدولة إلهًـا تصادر حرية الأفراد، وتمنعهـم من إبداء الرأي، وتتحكم فـي ممتلكاتهم، وتسـوق الملاييـن إلـى المعتقـلات في صحـراء سـيبيريا، وإلى السـجون التي غصَّت بالنزلاء على سَـعَتها وكثرتها..

لقـد أخرجوا الناس من ظلمات متراكمة إلى ظلمات أشـد، وأخرجوهم من عبودية إلى عبودية، ولن يكون من مخلص من العبودية لغير الله إلا هذا الإسلام، ولقد صدق مُوفَد المسلمين، وبرَّ حين واجه قائد الفرس قائلًا: «الله ابتعثنا لنخرج العبـاد من عبـادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور الأديان إلى عدل الإسـلام، ومن ضيق الدنيا إلى سَعَة الدنيا والآخرة»[1]، وكل من لم يرض بالإسلام دينًا، وبحكمه حُكْمًا، فإنَّه غارق في قاذورات الجاهلية: ﴿ **أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾ [المائدة: ٥٠]، والذين يرفضون أن يكون الله معبودهم فإنَّهم يهينون أنفسهم بتعبيدها لمخلوقات أقل منها شأنًا، وأحقر منزلة، وهم في ذلك يَدُسُّون هذه النفوسَ، والإسلام يعدُّ الذي يكون جلَّ همِّه وغايةَ مطلبه الدينارُ والدرهمُ والملبسُ والمأكلُ، عبدًا لهذه التي سـيطرت على نفسـه، روى البخاري بسنده عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسـول الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَار، تعس عبد الدرهم، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ**»[2]» اهـ[3].

(١) «البداية والنهاية» (٧/ ٣٩).

(٢) رواه البخـاري (٦/ ٦٠، ٦١)، و(**الخميصـة**): ثوب خَزٍّ، أو صـوف مُعَلَّم، وقوله (**انتكس**)، أي صار ذليلًا، وهذا دعاء عليه. وقوله (**شِيك**) أي دخل الشوك في عضوه. (**فلا انتقش**): دعاء عليه بأن لا يقدر على إخراجه.

(٣) «مقاصد المكلفين» للدكتور عمر سليمان الأشقر ص(٣٧٢-٣٧٥) بتصرف.

أقسام الناس من حيث الحرية والعبودية:

قد فصَّل الإمام المحقق ابن قيم الجوزية أقسام الناس في هذا المقام، فقال ـ رحمه الله تعالى ـ:

«والناس في هذا المقام ثلاثة: عبد محض، وحر محض، ومكاتَبٌ[(١)]: قد أدى بعضَ كتابته، وهو يسعى في بقية الأداء:

فالعبد المحض: عبد الماء والطين، الذي قد استعبدته نفسه وشهوته، وملكته وقهرته، فانقاد لها انقياد العبد إلى سيده الحاكم عليه.

والحر المحض: هو الذي قهر شهوته ونفسه ومَلَكَها، فانقادت معه، وذلت له، ودخلت تحت رِقه وحُكمه.

والمكاتَب: من قد عُقِد له سببُ الحرية، وهو يسعى في كمالها، فهو عبد من وجه، حُرٌّ من وجه، وبالبقية التي بقيت عليه من الأداء يكون عبدًا ما بقي عليه درهم، فهو عبد ما بقي عليه حظ من حظوظ نفسه.

فالحر: من تخلص من رِقِّ الماء والطين، وفاز بعبودية رب العالمين، فاجتمعت له العبودية والحرية، فعبوديته من كمال حريته، وحريته من كمال عبوديته[(٢)]»اهـ.

وقال: «وغاية شرف النفس دخولُها تحت رِقِّ العبودية: طوعًا واختيارًا ومحبة، لا كرهًا وقهرًا كما قيل:

إنة عهمنوق فـفـوهةع نيـ قنمهى وعهلغفيفويعهنفـقغعهغهين مخلى محساه

---

(١) المُكاتبة: معاقدة بين العبد وسيده، يكاتب الرجلُ عبدَه أو أَمَته على مالٍ مُنَجَّم ـ أي مقسَّط ـ ويكتب العبد عليه أنه مُعْتَق إذا أدى النجوم.

(٢) «مدارج السالكين» (٣/ ٧٤).

(٣) «نفسه» (٢/ ٢٩).

فالعبادة ظاهرها تذلل، وحقيقتها تعزُّز وتجمُّل:

قال الشاعر:

وعقع غقههغ عهقنعغ غفتيع   ههع عهين نلقهع نيـ قهع

وقال آخر:

نوه غفئه قهو غقيفمه   وعهلغف يقهو لهو هنفعقهوه
غعهوع غه ليهه قوعه هه   يع فقه قعيغمه نيفقه هع غعهوع

وقال آخر:

وههع قعفهي لقع ونفقيع   ونفغظفهكيظكظعهغقيع
فضوهي غفغ نوهن يع لغعفي   وظه كيقغ ظفهف هي هغيع

وقال آخر:

يع عههي تنننهي هقع عهوفوف
غهن فهيعن نهع غعه عهفهوف
لق نفقي غن نيـ قه عهقفوف
ظهغ عه غقتنح ننعهي هلهع
هيق غلف عئ هي هه هلهه

* * *

درجات الأحرار

الناس من حيث اتصافهم بالحرية درجات:

ـ فمن الحرية ما هو أفرض الفروض، وأوجب الواجبات[1] على كل المكلفين، لا عذر لأحدٍ منهم في التخلف عنه، ألا وهو التحرر من عبادة ما سوى الله، وتوحيد الله ـ تعالى ـ باستحقاق العبادة، وذلك بشهادة أن لا إله إلا الله، ثم توحيد الطريق الموصلة إليه باتباع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وذلك بتحقيق شهادة أن محمدًا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسِلتُ به إلا كان من أصحاب النار**»[2].

ـ ومنها درجات يتفاضل فيها المسلمون تفاضلًا عظيمًا، فإن كمال المخلوق في تحقيق العبودية لله، وكلما ازداد العبد تحقيقًا للعبودية ازداد كماله، وعَلَتْ درجتُه.

ويتسنم الذروةَ السامقة، والقمةَ الشاهقة في تحقيق هذه الحرية، عبدُ الله ورسولهُ محمدٌ ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبيُّ الله المجتبى، ورسولُه المصطفى، وخليلُه المرتَضى، خاتَم الأنبياء، وإمامُ الأتقياء، وسيدُ المرسلين، المبعوثُ إلى عامة الجن وكافة الورى، بالحق والهدى، وبالنور والضياء.

ولولا أن الوصف بالعبودية لله أشرف وأكمل أوصاف المخلوقين لما شرفه الله به في أعلى وأسمى وأشرف المقامات:

---

(١) راجع رسالة المؤلِّف: «النطق بالشهادتين أول واجب على المكلفين».

(٢) رواه مسلم [١٥٣]، والإمام أحمد [٨٢٠٣]، [٨٦٠٩].

فقد وصفه ربه بالعبودية في مقام الوحي، فقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ [الكهف:١]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ﴾ [النجم:١٠]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ [الحديد:٩]، وقال ـ سبحانه ـ في مقام الجمع بين الوحي والجهاد: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ﴾ [الأنفال:٤١].

ووصفه بالعبودية في مقام الدعوة، فقال ـ سبحانه ـ: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾ [الجن:١٩].

وفي مقام الإسراء فقال ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ﴾ [الإسراء:١].

وفي مقام التحدي فقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٣-٢٤].

وفي مقام النصرة والتأييد قال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ﴾ [الزمر:٣٦].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه سمع عمر ـ رضي الله عنه ـ يقول على المنبر: سمعت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: «لا تُطْروني[(١)]

(١) النهي هنا عن مطلق المدح أو عن المدح المجاوز للحد، يؤيد الأول قولُه في آخر الحديث: «**فقولوا: عبد الله ورسوله**» أي اكتفوا بما وصفني به الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من اختياري عبدًا له ورسولًا، وانظر: «أضواء البيان» (٧/ ٦٥٤-٦٦٣) ط. دار عالم الفوائد.
ويؤيده أيضًا: ترجمة الترمذي للحديث: «باب تواضع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ» والذي يأتلف مع معنى التواضع حملُ الحديث على النهي عن المدح المطلق.

كـما أَطْـرَتِ النصـارى عيسـى ابنَ مريـم[1]، فإنـما أنا عبـد فقولوا: عبـد الله ورسـوله»[2].

وحين خُيِّر ـ صلى الله عليه وسـلم ـ بيـن النبوة مع العبودية، وبين النبوة مع الملك اختار أن يكون نبيًّا عبدًا[3].

وعن يحيى بن سعيد، قال: كنا عند علي بن الحسين فجاء قوم من الكوفيين، فقال علي: يا أهل العراق أحِبونا حبَّ الإسلام، سمعتُ أبي يقول: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ: «**يا أيها الناس! لا ترفعوني فوق قدري، فإن الله اتخذني عبدًا قبل أن يتخذني نبيًّا**»، فذكرته لسعيد بن المسيب، فقال: وبعدما اتخذه نبيًّا[4].

وقد صلَّى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى تورمت قدماه، فقيل له: أتتكلـف هـذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»[5].

ويلي رسولَ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في هذه الدرجة من العبودية التي هي الحرية الحقيقية: إخوانه أولو العزم من الرسل ثم سائر الرسل ثم الأنبياء الذين قال ـ تعالى ـ في حقهم: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ [النمل:٥٩].

وقال ـ سبحانه ـ:﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات:١٧١-١٧٣].

---

(١) فغلَوْا فيه حتى ادعَوْا فيه الألوهية.

(٢) رواه البخاري (٦/ ٣٥٤، ٣٥٥)، ومسلم [٣٤].

(٣) انظر «شرح السنة» (١٣/ ٢٤٨).

(٤) أخرجـه الحاكـم (٣/ ١٧٩)، وقال: «صحيح الإسـناد»، ووافقه الذهبي، وقـال الألباني: «وهو كما قالا» اهـ. من «السلسلة الصحيحة» رقم [٢٥٥٠].

(٥) رواه البخاري (٢/ ٦٣)، (٦/ ١٦٩)، (٨/ ١٢٤)، ومسلم (٧٩: ٨١)، وغيرهما.

وقال ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾.

[النحل:٢]

وقال ـ سبحانه ـ في إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

[الصافات:١١١]

وقال في نوح ـ عليه السلام ـ: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء:٣].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [ص:٤٥].

وقال ـ عزَّ وجلَّ ـ في موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ: ﴿ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصافات:١٢٢].

وكانت أول كلمة نطق بها المسيح ـ عليه السلام ـ في المهد: ﴿ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾.

[مريم:٣٠]

وقال ـ سبحانه ـ في حقه: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾.

[الزخرف:٥٩]

وقال ـ عزَّ وجلَّ ـ في شأن المسيح ـ عليه السلام ـ أيضًا: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ ﴾ [النساء:١٧٢].

وقال في أيوب ـ عليه السلام ـ: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص:٤٤].

وقال في داود ـ عليه السلام ـ: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾.

[ص:١٧]

وقال في سليمان ـ عليه السلام ـ: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص:٣٠].

ثم يأتي في مقام الحرية الكاملة أتباعُ الرسـل ـ عليهم السلام ـ وفي مقدمتهم أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ، ورضي الله تعالى عنهم أجمعين ـ.

وفي معنى هذه (الحرية الحقيقية الكاملة) يقول الشاعر:

ظغهمو لهو عهقهعهٍ هٌفع   ظه غقو هٌهغعٍ كهلغ فق

وروى البيهقي عن ا لجنيد ـ رحمه الله ـ قال:

«إنك لن تكون على الحقيقة له عبدًا وشيء مما دونه لك مسترِقًّا، وإنك لن تصلَ إلى صريح الحرية، وعليك من حقيقة عبوديته بقية، وإذا كنتَ له وحده عبدًا كنتَ مما دونه حُرًّا»[1].

أسير لكنه حر:

وقد تتحقق هذه الحرية الكاملة لمن هو في الظاهر مقيدٌ سـجين، قال سـيد قطب ـ رحمه الله ـ:

ظفي ظهغ فق غغهن عهنيوفٍ   ظفي ظهغ فق وقعظ عهقفوفٍ
عقع نهغ غعئ هقغلكهع   نهعقع يٍنحقن نيف عهلغيف

وهذا شـيخ الإسـلام ابن تيميـة ـ رحمه الله ـ يضـع تعريفـًا عجيبًا للحبس، فيقول:

«المحبوس: من حُبِس قلبُه عن ربه، والمأسور: من أسره هواه»[2].

يقول تلميذه الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ حاكيًا عنه:

«وقال لي مرة: ما يصنع أعدائي بي؟! أنا جنتي وبستاني في صدري، أينَ رُحْتُ فهي معي لا تفارقني، أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة.

(١) «الزهد الكبير» ص (٢٨٩).

(٢) «الوابل الصيب» ص (١٠٩)، ط. دار عالم الفوائد.

وكان يقول في محبسه في القلعة: لو بذلتُ لهم ملء هذه القلعة ذهبًا ما عدل عندي شكر هذه النعمة. أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير، ونحو هـذا، وكان يقـول في سـجوده وهو محبـوس: (اللهم أعِنِّي على ذِكرك وشُـكرِك وحُسْنِ عبادتِك)، ما شاء الله..

ولمـا أُدْخِل إلـى القلعة، وصار داخل أسـوارها: نظر إليـه، وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد:١٣].

وعلم الله ما رأيتُ أحدًا أطيبَ عيشًا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش، وخـلاف الرفاهيـة والنعيـم، بل ضدهـا، ومع مـا كان فيه مـن الحبـس والتهديد والإرجـاف، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًـا، وأشـرحهم صـدرًا، وأقواهم قلبًا، وأَسَرِّهم نفسًا: تلوح نضرة النعيم على وجهه»[1].

وما زال شيخ الإسلام في محنته صابرًا على بلواه حتى وافته المنية مسجونًا (سنة ٧٢٨هـ) فرثاه ابن الوردي بقوله:

وفغق عهفق نيـ عاكفعن نفـق ... ولهف عهحف غعهقفه علغغعك

غظه عهعقجي هه عنغفعظ ... نن فقعنوععههوهوهيوعكوع

والمقصود: أن العبودية تقتضي الحرية، والحرية من كمال العبودية.

(١) «الوابل الصيب» ص (١٠٩، ١١٠)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (٣/ ٢٥٩).

«الهوى: هو ميل النفس إلى الشيء، وفعله: هَوِيَ: يَهوَى، هَوًى، مثل عَمِيَ، يعمى، عَمًى، وأمَّا هَوَى يَهْوِي بالفتح فهو السقوط، ومصدره الهُوِيُّ بالضم، ويقال الهوى أيضًا على نفس المحبوب، قال الشاعر:

عهٌ عهغيِ قلهغ نعءفِنٌ هههع   فهنغ موعن نهع فهنغ موو هوع

ويقال: هذا هوى فلانٍ، وفلانةُ هواه، أي: مَهْوِيَّتُه ومحبوبته.

وأكثر ما يُستعمل في الحبِّ المذموم، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١]. ويُقال: إنما سُمِّيَ هوًى؛ لأنه يهوي بصاحبه. وقد يُستعمل في الحبِّ الممدوح استعمالًا مقيَّدًا. ومنه قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لما جِئْتُ بِهِ**»[(١)].

وفي الصحيحين[(٢)] عن عُروة قال: كانت خَوْلَةُ بنت حكيم من اللاتي وهَبْنَ أنفسهن للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أما تستحيي المرأة أن تهَبَ نفسَها للرجل؟ فلما نزلت ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥١] قلتُ: يا رسول الله! ما أرى ربَّك إلا يُسارعُ في هواكَ.

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» [١٥]، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٤/ ٣٦٩)، والبغوي في «شرح السنة» (١/ ٢١٣)، من حديث عبد الله بن عمرو. قال النووي في «الأربعين» (٤١): حديث حسن صحيح، رُوِّيناه في كتاب «الحجة» بإسناد صحيح. وتعقبه ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٣٩٤) فقال: تصحيح هذا الحديث بعيد جدًّا من وجوه، ثم ذكرها.

(٢) البخاري (٥١١٣)، ومسلم (١٤٦٤).

وفي قصة أُسارى بدرٍ قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: فهَوِيَ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ ولم يَهْوَ ما قلتُ. وذكر الحديث[١].

وفي السنن[٢] أن أعرابيًّا قال للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: جئتُ أسألك عن الهوى، فقال: «المَرْءُ معَ من أحبَّ»[٣]».

قال الإمام المحقق ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ:

«الهوى: ميل الطبع إلى ما يلائمه. وهذا الميل خُلِقَ في الإنسان لضرورة بقائه. فإنه لولا ميله إلى المطعم، والمشرب، والمنكح؛ ما أكل، ولا شرب، ولا نكح. فالهوى مستحِثٌّ له لما يريده، كما أن الغضب دافعٌ عنه ما يؤذيه، فلا ينبغي ذم الهوى مطلقًا، ولا مدحه مطلقًا، كما أنَّ الغضب لا يُذَمُّ مطلقًا، ولا يُحمد مطلقًا، وإنما يُذَمُّ المُفْرِط من النوعين، وهو ما زاد على جلب المصالح، ودفع المضار.

ولمَّا كان الغالب ممن يطيع هواه وشهوته وغضبه: أنَّه لا يقف فيه على حدِّ المنتفَع به؛ أُطلِق ذمُّ الهوى، والشهوة، والغضب؛ لعموم غلبة الضرر؛ لأنَّه يندر من يقصد العدل في ذلك، ويقف عنده، كما أنه يندر في الأمزجة المزاج المعتدل من كل وجه، بل لا بدَّ من غلبة أحد الأخلاط والكيفيات عليه، فحرص النَّاصح على تعديل قُوَى الشَّهوة والغضب من كلِّ وجهٍ، كحرص الطَّبيب على تعديل المِزاج من كلِّ وجه، وهذا أمرٌ يتعذَّر وجودُه إلا في حقِّ أفرادٍ من العالَم، فلذلك

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٦٣) من حديث عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٣٦)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٤)، وأحمد (٤/ ٢٣٩، ٢٤٠) من حديث صفوان بن عسَّال المرادي بهذا السياق. وإسناده حسن.

(٣) «روضة المحبين» ص (٣٧،٣٨).

لم يذكر الله الهوى في كتابه إلَّا ذمَّه، وكذلك في السُّنَّة لم يجئ إلا مذمومًا، إلا ما جاء منه مُقَيَّدًا، كقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**لا يؤمنُ أحدكم حتَّى يكون هواه تبعًا لما جئت به**»[1].

وقد قيل: الهوى كمينٌ لا يُؤمَن. قال الشَّعْبي: وسُمِّيَ هوًى؛ لأنَّه يَهوِي بصاحبه، ومطلقُه يدعو إلى اللَّذَّة الحاضرة من غير فكرٍ في العاقبة، ويحثُّ على نيل الشَّهوات عاجلًا، وإن كانت سببًا لأعظم الآلام عاجلًا وآجلًا، فللدنيا عاقبةٌ قبل عاقبة الآخرة، والهوى يُعمي صاحبه عن ملاحظتها، والمروءة، والدين، والعقل ينهى عن لذة تُعقب ألمًا، وشهوة تورثُ ندمًا، فكلٌّ منها يقول للنَّفس إذا أرادت ذلك: لا تفعلي! والطَّاعة لمن غلب، ألا ترى أن الطفل يُؤثر ما يهواه؛ وإن أدَّاه إلى التَّلَف؛ لضعف ناهي العقل عنده؟! ومن لا دين له يؤثر ما يهواه؛ وإن أدَّاه إلى هلاكه في الآخرة؛ لضعف ناهي الدِّين، ومن لا مُروءَة له يُؤثر ما يهواه وإن ثَلَمَ مُرُوءته، أو هدمها؛ لضعف ناهي المروءة، فأين هذا من قول الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ: لو علمتُ أنَّ الماء البارد يثلم مروءتي لما شربته.

ولمَّا امتُحِنَ المكلَّف بالهوى من بين سائر البهائم، وكان كل وقت يحدث عليه حوادث؛ جُعِلَ فيه حاكمان: حاكم العقل، وحاكم الدين؛ وأُمِرَ أن يرفع حوادثَ الهوى دائمًا إلى هذين الحاكمين، وأن ينقاد لحكمهما، وينبغي أن يتمرن على دفع الهوى المأمون العواقب ليستمرَّ بذلك على ترك ما تؤذي عواقبه»[2].

(١) تقدم تخريجه آنفًا ص (٢٣٨).

(٢) «روضة المحبين» ص (٦٢٩ - ٦٣١).

حاجة البشرية إلى الوحي الإلهي

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ:

«الرسالة ضرورية للعباد، لا بدَّ لهم منها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء، والرسالة روح العالم ونوره وحياته، فأيُّ صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور؟ والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة، وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة، ويناله من حياتها وروحها فهو في ظلمة، وهو من الأموات، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢]، فهذا وصف المؤمن كان ميتًا في ظلمة الجهل، فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان، وجعل له نورًا يمشي به في الناس، وأمَّا الكافر فميت القلب في الظلمات».

وبيَّن ـ رحمه الله تعالى ـ: «أن الله سمَّى رسالته روحًا، والروح إذا عدم فقدت الحياة، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢]، فذكر هنا الأصلين، وهما: الروح، والنور، فالروح الحياة، والنور النور».

وبيَّن ـ رحمه الله تعالى ـ: «أن الله يضرب الأمثال للوحي الذي أنزله حياة للقلوب ونورًا لها بالماء الذي ينزله من السماء حياة للأرض، وبالنار التي يحصل بها النور، وهذا كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد:١٧]».

يقول شيخ الإسلام ـ رحمه الله معقبًا على الآية: «فشبه العلم بالماء المنزل من السماء لأن به حياةَ القلوب، كما أنَّ بالماء حياةَ الأبدان، وشبَّه القلوب بالأودية، لأنَّها محلُّ العلم، كما أنَّ الأودية محل الماء، فقلبٌ يسع علمًا كثيرًا، وادٍ يسع ماءً كثيرًا، وقلب يسع علمًا قليلًا، وواد يَسَع ماءً قليلًا، وأخبر ـ تعالى ـ أنَّه يعلو على السيل من الزبد بسبب مخالطة الماء، وأنه يذهب جُفاءً، أي: يُرمى به، ويُخفى، والذي ينفع الناس يمكث في الأرض ويستقر، وكذلك القلوب تخالطها الشهوات والشبهات، ثم تذهب جفاءً، ويستقر فيها الإيمان والقرآن الذي ينفع صاحبه والناس»[1].

وقال الإمام المحقق ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ:

«ومن هاهنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول، وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا، ولا في الآخرة إلَّا على أيدي الرسل، ولا سبيلَ إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلَّا مِن جهتهم، ولا يُنال رضا الله ألبتة إلا على أيديهم، فالطَّيِّب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاؤوا به، فهم الميزانُ الراجح، الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم تُوزن الأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها، فأيُّ ضرورة وحاجة فرضت، فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٩/ ٩٣ -٩٦).

وما ظنك بمن إذا غاب عنك هديه وما جاء به طرفةَ عين، فسد قلبُك، وصار كالحوت إذا فارق الماء، ووُضع في المِقلاة، فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسل، كهذه الحال، بل أعظمُ، ولكن لا يحسُّ بهذا إلا قلبٌ حَيٌّ

* * *

وإذا كانت سعادةُ العبد في الدارين معلقةً بهدي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيجِب على كل من نصح نفسه، وأحبَّ نجاتها وسعادتها، أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه مَا يَخْرُجُ به عن الجاهلين، ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته وحزبه، والناس في هذا بين مستقلٍّ، ومستكثر، ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو فضلٍ عظيم»[(١)].

وقد عقد الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتابه القيم «مفتاح دار السعادة» مقارنة بيَّن فيها أن حاجة الناس إلى الشريعة أعظم من حاجتهم إلى علم الطب مع شدَّة حاجة الناس إليه لصلاح أبدانهم، فحاجتهم إلى الرسالة أعظم من حاجتهم إلى غيرها من العلوم، قال:

«حاجة الناس إلى الشريعة ضرورية، فوق حاجتهم إلى كل شيء، ولا نسبة لحاجتهم إلى علم الطب إليها، ألا ترى أنَّ أكثر العالم يعيشون بغير طبيب، ولا يكون الطبيب إلا في بعض المدن الجامعة، وأمَّا أهل البدو كلهم، وأهل الكُفور[(٢)] كلُّهم، وعامة بني آدم فلا يحتاجون إلى طبيب، وهم أصحُّ أبدانًا، وأقوى طبيعة ممن هو متقيد بالطبيب، ولعلَّ أعمارهم متقاربة.

---

(١) «زاد المعاد» (١/ ١٥).

(٢) **الكُفور**: القُرى الصغيرة. جمع كَفْر.

وقد فطر الله بني آدم على تناول ما ينفعهم، واجتناب ما يضرهم، وجعل لكلِّ قوم عادة وعرفًا في استخراج أدويةِ ما يهجم عليهم من الأدواء، حتى إنَّ كثيرًا من أصول الطب إنما أُخِذت من عوائد الناس، وعُرْفهم وتجاربهم.

وأمَّا الشريعة فمبناها على تعريف مواقع رضا الله وسَخَطه في حركات العباد الاختيارية، فمبناها على الوحي المحض، والحاجة إليها أشدُّ من الحاجة إلى التنفس فضلًا عن الطعام والشراب، لأنَّ غاية ما يُقَدَّرُ في عدم التنفس والطعام والشراب موتُ البدن، وتعطل الروح عنه، وأما ما يقدر عند عدم الشريعة ففساد الروح والقلب جملة، وهلاك الأبد، وشتان بين هذا وهلاك البدن بالموت.

فليس الناس قطُّ إلى شيء أحوجَ منهم إلى معرفة ما جاء به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقيام به، والدعوة إليه، والصبر عليه، وجهاد من خرج عنه حتى يرجع إليه، وليس للعالَم صلاح بدون ذلك ألبتة، ولا سبيل إلى الوصول إلى السعادة والفوز الأكبر إلا بالعبور على هذا الجسر»[(١)].

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٨٦٣، ٨٦٤)، ط. دار عالم الفوائد.

العداوة بين الوحي والهوى

بيَّـن ـ عزَّ وجلَّ ـ أن الهوى إله باطل يعبـده بعض الناس من دون الله الحق، ويتحرر الإنسان من اتباع الهوى، باتباع الوحي والهدى.

قال ـ تعالى ـ: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾.

[الفرقان:٤٣]

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [الجاثية:٢٣].

ومصدر الهدى ينحصر في الوحي الإلهي:

قال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ﴾ [سبأ:٥٠].

ولذلك أمر ـ تعالى ـ باتباعه والتمسك به:

قال ـ سبحانه ـ: ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴾.

[يونس:١٠٩]

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

[الزخرف:٤٣]

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.

[ص:٢٦]

وامتثل ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمر ربه:

قال ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ﴾ [الأعراف:٢٠٣].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ [يونس:١٥].

وحذره ـ عزَّ وجلَّ ـ من اتباع أهوائهم:

قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [المائدة:٤٨].

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:١٤٥].

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾.

[المائدة:٤٩]

وقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية:١٨].

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨].

والهوى منبع الضلال وسبب الهلاك:

قال ـ سبحانه ـ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١١٩].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص:٥٠].

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص:٢٦].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه:١٥، ١٦].

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾

[الأعراف:١٧٥، ١٧٦]

والوحي والهوى ضِدَّانِ لا يجتمعان:

قال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾.

[النجم:٣، ٤]

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ ﴾ [القصص:٥٠].

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾.

[البقرة:٨٧]

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم:٢٣].

لا إله إلا الله

تحرر الإنسان من عبودية المناهج والأفكار والتشريعات

«..وتاهت البشرية في عبودية من نوع آخر، وهي عبودية المناهج والأفكار، فالبشـر في كل عصر وجيل تتفتق أذهان أذكيائهم وفلاسفتهم عن مبادئ ومناهج وقوانين ونظريات، يُحَكِّمونها في رقاب العباد، وهي مناهج وقوانين تحاد شـرع الله وحكمه، وقد شاء الله أن يكون الحكم بين العباد بيده دون سواه، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [يوسف:٤٠]، ولم يرض الحق أن يُتخذَ معه شريك فـي حكمـه ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف:٢٦]، وقد ذَمَّ الله اليهود والنصارى الذيـن أطاعـوا أحبارهم ورهبانهـم عندما خالفوا الشـرع الذي بأيديهـم، فأحلوا وحَرَّمـوا بآرائهم، وقـال فيهـم ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة:٣١]، ولكـن الأمـر العجيـب أن أكثـر الناس فـي كل العصور يرفضون منهـج الله ـ تعالى ـ وحكمه، ويرتضون قوانين البشـر وأحكامهم التي تُعَبِّدُهم للعباد، وقوانينُ البشـر ومبادؤهم مختلفة متضاربة، وكل فريق يزعم أنه على الحق والهدى، وأن منهجه هو الذي يحرر الإنسـان، ويجلب لـه الخيـر والهناء، ويقوم الصـراع بين أتبـاع المناهج وينتهي فـي أغلب الأحيان بحـروب تُحْرِق الأخضرَ واليابـس ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ الآية. [البقرة:١١٣]، لقد أنزل الله الكتاب في كل العصور ليحكـم بين الناس فيمـا اختلفوا فيه، فيُحِقُّ الحقَّ ويبطـل الباطل ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً

وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة:٢١٣].

إن الحرية في الإسلام تقرر في صورة العبودية، إن الحرية تعني أن تُعَبِّدَ نفسَك لله وحده، في توجهات قلبك وعقائده، وفي مسار فكرك ونوازعه، وفي أقوالك وأفعالك، وفي القوانين التي تهيمن على المجتمع وتُسَيِّرُه، وكثير من الحريات التي يتشدق بها العباد في هذا العصر، إنما هي العبودية في نظر الإسلام، ولنعتبر هذا بما يُسمى بالديمقراطية اليوم، فالبشر يرون أن تحقيق الديمقراطية هو قمة الحرية التي يمكن أن يُحَصِّلَها العباد اليوم، حيث ينتخبون ممثلين عنهم يشرعون للأمة ما يشاؤون، وهذا في تصور الإسلام عبودية البشر للبشر، وتأليه البشر للبشر، فليس من حق العباد أن يشرعوا فينا ما لم يأذن به الله، وليس من حقهم أن يقودوا الحياة بمجرد فكرهم، فإن فعلوا فهم أرباب من دون الله، وقد ذم الله اليهود والنصارى لكونهم اتخذوا علماءهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، وعلمنا من تفسير الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن المراد بجعلهم أربابًا من دون الله هو متابعة اليهود والنصارى علماءهم ورهبانهم في تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله، مع كونهم ملتزمين بشريعتهم بصورة من الصور، فكيف بالأمم المعاصرة عندما تعطي لممثلي الشعب الحرية المطلقة في تشريع ما يشاؤون، لقد أباحوا الربا والزنا واللواط والإجهاض والخمور، وكل شيء في مفهوم الدول الديموقراطية قابل للنظر والتغيير، إن هذا في مفهوم الإسلام عبودية وأي عبودية، يعبد البشر فيها البشر، والعجيب أن أكثر الأمم يرونها قمة

الحريـة، إن التحرر الحقيقي يعني الخضوع لله وحده، وأخذ منهجه دون سـواه، والتحاكم إلى شـرعه دون بقية الشـرائع والقوانين، فإن رفض البشر هذه العبودية لله الواحد الأحد فإنهم سـيُعبِّدون أنفسـهم ـ لا محالة ـ لمخلوقات مسـاوية لهم وهم البشر، أو لمخلوقات أقل منهم شأنًا، وقبيح بالإنسان أن يُعَبِّد نفسه لمخلوقٍ مثله لا يضر ولا ينفع، بل قد لا يُبصر ولا يسـمع. إن الذي يسـتحق العبادة هو من اتصف بصفات الألوهية الحقة»[1].

(١) «أثـر الإيمـان في تحرير الإنسـان» ص (٢٩-٣٠) بتصرف، وانظر: «أضواء البيان» للشـنقيطي (٧/ ٦٢٢) ط. دار عالم الفوائد، و«الشريعة الإلهية» للدكتور عمر الأشقر.

جوهر الخلاف بين الموحدين الأحرار وبين عبيد الأهواء

لا مشكلة عند عبيد الأهواء كالليبراليين[1] والعالمانيين[2] في:

(١) **الليبرالية**: دين أرضي من صنع البشـر، يتصادم مع الإسـلام بالكلية، فالليبرالية الفكرية والدينية تقول: «اعبد أيَّ شيء، فلن تُسأل عن شيء».
وتدعـي أن لا ديـن يحتكر الحقيقة المطلقة، وتعتبر التدين شـأنًا يتعلق بالحرية الفردية، ويرتبط فقط بالوجدان والذوق الشخصي وليس بالأحكام.
والليبراليـة الاجتماعيـة تقـول: «لا» لقوامـة الرجولـة، و«لا» لرابطـة العقيـدة الإيمانية، و«لا» لمرجعية الشريعة الإسلامية.
والليبرالية السياسية تقول: الحكم لكل شيء إلا لله!
والليبرالية الاقتصادية تقول: اكسب من كل شيء، وأنفق في أي شيء.
ولتفصيـل ذلك موضع آخر، انظر «معركة الثوابت بين الإسـلام والليبرالية» للدكتور عبد العزيز مصطفى كامل، و«الفكر الليبرالي تحت المجهر الشـرعي» للدكتور محمود الصاوي، و«حقيقة الليبرالية» للدكتور عبد الرحيم السلمي، و«نقد الليبرالية» للدكتور الطيب بو عزة، و«الليبرالية في السعودية والخليج» للأستاذ وليد الرميزان، و«نقد التسامح الليبرالي» للدكتور محمد مفتي.

(٢) **العالَمانيـة**: نسـبة إلى هـذا العالم المادي الدنيوي، فهي اللادينيـة أو الدنيوية، لا بمعنى ما يقابل الأخروية فحسب، بل بمعنى «ما لا صلة له بالدين» أو «ما كانت علاقته بالدين علاقة تضاد».
جـاء فـي «دائرة المعـارف البريطانيـة»: «العالمانية: حركـة اجتماعية تهدف إلـى صرف الناس وتوجيههم من الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بهذه الدنيا وحدها».
وفـي قامـوس «أكسـفورد»: «الرأي الـذي يقول: إنه لا ينبغـي أن يكون الدين أساسًـا للأخلاق والتربية».
وفـي قامـوس «وبسـتر»: «اتجـاه فـي الحياة أو في أي شـأنٍ خـاص يقـوم على مبـدأ أن الدين والاعتبارات الدينية يجب أن لا تتدخل في الحكومة».
إذن فالعالمانية تفصل الدين عن الحياة، وقد تقبله بشـرط أن يُحبَس داخل القفص الصدري أو داخل جدران المسـاجد، وقد تقر بوجود الإله، لكنه نفس التصور الأرسطي للإله، الذي يدَّعي أنـه خلـق العالم، ثم حركه ثم تركه، دون أن يعلم عنه شـيئًا، تمامًا مثل ملك الإنكليز يملك ولا يحكم، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

ـ أن يشهد العبد بأن «لا إلٰه، والحياة مادة» لأن الإلحاد في زعمهم حق لمن شاء أن يدين به، وذلك طبقًا لمبدأ حرية الاعتقاد.

ـ ولا مشكلة لديهم في أن يشهد العبد أن «لا ربَّ إلا الله» لأن هذا هو توحيد الربوبية بمعنى أنه هنا يقرر بأن الله له وحده الخَلْق.

ـ وليس لديهم مشكلة كبيرة في أن تقول: «الله إلٰه».

ـ وليس لديهم مشكلة في أن تقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف:٨٤].

إن المعضلة الكبرى عندهم في هذه الكلمة التي تنسف الآلهة الباطلة نسفًا: «لا إله إلا الله» أي: لا إلٰه حق يستحق أن يُفرد بالعبادة إلا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، مشكلتهم الكبرى في (الحَصْر) الذي يفيده النفيُ والاستثناء.

فالأديان عندهم متساوية، ولا يجوز عندهم أن نرفع شعار «الإسلام يعلو ولا يُعْلى».

ولا يجوز عندهم التفريق بسبب العقيدة بين المؤمن والكافر لأن هذا (تمييز).

إن المشكلة عندهم ليست في قول: «ألا له الخَلْقُ» ولكنها في قول الله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٥].

وليست المشكلة في قول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ﴾ لكنها في قوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف:٨٤].

ليست المشكلة في أن تقول: «الإسلام دين» لكنها في أن تقول: الإسلام هو الدين الحق الوحيد في هذا الوجود، وما عداه باطل.

ليست المشكلة عندهم في (اتباع الهوى) لكن المشكلة كل المشكلة في (اتباع الوحي الإلهي) فيما يتعلق بقيادة سفينة المجتمع، وتوجيه مسيرته.

لا إله إلا الله

تحرر الإنسان من عبادة مظاهر الطبيعة

هنـاك ألـوان من العبودية يحـرص العباد عليها ويستمسـكون بهـا ويبذلون فـي سـبيلها كل مرتخص وغال، لقـد كانت العبودية في الماضـي عبودية لأوهام وتصـورات خاطئة، كان الإنسـان الـذي لا يعلم حقيقـة ما حوله يرهبـه الليل إذا أرخـى عليـه سـدوله، ويبزغ القمـر فينير ظلمـة الليل فيعظم في نفسـه، وتشـرق الشمس فتمحوا ظلمة الليل، وتُذْهِبُ ضوءَ القمر والنجوم فتكبر في نفسه، ويقف بجانب الجبال الشمِّ الراسيات فيتصاغر في نفسه، ويقف على شاطئ البحر اللُّجِّيِّ المحيـط وأمواجه تثور كالجبال فيرهبه منظره، وقد كانـت الرهبة والتعظيم لهذه المخلوقـات تملك عليه نفسـه، فتذهب بـه الظنون كل مذهـب، فيصور له جهله أنها تستحق التقديس والخضوع، فإذا به يخر لها ساجدًا، وينادي باسمها مسبحًا، ويتوجه إليها داعيًا، وإذا ما رام عاقل أن يبين له الحقيقة أصمَّ أذنيه، وأغلق عينيه، وأصـر علـى باطله إصـرارًا، وإذا زاد الأمر جَرَّد سـيفه، وبذل نفسـه وماله مدافعًا عـن عقيـدة زائفة، مثَّلَها لـه خيالٌ موهـوم، وأكَّدتها خرافة كاذبة، وقد أرسـل الله ـ تعالى ـ رسـله في كل جيل من الأجيال، ليخلصوا العباد من العبودية في شـتى صورها وأشكالها، وهذه واحدة من أشكال العبودية التي سيطرت على البشر حينًا مـن الدهر، فاتخذوابعض مظاهر الطبيعة آلهةً تُعبد من دون الله، إن هذه المظاهر ـ في منطق الإسلام ـ آيات باهرة دالة على قدرة الله، وهي مقهورة مربوبة مطيعة لله ربهـا، لا تعصي لـه أمرًا، فقد خلق الحق الأرض والسـماء ثم خاطبهما قائلًا: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:١١]، وهـذه المخلوقات تعبد الله، فتسـبح لـه، وتسـجد له، تسـبيحًا لا نفقهه، وسـجودًا لا نعرف كيفيتـه، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ

ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ ﴾ [الإسراء:٤٤]، ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [الحج:١٨].

ولقد أرسل الله أبا الأنبياء إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى قوم يعبدون الكواكب والقمر والشمس، وحاور قومه فيما يعبدون، وأثبت لهم أن ما يعبدونه ليس أهلًا للعبادة، لأنه لا يملك من خصائص الألوهية شيئًا، وليس له من صفات الربوبية نصيب: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام:٧٥-٨٠].

لقد شرح كل رسول لقومه شيئًا من حقيقة الكون ووظائفه كيلا يقعوا في أسار الوهم والخرافة، وكيلا يضلوا في مسيرة الحياة: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾[1] [فصلت:٣٧].

---

(١) «أثر الإيمان» للأشقر ص(٧-١٠).

وقد تردى البشر في هاوية أخرى في مجال الوهم والخرافة عندما عبدوا الأوثان الصم البكم الجامدة، وعبدوا الأموات الذين لا يملكون ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، لقد كانوا يصنعون الأصنام بأيديهم، ثم يدْعونها ويخضعون لها، ويدسون الميت في التراب بأيديهم، ثم يستغيثون به، ويقصدونه بأعمالهم ونياتهم، وأرسل الله رسله لتخليص العباد من هذه اللوثة التي عَبَّدتهم للأشجار والأحجار والأموات، وقد بذل الرسل في سبيل تبصير العباد جهودًا هائلة، ناظروهم وحاوروهم وجادلوهم، وضربوا لهم الأمثال، وصبروا على أذاهم: ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء:٧٢-٧٤]. وقال ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج:٧٣]، فأصر أكثر العباد على هذا الباطل، أصروا على أن يبقوا عبيدًا للأصنام والأوثان والأموات، وتعاهدوا على الصبر على هذه الأباطيل: ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح:٢٣]. ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾ [ص:٦]، وأصموا أسماعهم حتى لا يصل صوت الحق إلى قلوبهم: ﴿ وَإِنِّى

﴿كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح:٧][١].

وقال ـ أيضًا ـ الدكتور عمر الأشقر ـ حفظه الله تعالى ـ وهو ينتقد عقائد الهندوس:

«هذا زعيم من زعمائهم في القرن العشرين يقول مفاخرًا: «عندما أرى البقرة لا أجدني أرى حيوانًا لأني أعبد البقرة، وسأدافع عن عبادتها أمام العالم أجمع». ولقد قاده عقله إلى تفضيل أمِّه البقرة على أمِّه التي ولدته: «وأمي البقرة تفضل أمي الحقيقية من عدة وجوه، فالأمُّ الحقيقية ترضعنا مدة عام أو عامين، وتتطلب منا خدمات طول العمر نظير هذا، ولكنَّ أمنا البقرة تمنحنا اللبن دائمًا ولا تطلب منَّا شيئًا مقابل ذلك سوى الطعام العادي..» ومضى عابد البقرة يقارن بين أمه البقرة وأمه الحقيقية موردًا الحجج والبراهين على أفضلية أمه البقرة على أمه الحقيقية إلى أن قال: «إن ملايين الهنود يتجهون للبقرة بالعبادة والإجلال، وأنا أعدُّ نفسي واحدًا من هؤلاء الملايين».

وقد قرأت منذ مدة في مجلة (العربي) التي تصدر في الكويت عن معبد فخم مكسو بالرخام الأبيض تُرسَل إليه الهدايا والألطاف من شتى أنحاء الهند، بقي أن تعلم أن الآلهة التي تُقدم لها القرابين، وترسَل لها النذور في ذلك المعبد الفخم إنما هي الفئران.

هذه بعض الترهات التي هدتهم إليها عقولهم التي زعموا أنَّ فيها غُنْيةً عن الوحي الإلهي»[٢].

---

(١) «نفسه» ص(١٠-١٢).

(٢) «الرسل والرسالات» ص (٣٩).

لا إله إلا الله

تحرر الإنسان من عبودية البشر

واتخذ البشـر بشـرًا مثلَهم أربابًا من دون الله، فقد أحاطوا بعض البشر بهالة مـن الأسـاطير، فجعلوهـم من نسـل الآلهـة، وزعموا أن لهـم طبيعة غيـر طبيعة البشـر، وأن الدمـاء الزرقاء تجري في عروقهـم، بعض هؤلاء البشـر كانوا ملوكًا أرادوا إخضاع العباد لأهوائهم، وبعضهم كانوا صالحين قدسهم الناس من حيث لا يريد أولئك الصالحون مثل هذا التقديس، من الفريق الأول: فرعون الذي ادعى الألوهية، فصاح فيهم مناديًا: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات:٢٤]، ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص:٣٨]، ومن الفريق الثاني: الذين غَلَوْا في عيسى ـ عليه السلام ـ فزعموا أنه الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة ـ تعالى الله عما يقولونه علوًّا كبيرًا ـ.

وأرسـل الله رسـله لتخليـص البشـر مـن رق العبودية للعبـاد، فقـد أرسـل الله موسـى وأخاه هـارون إلى فرعون وملئه، وقـال لهما: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طـه:٤٣، ٤٤]، وطالباه بأن يدع بني إسـرائيل وشأنهم ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ [طـه:٤٧]، لقـد أراد مـن فرعـون أن يتخلى عن كبريائـه ويخضع لـرب العالميـن، وأن يُعتق بني إسـرائيل مـن ذل العبودية، ويأذن لهم في الخروج من بلده.

وحدثنا قرآننا عن خبر عيسـى، فأكذب ما ادعـاه الداعون في أمره، وقرر أنه عبـد الله ورسـوله، وكلمتـه أوحاها إلى مريـم وروح منه، مثله فـي ذلك مثل آدم ـ عليه السلام ـ خلقه من تراب ثم قال له كن، فكان كما شاء الله أن يكون.

إن الإسلام جاء ليحرر العباد من عبودية العباد إلى عبادة الله وحده، وقد أعلن الدعاة الأوائل هذه الحقيقة حينما كانوا يغدون إلى مقابلة عظماء الفرس والروم، فقد كانوا يسألونهم عن هدفهم الذي خرجوا من أجله من ديارهم، فيقولون: «الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة».

وقد دعا القرآن أهل الكتاب إلى عبادة الله الواحد الأحد وترك ما يعبدونه من دونه من أنداد، وبذلك يجتمع الناس على كلمة سواء: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[آل عمران: ٦٤][1].

وقال الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله ـ:

«ولما كان الأنبياء هم مظنة أن يتجه إليهم الناس بشيء من العبادة، أو ما في معناها على وجه من الوجوه، فقد عني الإسلام بتحرير وجدان البشرية من هذه الناحية تحريرًا كاملًا. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:٧٩، ٨٠].

ويقول عن نبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ [آل عمران:١٤٤].

---

(١) انظر: «أثر الإيمان في تحرير الإنسان» ص (١٢-١٥).

ويخاطب هذا النبيَّ في صراحة قوية: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [آل عمران:١٢٨]، كما يخاطبه في موضع آخر بما يشبه التهديد: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ [الإسراء:٧٤، ٧٥].

ويقول ـ تبارك وتعالى ـ في شأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾ [الحاقة:٤٤-٤٧].

ويأمره أن يجهر بحقيقة موقفه جهرًا: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ [الجن:٢٠-٢٢]

ويتحدث عمن ألهوا عيسى ابن مريم، فيصمهم بالكفر والسخف: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ ﴾ [المائدة:١٧].

ويقول عن المسيح في موضع آخر: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الزخرف:٥٩].

ويعرض مشهدًا من مشاهد يوم القيامة يستجوب فيه عيسى ابن مريم عما زعمه بعض الناس عنه من ألوهية؛ ويثبت براءة عيسى من هذا الزعم الذي لا يد له فيه، في أسلوب قوي أخاذ: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ

إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة:١١٦-١١٨].

كما يعرض صورة من تأليه العباد للعباد لا تتمثل في اعتقادهم بألوهيتهم، ولكن تتمثل في تلقي الشرائع منهم، وجعلهم بذلك أربابًا ولو لم يعتقدوا بألوهيتهم أو يقدموا لهم شيئًا من العبادة: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣١].

وهكذا. وهكذا. يستمر القرآن في توكيد هذه العقيدة وتثبيتها وتوضيحها، ليصل إلى تحرير الوجدان البشري من كل شبهة شرك في ألوهية أو ربوبية، قد تضغط هذا الوجدان وتخضعه لمخلوق من عباد الله، إن يكن نبيًّا أو رسولًا، فإنه عبد من عباده لا إله!

فإذا انتفى أن يكون عبد بذاته أميز عند الله من عبد بذاته، انتفت الوسائط بين الله وعباده جميعًا؛ فلا كهانة ولا وساطة، بل يتصل كل فرد صلة مباشرة بخالقه؛ يتصل شخصه الضعيف الفاني بقوة الأزل والأبد، يستمد منها القوة والعزة والشجاعة، ويشعر برحمة الله وعنايته ولُطفه[1]، فيشتد إيمانه وتقوى معنويته.

والإسلام حريص كل الحرص على تقوية هذه الصلة، وإشعار الفرد أنه يملك الاستعانة بتلك القوة الكبرى آناء الليل وأطراف النهار: ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ

(١) هي في الأصل: وعطفه.

بِعِبَادِهِۦ ﴾ [الشورى:١٩]. ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة:١٨٦].. ﴿ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف:٨٧].. ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر:٥٣].

وقد شرع الإسلام خمس صلوات، يقف فيها العبد كل يوم أمام ربه، ويتصل فيها المخلوق بخالقه، في أوقات منظمة، غير ما يعن له هو أن يقف أمام إلهه، أو يتصل به في توجهه ودعائه.

وليس الغرض من الصلاة أو الدعاء ألفاظًا وحركاتٍ، بل القصد هو التوجه الكامل بالقلب والفكر والجسد في وقت واحد إلى الله»[١].

---

(١) انظر: «العدالة الاجتماعية» ص (٤٢-٤٥)، ومن الجدير بالذكر أن هذا الكتاب «العدالة الاجتماعية في الإسلام» هو أول مؤلفات سيد قطب في الفكر الإسلامي، ألفه قبل سفره إلى أمريكا عام ١٩٤٨م.

وهو أول من أطلق مصطلح «العدالة الاجتماعية» واستعمله بعده الباحثون والكاتبون بدل مصطلح «الاشتراكية».

وقد اتهم العلامة محمود شاكر ـ رحمه الله ـ سيدًا بإساءته القول في حق الصحابة، وتهجمه على معاوية، ومن معه من الصحابة، وانتقاده للخليفة الراشد عثمان بن عفان ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ.

«وقد طبع الكتاب عدة طبعات في حياة سيد، كانت آخرها الطبعةُ السادسة التي أصدرتها «دار إحياء الكتب العربية» عام ١٩٦٤م، وهي طبعة مُنَقَّحة، حيث حذف منها العبارات التي أخذها عليه الشيخ محمود شاكر وغيره، والمتعلقة بعثمان ومعاوية ـ رضي الله عنهما ـ» اهـ. من «سيد قطب» للدكتور صلاح الخالدي ص(٥٤٠) بتصرف.

وأما تجلي (الحرية) الحقيقية عبر أفعال الصلاة وأقوالها، فقد تولى بيان ذلك بيانًا شافيًا الشيخ العلامة أبو الحسن الندوي ـ رحمه الله تعالى ـ حين قال ما ملخصه[1]:

«.. شرع افتتاح الصلاة بالتكبير، وبالكلمة المأثورة المتواترة المشروعة، لافتتاحها، وهي قول: «الله أكبر»، الكلمة البليغة الواضحة، المفهومة في كل زمان ومكان، ولكل مجتمع وبيئة وفرد، القوية المدوِّية المجلجلة، التي يخشع أمامها الجبابرة، ويهوي لها كل صنم، ويضطرب بها كل طاغية وطاغوت، ـ لو قالها المصلي بفهم ووعي، وإيمان وعقيدة، ولو فهمها الأدعياء والمتزعِّمون، والمتسلِّطون على حقيقتها ـ إن القدر المُشترك بين الأصنام التي تُعبد، والأشخاص التي تُؤلَّه، والأشياء التي تُقدَّس، والقوى التي يُخضع لها، والرؤساء والزعماء الذين يطاعون طاعة عمياء مطلقة، هو العظمة والكبرياء، والتفوُّق والترفُّع، والاستعلاء والاستيلاء، فجاءت هذه الكلمة الموجزة المعجزة التي أمر بها في قوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر:٣]، تنفي هذه الدعاوى والدعوات، والمزاعم والإعلانات، والأوهام والخرافات، والمظاهر والسخافات، ويثور بها المصلي ثورة حاسمة عارمة، شاملة كاملة، فهو بذلك «لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها» ولا وكرًا من أوكار الفساد، ولا خلية من خلايا الطغيان، إلا أتى عليها، إنها أبلغ كلمة تفتتح بها صلاة المسلم الموحِّد.

وإذا آمن الإنسان بهذه الكلمة، التي يفتتح بها صلاته، فيعتقد ويشهد بعظمة الله وكبريائه، ويقول بلسان صدق وجِدٍّ: «الله أكبر» وهيمنت عليه هذه العقيدة والشهادة، وتغلغلت في أحشائه، تضاءلت أمامه كل عظمة وكبرياء، يتظاهر بها الملوك والرؤساء، أو العظماء الكبراء ـ كما يسمِّيهم الناس ـ، وزالت مهابته من

(١) انظر: «الأركان الأربعة» ص (٣٤-٣٧).

القلب، حتى تراءوا له حيوانات حقيرة، أو صورًا ودمى هزيلة، واستخفُّوا بمظاهر دولتهم وسطوتهم استخفافَ العمالِيق بسخافات الأقزام، واستخفافَ الشيوخ الكبار، بمهازل الأطفال الصغار.

إن الصلاة الخاشعة المخلصة التي يحافظ عليها المسلم بروحها وحقيقتها، وآدابها وأوقاتها، لا تتفق ولا تنسجم مع عبادة غير الله ـ ومن مظاهرها: الشرك، والوثنية، والخرافة ـ وعبودية غير الله ـ ومن مظاهرها: رهبة الحكام والأمراء، وأصحاب القوة والثروة، والأمر والنهي ـ واعتقاد النفع والضرر فيهم، والتزلف إليهم بكل وسيلة، وتملقهم، ومسايرتهم في جورهم وعدوانهم ....

فجميع أركان الصلاة، وجميع ما يقوله المصلي فيها، ويقطعه على نفسه ويعلنه ينافي ذلك أشد المنافاة، ويعارضه أشد المعارضة، وهو يعارض الكلمة التي يفتتح بها صلاته، وهو قوله: «الله أكبر»، ويعارض قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فلا رب غيره ولا حمد لغيره، وهو يعارض قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فلا عبادة لغيره ولا استعانة بغيره، وهو ينافي الركوع والسجود «فلا ركوع جسديًّا ومعنويًّا، ولا سجود ظاهرًا وباطنًا» إلا لله ـ تعالى ـ، لذلك كان الذين تحققت فيهم هذه الصلاة، من أشجع النَّاس أمام الملوك والأمراء، وأجرئهم على الجهر بكلمة الحق، وأزهدهم في حُطام الدنيا، وأبعدهم عن التعاون على الإثم والعدوان»[1].

(١) ومن أمثلته الرائعة المستطرفة التي ليس عصرها بعيدًا، أن شيخًا ممن صحب السيد الإمام أحمد ابن عرفان (ت١٢٤٦هـ) إمام دعوة التوحيد والجهاد، ومؤسس الحكومة الشرعية في القرن الماضي في الهند، قصد مرة طبيبًا مسلمًا في بلده، وكان الشيخ قد علت سِنه وأنهكه المرض، وكان المحل بعيدًا، فما وصل إلى الطبيب إلا وقد بلغ الجهد، وأعياه المشي على الأقدام، وبقي ينتظر خروج الطبيب برهة طويلة، فلما خرج الطبيب بعد انتظار شاق، أقبل على عبادة مبتَدعة، فيها تعظيم لغير الله، فما كاد يقع نظر الشيخ عليه، إلا أمر تلميذه بالانصراف، وخرج من ساعته، فلما كان في الطريق، قال له، ما رأيت كاليوم! أجهدتَ نفسَك في الوصول=

قال الأستاذ إبراهيم خليل أحمد[1]:

«استوقفني كثيرًا نظام التوحيد في الإسلام، وهو من أبرز معالم الإسلام. إن التوحيد يجعلني عبدًا لله وحده، لست عبدًا لأي إنسان، التوحيد في الإسلام يحرِّر الإنسان، ويجعله غير خاضع لأي إنسان، وتلك هي الحرية الحقيقية، فلا عبودية إلا لله وحده»[2] اهـ.

= إلى الطبيب، وأطلت الانتظار، فلما خرج، بادرتَ إلى الانصراف ولم تقض حاجتك منه؟ فقال له: ويحك ألم تره يعصي الله ويشرك به؟ فقال: ما لنا ولعمله، عليه ضلالته وسخافته، ولنا صناعته وبراعته، فقال: عجبًا لأمرك! إذا سكتُّ على ذلك، واستعنت به، فكيف أقوم في الليلة أمام ربي، وبأي لسان أقول في قنوت الوتر: «**ونخلع، ونترك من يفجرك**»؟!

(١) كان قسًّا منصِّرًا يحمل أعلى الشهادات اللاهوتية، وكان دؤوبًا في التنفير عن الإسلام، ثم هداه الله إلى دين الحق، وأعلن إسلامه في (٢٥/ ١٢/ ١٩٥٩م).

(٢) «رجال ونساء أسلموا» للأستاذ عرفات كامل العشي (٤/ ٩٢).

شاهد من أهلها

قال الفيلسوف الإنكليزي المعاصر ألدُوَسْ هَكْسْلي[1]:

«إن الغـرب ليس متقدمًا، بـل هو متقهقر منحط، وتقهقره هـو نتيجة ابتعاده عـن التوحيد[2]، فإن أوربا مُنيت بوثنية جديدة، فهي تعبد الأصنام، وقد اخترعت أصنامًا جديدة كالوطنية والقومية والجماهير والعقل والعلم وما إلى ذلك، فهذه هي آلهة الغرب..

إن التقدم ليس بتقدم الآلة، التقدم بالبر والإحسان، أو بالتقوى والأخلاق، وأوربا ليس عندها أخلاق، لأنها تضطهد وتعذب البشر تعذيبًا وحشيًّا، بل إن الغربيين لا تتحرك ضمائرهم عندما يجدون إنسانًا يعذَّب ويمثَّل بإنسان آخر: بل ينظرون ويشاهدون ذلك في فيلم في السينما، فيهشون، وكأن ذلك مَسْلاة لهم كصراع الثيران..».

ثم يقول في فصل آخر: «ليس الإله هو إله النصارى المجسمة، بل هو الإله المنزه عن التجسم، الواحد الأحد» ويشرح هذا شرحًا مطولًا، ثم يقول:

«ليس هناك إلحاد، وإنما هنالك إيمان بآلهة مزيفة، الإلحاد ليس أمرًا معقولًا أبدًا؛ وإنما هو نتيجة لأسباب عارضة»[3] ثم يذكر سببين كبيرين للإلحاد:

---

(١) وهـذا الكاتب ليس بمسلم، وهذه الفقرات مختصرة من كتابه: «الغايات والوسائل» نقلًا من «النظرة الإسلامية إلى الكون والإنسان والحياة» للأستاذ محمد المبارك ـ رحمه الله ـ.

(٢) وهذه الكلمة (التوحيد) مترجمة ترجمة حرفية.

(٣) كأنه لم يبق بين الكاتب وبين سعادة الأبد سوى خطوة واحدة يخطوها إلى الأمام نحو الملة الحنيفية، بأن ينطق شهادة الحق معتقدًا معناها. وتأمل ـ رحمك الله ـ شدة اقترابه من بعض حقائق عقيدة التوحيد الأساسية، كرفضه عقيدة النصارى المجسمة، وإثباته أن التوحيد هو الأصل، وأن الشرك طارئ على الفطرة البشرية السوية، ثم تأمل ربطه بين التوحيد وبين ثمرته الأخلاقية في قوله: «إن أوربا متأخرة أخلاقيًّا لابتعادها عن التوحيد» اهـ.
فالحمد لله الذي أكمل لنا ديننا، وأتم علينا نعمته، ورضي لنا الإسلام دينًا.

«أولهما: الشهوات. أي الانطلاق مع الغريزة الجنسية، إذ يدفع أهلها إلى أن يشعروا وهم يمارسون فجورهم وفسقهم براحة وبألا رقابة عليهم، حينما يكونون مؤمنين بالله يشعرون بنوع من الألم والتمزق[1]، حينئذ لا يجدون سبيلاً إلى راحة ضميرهم وهم يرتكبون هذه الآثام إلا بطريقة واحدة، وهي أن يطردوا هذا الإيمان، فيكفرون بالله، ويلحدون ليستبيحوا هذه الأنواع[2] من الفجور»[3].

«السبب الآخر العارض: الدكتاتورية والاستبداد، لأن هذا الرئيس المستبد يجد أن الله يشاركه في زعامته، فهو لا يريد زعيمًا آخر منافسًا له، فالناس حينما يؤمنون بعظمة الله وجبروته يتحررون من جبروت البشر وعبادة البشر، ويصبح الرئيس والملك والجميع عبيدًا من عباد الله، وبما أن المستبدين يكرهون هذا لأنهم يريدون الانفراد بالزعامة والتأله، ولذلك فإنهم يسلكون مسلك الإلحاد»[4] اهـ.

---

(١) أليس هذا مصداق قول الصادق المصدوق ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن**» رواه الشيخان.
وقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**إذا زنى العبد خرج منه الإيمان، فكان على رأسه كالظلة، فإذا أقلع رجع إليه**» رواه أبو داود وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

(٢) فمن ثم قال دستويفسكي: «إن الله إذا لم يكن موجودًا فكل شيء مباح» تعالى الله عما يقول الملحدون علوًّا كبيرًا ـ وانظر: «دراسات في الفلسفة الحديثة» لعبد الرحمن بدوي ص (٢٣٢).

(٣) أليس هذا هو نفس المعنى الذي تضمنه قول الله. جل وعلا ـ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ١-٦].
قال الفراء: «ليس من نفسٍ محسنة أو مسيئة إلا وهي تلوم نفسها؛ فالمحسن يلوم نفسه أن لو كان ازداد إحسانًا، والمسيء يلوم نفسه ألا يكون ارعوى عن إساءته»، وقال ابن عباس في تفسير ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾: «يعني الكافر يُكَذِّبُ بما أمامه من البعث والحساب»، وقال الضحاك: «هو الأمل، سوف أعيش، وأصيب من الدنيا، ولا يذكر الموت».

(٤) أليس هذا هو نفس ما تضمنته سورة القصص وغيرها من السور التي تشير إلى تأله فرعون القائل: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، والقائل: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، والقائل: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، ومِنْ ثَم سمى بعضُهم ـ اجتهادًا منه ـ سورةَ القصص سورة التحرير، تحرير الإنسان من العبودية لغير الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

وأخيرًا:

فإن مظاهر تحرير «لا إله إلا الله» للكائن الإنساني عديدة، فإلى جانب ما تقدم:

ـ هناك تحرير الإنسان من عبودية الشهوات واللذائذ والرغبات في منهج متوازن يلبي أشواق الفطرة، ويحفظ حرماتِ الناس، ويصون حرماتِ الله، ويعطي كلَّ ذي حق حقَّه.

ـ وهناك تحريره من عبودية القيم الاجتماعية الظالمة قيم المال والجاه والحسب والنسب في ضوء القاعدة الإلهية العادلة ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]

ـ وهناك تحريره من عبودية الخوف على الحياة، والقلق على الرزق، بضمانِ جريانِ القَدَرِ السابقِ بكتابةِ الرزق والأجل.

ـ وهناك التحرر من مِنة الخلق بسؤال الله وحده، وإيقاع الحاجات به دون سواه، لأن الله هو الصَّمَد.

– وهناك تحرير الرقاب، ومنهج الإسلام الرائع في التعامل مع قضية الرق.

لا إله إلا الله

(٢٥) منهج حياة

دللنا فيما تقدم[1] على أن «لا إله إلا الله» حياة، وهنا نسرد مقالة صاحب (المعالم) ـ رحمه الله ـ التي توضح أيضًا أن «لا إله إلا الله» منهج حياة، قال ـ رحمه الله ـ:

«العبودية لله وحده هي شطر الركن الأول في العقيدة الإسلامية المتمثل في شهادة: أن لا إله إلا الله. والتلقي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في كيفية هذه العبودية ـ هو شطرها الثاني، المتمثلُ في شهادة: أن محمدًا رسول الله.

والقلب المؤمن المسلم هو الذي تتمثل فيه هذه القاعدة بشطريها، لأن كل ما بعدهما من مقومات الإيمان، وأركانِ الإسلام، إنما هو مقتضًى لها. فالإيمان بملائكة الله وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وكذلك الصلاة والزكاة والصيام والحج، ثم الحدود والتعازير والحِل والحرمة والمعاملات والتشريعات والتوجيهات الإسلامية.. إنما تقوم كلها على قاعدة العبودية لله وحده. كما أن المرجع فيها كلِّها هو ما بلَّغه لنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن ربه.

والمجتمع المسلم هو الذي تتمثل فيه تلك القاعدةُ ومقتضياتُها...

ومن ثم تصبح شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، قاعدة لمنهج كامل تقوم عليه حياة الأمة المسلمة بحذافيرها، فلا تقوم هذه الحياة قبل أن تقوم

---

(١) راجع ص (١٤) وما بعدها.

هذه القاعدة، كما أنها لا تكون حياة إسلامية إذا قامت على غير هذه القاعدة، أو قامت على قاعدة أخرى معها، أو عدة قواعد أجنبية عنها:

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٤٠].

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

طبيعة المجتمع المسلم

إن السمة الأولى المميزة لطبيعة (المجتمع المسلم) هي أن هذا المجتمع يقوم على قاعدة العبودية لله وحده في أمره كله.. هذه العبودية التي تمثلها وتكيفها شهادةُ أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

وتتجلى هذه العبودية في مظاهر شتى، منها عقيدة التوحيد الخالص المستلزمة لتوحيد العبادة، ومنها الشعائر الإسلامية التي تصبغ المجتمع بصبغة الله ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [البقرة:١٣٨]، ومنها الجوانب التشريعية والقضائية التي لا تُستمد إلا من شرع الله ـ تعالى ـ.

ـ فليس عبدًا لله وحده من لا يعتقد بوحدانية الله ـ سبحانه ـ:

﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَـٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّـٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ [النحل:٥١، ٥٢].

ـ وليس عبدًا لله وحده من يتقدم بالشعائر التعبدية لأحد غيرِ الله – معه أو من دونه:

﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [الأنعام:١٦٢، ١٦٣].

وليس عبدًا لله وحده من يتلقى الشرائع القانونية من أحدٍ سوى الله، عن الطريق الذي بَلَّغَنَا الله به، وهو رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ:

﴿ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى:٢١].

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ [الحشر:٧].

هـذا هو المجتمـع المسـلم. المجتمع الذي تتمثـل العبوديـة لله وحده في معتقـدات أفراده وتصوراتهم، كما تتمثل في شـعائرهم وعبادتهم، كما تتمثل في نظامهم الجماعي وتشريعاتهم...

أما تمثل العبودية لله ـ تعالى ـ وحده في المفهوم الاعتقادي، فيحسن بنا أن نقول: ما هو المفهوم والتصور الاعتقادي الإسلامي؟

إنـه التصور الذي ينشـأ في الإدراك البشـري مـن تلقيه لحقائـق العقيدة من مصدرهـا الربانـي. والـذي يتكيف به الإنسـان فـي إدراكه لحقيقة ربـه. ولحقيقة الكون الذي يعيش فيه ـ غيبِه وشـهودِه ـ ولحقيقة الحياة التي ينتسـب إليها ـ غيبِها وشـهودِها ـ ولحقيقـة نفسـه.. أي لحقيقة الإنسـان ذاته.. ثم يكيف على أساسـه تعاملَه مع هذه الحقائق جميعًا. تعاملَه مع ربه تعاملًا تتمثل فيه عبوديته لله وحده، وتعاملَـه مع الكون ونواميسـه، ومع الأحياء وعوالمها، ومع أفراد النوع البشـري وتشـكيلاته تعاملًا يسـتمد أصوله من دين الله ـ كما بَلَّغَهَا رسـول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تحقيقًا لعبوديته لله وحده في هذا التعامل.. وهو بهذه الصورة يشمل نشاط الحياة كله.

إن هذا المجتمع لا يقوم حتى يعلنَ أهلُه أن عبوديتهم الكاملة هي لله وحده، وأنهم لا يَدينون بالعبودية لغير الله ـ تعالى ـ، ثم ينظموا حياتهم على أساس هذه العبودية الخالصة، وهكذا ينشـأ المجتمع المسـلم من انتقال أفـراده من العبودية لغير الله ـ تعالى ـ إلى العبودية لله وحده، لا شريك له، ثم إقامة نظام حياتهم على أسـاس هذه العبودية، بحيث تتمثل فيه ـ عمليًّا ـ قاعدةُ الإسلام الأولى بشطريها: شهادةِ أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

إن (الأمة) التي تقوم على هذا الأساس المتين تصبح مؤهلة لقيادة البشرية، وإخراجها من الظلمات إلى النور، ولقد وصف رسالتها إلى البشرية أدق الوصف رِبعيُّ بنُ عامرٍ حين سأله رُسْتُم ـ قائد الفرس ـ: «ما جاء بكم؟»، فأجابه: «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سَعتها، ومن جَوْرِ الأديان، إلى عدل الإسلام»[(١)].

أما الأمم المستهدفة بهذه الدعوة؛ فهي كل أمة لا تحقق معنى العبودية لله وحده، لا شريك له، فيدخل فيها:

المجتمعات الشيوعية:

أولًا ـ بإلحادها في الله ـ سبحانه ـ وبإنكار وجوده أصلًا، ورَجْعِ الفاعلية في هذا الوجود إلى (المادة) أو (الطبيعة)، ورجع الفاعلية في حياة الإنسان وتاريخه إلى (الاقتصاد) أو (أدوات الإنتاج).

ثانيًا ـ بإقامة نظام العبودية فيه للحزب ـ على فرض أن القيادة الجماعية في هذا النظام حقيقة واقعة! ـ لا لله ـ سبحانه ـ! ثم ما يترتب على ذلك التصور وهذا النظام من إهدار لخصائص (الإنسان) وذلك باعتبار أن (المطالب الأساسية) له هي فقط مطالب الحيوان، وهي: الطعام والشراب والملبس والمسكن والجنس! وحرمانه من حاجات رُوحه (الإنساني) المتميز عن الحيوان، وفي أولها: العقيدة في الله، وحرية اختيارها، وحرية التعبير عنها، وكذلك حرية التعبير عن (فرديته) وهي من أخص خصائص (إنسانيته). هذه الفردية التي تتجلى في الملكية الفردية. وفي اختيار نوع العمل والتخصص، وفي التعبير الفني عن (الذات) إلى آخر ما

---

(١) «البداية والنهاية» (٧/ ٣٩).

يميز (الإنسان) عن (الحيوان) أو عن (الآلة) إذ إن التصور الشيوعي والنظام الشيوعي سواء، كثيرًا ما يهبط بالإنسان عن مرتبة الحيوان إلى مرتبة الآلة[١]!

• ويدخل فيها المجتمعاتُ الوثنية ـ وهي ما تزال قائمة في الهند واليابان والفلبين وأفريقية ـ تدخل فيه:

أولًا ـ بتصورها الاعتقادي القائم على تأليه غير الله ـ معه أو من دونه ـ ويدخل فيها..

ثانيًا ـ بتقديم الشعائر التعبدية لشتى الآلهة والمعبودات التي تعتقد بألوهيتها.. كذلك تدخل فيها بإقامة أنظمة وشرائع، المرجعُ فيها لغير الله وشريعته. سواء استمدت هذه الأنظمة والشرائع من المعابد والكهنة والسدنة والسحرة، أو استمدتها من هيئات مدنية (عَلمانية) تملك سلطة التشريع دون الرجوع إلى شريعة الله.. أي أن لها الحاكميةَ العليا باسم (الشعب) أو باسم (الحزب) أو باسم كائن من كان.. ذلك أن الحاكمية العليا لا تكون إلا لله ـ سبحانه ـ، ولا تزاول إلا بالطريقة التي بَلَّغها عنه رسله.

• وتدخل فيها المجتمعاتُ اليهودية والنصرانية في أرجاء الأرض جميعًا.. تدخل فيه هذه المجتمعات..

أولًا ـ بتصورها الاعتقادي المحرَّف، الذي لا يفرد الله ـ سبحانه ـ بالألوهية بل يجعل له شركاء في صورة من صور الشرك، سواء بالبنوة أو بالتثليث، أو اعتقاد ما لا يليق أن يوصف به ـ سبحانه وتعالى ـ، أو تصور علاقة خلقه به على غير حقيقتها:

---

(١) شاهد سلسة: «التاريخ الدموي للشيوعية» على موقع: (www.harunyahia.tv) أو: (www.youtube.com).

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة:٣٠].

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة:٧٣].

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [المائدة:٦٤].

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ [المائدة:١٨].

- وتدخل فيه كذلك بشعائرها التعبدية ومراسمها وطقوسها المنبثقة من التصورات الاعتقادية المنحرفة الضالة.. ثم تدخل فيه بأنظمتها وشرائعها، وهي كلها لا تقوم على العبودية لله وحده، بالإقرار له وحده بحق الحاكمية، واستمداد السلطان من شرعه، بل تقيم هيئاتٍ من البشر، لها حق الحاكمية العليا التي لا تكون إلا لله ـ سبحانه ـ.. وقديمًا وصمهم الله بالشرك لأنهم جعلوا هذا الحقَّ للأحبار والرهبان، يشرعون لهم من عند أنفسهم فيقبلون منهم ما يشرعونه:

﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣١].

وهم لم يكونوا يعتقدون في ألوهية الأحبار والرهبان. ولم يكونوا يتقدمون لهم بالشعائر التعبدية، إنما كانوا فقط يعترفون لهم بحق التشريع، فيقبلون منهم ما يشرعونه لهم، بما لم يأذن به الله.

وقد قال - عزَّ وجلَّ -: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ...﴾ إلى أن قال - تعالى -: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٠-٦٥].

وهذه المجتمعات بعضها يعلن صراحة (عَلَمانيته) وعدمَ علاقته بالدين أصلًا، وبعضها يعلن أنه (يحترم الدين)، ولكنه يُخرِج الدينَ من نظامه الاجتماعي أصلًا، ويقول: إنه ينكر (الغيبية) ويقيم نظامه على (العِلمية) باعتبار أن العلمية تناقض الغيبية! وهو زعم جاهل لا يقول به إلا الجهال[1]، وبعضها يجعل الحاكمية الفعلية لغير الله، ويُشرع ما يشاء، ثم يقول عما يشرعه من عند نفسه: هذه شريعة الله!.. وكلها سواء في أنها لا تقوم على العبودية لله وحده..

(١) انظر: «في ظلال القرآن» (٢/ ١١١٣-١١٢١).

موقف الإسلام من الواقع

ما الأصل الذي ترجع إليه الحياة البشرية وتقوم عليه؟ أهو دين الله ومنهجه للحياة؟ أم هو الواقع البشري أيًّا كان؟

إن الإسلام يجيب على هذا السؤال إجابة حاسمة لا يتلعثم فيها ولا يتردد لحظة.. إن الأصل الذي يجب أن ترجع إليه الحياة البشرية بجملتها هو دين الله ومنهجه للحياة.. إن شهادة أن «لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله» التي هي ركن الإسلام الأول، لا تقوم، ولا تُؤدَّى إلا أن يكون هذا هو الأصل.. وأن العبودية لله وحده مع التلقي في كيفية هذه العبودية عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا تتحقق إلا أن يُعترف بهذا الأصل، ثم يُتبع اتباعًا كاملًا بلا تلعثم ولا تردد:

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر:٧].

ثم إن الإسلام يسأل:

﴿ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة:١٤٠].

ويجيب:

﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢١٦].

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٨٥].

والذي يعلم ـ والذي يخلق، ويرزق كذلك ـ هو الذي يحكم.. ودينه الذي هو منهجه للحياة، هو الأصل الذي ترجع إليه الحياة.. أما واقع البشر ونظرياتهم ومذاهبهم فهي تفسد وتنحرف، وتقوم على علم البشر الذين لا يعلمون، والذين لم يُؤتَوْا من العلم إلا قليلًا!

وديـن الله ليـس غامضًـا، ومنهجـه للحيـاة ليس مائعًـا.. فهو محدد بشـطر الشـهادة الثانـي: محمـد رسـول الله. فهو محصور فيمـا بَلَّغه رسـولُ الله ـ صلى الله عليـه وسـلم ـ، من النصوص فـي الأُصول.. فإن كان هنـاك نص؛ فالنص هو الحَـكَم، ولا اجتهاد مع النص. وإن لم يكن هنـاك نص فهنا يجيء دور الاجتهاد ـ وَفق أصوله المقررة في منهج الله ذاته. لا وفق الأهواء والرغبات ـ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩].

والأصـول المقـررة للاجتهاد والاسـتنباط مقررة كذلك ومعروفة وليسـت غامضة ولا مائعة.. فليس لأحد أن يقول لشرع يشرعه: هذا شرع الله، إلا أن تكون الحاكمية العليا لله معلنة، وأن يكون مصدرَ السلطات هو الله ـ سبحانه ـ لا (الشعب) ولا (الحزب) ولا أيٌّ من البشر، وأن يُرجَعَ إلى كتاب الله وسنة رسوله لمعرفة ما يريده الله، ولا يكون هذا لكل من يريد أن يدَّعيَ سـلطانًا باسم الله. كالذي عرفته أوروبا ذات يوم باسم (الثيوقراطية) أو (الحكم المقدس) فليس شيء من هذا في الإسـلام. وما يملك أحد أن ينطق باسـم الله إلا رسـولُه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإنما هنالك نصوص معينة هي التي تحدد ما شرع الله..

إن كلمة (الدين للواقع) يُساء فهمُها، ويساء استخدامها كذلك.

نعم إن هذا الدين للواقع. ولكن أي واقع!

.. إنه الواقع الذي ينشـئه هذا الدين نفسُـه، وفق منهجه، منطبقًا على الفطرة البشـرية فـي سـوائها، ومحققًا للحاجـات الإنسـانية الحقيقية في شـمولها. هذه الحاجـات التـي يقررها الذي خلق، والذي يعلم مَـن خلق: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].

والديـن لا يواجـه الواقع أيـًّا كان ليقرَّه ويبحث له عن سـند منه، وعن حكم شرعي يعلقه عليه كاللافتة المستعارة! إنما يواجه الواقع ليزنه بميزانه، فيقر منه ما يُقر، ويُلغي منه ما يلغي، وينشئ واقعًا غيره إن كان لا يرتضيه، وواقعه الذي ينشئه هو الواقع. وهذا هو المعنى بأن الإسلام: (دين للواقع).. أو ما يجب أن تعنيه في مفهومها الصحيح!

ولعله يُثار هنا سؤال:

أليست مصلحة البشر هي التي يجب أن تصوغ واقعهم؟!

ومرة أُخرى نرجع إلى السـؤال الذي يطرحه الإسـلام، ويجيب عليه: ﴿ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة:١٤٠]، ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢١٦].

إن مصلحة البشر متضمَّنة في شرع الله، كما أَنزله الله، وكما بَلَّغه عنه رسول الله.. فـإذا بدا للبشـر ذات يوم أن مصلحتهم في مخالفة ما شـرع الله لهم، فهم.. (واهمون) فيما بدا لهم.

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ [النجم:٢٣-٢٥]»اهـ[١].

إن المسـلم لم يُخلق ليندفع مع التيار، ويسـاير الركب البشـري حيث اتجه وسار، بل خُلق ليوجِّه العالم والمجتمع والمدنية، خُلِق ليفرض على هذه البشرية التائهة اتجاهه، ويُملي عليها إرادته، لأنه صاحب رسالة «لا إله إلا الله»، وصاحب العلـم اليقيـن بحقائق الوجـود الكبرى، فهو المؤهـل ـ بكل جـدارة ـ لأن يكون مسـئولًا عن هذا العالم وسـيره واتجاهه، ولذلك فإن اللائق به لا يمكن أن يكون مقام التقليد والتبعية، إن منصبه اللائقَ به منصبُ الإمامة والقيادة، ومقام الإرشاد

---

(١) بتصرف من «معالم في الطريق» ص(٩٢-١٠٧).

والتوجيه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣].

فإذا تنكرتْ له الدنيا، وعصاه الناس عن الجادة، لم يكن له أن يستسلم ويخضع ويضع أوزاره ويهادن الفتن، بل عليه أن يثور عليها، وينازلها، ويظل في صراع معها وعراكٍ حتى يقضيَ الله في أمره.

إن الخضوع للأحوال الخاسرة، والاستكانة للأوضاع القاهرة، والاعتذار بالقضاء والقدر ـ في غير محله ـ من شأن الضعفاء والأقزام، أما المؤمن القوي ـ المؤيَّد بروح من الله ـ فهو بنفسه قضاءُ الله الغالب، وقدره الذي لا يُرد، فبإيمانه بأن «لا إلٰه إلا الله» يلين له الحديد، ويقرب منه البعيد، لأنها مصدر طاقته، ومنبع حركته:

عمهع عهغوفيف عيفعغي وقهغي ... نمهع ني عهمنق لقه وهقاظ
ضس وضعس نذنجغي ننذمقغ ... همع ني عهمنق نله عهنمقغظ

إن ما يسمى (الأمر الواقع) سوف يظل في ميزان إسلامنا الحنيف باطلًا منقوضًا مهما طال العهد عليه، لأن تلك سنة الله التي لا تتبدل ولا تتحول، والمعاند لها هالك لا محالة، فالحق واحد لا يتغير، ومهما يتقادم العهد على الباطل فسيظل باطلًا، وسيظل الحق هو هو ـ وإن حادَ عنه كل الناس ـ مهما يجر العمل على غير الحق، لأن الباطل زهوق لا تدوم له دولة، والحق هو ناموس الله الذي لا يتبدل:

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء:٨١].

لا إله إلا الله

(٢٦) الرابطة الحقيقية بين أهل الإسلام

إن «لا إله إلا الله»، هي الرابطة الحقيقية التي اجتمع عليها أهلُ الإسلام، فبها يُحبون ويوالون، وعليها يُبغِضون ويعادون، وبسببها أصبح المجتمع المسلم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، وأصبح كالبنيان المرصوص يشد بعضُه بعضًا.

وبشهادة أن «لا إله إلا الله»، تنعقد آصرة الأخوة الإيمانية ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠]، وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**المسلم أخو المسلم**»[١].

وبها ينال المؤمن استغفارَ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد:١٩]، واستغفارَ الملائكة: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر:٧]، وشفاعة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**»[٢]، وبها يَشْرُفُ بمشاركة الله ـ تعالى ـ في اسمه «المؤمن».

وبها ينال المسلمُ أبوةَ إبراهيمَ ـ عليه السلام ـ: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج:٧٨]، وبها تصبح زوجاتُ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمهاتٍ له، قال ـ تعالى ـ: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب:٦].

---

(١) رواه مسلم في «صحيحه» رقم [٢٥٨٠].

(٢) رواه الترمذي رقم [٢٥٦٦]، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢/ ٢٩٤).

وفي قراءة أُبيٍّ: «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم»[1].

ولهذا تفرع على هذه الأبوة أن جُعلت أزواجُه أمهاتهم، فإن أرواحهم وقلوبهم وُلدت به ولادة أخرى غير ولادة الأمهات، فإنه أخرج أرواحهم وقلوبهم من ظلمات الجهل والضلال والغيِّ إلى نور العلم والإيمان وفضاء المعرفة والتوحيد، فشاهدتْ حقائق أُخر وأمورًا لم يكن لها بها شعور قبله[2].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لهم يومًا: «**إنما أنا لكم مثل الوالد لولده أُعَلِّمكم**»[3] الحديث.

وبها ينتسب المؤمن إلى خير أمة أُخرِجت للناس، فـ «عقيدة المؤمن هي وطنه، وهي قومه، وهي أهله.. ومِن ثَمَّ يتجمع البشر عليها وحدها، لا على أمثال ما تتجمع عليه البهائم من كلأ ومرعى وقطيع وسياج.

والمؤمن ذو نسب عريق، ضارب في شِعاب الزمان، إنه واحد من ذلك الموكب الكريم، الذي يقود خطاه ذلك الرهط الكريم: نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق، ويعقوب ويوسف، وموسى وعيسى ومحمد.. ـ عليهم الصلاة والسلام ـ.. ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون:٥٢]»[4].

(١) أورد هذه القراءة الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٧٧)، والقرطبي في «تفسيره» (١٤/ ١٢٣)، وابن كثير (٦/ ٣٨٢)، وانظر ص (٣٠٠، ٣٠١).
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «والقراءة المشهورة تدل على ذلك: فإن نساءه ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما كن أمهاتِ المؤمنين تبعًا له، فلولا أنه كالأب لم يكن نساؤه كالأمهات» اهـ. من «منهاج السُّنة النبوية» (٥/ ٢٣٨).

(٢) انظر: «طريق الهجرتين» (١/ ٢٩).

(٣) رواه أبو داود رقم [٨]، وابن ماجة (١/ ١٣١)، والدارمي (١/ ١٧٢)، وحسَّنه الألباني في «المشكاة» (١/ ١١٢).

(٤) «في ظلال القرآن» (١/ ١٢).

لقد ربط الإسلام المسلم بأخيه حتى صارا كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو؛ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، (فربْطُ الإسلام لك بأخيك كربط يدك بمِعصَمك، ورجلك بساقك، كما جاء في الحديث عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**إن مَثَلَ المؤمنين في تراحمهم وتعاطفهم وتوادهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»(١)، ولذلك يكثر في القرآن العظيم إطلاقُ النفس، وإرادةُ الأخ تنبيهًا على أن رابطة الإسلام تجعل أخا المسلم كنفسه، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ﴾ [البقرة:٨٤]، أي: لا تخرجون إخوانكم، وكقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور:١٢]، أي: بإخوانهم على أصح التفسيرين، وقوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات:١١]، الآية. أي: إخوانكم على أصح التفسيرين، وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم﴾ [البقرة:١٨٨]، أي: لا يأكلْ أحدُكم مالَ أخيه، إلى غير ذلك من الآيات، ولذلك ثبت في الصحيح عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى يُحِبَّ لأخيه ما يحب لنفسه**»(٢).

ومن الآيات الدالة على أن الرابطة الحقيقية هي الدين، وأن تلك الرابطة تتلاشى معها جميعُ الروابط النسَبية والعصبية، قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة:٢٢]؛ إذ لا رابطة نسبية أقرب من

---

(١) رواه البخاري (١٠/ ٤٣٨) رقم [٦٠١٢]، ومسلم رقم [٢٥٨٦]، من حديث النعمان بن بشير ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) رواه من حديث أنس بن مالك – رضي الله عنه – البخاري (١/ ٥٦) رقم [١٣]، ومسلم رقم [٤٥]، والنسائي (٨/ ١١٥)، والترمذي رقم [٢٥١٧]، وابن ماجه رقم [٦٦].

رابطة الآباء والأبناء والإخوان والعشائر، وقوله: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة:٧١]، وقوله: ﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران:١٠٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

إن الرابطة الحقيقية التي تجمع المفترق، وتؤلف المختلف هي رابطة «لا إله إلا الله»، ألا ترى أن هذه الرابطة التي تجعل المجتمع الإسلامي كله كأنه جسد واحد، وتجعله كالبنيان يشد بعضه بعضًا؛ عطفت قلوب حملة العرش ومن حوله من الملائكة على بني آدم في الأرض مع ما بينهم من الاختلاف، قال -تعالى-: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [غافر:٧-٩].

فقد أشار -تعالى- إلى أن الرابطة التي ربطت بين حملة العرش ومن حوله، وبين بني آدم في الأرض حتى دَعَوُا اللهَ لهم هذا الدعاءَ الصالحَ العظيم؛ إنما هي الإيمان بالله -جل وعلا-، لأنه قال عن الملائكة: ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ [غافر:٧]، فوصفهم بالإيمان، وقال عن بني آدم في استغفار الملائكة لهم: ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [غافر:٧]، فوصفهم أيضًا بالإيمان، فدل ذلك على أن الرابطة بينهم هي الإيمان، وهو أعظم رابطة.

ومما يوضح ذلك قوله ـ تعالى ـ في أبي لهب عم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ [المسد:٣]، ويُقابَلُ ذلك بما لسلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ من الفضل والمكانة عند النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمين، ولقد أجاد من قال:

لهين غغنوو عئ نيَ نه فعهغ   و﴿غغقنعهغنووعغنع﴾لهوعههقغ

نعقق نف قنلا عطق﴾ه قههعه نعقق ي   ونف و،ت عهنق عهإين ظغغ ههغ

وقد أجمع العلماء على أن الرجل إن مات، وليس له من الأقرباء إلا ابن كافر؛ أن إرثه يكون للمسلمين بأخوة الإسلام، ولا يكون لولده لصلبه الذي هو كافر، والميراث دليل القرابة، فدل ذلك على أن الأخوة الدينية أقرب من البنوة النسبية[(١)].

واعتبر ذلك أيضًا بقول الله ـ تعالى ـ مخاطبًا نوحًا ـ عليه السلام ـ في شأن ابنه الكافر: ﴿ قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ﴾ [هود:٤٦]، لأن مدار الأهلية هو القرابة الدينية، كما قال أمير المؤمنين عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ: «ألا وإن وليَّ محمدٍ من أطاع الله، وإن بَعُدَتْ لُحْمَتُهُ، ألا وإن عدو محمد من عصى الله، وإن قربت لحمته»[(٢)].

كان الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ يقرأ أجزاء على شيخه إبراهيم بن داود الآمدي برهان الدين، فقال في قراءته عليه تأدبًا: «أخبركم ـ رضي الله عنكم وعن والديكم ـ»، فنظر إليه الآمدي منكِرًا، وقال: «ما كان على الإسلام»[(٣)].

---

(١) بتصرف من «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» (٣/ ٤٠١-٤٠٨).

(٢) انظر: «محاسن التأويل» للقاسمي (٩/ ٣٤٤٨، ٣٤٤٩).

(٣) لأن أباه مات على النصرانية وهو صغير، فحمله وصيه الشيخ عبد الله الدمشقي إلى مجلس شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ، فأسلم عليه.

لقد علَّمنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه يجب موالاة كل مسلم بحسب موالاته لله ورسوله والمؤمنين، وأنه يُحب، ويوالَى بقدر نصرته للمؤمنين، ونكايته في أعداء الدين:

قال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٥، ٥٦].

وقال ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة: ٧١].

وعن أبي بَرْزَة الأسلمي ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان في مَغْزًى[١] له، فأفاء الله عليه، فقال لأصحابه: «**هل تفقدون من أحد؟**»، قالوا: نعم، فلانًا، وفلانًا، وفلانًا، ثم قال: «**هل تفقدون من أحد؟**»، قالوا: نعم، فلانًا، وفلانًا، وفلانًا، ثم قال: «**هل تفقدون من أحد؟**» قالوا: لا، قال: «**لكني أفقِد جُلَيْبِيبًا**[٢]، **فاطلبوه**»، فطُلِب في القتلى، فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم، ثم قتلوه، فأتى النبيُّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ فوقف عليه، فقال: «**قتل سبعة، ثم قتلوه، هذا مني وأنا منه، هذا مني وأنا منه**[٣]»، قال: فوضعه على ساعديه، ليس له سرير إلا ساعدا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، قال: فحُفِر له، ووُضع[٤] في قبره، ولم يذكر غُسْلاً[٥].[٦]

(١) أي: في سفر غزو له، أي: وفيمن معه جليبيب.
(٢) **جليبيب**: تصغير جلباب.
(٣) ومعناه: المبالغة في اتحاد طريقهما، واتفاقهما في طاعة الله ـ تعالى ـ، عكس قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**من رغب عن سنتي فليس مني**».
(٤) وفي رواية: ثم وضعه في قبره.
(٥) لأن الشهيد لا يُغسَّل، ولا يصلى عليه.
(٦) رواه الإمام أحمد (٤/ ٤٢١)، ومسلم رقم [٢٤٧٢].

وعن ثابت البُنانيِّ عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: «خطب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على جليبيب امرأة من الأنصار، فقال[1]: «حتى أستأمر أمها»، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «فنعم إذًا»، فانطلق الرجل إلى امرأته، فذكر ذلك لها، فقالت: «لا ها الله[2] إذًا ما وجد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا جليبيبًا[3]، وقد منعناها من فلان وفلان؟!»، قال: والجارية في سِترها تستمع، قال: فانطلق الرجل يريد أن يخبر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك، فقالت الجارية: «أتريدون أن تردوا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمره[4]؟ إن كان قد رضيه لكم؛ فأنكحوه»، فكأنها جَلَتْ[5] عن أبويها، وقالا: «صدقتِ»، فذهب أبوها إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: «إن كنت قد رضِيته؛ فقد رضِينا»، قال: «فإني قد رضيته»، فزوجها، ثم فزع[6] أهل المدينة، فركب جليبيب، فوجدوه قد قُتل، وحوله ناس من المشركين قد قتلهم، قال أنس: «فلقد رأيتها، وإنها لمن أنفق[7] بيتٍ في المدينة»».

---

(١) أي: أبوها.

(٢) أي: هذا يميني، و«لا» لنفي كلام الرجل، و«ها» بالمد والقصر بمعنى واو القسم، ولفظ الجلالة مجرور بها.

(٣) «إذًا ما وجد ..»، إلخ هو جواب القسم، قالت ذلك؛ لأن جليبيبًا كان في وجهه دمامة.

(٤) وفي رواية: «ادفعوني إليه، فإنه لم يُضَيِّعْني».

(٥) **جَلَتْ**: كشفت وأوضحت أمرًا خفي عليهما، لأن النبي – صلى الله عليه وسلم – ﴿أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب:٦]، ولقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦]، وقوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥].

(٦) أي: أخافهم العدو.

(٧) **أنفق**: من النَّفاق، بفتح النون المشددة، وهو ضد الكساد، والمعنى أنها كانت أعظم امرأة أيِّم في بيوت المدينة يتسابق إليها الخُطَّاب بعد قتل جليبيب، وذلك ببركة كونها رضيت بنكاح جليبيب الذي كان ينفر منه الناس، وببركة دعاء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لها.

وفي رواية قال ثابت: «فما كان في الأنصار أيِّم أنفقُ منها»[(١)]، وحدَّث إسحاقُ بن عبد الله بن أبي طلحة ثابتًا قال: هل تعلم ما دعا لها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «**اللهم صُبَّ عليها الخير صَبًّا، ولا تجعل عيشَها كدًّا كدًّا**»[(٢)]، قال: «فما كان في الأنصار أيِّم[(٣)] أنفقُ منها».

وعن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «**إن الأشعريين إذا أرملوا**[(٤)] **في الغزو، أو قَلَّ طعامُ عيالهم في المدينة؛ جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية، فهم مني**[(٥)]**، وأنا منهم**»[(٦)].

هكذا لقَّن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمته هذا المعيار الدقيق للولاء والانتماء، وفي الجانب المقابل لقنهم معيار البراء في مثل قوله - صلى الله عليه وسلم -: «**ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية**»[(٧)]، وقوله - صلى الله عليه وسلم -: «**ليس منا من تشبه بغيرنا، لا تشبهوا باليهود ولا بالنصارى**»[(٨)]. الحديث.

---

(١) رواه الإمام أحمد (٤/ ٤٢٢).

(٢) **الكد**: الشدة والضيق.

(٣) **الأيم**: المرأة التي ليس لها زوج بكرًا كانت أو ثيبًا.

(٤) **أرمل القوم**: إذا فني زادهم ونَفِدَ، وأصله من الرمل، كأنهم لصقوا بالرمل من القلة، كما قيل في ﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد:١٦]، اهـ. من «فتح الباري» (٥/ ١٣٠).

(٥) أي: هم متصلون بي، وتسمى «من» هذه الاتصالية، كقوله: «لست من دَدٍ»، انظر: «السلسلة الضعيفة»، رقم [٢٤٥٣]، والدَّدُ: اللهو واللعب.

(٦) رواه البخاري (٥/ ١٢٨)، رقم [٢٤٨٦]، ومسلم رقم [٢٥٠٠].

(٧) أخرجه أبو داود رقم [٥١٢١]، من حديث جبير بن مطعم - رضي الله عنه -، وإسناده ضعيف، ويشهد له ما رواه مسلم برقمي [١٨٤٨]، [١٨٥٠].

(٨) رواه من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده الترمذي رقم [٢٦٩٦]، وقال الحافظ في «الفتح»: في «سنده ضعف».

وكان أولى الناس بالتزام هذا المعيار العلماء الذين هم ورثته ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فكانوا يزنون الأشخاص، ويحددون أقدارهم تبعًا لمقدار نفعهم للإسلام وأهله، ونكايتهم لأعداء الإسلام وأهله، وكانت رقعة محبتهم للشخص تتسع بقدر محبته لله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فإن من أحب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحبَّ خُدَّامه وأصحابه، وأحب حملة العلم والقرآن.

حكى ابن كثير في (تاريخه): «أن أبا محمد البربهاري الحنبلي ـ العالم الزاهد الفقيه ـ عطس يومًا وهو يعظ، فشمَّته الحاضرون، ثم شمته مَن سمعهم، حتى شمته أهلُ بغداد، فانتهت الضجة إلى دار الخلافة»[(١)].

وقال أبو حاتم الرازيُّ: «ما رأيت أحدًا أعظم قدرًا من أبي مُسْهِر، كنتُ أراه إذا خرج إلى المسجد، اصطفَّ الناسُ يسلمون عليه، ويقبلون يده»[(٢)].

وقال المرُّوذي: «قدم رجل من طَرَسُوس، فقال: كنا في بلاد الروم في الغزو إذا هدأ الليل؛ رفعوا أصواتهم بالدعاء: «ادعوا لأبي عبد الله»[(٣)]، يعني الإمام أحمد ابن حنبل ـ رحمه الله ـ».

واعتادت أم الشيخ (محمد رشيد رضا) ـ رحمه الله ـ أن تراه مهتمًّا لأحوال المسلمين إذا ألمت بهم أو بأحد منهم نائبة، ورأته ذات يوم على هذه الحال، فقالت له: «مالك؟ هل مات مسلم بالصين»؟

(١) «البداية والنهاية» (١١/ ٢٠١).

(٢) «الجرح والتعديل» (٦/ ٢٩).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٢١٠).

علاقة الهوية الإسلامية بالوطنية

إن «لا إله إلا الله» مع أنها الركن الركين لهوية المسلم، غير أنها لا تتعارض مع الشعور الفطري بحب الوطن الذي ينتمي إليه المسلم، ولا الحرص على خير هـذا الوطن، بل المسـلمون الصادقون هـم أصدق الناس وطنيـة؛ لأنهم يريدون لوطنهم سـعادتَي الدنيا والآخرة بتطبيق الإسلام، وتَبَنِّي عقيدته، وإنقاذ مواطنيهم مـن النـار، قال ـ تعالى ـ حكاية عن المؤمـن: ﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ﴾ [غافر:٢٩]، وحمايتهـم مـن التبعية لأعدائهم الذين لا يألونهم خبالًا، وقد تجلى هذا المفهوم واضحًا في قصة مؤمن آل فرعون في سورة غافر، ويتجلى في عصرنا في مواقف وجهاد وصمود، رموز الدعوة الإسلامية في كافة البلاد الإسلامية.

ـ لكـن (الوطـن) الحقيقـي فـي مفهـوم (الهويـة الإسـلامية) المبنيـة على «لا إله إلا الله» هو (الجنة) حيث كان أبوانا آدم وحواء في الابتداء، ونحن في الدنيا منفيون عن هذا الوطن، ساعون في العودة إليه، و(المنهج الإسلامي) هو الخريطة التي ترسـم لنا طريق العودة إلى الوطن الأم، كما أعرب عن ذلك الإمام المحقق ابن القيم بقوله:

نفيّ لهو فهعغ لفه نعهوع ... ههعقهوع عاوهو ونيهع عههفيهة
وهنههع قغي عهلفو نهه غقو ... هلوف عهو ظوكعههع وهقهة

فالجنة هي دار السعادة التي ﴿ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ [الكهف:١٠٨]، لا كما قال من سفه نفسه:

وكهي هو تهغ غعههفهة لهه ... هعقلغهي عهيه ني عههفهة هنقي

لقد قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء**»[1]، فكم تساوي نسبة (الوطن) من جناح البعوضة؟!

ـ أما في الدنيا، فأحب الأوطان إلى المؤمن مكة المكرمة، والمدينة النبوية، وبيت المقدس، وقد بيَّن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن محبته مكة المكرمة مبنية على أنها: «**أحب بلاد الله إلى الله**»، فمحبتنا لهذه البقاع التي اختارها الله، وباركها، وأحبها فوق محبتنا لمسقط الرأس، ومحضن الطفولة، ومرتع الشباب.

ـ وأما ما عدا هذه البلاد المقدسة فإن الإسلام هو وطننا وأهلنا وعشيرتنا، وحيث تكون شريعة الإسلام حاكمة وكلمة الله ظاهرة فثَمَّ وطننا الحبيب الذي نفديه بالنفس والنفيس، ونذود عنه بالدم والولد والمال.

وهقغظفقيقووعطق*هيوكيع ... عهههٰ نيه ووعفيد عههيه قيعه
وفيغهع قنق عقه عئ نيد غههف ... لفغظقفعظههههغظوكعيد

أما الوطنية بمعناها المحصور في قطعة أرض رسم حدودَها أعداؤنا، أو عِرق، أو لون، أو جنس، فهذا مفهوم دخيل لم يعرفه السلف ولا الخلف، وإنما طرأ علينا ضمن ركام المفاهيم المخربة التي زرعها الغربيون وأذنابهم لمزاحمة الانتماء الإسلامي، وتوهين الهوية المسلمة، التي ذوبت قوميات الأمم التي فتحتها في قومية واحدة هي (القومية الإسلامية) ودمجتها في (أمة التوحيد)، وهاك شهادةَ (شاهدٍ من أهلها) هو المؤرخ اليهودي (برنارد لويس) الذي قال: «كل باحث في التاريخ الإسلامي يعرف قصة الإسلام الرائعة في

---

(١) رواه من حديث سهل بن سعد ـ رضي الله عنه ـ الترمذي [٢٣٢٠]، وقال: «حديث صحيح غريب من هذا الوجه»، وصححه الألباني لشواهده في «الصحيحة» رقم [٦٨٦].

محاربته لعبادة الأوثان منذ بدء دعوة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وكيف انتصر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصحبه، وأقاموا عبادة الإله الواحد التي حلت محل الديانات الوثنية لعرب الجاهلية، وفي أيامنا هذه تقوم معركة مماثلة أخرى، ولكنها ليست ضد اللات والعزى وبقية آلهة الجاهليين، بل ضد مجموعة جديدة من الأصنام اسمها: الدولة، والعنصر، والقومية.

وفي هذه المرة يظهر أن النصر حتى الآن هو حليف الأصنام، فإدخال هرطقة القومية العالمانية، أو عبادة الذات الجماعية كان أرسخ المظالم التي أوقعها الغرب على الشرق الأوسط، ولكنها مع كل ذلك كانت أقل المظالم ذكرًا وإعلانًا..»اهـ.

ويقرر نفس المؤرخ حقيقة ناصعة، فيقول: «فالليبرالية، والفاشية، والوطنية، والقومية، والشيوعية، والاشتراكية، كلها أوروبية الأصل مهما أَقْلَمَهَا وعدَّلها أتباعُها في الشرق الأوسط، والمنظمات الإسلامية هي الوحيدة التي تنبع من تراب المنطقة، وتعبر عن مشاعر الكتل الجماهيرية المسحوقة، وبالرغم من أن كل الحركات الإسلامية قد هُزمت حتى الآن غير أنها لم تقل بعدُ كلمتَها الأخيرة»اهـ.

وقال أحد المستشرقين: «إننا في كل بلد إسلامي دخلناه نبشنا الأرض لاستخراج حضارات ما قبل الإسلام، ولسنا نطمع بطبيعة الحال أن يرتد المسلم إلى عقائد ما قبل الإسلام ولكن يكفينا تذبذبُ ولائه بين الإسلام وبين تلك الحضارات»[1]اهـ.

(١) انظر: «كيف نكتب التاريخ الإسلامي؟» للأستاذ محمد قطب ص (٢٨).

وحين يتعلق الأمر بالمسلمين، فإن الغرب يكيل لنا بمكيال واحد لا بمكيالين، والمكيال الواحد هو مكيال التعصب الأعمى، والحقد الأسود، والظلم الصارخ للمسلمين، فبينما يقوم بإلغاء الحدود بين بلاده، ويوحد عملته، ويوطد وحدته، إذا به يمزقنا إرْبًا إرْبًا.

- والعقيدة الإسلامية هي المنظار الذي يرى المؤمن من خلاله القيم والأفكار والمبادئ، ويحكم على الأشخاص، وينزلهم منازلهم، وهي (المرشِّح المهيمن) الذي يقوم بترشيح (التراث التاريخي) ليحدد ما يُقبل منه وما يُرفض:

- ففرعون وملؤه كانوا مصريين لكنهم كانوا كفارًا وثنيين، وكان موسى - عليه السلام - وأتباعه على الإسلام مؤمنين، فواجب المؤمن أن يعاديَ أعداء الله، ويبرأ منهم، ولو كانوا من جلدته، ويتكلمون بلسانه، ويواليَ حزبَ الله وأولياءه، مَن كانوا، وأين كانوا، ومتى كانوا، قال - تعالى -: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية [المجادلة:٢٢]، وقال - سبحانه -: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ الآية [آل عمران:٢٨]، وقال - سبحانه -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ الآية [المائدة:٥١].

وقال - تعالى - في الملأ المؤمنين من بني إسرائيل: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ الآية [البقرة:٢٥٠، ٢٥١]، فنحن - المسلمين - نعد هذا نصرًا لعقيدتنا الإسلامية على هؤلاء الكافرين وإن كانوا (فلسطينيين).

ـ وأوضح من هـذا وأصـرح أن نقـول: لو قُـدِّر أن الله بعث داود وسليمـان ـ عليهمـا السـلام ـ إلى الحياة مـن جديد فإنهما حتمًا سـيكونان متبعين لشـريعة محمـد رسـول الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ، مصداقَ قـول الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران:٨١].

ومصداقـه فـي قول رسـول الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ: «**إنه والله لو كان موسى حيًّا بين أظهركم ما حَلَّ له إلا أن يتبعني**»[(١)]. فنحن أولى بموسى من اليهود، ونحـن علـى دين موسـى دونهـم، ولو بُعـث موسـى وداود وسـليمان لَواجهوا اليهودَ، والنصارى، والعالمانيين، وسـائر الملحدين، ولعبدوا الله في المسـجد الأقصى على شـريعة الإسـلام كما كانوا يعبدونه وحده فيه قبل نسخ شريعتهم، ولرفعوا راية الجهاد في سـبيل تطهير فِلَسـطين من قتلة الأنبياء، الملعونين على لسـان الأنبياء.

وحين تقرأ القرآن الكريم وهو يسرد عليك قصة موسى ـ عليه السلام ـ وفرعون؛ إلـى أين تتجـه عاطفتك: إلى بني جلدتـك المصريين أم إلى موسـى وحزب الله المؤمنيـن؟ إلـى بنـي جنسـك المصريين أم إلى سـحرة فرعـون عندمـا واجهوه وتحـدَّوْه؟ فتحبهم لإيمانهم، وإذا قرأتَ قولـه ـ تعالى ـ: ﴿ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ [القصص:١٥]، فإنك تنحاز ـ بلا تردد ـ إلى موسـى وشـيعته المسـلمين ضد أعدائهم ولو كانوا من بني جلدتك.

---

(١) رواه الدارمي والإمام أحمد وغيرهما، وحسنه الألباني في «تخريج منار السبيل» رقم [١٥٨٩]، وانظر: «فتح الباري» (١٣/ ٣٣٤).

ومصداق ذلك أيضًا أن المسيح ـ عليه السلام ـ حين ينزل آخر الزمان يحكم بالإسلام، ويصلي أولَ نزوله مأمومًا وراء المهدي، ويقاتل اليهود، ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، ليس بيني وبينه نبي، والأنبياء أوْلادُ عَلَّاتٍ؛ أمهاتهم شتى، ودِينُهم واحد**»[1].

فنحن ـ المسلمين ـ أولياء المسيح وأحباؤه، ونحن أتباعه على الإسلام الذي دعا إليه، المقصودون بقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران:٥٥].

وهكذا فإن شعيرة الولاء والبراء هي الترجمة الفعلية لأصل الدين المشترك بين الرسالات السماوية، الذي يتلخص في كلمة واحدة هي: «لا إله إلا الله».

(١) رواه البخاري (٦/ ٤٧٧ – ٤٧٨)، ومسلم [٢٣٦٥]، وأبو داود [٤٦٧٥].

لا إله إلا الله

(٢٧) شعار الإسلام الباقي بعد اندراس الشرائع

كلمة التوحيد «لا إله إلَّا الله» هي آخر ما يبقى من الإسـلام في الأرض بعد اندراس الشرائع، ورفع القرآن الكريم.

فعـن حذيفـة بن اليمان ـ رضـي الله عنه ـ، أن رسـول الله ـ صلـى الله عليه وسلم ـ قال: «**يَدْرُسُ الإسلامُ كما يَدْرُسُ**[١] **وَشْيُ الثوب**[٢]**، حتى لا يُدْرَى ما صيامٌ، ولا صلاةٌ، ولا نُسُـكٌ، ولا صدقةٌ، وَلَيُسْـرى على كتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في ليلةٍ، فلا يبقى في الأرض منه آية، وتبقى طوائفُ من الناس: الشـيخ الكبيرُ والعجوزُ، يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة (لا إله إلَّا الله)، فنحن نقولها**»، وزاد الحاكم في روايته: قال صِلَةُ بنُ زُفَر لحذيفة: ما تُغني عنهم: (لا إله إلَّا الله)، وهم لا يدرون ما صلاةٌ، ولا صيامٌ، ولا نُسُـكٌ، ولا صدقةٌ؟، فأعرض عنه حذيفة، ثم رَدَّها عليه ثلاثًا، كل ذلك يُعْرِضُ عنه حذيفة، ثم أقبل عليه في الثالثة، فقال: «يا صلة! تنجيهم من النار ـ ثلاثًا»[٣].

---

(١) يَدْرُس: من درس الرسم دروسًا، إذا عفا وهلك.

(٢) وَشْيُ الثوب: نقشه.

(٣) أخرجه ابن ماجة [٤٠٤٩]، والحاكم (٤/ ٤٧٣)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، ثـم الألبانـي «الصحيحـة» [٨٧]، وقـال البوصيـري فـي «الزوائـد»: «إسـناده صحيـح، رجاله ثقات»اهـ. (٣/ ٢٥٤).

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ في شرحه:

«وهـذا دال علـى أن العلم قـد يُرفع من الناس في آخر الزمـان، حتى القرآن يَسْرى عليه النسيان في المصاحف والصدور، ويبقى الناس بلا علم، وإنما الشيخ الكبيـر، والعجوز المسـنة، يُخبران بأنهم أدركوا النـاس، وهم يقولون: «لا إلٰه إلَّا الله»، فهـم يقولونها على وجه التقـرب إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، فهي نافعة لهم، وإن لم يكن عندهم من العمل الصالح والعلم النافع غيرها.

وقوله: «**تنجيهم من النار**» يحتمل أن يكون المراد أنها تدفع عنهم دخول النار بالكليـة، ويكون فرضهم القول المجرد لعـدم تكليفهم بالأفعال التي لم يُخاطَبوا بها، والله ـ تعالى ـ أعلم.

ويُحتمـل أن يكـون المعنى أنهـا تُنجيهم من النار بعد دخولهـا، وعلى هذا؛ فيُحتمـل أن يكونـوا من المـراد بقوله ـ تعالـى ـ في الحديث القدسـي: «وعِزَّتي وجلالِي لأُخرِجَنَّ من النار من قال يومًا من الدهر: لا إلٰه إلَّا الله».

ويُحتمل أن يكون أولئك قومًا آخرين، والله أعلم.

والمقصود: أن العلم يُرفع في آخر الزمان، ويكثر الجهل»[1]اهـ.

(١) «نهاية البداية والنهاية» (١/ ٣١، ٣٢)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (١١/ ٤٠٨).

لا إله إلا الله

(٢٨) ميلادٌ جديد

«أشعر كأني وُلِدتُ من جديد»

عبارة مألوفة تجري على ألسنة المهتدين إلى الإسلام بعد أن ينطقوا بشهادة التوحيد، وينضموا إلى موكب الموحِّدين.

ومن الطريف أن يُسأل كبار السن منهم عن عمرهم في بعض المجالس فيجيب أحدهم بأن عمره مثلًا سبع سنوات أو أقل أو أكثر، فيحسبهم الجاهل بحالهم يمزحون، وما هي بمزحة ولكنها الحقيقة: إنه يعني أنه وُلد من جديد، ووهبه الله الحياة الحقيقية في اليوم الذي أشرق فيه قلبُه بنور «لا إله إلا الله»، ودبت في جسده الميتِ بالكفر روحُ «لا إله إلا الله»، وذاق حلاوة الإيمان، وعاش الحياة الطيبة حين نطق «لا إله إلا الله».

عن العباس بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**ذاق طعمَ الإيمان مَن رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا**»[(١)].

لقد أجمع العلماء على أن توبة الكافر بأن يُسلم مقطوع بقبولها إذا وقعت قبل الغرغرة، وقبل طلوع الشمس من مغربها، وأجمعوا على أنه ليس على الكافر الأصلي إذا تاب أن يقضي ما فاته من الفرائض منذ بلوغه حتى إسلامه مهما طال الزمن، ودليل ذلك:

قوله ـ تعالى ـ: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ ﴾[الأنفال:٣٨].

---

(١) رواه مسلم [٣٤].

قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِن يَنتَهُواْ﴾ قال القرطبي: يريد عن الكفر. قال ابن عطية: ولابد؛ والحامل على ذلك جوابُ الشـرط ﴿يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ ومغفرة ما قد سـلف لا تكون إلا لمُنْتَهٍ عن الكفر[١]. ولقد أحسـن القائل أبو سعيد أحمد بن محمد الزبيري:

يقغوفغعهلنوعهنغوعقععلغقن   غه عهغمو لهع ظغعه وعنغقنء
هنوهه قغفعهه ني عههلغقنء   عهيهغوعيلنقهمههعنفقهنء[٢]

وأخـرج ابـن أبـي حاتم عن مالك بن أنـس ـ رضي الله عنه ـ قـال: لا يؤخذ كافر بشـيء صنعه في كفره إذا أسـلم، وذلك أن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾[٣].

وعن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ قال: لما جعل الله الإسلام في قلبي، أتيتُ النبي ـ صلى الله عليه وسـلم ـ فقلت: ابسُـط يمينَك فَلأُبايعْك. فبسط يمينه فقبضـتُ يدي، قـال: «**مالك؟**» قلت: أردتُ أن أشـترط. قال: «**تشـترط بماذا؟**».

(١) قال ابن العربي ـ رحمه الله ـ: «قال علماؤنا: هذه لطيفة من الله ـ سبحانه ـ مَنَّ بها على الخليقة؛ وذلـك أن الكفار يقتحمـون الكفر والجرائم، ويرتكبون المعاصـي، ويرتكبون المآثم؛ فلو كان ذلـك يُوجِـب مؤاخذتهم لما اسـتدركوا أبدًا توبة، ولا نالتهم مغفرة؛ فيسَّـر الله ـ تعالى ـ عليهم قبولَ التوبة عند الإنابة، وبَذَل المغفرة بالإسـلام، وهَـدَمَ جميع ما تقدم؛ ليكون ذلك أقربَ إلى دخولهم في الدين، وأدعى إلى قبولهم كلمة الإسـلام، وتأليفًا على الملة، وترغيبًا في الشريعة؛ فإنهم لو علموا أنهم يؤاخذون لما أنابوا ولا أسلموا.
فقد روى مسـلم أن رجلًا فيمن كان قبلكم قتل تسـعة وتسـعين نفسًا، سـأل: هل له توبة؟ فجاء عابدًا فسأله، فقال: لا توبة لك، فقتله، وَكَمَّل به مائة؛ الحديث.
فانظـروا إلـى قـول العابد له: لا توبة لـه؛ فلما علم أنه قد أيأسـه قتله؛ فِعلَ اليائس من الرحمة. والتنفيرُ مفسدة للخليقة، والتيسير مصلحة لهم»اهـ. من «أحكام القرآن» له (٢/ ٨٥٢، ٨٥٣).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ٤٠٢).
(٣) «الدر المنثور» (٧/ ١٢٢).

قلت: أن يُغفرَ لي. قال: «**أما علمتَ أن الإسلام يَهدم ما كان قبله**(١)**، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحجَّ**(٢) **يهدم ما كان قبله؟**»(٣).

---

(١) أي: من الكفر، والمعاصي إذا تاب منها.

(٢) وهذا المعنى يوضحه ما رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كهيئته يوم ولدته أمه**»رواه الإمام أحمد (٢/ ٢٢٩)، وفي لفظ: «**خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه**»، وفي لفظ: «**كما خرج من بطن أمه**» رواه الإمام أحمد (٢/ ٤٨٤)، وهذه إشارة إلى الميلاد الجديد بالتوبة من المعاصي وبالتوبة من الكفر إلى الإسلام من باب أولى، ولهذا نظائر تبشر بهذا الميلاد الجديد: مثل قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**من أتى بيت المقدس لا يَنْهَزُهُ إلا الصلاةُ فيه خرج من خطيئته مثلَ يومِ وَلَدَتْهُ أُمُّه**» رواه الإمام أحمد [٦٦٤٤]، وقال محققوه: «إسناده صحيح». **ويَنْهَزُه**: يُخرِجه.

وعن عمرو بن عبسة، قال: يا رسول الله، كيف الوضوء؟ قال: «**أما الوضوء، فإنك إذا توضأت، فغسلت كفيك، فأنقيتهما، خرجت خطاياك من بين أظفارك وأناملك، فإذا مضمضت، واستنشقت مَنْخِرَيْكَ، وغسلت وجهك، ويديك إلى المرفقين، ومسحتَ رأسك، وغسلت رجليك إلى الكعبين، اغتسلت من عامَّة خطاياك، فإن أنت وضعتَ وجهك لله ـ عزَّ وجلَّ ـ خرجتَ من خطاياك كيوم ولدتك أمك**». «صحيح سنن النسائي» (١/ ٣٢، ٣٣) [١٤٣].

وفى حديث كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ في قصة تخلفه عن غزوة تبوك، حين بشره النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتوبة الله عليه قال: فانطلقت إلى النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فإذا هو جالس في المسجد وحوله المسلمون، وهو يستنير كاستنارة القمر، وكان إذا سُرَّ بالأمر استنار، فجئت جلست بين يديه، فقال: «**أبشر يا كعبُ بن مالك بخير يوم أتي عليك منذ ولدتك أمك**». «صحيح أبي داود» [١٩١٢]، و«صحيح سنن الترمذي» رقم [٢٤٧٨].

وفي تشبيه من أتى بهذه الأفعال برجوعه طاهرًا من الخطايا كيوم خرج من بطن أمه؛ ما فيه من محاسن الإسلام خلافًا للعقيدة النصرانية الفاسدة التي تزعم أن الطفل يولد يوم يخرج من بطن أمه ملوثًا بخطيئة الأبوين آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ المزعومة، ويعتبرون أن قضية (الخطيئة الأصلية الموروثة) هذه أساس عقيدتهم، رغم أن الله ـ تعالى ـ تاب على الأبوين ومحا عنهما أثر المخالفة قبل إهباطهما إلى الأرض، وقد قال ـ تعالى ـ: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [النجم: ٣٦-٣٨].

(٣) رواه الإمام أحمد (٢٩/ ٣٦٠) [١٧٨٢٧]، ومسلم [١٢١].

فكما أن الحج يهدم ما قبله من الذنوب، فيعود المرء طاهرًا من ذنوبه كيوم ولدته أمه، فكذلك الإسلام يهدم ما قبله من الكفر والمعاصي فيعود طاهرًا منها كحاله يوم ولدته أمه.

إن شهادة أن لا إله إلا الله هي شهادة ميلاد جديد، وإعلان عن نشأة أخرى، وحياة ثانية هي الحياة (الطيبة) التي قال الله ـ سبحانه ـ فيها: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال ـ عز وجل ـ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وسبب هذه الولادة الثانية هو رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ولذلك كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبًا للمؤمنين كما في قراءة عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ «وهو أب لهم»[(١)] «أي في الدين؛ فإن كل نبي أب لأمته من حيث إنه أصل فيما به الحياة الأبدية؛ ولذلك صار المؤمنون إخوة، وأزواجُه أمهاتِهم، منزلات منزلتهن في التحريم واستحقاق التعظيم»[(٢)]، قال ـ تعالى ـ: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب:٦]. وقال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِثْلُ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ أعلمكم**..» الحديث[(٣)]، «فهي الأبوة الأولى للصحابة

(١) روى الطبري بسنده عن مجاهد: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾. قال: «هو أبٌ لهم» «جامع البيان» (١٩/ ١٥).

(٢) «تفسير البيضاوي» (٤/ ٣٦٤).

(٣) رواه النسائي (١/ ٣٨)، وابن خزيمة [٨٠]، وابن حبان [١٤٤٠]، والإمام أحمد في «مسنده» رقما [٧٣٦٨، ٧٤٠٩]، وقال محققوه: «إسناده قوي».

ـ رضوان الله عليهم ـ، فهم جزء من نوره ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ومنه انتقلت بذرة الحياة إليهم، ومنهم إلى التابعين وتابع التابعين؛ لأن الولد هو جزء من الوالد وبضع منه؛ قال ـ سبحانه ـ[1]: ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًا ﴾ [الزخرف: ١٥]، يعني ولدًا، فالولد من جنس الوالد ونظير له، كما يكون وجود الوالد شرطًا في وجود الولد، فهو نسل ونَسَبٌ روحي متصل لا ينقطع إلى يوم القيامة»[2] اهـ.

قال الإمام المحقق ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ:

«إن من لم تُولد روحُه وقلبه، ويخرجْ من مشيمة نفسه، ويتخلصْ من ظلمات طبعه وهواه وإرادته فهو كالجنين في بطن أمه الذي لم ير الدنيا وما فيها. فهكذا هذا الذي هو بَعْدُ في مشيمة النفس، والظلماتُ الثلاث التي هي: ظلمة النفس، وظلمة الطبع، وظلمة الهوى.

فلا بد من الولادة مرتين كما قال المسيح ـ عليه السلام ـ للحواريين: «**إنكم لن تَلِجُوا ملكوتَ السماء حتى تُولَدوا مرتين**».

ولذلك كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبًا للمؤمنين كما في قراءة أُبَيٍّ[3]: ﴿النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم﴾، ولهذا تفرَّع على هذه الأبوة أن جُعلت أزواجُه أمهاتِهم، فإن أرواحهم وقلوبهم وُلدت به ولادة أخرى غير ولادة الأمهات، فإنه أخرج أرواحهم وقلوبهم من ظلمات الجهل والضلال

(١) في سياق الإنكار على من افترى عليه الكذب، وادَّعى أن له ولدًا.

(٢) «مفهوم الحياة فى القرآن والحديث» للدكتور محمد الأحمدي ص (٢٧٣).

(٣) نسب الطبري هذه القراءة إلى الحسن، وهي قراءة شاذة لمخالفتها رسم المصحف الشريف، وانظر: «جامع البيان» (١٩/ ١٦).

والغَـي إلى نور العلم والإيمان وفضاء المعرفة والتوحيد، فشـاهدتْ حقائقَ أُخَر وأمـورًا لم يكن لها بها شـعور قبله، قال ـ تعالـى ـ : ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ [إبراهيـم:١]؛ وقـال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[الجمعة: ٢]، وقال: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

والمقصود أن القلوب في هذه الولادة ثلاثة:

١ ـ قلب لم يولد، ولم يأنِ له، بل هو جنين في بطن الشهوات والغَي والجهل والضلال.

٢ ـ وقلب قد وُلِدَ وخرج إلى فضاء التوحيد والمعرفة، وتخلص من مشيمة الطبـاع وظلمـات النفـس والهوى، فقـرَّت عينه بـالله، وقرَّت عيون بـه وقلوب، وأنسـت بقربه الأرواح، وذكَّرتْ رؤيته بالله، فاطمأن بالله، وسـكن إليه، وعكف بهمته عليه، وسـافرت هممه وعزائمه إلى الرفيق الأعلى. لا يقر بشـيء غير الله، ولا يسكن إلى شيء سواه، ولا يطمئن بغيره. يجد من كل شيء سوى الله عِوَضًا، ولا يجـد من الله عِوضًا أبدًا، فذِكره حياة قلبه، ورضاه نهاية مطلبه، ومحبته قوته، ومعرفته أنيسـه، عدوه من جذب قلبه عـن الله، وإن كان القريبَ المُصافيا، ووليُّه مـن ردَّه إلى الله، وجمع قلبـه عليه، وإن كان البعيد المناويا. فهذان قلبان متباينان غاية التباين.

٣ ـ وقلب ثالث في البرزخ ينتظر الولادة صباحًا ومساءً، قد أشرف على فضاء التجريد، وأنس من خلال الديار أشـعة التوحيد، تأبى غلبات الحب والشـوق إلا

تقربًا إلى مَن السعادةُ كلها بقُربه، والحظ كل الحظ في طاعته وحبه، وتأبى غلباتُ الطباع إلا جذبه وإيقافه وتعويقه، فهو بين الداعيين تارة وتارة قد قطع عقباتٍ وآفات، وبقي عليه مفاوزُ وفلوات»اهـ[1].

إن شهادة أن «لا إلَه إلا الله» شهادة ميلاد روحي ونفسي ووجداني وفكري وسلوكي ومنهجي جديد، وبنطقها لا تتبدل فقط خانة الديانة في بطاقة الهوية، لكن يصاغ به الإنسان صياغة جديدة، ويعاد ترتيب دولاب حياته من جديد.

وبشهادة أن «لا إلَه إلا الله» تتبدل المشاعر من أقصى طرف البغض والعداوة إلى أعلى درجات الحب والولاء.

وما أكثر الذين تحقق فيهم هذا التحول المدهش من لدن عصر الرعيل الأول حتى يومنا هذا!

لقد حدث هذا على مستوى الأمم حيث أسلمت أمم بكاملها لله ـ تعالى ـ، وما حديث أمة (التتار) عنا ببعيد، إذ هي أمة غالبة قاهرة تُخضعها ديانة الأمة المغلوبة فتعتنق عقيدتَها، وترفع رايتها، وتولد من جديد.

وحدث على مستوى الأفراد، بحيث صار من الأخبار المألوفة منذ قرون حتى اليوم أن شخصًا يُشار إليه بالبنان في محاربته للإسلام وصده عن سبيل الله بكل ما أوتي من قوة يتحول بقدرة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ واصطفائه إلى جندي مجاهد، وداعية مجالد، يذب عن دين الله آناء الليل وأطراف النهار، وكأنه يكفِّر عما اقترف من تشويه للدين ومحاربة للتوحيد.

---

(١) «طريق الهجرتين» (١/ ٢٨ - ٣١) طبعة دار علم الفوائد.

تقول (ديبورا بوتر)[1]:

«إن النـاس فـى أوروبا وأمريكا يقبلون على اعتناق الإسـلام بأعداد كبيرة.. لكـن دون إجبار مـن أحد، بـل لأنهـم متعطشـون للراحـة النفسـية والاطمئنان الروحـي الذي يقدمه لهم الإسـلام، حتى أن كثيرًا من المستشـرقين والمبشـرين النصـارى الذيـن بـدؤوا حملتهـم مصممين على القضـاء على الإسـلام وإظهار عيوبـه المزعومة، أصبحوا هم أنفسـهم مسـلمين، وما ذلـك إلا لأن الحق حجته دامغة، لا سبيل إلى إنكارها»[2].

إن قصص هداية ـ من أرادوا قهر الإسـلام فقهرهم الإسـلام بنوره ومنحهم هدايته فوُلدوا به ولادةً جديدة ـ تحوي كثيرًا من الفصول المشـرقة، قال الأسـتاذ عرفات العشـي: «سـبحان الله! كم من خصم لدودٍ للإسلام يناصبه العداء ويتآمر ضـده ويكيـد له أعظم الكيد، ثم يتحـول بإرادة ربانية سـماوية إلى داعية مخلص للإسـلام، ولا يقتصـر ذلك علـى زماننا، فبـدأً بعمر بـن الخطاب الـذي كان ألد أعـداء رسـول الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ والـذي كان يريد قتل هـذا النبي، ثم أسلم فأصبح الفاروق عمر الذي ملأ الدنيا عدلًا وسعادة، ومرورًا بآل أبي سفيان وزوجـه هنـد آكلة الأكباد والتـي دفعت ثمنًا باهظًا لقتل سـيد الشـهداء حمزة بن عبد المطلب أسـد الله وأسـد رسـول الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ، والتي كانت تقول للرسـول بعد أن أسـلمت: والله ما كان هناك بيت أبغض إلينا من بيتك، وها نحـن الآن والله مـا من بيت أحب إلينا من بيتك، وعلى مر العصور يحول الله من

---

(١) فتـاة أمريكيـة من مدينة «ترافيـرز» بولاية متشـجن، ومتخصصة في «الصحافـة»، وقد تزوجت الداعية الإسـلامي الفلسطيني الأسـتاذ محمد الحانوتي المتفرغ للدعوة الإسلامية في أمريكا، ثم اعتنقت الإسلام بعد الزواج في عام (١٩٨٠م)، انظر قصة إسلامها مفصَّلة في كتاب: «رجال ونساء أسلموا» للأستاذ عرفات كامل العشي (٨/ ٩٦- ١١٦).

(٢) «رجال ونساء أسلموا» (٨/ ١١٤).

شـاء من عباده من المحاولة لهدم هذا الدين والإجهاز عليه إلى التضحية بالروح والنفس والنفيس للذود عنه»اه[(١)].

ومـن أمثلة هـذه (الـولادة الجديدة) التي يتبدل بسـببها الأفـكار والوجدان والمشاعر قصة ذلك الرجل الهندوسي (شايف برازاد) الذي كان قد كُلِّف بقيادة وتدريب أربعة آلاف رجل لهدم المسجد البابري في الهند، وقد حدث ذلك فعليًّا فـي ٢١ من جمـادى الآخرة ١٤١٣ هـ (الموافق ١٦ من ديسـمبر ١٩٩٢م)، وهو الحادث الذى تزلزل له العالم الإسلامي كله.

لقد قام (شـايف برازاد) مع المجموعة الهائجة التي تسلقت مئذنة المسجد المهيبة وهَدَمَتْها، وأخذ يصيح: «رام، رام»[(٢)]..

وبعد مرور سبع سنوات على هذه الجريمة أحس بأنه قام بعمل فظيع، وأخذ يلتمس من الله الغفران.

ثـم انتقل إلى الشـارقة بحثًا عن عمـل، وبالفعل التحق بعمل مناسـب لكن القلق لم يفارقه، وعانى من تأنيب الضمير، وبقي منطويًا على نفسه حزينًا.

وذات مـرة كان يمر بمسـجدٍ ينطلق منه صوتُ خطبة باللغة الهندية، فشـعر بأنها شـيء جديـد متميز، فأصغى بسـمعه إليها، وظل يواظب على اسـتماع تلك الخطـب، حتـى انتهى الأمـر باعتناقه الإسـلام، واختفى من وجوه أفراد أسـرته، وتلقـى تهديـدات من قبـل الحزب الهندوسـي، وهو الآن يطمـح أن يصبح داعيًا مؤهلًا للدعوة إلى الإسـلام، وقد جاء في آخر ترجمته ما يُشـعر بأنه قال: «إن اليد التي هدمت المسجد البابري هي نفسها التي ستعيد بناءه من جديد»[(٣)].

---

(١) «نفسه» ص(٧٨).

(٢) و«رام» هو اسم إلههم المزعوم، الذي ادَّعَوْا أن المسجد قد بُني في موضع ولادته!!

(٣) «لماذا يُسلمون؟» للأستاذ محمد خير يوسف ص (٥٢، ٥٣).

(٢٩) وصية الأنبياء عند الموت

قال الله ـ تعالى ـ في شأن خليله إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف:٢٦، ٢٧]، وهذا معنى: لا إله إلا الله، ولهذا قال بعدها: ﴿وَجَعَلَهَا﴾ أي: لا إله إلا الله ﴿كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف:٢٨].

وقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢، ١٣٣].

وعن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعًا: «إن نوحًا ـ عليه السلام ـ قاله لابنه عند موته: آمرك بلا إله إلا الله فإن السمواتِ السبعَ والأرضين السبع لو وُضعن في كِفة ووُضِعَتْ لا إله إلا الله في كفة لرجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة لفصمتهن لا إله إلا الله»[١].

(١) انظر تخريجه ص (٣٣١).

لا إله إلا الله

(٣٠) النطق بها عند الموت من أعظم علامات خاتمة السعادة

عن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «من كان آخرَ كلامه **لا إله إلا الله**[١] وجبت له الجنة»[٢].

وعن عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «**مَنْ ماتَ وَهُوَ يعلَمُ أنه لَا إلٰه إلَّا اللّٰهُ دخلَ الجَنَّة**»[٣].

وعن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: أتيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعليه ثوب أبيض وهو نائم، ثم أتيته وقد استيقظ، فقال: «**مَا مِنْ عبدٍ قالَ لَا إلٰه إلا اللّٰهُ ثُمَّ ماتَ علَى ذلكَ إلَّا دخلَ الجنَّة**» قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «**وإنْ زنَى وإِن سَرقَ**»، قلت: «وإنْ زنَى وإِن سَرقَ»، قال: «**وإنْ زنَى وإِن سَرقَ**» قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «**وإنْ زنَى وإِن سَرقَ على رَغمِ أنفِ أبِي ذَرٍّ**»[٤].

---

(١) علّق الحافظ ابن حجر على هذا الحديث فقال ـ رحمه الله ـ: «والمراد بقوله «لا إله إلا الله» في هذا الحديث وغيره كلمتا الشهادة، فلا يرد إشكال ترك ذكر الرسالة. قال الزين بن المنير: قول لا إله إلا الله لقب جرى على النطق بالشهادتين شرعًا»اهـ. من «فتح الباري» (٣/ ٦٧٦) ط. دار طيبة ـ الرياض.

(٢) رواه الإمام أحمد (٥/ ٢٩٦) رقم [٢٢٠٢٩]، (٥/ ٣١١) رقم [٢٢١٢٣]، والحاكم (١/ ٣٥١، ٥٠٠)، وقال: «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، وحسَّن الألباني إسناده في «أحكام الجنائز» ص (٤٨).

(٣) رواه مسلم [٢٢٦].

(٤) رواه البخاري [٥٨٢٧]، ومسلم [٩٤].

قال الحافظ ابن رجب ـ رحمه الله ـ: «معناه: أن الزنى والسرقة لا يمنعان دخول الجنة مع التوحيد، وهذا حق لا مرية فيه، ليس فيه أنه لا يُعَذَّبُ عليهما مع التوحيد»[(١)].

وعنه ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**أتاني جبريلُ، فقال: بشِّرْ أُمتكَ أنهُ مَن ماتَ لا يُشركُ بالله شيئًا دخلَ الجنةَ، فقلتُ: يا جبريلُ! وإن سرقَ وإن زنى؟**[(٢)] **قال: نعم، قلتُ: وإن سرقَ وإن زنى؟ قال: نعم، قلتُ: وإن سرقَ وإن زنى؟ قال: نعم، وإن شَربَ الخَمر**»[(٣)].

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: «**يا بن آدم، لو أتيتني بقُراب**[(٤)] **الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا، لأتيتك بقرابها مغفرة**»[(٥)].

وفي صحيح مسلم في قصة غزوة تبوك حين أصابتهم مجاعة: فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقى اللهَ بهما عبدٌ غيرَ شاكٍّ فيُحجب عن الجنة**»[(٦)].

---

(١) «تحقيق كلمة الإخلاص» ضمن «مجموع رسائل ابن رجب» (٢/ ٣٦٢)، وانظر: «شرح النووي لصحيح مسلم» (٢/ ٩٦).

(٢) قال الحافظ ابن حجر: «وكأن أبا ذر استحضر قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**» لأن ظاهره معارض لظاهر هذا الخبر، لكن الجمع بينهما على قواعد أهل السُّنة بحمل هذا على الإيمان الكامل، وبحمل حديث الباب على عدم التخليد في النار»اهـ. من «فتح الباري» ط. دار طيبة (٣/ ٦٧٨).

(٣) رواه البخاري [١٢٣٧]، وفي «الأدب المفرد» [٨٠٣]، ومسلم (٣/ ٧٦)، والترمذي (٣/ ٢٦٩)، وقال: «حديث حسن صحيح»، والإمام أحمد (٥/ ١٥٢).

(٤) **قُراب الأرض**: ما يقارب ملأها.

(٥) رواه الترمذي رقم [٣٥٤٠]، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» [٤٣٣٨].

(٦) انظر تخريجه ص (٣٥٢).

وعن عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ، عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد حقًّا من قلبه فيموتُ على ذلك إلا حرمه الله على النار: لا إله إلا الله**»[1].

وعن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**ما من نفس تموت وهي تشهد أن لا إله إلا الله، وأنِّي رسول الله، يرجع ذلك إلى قلب مُوقِنٍ، إلا غفر الله لها**»[2].

وعن رفاعة الجهني ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**أَشهدُ عندَ اللهِ لَا يَموتُ عبدٌ يَشهدُ أنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وأنِّي رسُولُ اللهِ صدقًا مِن قَلبِهِ ثُمَّ يُسدِّدُ إلَّا سُلِكَ في الجنَّةِ**»[3] الحديث.

وعن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ قال: أسندتُ النبيَّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى صدري، فقال: «**مَنْ قَالَ لا إلهَ إلَّا اللهُ ابتِغَاءَ وَجهِ اللهِ خُتِمَ لهُ بِها دخلَ الجنَّةَ، وَمنْ صَامَ يومًا ابتغاءَ وَجهِ اللهِ خُتِمَ لَهُ بِهَا دَخلَ الجنَّة، وَمَنْ تَصَدَّقَ بِصدَقةٍ ابتِغاءَ وَجهِ اللهِ خُتِمَ لهُ بِهَا دَخلَ الجنَّةَ**»[4].

وعن ابن شهاب قال: أخبرني سعيد بن المسيب عن أبيه، أنه لما حضرت أبا طالب الوفاةُ جاءه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فوجد عنده

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٦٣)، وابن حبان في «صحيحه» (١/ ٤٣٤-إحسان)، والحاكم (١/ ٧٢)، وصححه، ووافقه الذهبي، وقال الشيخ شعيب: «إسناده صحيح».

(٢) أخرجه ابن ماجة (٢/ ٤١٩)، وابن حبان [٥]، والإمام أحمد (٥/ ٢٢٩)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» رقم [٢٢٧٨].

(٣) رواه الإمام أحمد (٤/ ١٦)، والطيالسي رقم [١٢٩١]، والبزار كما في «كشف الأستار» [٣٥٤٣].

(٤) رواه الإمام أحمد رقم [٢٣٣٢٤]، وقال محققوه: «صحيح لغيره»، وصححه الألباني في «الصحيحة» [١٦٤٥].

أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأبي طالب: «**يا عَمِّ! قُلْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ كَلمةً أَشهدُ لَكَ بِهَا عندَ اللهِ**»[1] فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب! أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعرضها عليه، ويعودان بتلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخِرَ ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**أَمَا واللهِ لأَستَغفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ**» فأنزل الله ـ تعالى ـ: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ [التوبة:١١٣][2].

وفي رواية: وأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في أبي طالب: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [القصص:٥٦].

وعن الأغر أبي مسلم، أنه شهد على أبي هريرة وأبي سعيد ـ رضي الله عنهما ـ أنهما شَهدا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**إذَا قَالَ العبدُ: لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ و اللهُ أكبرُ، قالَ اللهُ: صَدَقَ عبدِي لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنَا وأَنَا أَكْبرُ، وإذا قال العَبدُ: لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، قَالَ: صَدَقَ عبدِي لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنَا وَحدِي، وإذا قال: لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ لا شَرِيكَ لَهُ، قَال: صَدقَ عَبدِي لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنَا ولا شَرِيكَ لِي، وإذَا قَال: لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ لَهُ المُلكُ ولهُ الحَمْدُ، قَال: صَدقَ عبدِي لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنَا ليَ المُلكُ وليَ الحَمدُ، وإذَا قَال:**

(١) وفي رواية: «أَيْ عَمِّ! قُلْ: (لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ) كَلِمَةً أُحاجُّ لَك بِهَا عِندَ اللهِ».

(٢) رواه البخاري [١٣٦٠]، ومسلم [٢٥].

لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ ولَا حَولَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، قالَ: صَدقَ عَبدِي لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنا ولَا حَولَ ولَا قُوَّةَ إِلَّا بِي»، قال أبو إسحاق: ثم قال الأغر شيئًا لم أفهمه، قال: فقلت لأبي جعفر: ما قال؟ قال: «مَنْ رُزِقَهُنَّ عِندَ مَوتِهِ لَمْ تَمَسَّهُ النار»[1].

وعن شداد بن أوس ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «سيد الاستغفار أن يقول: اللهُمَّ أَنتَ رَبِّي لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنتَ، خَلقتَنِي وَأَنا عَبدُكَ، وَأنا علَى عَهدِكَ وَوعدِكَ مَا استَطعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِن شَرِّ مَا صَنعتُ، أَبُوءُ لَك بِنِعمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنبِي اغفِر لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، قَالَ: ومنْ قالهَا مِن النَّهارِ مُوقِنًا بها فَماتَ مِن يَومِهِ قَبلَ أَنْ يُمسِيَ فَهُو مِن أَهلِ الجنةِ، ومَن قَالهَا مِن اللَّيلِ وَهُو مُوقِنٌ بِها فَمَاتَ قَبلَ أَن يُصبِحَ فَهُوَ مِن أَهلِ الجنَّةِ»[2].

وعن سُعدى المُرِّيَّة قالت: مرَّ عمرُ بطلحة بعد وفاةِ رسولِ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: ما لكَ كئيبًا؟ أساءتْكَ إمرةُ ابنِ عمِّك؟ قال: لا، ولكنْ سمعتُ رسولَ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: «إني لَأعلمُ كلمةً لا يقولُها أحدٌ عند موتهِ إلا كانت نورًا لِصحيفته، وإنَّ جسدَهُ وروحَهُ لَيَجِدانِ لها رَوْحًا عند الموت». فلم أسألهُ حتى تُوُفِّيَ، قال: أنا أعلمُها، هي التي أراد عمَّهُ عليها، ولو عَلِمَ أنَّ شيئًا أنجى له منها لأمره[3].

وفي رواية الإمام أحمد[4]: سمعته يقول: «إني لأعلم كلمة لا يقولها عَبدٌ عند موته إلا أشرق لها لونُه، ونَفَّس الله عنه كربته» قال: فقال عمر: إني لأعلم

(١) أخرجه الترمذي [٣٤٣٠]، وابن ماجة [٣٧٩٤]، وابن حبان [٨٥٢]، وصحح الألباني إسناده في «الصحيحة» [١٣٩٠].

(٢) رواه البخاري [٦٣٠٦] (١٤/ ٢٨٠) ط. دار طيبة.

(٣) رواه النسائي في «الكبرى» رقم [١٠٨٧٤]، وابن ماجة رقم [٣٧٩٥]، وابن حبان [٢٠٥]، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجة» رقم [٣٠٦٢].

(٤) «المسند» (١/ ١٦١).

مـا هـي، قال: وما هي؟ قال: تعلمُ كلمةً أعظمَ مـن كلمةٍ أمر بها عمه عند الموت: «لا إله إلا الله»، قال طلحة: صدقت، هيَ واللهِ هي.

قال الإمام المحقق ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ:

«لِشهادة أن لا إله إلا الله عند الموت تأثير عظيم في تكفير السيئات وإحباطها؛ لأنها شهادة من عبد مُوقِنٍ بها عارفٍ بمضمونها، قد ماتت منه الشهوات، ولانت نفسُـه المتمردة، وانقادت بعد إبائها واسـتعصائها، وأقبلتْ بعد إعراضها، وذَلَّتْ بعـد عِزِّهـا، وخرج منهـا حرصُها علـى الدنيـا وفضولهـا، واسْـتَخْذَتْ بين يدي ربهـا وفاطرهـا ومولاها الحقِّ أذلَّ مـا كانت له، وأرجى ما كانـت لعفوه ومغفرته ورحمته، وتجرد منها التوحيد بانقطاع أسباب الشرك وتحقُّقِ بطلانه، فزالت منها تلـك المنازعاتُ التي كانت مشـغولةً بها، واجتمع هَمُّهـا على من أيقنتْ بالقُدوم عليه والمصير إليه، فوجَّهَ العبدُ وجهَه بكليته إليه، وأقبل بقلبه ورُوحه وهَمِّهِ عليه، فاستسـلم لـه وحده ظاهرًا وباطنًا، واسـتوى سِـرُّه وعلانيتُه، فقـال: لا إله إلا الله مخلصًـا مـن قلبه، وقد تخلَّـص قلبُه من التعلق بغيره والالتفاتِ إلى ما سـواه، قد خرجـت الدنيا كلُّها مِن قلبه، وشـارف القدوم على ربه، وخمدتْ نيرانُ شـهوته، وامتـلأ قلبُه من الآخرة، فصارت نُصْبَ عينيه، وصارت الدنيا وراء ظهره، فكانت تلك الشهادة الخالصة خاتمةَ عملِه فطهرتْهُ من ذنوبه، وأدخلته على ربه؛ لأنه لَقِيَ ربه بشهادةٍ صادقة خالصة، وافق ظاهرُها باطنَها، وسِرُّها علانيتَها.

فلو حصلت له الشهادةُ على هذا الوجه في أيام الصحة لاستوحشَ من الدنيا وأهلها، وفَرَّ إلى الله من الناس، وأنِسَ به دون ما سواه، لكنه شهد بقلبٍ مشحونٍ بالشهوات وحب الحياة وأسبابها، ونفسٍ مملوءةٍ بطلب الحظوظ والالتفات إلى غيـر الله؛ فلو تجـردت كتجردها عند الموت لكان لها نبأٌ آخر وعيشٌ آخر سـوى عيشِها البهيميِّ، والله المستعان»[1].

---

(١) «الفوائد» ص (٧٧، ٧٨) ط. دار عالم الفوائد - ١٤٢٩.

تعظيم الإسلام لشأن خواتيم الأعمال

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

ودعا يوسف ـ عليه السلام ـ ربه: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١].

ومن دعاء المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران:٨].

وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**من مات على شيء بعثه الله عليه**»[(١)].

وعن سهل بن سعد ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**إن العبد ليعمل عملَ أهلِ النار، وإنه من أهل الجنة، ويعمل عمل أهل الجنة، وإنه من أهل النار، وإنما الأعمال بالخواتيم**»[(٢)].

وعن أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**إنما الأعمال بالخواتيم**»[(٣)].

وعن أمير المؤمنين معاوية ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: «**إنما الأعمال بخواتيمها، كالوعاءِ إذا طاب أعلاه طاب أسفلُه، وإذا خَبُثَ أعلاه خَبُثَ أسفلُه**»[(٤)].

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٣١٣)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، والألباني في «الصحيحة» [٢٨٣].

(٢) رواه البخاري [٦٦٠٧] (١١/ ٤٩٩-فتح).

(٣) رواه ابن حبان في «صحيحه» رقم [٣٤٠ - إحسان].

(٤) أخرجه ابن ماجة [٤١٩٩]، وابن حبان رقم [٣٣٩]، وحسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط.

فالعبرة بالحال التي يلقى عليها الإنسانُ ربَّه، ولو صلى رجل صلاة خاشعة أطال قراءتها وركوعها وسجودها، ثم انتقض وضوؤه قبل التسليم بطلت صلاتُه كلها، أو صام يومًا طويلًا شديدًا حَرُّه، ثم أفطر قبيل غروب الشمس، بطل صومُ اليومِ كله.

قال الإمام أحمد: سمعت شعيب بن حرب يقول لرجل: «إن دخلتَ القبرَ ومعك الإسلام فأبشر»[(١)].

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**إذا أراد الله بعبدٍ خيرًا يستعمله**»، قيل: كيف يستعمله يا رسول الله؟ قال: «**يوفقه لعملٍ صالحٍ قبل الموت**»[(٢)].

وعن عمرو بن الحَمِق الخزاعي قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**إذا أراد الله بعبدٍ خيرًا عَسَلَهُ قبل موته**»، قيل: وما عَسْلُهُ؟ قال: «**يُفتح له عملٌ صالح بين يَدَيْ موتِهِ حتى يرضى عنه**»[(٣)].

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يقول: «**يا وليَّ الإسلامِ وأهلِه، ثَبِّتْني به حتى ألقاك**»[(٤)]، وفي لفظ: «**يا وليَّ الإسلامِ وأهلِهِ مَسِّكني الإسلامَ حتى ألقاك عليه**»[(٥)].

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٩٢).

(٢) أخرجه الترمذي [٢١٤٢]، والحاكم (٤/ ٣٤٠)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وابن حبان رقم [٣٤١] وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيقه: «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

(٣) رواه ابن حبان في «صحيحه» رقم [٣٤٣] وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: «إسناده صحيح»اهـ. من «الإحسان» (٢/ ٥٥).

(٤) أخرجه الطبراني في «الأوسط» [٦٥٣]، وأورده الألباني في «الصحيحة» رقم [١٨٢٣].

(٥) حسَّنه الألباني في «الصحيحة» رقم [١٤٧٦].

وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ كثيرًا ما يدعو ربه: «**يا مُقَلِّبَ القلوبِ ثَبِّتْ قلبي على دينِكَ**»[1].

وعن نافع مولى ابن عمر، أنه سمع ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ يدعو على الصفا، يقول: «اللهم إنك قلتَ: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٨]، وإنك لا تُخْلِفُ الميعادَ، وإني أسألك كما هديتني للإسلام: أن لا تَنْزِعَه مني، حتى تتوفاني وأنا مسلم»[2].

وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدعو إذا سافر: «**اللهم إني أعوذ بك من الحَوْرِ**[3] **بعد الكَوْنِ**[4]**، ودعوةِ المظلوم، وسوء المنظر في الأهل والمال**»[5].

وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا ودَّع مسافرًا قال: «**أستودِعُ اللهَ دِينَكَ، وأمانَتَك**[6]**، وخواتيمَ عَمَلِكَ**»[7].

---

(١) رواه الإمام أحمد [١٢١٠٧]، وقال محققوه: «إسناده قوي على شرط مسلم».

(٢) رواه مالك في «الموطأ»، وقال النووي: «وهذا إسناد صحيح على شرط البخاري ومسلم»اهـ. من «المجموع» (٨/ ٩٢).

(٣) **الحَوْر**: النقصان والرجوع.

(٤) وفي رواية: «**الكَوْر**»، **والكَوْن**: هو الرجوع من الإيمان إلى الكفر، ومن الطاعة إلى المعصية، أي الرجوع من شيء إلى شيء من الشر، أو الرجوع من الاستقامة أو الزيادة إلى النقص، ومَن رواه بالراء فهي الزيادة، مأخوذ من تكوير العمامة، وهو لفها وجمعها. فالمعنى: التعوذ من الانتقاص بعد الزيادة والاستكمال، ورواية الكون معناها مأخوذ من الاستقرار والثبات، فالمراد التعوذ من النقصان والتغيير بعد الثبات والاستقرار، وانظر: «الأذكار النووية» ص (٢٨٥).

(٥) رواه مسلم [٤٢٦]، والترمذي [٣٤٣٩]، وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي في «العمل» [٥٠٣]، وابن ماجة [٣٨٨٨].

(٦) **الأمانة هنا**: أهله ومن يخلفه وماله الذي عند أمينه، وذكر الدِّين هنا لأن السفر مظنة المشقة، فربما كان ذلك سببًا لإهمال بعض أمور الدين، **والخواتيم**: جمع خاتمة، وهو ما يُختم به العمل، أي يكون آخره، ودعا له بذلك لأن الأعمال بخواتيمها، كما تدل عليه الأحاديث.

(٧) رواه الترمذي [٣٤٤٣]، وقال: «حديث حسن صحيح غريب».

وعـن عبـد الرحمن بن مهدي قال: مات سـفيان الثوري عندي، فلما اشـتد بـه جعـل يبكي، فقال له رجل: يـا أبا عبد الله، أراك كثير الذنوب؟ فرفع شـيئًا من الأرض، فقـال: «والله لَذنوبـي أهونُ عندي من ذا، إني أخاف أن أُسْـلَبَ الإيمانَ عند الموت».

وكان ـ رحمه الله ـ يقول: «بكينا على الذنوب زمانًا، ونحن الآن نبكي على الإسلام».

ولمـا احتُضِـرَ ـ رحمـه الله ـ جعـل يبكـي، فقيل له: يـا أبا عبـد الله، عليك بالرجاء؛ فإن عفو الله أعظم من ذنوبك، فقال: «أوَ على ذنوبي أبكي؟! لو علمتُ أني أموت على التوحيد لم أبال بأن ألقى الله بأمثال الجبال من الخطايا».

ذكر طرف من قصص الموفقين إلى النطق بالشهادة عند حضور الموت

ـ عن محمد بن علي بن أبي طالب أن عليًّا ـ رضي الله عنه ـ لما ضُرِب أوصى بنيه، ثم لم ينطق إلا بـ«لا إله إلا الله» حتى قبضه الله»[(١)].

ـ وعن أنس بن سيرين قال: شهدت أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ وحضره الممات، فجعل يقول: لقنوني «لا إله إلا الله»، فلم يزل يقولها حتى قُبِضَ[(٢)].

ـ وقيل: إنه دُخل على حكيم بن حزام ـ رضي الله عنه ـ عند الموت، وهو يقول: «لا إله إلا الله، قد كنت أخشاك، وأنا اليومَ أرجوك»[(٣)].

ـ وعن ليث بن أبي رقية كاتبِ عمر بن عبد العزيز أن عمر بن عبد العزيز قال: أجلِسُوني، فأجلسوه، فقال: «أنا الذي أمرتَني فقصَّرتُ، ونهيَتني فعصيتُ»، ثلاثًا، «ولكن: لا إله إلا الله»، ثم أحدَّ النظر، وقال: «إني لأرى حَضْرَةً ما هم بإنس ولا جن»، ثم قُبِضَ[(٤)].

ـ وعن أبي معشر زياد بن كليب قال: دخلنا على إبراهيمَ النَّخَعي حين ثقل، فجعل يقول: «لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير».

---

(١) «كتاب المحتضرين» ص (٦١).

(٢) «الثبات عند الممات» ص (١٣٣).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٤٤).

(٤) «نفسه» (٥/ ١٤١).

قال: فلما زاد ثقلًا جعل ينقص حتى قال: «لا إله إلا الله وحده، لا إله إلا الله» ثم قضى[(١)].

ـ وقال جعفر بن محمد الصائغ: بَصُرتُ عيناي ـ وإلا فعميتا ـ وسَمِعَتْ أذناي ـ وإلا فَصُمَّتا ـ أحمدَ بنَ نصرٍ الخُزاعيَّ حيث ضُرِبت عنقُه يقول رأسُه: «لا إله إلا الله»[(٢)].

ـ وقال أحمد بن عبد الله العِجْلي: حدثني أبي قال: لما احتُضِرَ ابنُ المبارك، جعل رجل يُلقنه، قل: لا إله إلا الله، فأكثر عليه، فقال له: «لستَ تُحْسِنُ، وأخافُ أن تُؤذيَ مسلمًا بعدي، إذا لقنتني، فقلتُ: لا إله إلا الله، ثم لم أُحْدِثْ كلامًا بعدها، فدعني، فإذا أحدثتُ كلامًا، فَلَقِّنِّي حتى تكونَ آخِرَ كلامي»[(٣)].

ـ وقال علقمة بن قيس النخعي لمن حضروا احتضارَه: ..«وإن استطعتم أن يكون آخر كلامي لا إله إلا الله فافعلوا»[(٤)].

ـ وعن عمر بن محمد بن إسحق قال: سَمعتُ ابنَ وَارَة يقولُ: حضرتُ أنا وأبو حاتِم عند وفاةِ أبي زُرعة[(٥)]، فقلنا: كيفَ تُلقِّن مثلَ أبي زرعة[(٦)]؟ فقلتُ: حدثنا أبو عاصم، حدثنا عبدُ الحَميد بن جَعفر. وقال أبو حَاتِم: حدثنا بُندَارٌ في آخرين، حدثنا أبو عَاصِم، حدثنا عبدُ الحميد، فَفتح عينَه، وقال: حدثنا بُندار، حدثنا أبو عاصم، أخبرنا عبدُ الحميد، حدثنا صالحُ بنُ أبي عَريب، عن كثيرِ بن مُرَّة،

(١) «كتاب المحتضرين» ص (١٢١).

(٢) «تاريخ بغداد» (٥/ ١٧٧).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤١٨)، وانظر: «صفة الصفوة» (٤/ ١٢١، ١٢٢).

(٤) «حلية الأولياء» (٢/ ١٠١).

(٥) هو الإمام، سيد الحفاظ أبو زرعة الرازي، انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٦٥-٨٥).

(٦) وفي رواية: «أنهم استحيوا من أبي زُرعة أن يلقنوه، فقالوا: تعالوا نذكر الحديث».

عن مُعاذٍ، قال: قال رسـولُ الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ «مَنْ كَانَ آخِرَ كَلامِهِ: **لا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ**»، وخرج روحُه معه[١].

ـ وكان العالم النحوي محمد بن محمد باكثير الحضرمي جالسًا في مجلس الـدرس، يقـرأ عليه القارئ فـي (الجامع الصغير) للسـيوطي، فلمـا بلغ حديث: «**لقنوا موتاكم: لا إله إلا الله**» نطق بها، ومات لِتَوِّهِ[٢].

ـ وقـال رجاء بن حيوة: دخلت على سـليمان[٣] فإذا هو يمـوت، فجعلتُ إذا أَخَذَتْهُ سكرةٌ من سكرات الموت حرفتهُ إلى القبلة، فيقول حين يفيق: «لم يأنِ بعد»، ففعلت ذلك مرتين أو ثلاثًا، فلما كانت الثالثة قال: «من الآن يا رجاء إن كنتَ تريد شيئًا، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله». فحرفته، فمات[٤].

ـ وقـال الخليفـة أبو جعفر المنصور عند موته: «اللهـم إن كنتَ تعلم أني قد ارتكبـتُ الأمـورَ العظامَ جُـرأةً مني عليك، فإنـك تعلمُ أني قـد أطعتك في أحبِّ الأشياء إليك: شهادة أن لا إله إلا أنت، مَنًّا منك لا مَنًّا عليك»[٥].

ـ وقال أبو عليٍّ المَقْدِسـيُّ: لما حَضَرَتْ آدمَ بنَ أبي إياسٍ الوفاةُ خَتَمَ القرآن وهو مسجًّى، ثم قال: بحبِّي لك إلا رفقتَ بي في هذا المصرع، كنتُ أؤمِّلك لهذا اليوم، كنت أرجوك. ثم قال: لا إله إلا الله. ثم قضى[٦].

---

(١) «تاريخ بغداد» (١٠/ ٣٣٥)، و«تقدمة الجرح والتعديل» ص (٣٤٥، ٣٤٦).

(٢) «لحظات قبل الموت» ص (٢٨٤، ٢٨٥).

(٣) الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك الذي ختم أيامه بتولية عمر بن عبد العزيز خليفة للمسلمين.

(٤) «الكامل في التاريخ» (٤/ ٣١٣).

(٥) «عيون الأخبار» (٢/ ٣١١).

(٦) «صفة الصفوة» (٤/ ٣٠٨)، و«مرآة الجنان» (٢/ ٨٠).

ـ ولما حضرت الوفاةُ رئيسَ القضاة عز الدين أبا المفاخر محمد بن عبد القادر الأنصاري المعروف بابن الصائغ، جمع أهله وتوضأ وصلَّى بهم، ثم قال: «هَلِّلوا معي، وبقي يهلِّل بهم إلى أن توفي، مع قول: لا إلٰه إلا الله. ذكره البرزالي[1].

ـ وقال شهاب الدين بن مري: لما احتُضر ـ أي: قاضي طرابلس أحمد ابن أبي بكر الإسكندري ـ اجتمعنا حوله، فأظهر فرحًا واستبشارًا، وكرَّر كلمتَيْ الشهادة، وقال: ساعدوني وآنسوني، فإن للنفس انزعاجًا عند الفراق، وإذا رأيتموني مِتُّ مسلمًا فاشكروا ربكم على الهداية لهذا الدين العظيم.

ثم كرَّر الشهادة نحو ثلاثين مرة، ومات[2].

ـ وأعدَّ ملك حماة ومؤرخها وعالمها أبو الفداء إسماعيل بن علي (ت٧٣٢) قبره بنفسه منذ سنة (٧٢٧)، ودام مرضه اثني عشر يومًا قبل أن يموت، ففرَّق كثيرًا من كتبه، ووقف بعضَها، وفي ليلة الخميس التي توفي في سَحَرِها، قال لغلامه الملازم خدمته: «هلل، واذكر الله». فما زال الغلام يذكر الله ويهلِّل، وهو معه يهلل، ويذكر الله ـ تعالى ـ، حتى فارق. رحمه الله[3].

ـ وعبد الله بن علي بن أبي المعالي البهاء الكازروني، رئيس المؤذنين بمكة المكرمة، وناب بالحسبة فيها. مات سنة ٨٠٨هـ. صحَّ عمَّن حضره وقتَ الاحتضار أنه سمعه وهو في النزع يقول: أما أعرفك يا شيطان؟ أو: أنت شيطان، أشهد ألَّا إلٰه إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، ثم فاضت روحه.

---

(١) «شذرات الذهب» (٥/ ٣٨٤).

(٢) «الدرر الكامنة» (١/ ١٣٠).

(٣) «لحظات قبل الموت» ص (٢٤٠).

قال الإمام السخاوي: ولعل ذلك ثمرةُ ذكره لله في الأسحار[١].

ـ سلَّام بن سليمان المُزَني، أبو المنذر، القارئ النحوي الكوفي، كان شديدًا على القدرية (ت١٧١هـ) قال حماد بن زيد: دخلتُ على سلَّام أبي المنذر وهو في النَّزع، فجعل يُلقَّن، فأبطأ عنه، فغمَّني ذلك، فأذَّن مؤذِّنٌ على المنارة، فقال: «أشهد أن لا إله إلا الله، الذي لا يكونُ في السماءِ والأرضِ إلا ما شاء». ثم مات[٢].

ـ الشيخ أحمد بن عبد اللطيف التونسي كان عالمًا متفوقًا بارعًا محققًا، نزل دمشق، وبها مات سنة ١١٢٦هـ، وعند احتضاره أشهد على نفسه لولده الأديب محمد وللشيخ عبد اللطيف العمري أنه تارك الدنيا مقبل على الأخرى، يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن ما جاء به رسول الله حق، وأن الجنة حق، والنار حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور...

ثم ابتدأ في قراءة ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [آل عمران:١٨]، إلى آخر الآية، وسَلَّمَ الروحَ إلى بارئها[٣].

ـ قال الباطِرقاني: وكنتُ مع أبي عبد الله في الليلة التي تُوفي فيها، ففي آخر نَفَسِه قال واحد منا: لا إله إلا الله ـ يريد تلقينه ـ فأشار بيده إليه دفعتين ثلاثة. أي: اسكت يُقالُ لي مثلُ هذا؟![٤].

---

(١) «الضوء اللامع» (٥/ ٣٤).

(٢) «تهذيب الكمال» (١٢/ ٢٩٠).

(٣) «سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر» للمرادي (١/ ١٣١).

(٤) انظر: «الذيل» (٢/ ٢٨٤).

ـ وقال سهيل بن عمار: رأيت يزيد بن هارون في المنام بعد موته، فقلت له: مـا فعل الله بك؟ فقال: أتاني في قبري ملكان فظَّانِ غليظان، فقالا: ما دينك ومن ربـك ومن نبيُّك؟ فأخـذتُ بلحيتي البيضاء وقلت: أَلِمِثْلِـي يُقال هذا وقد عَلَّمتُ النَاسَ جوابكما ثمانين سَنة؟![1].

ـ وعـن العـدل محب الدين قـال: رأيت ابن الوجوهي بعـد موته، فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال: نزلا عليَّ، وأجلساني، وسألاني، فقلت: أَلِمِثْلِ ابنِ الوجوهي يُقال ذلك؟! فأضجعاني ومضيا[2].

ـ والعلامة تاج الدين الفاكهاني لما حضرته الوفاة جعل بعض أقاربه يتشهد بين يديه ليذكِّره، ففتح عينيه وأنشد:

ولفع يقنقهي لهوفع غعهفهو   وهغو هقيغ عهلهف فغو ظقنقع

ثم تشهَّد، وقضى نحبه[3].

ـ وروى أبـو طاهـر السِّـلَفي فـي (معجمه): أنه كانـت في دار بنـي الأبرقي عجـوز رومية نصرانية تذهب كل أحد إلـى البيعة، وأبغضُ مَنْ إليها الذي يُعَرِّضُ لها بالدخولِ في الإسلام! وكانت مجتهدة في النصرانية عدة سنين.

فلمـا حضرتْها الوفـاة قالت لمواليها: أحضِروا لي الجيـران. فأحضروا نفرًا منهم، فأشهدتهم على إسلامها، وتشهَّدت وماتت عَقِيبَ ذلك!.

(١) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٩/ ٣٦٣).
(٢) «الذيل» (٢/ ٢٨٤).
(٣) «الديباج المُذَهَّب» (١/ ١٨٧).

فجاء النصارى ليدفنوها في مقابرهم، فشهد المسلمون بإسلامها، فغُسِّلت وكُفِّنَتْ وصُلِّيَ عليها، ودُفنت في مقابر المسلمين، ولم تركعْ لله قَطُّ ركعةً واحدة[1].

ـ ورُوي عن الحسن البصري ـ رحمه الله ـ أنه قال: دخلت على بعض المجوس وهو يجود بنفسه عند الموت، وكان منزلُه بإزاء منزلي وكان حَسَنَ الجوار، حسنَ السِّيرة، حسنَ الأخلاقِ، فرجوتُ أنَّ الله يوفقه عند الموت، ويُمِيتُه على الإسلام، فقلت له: ما تجد، وكيف حالك؟ فقال: لي قلب عليل ولا صحَّة لي، وبدنٌ سقيمٌ ولا قوَّة لي، وقبر مُوحِشٌ ولا أنيسَ لي، وسَفَرٌ بعيد ولا زاد لي، وصِراطٌ دقيقٌ ولا جَواز لي، ونارٌ حاميةٌ ولا بدنَ لي، وجنَّةٌ عالية ولا نصيب لي، وربٌّ عادل ولا حُجَّة لي.

قال الحسن: فرجوتُ الله أن يوفِّقَه، فأقبلتُ عليه، وقلت له: لم لا تُسْلِم حتى تَسْلَمَ؟ قال: يا شيخُ، إنَّ المِفتاح بيدِ الفتَّاح، والقُفْل ها هنا، وأشار إلى صدرِه، وغُشِيَ عليه.

قال الحسن: فقلت: إلهي وسيِّدي ومولاي، إن كان سبقَ لهذا المجوسي عندك حسنة فعجِّل بها إليه قبل فراق روحه من الدنيا وانقطاع الأمل.

فأفاق من غشيته وفتح عينيه، ثم أقبل وقال: يا شيخ ، إن الفتَّاح أرسل المفتاح، امددْ يُمناك فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله. ثم خرجت روحُه[2].

(١) «لحظات قبل الموت» ص (٢١١).

(٢) «بحر الدموع» لابن الجوزي ص (٢٨).

ـ وذكر أحد أبناء الشيخ عبد العزيز بن باز (ت ١٤٢٠هـ) ـ رحمه الله ـ عن اللحظات الأخيرة التي عاشها أبوه فقال: عندما نقلناه إلى المستشفى في الطائف كان هناك مُمَرِّض نصراني بجوار والدي ـ رحمه الله ـ، وكنا أنا وإخواني نحيط به، فكان أكثر ما يحثُّ وينصح ذلك الممرضَ النصرانيَّ باعتناق الإسلام، ودعاه بشدة على أن لا يموتَ على النصرانية.. هذا الحديث من والدي للممرض كان قبل ساعتين من وفاته ـ رحمه الله ـ.

وحول الكلمات الأخيرة التي كان يرددها قبل وفاته قال ابنه أحمد: سمعته يردد ما نصه: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله»، ثم تبسَّم لنا ـ رحمه الله ـ، ثم أغمضت عيناه قبل ساعة من وفاته[١].

ـ (عائشة) أمٌّ من باكستان.. توفيت في مكة سنة ١٤١٢هـ، ودفنت في مقبرة المعلاة بالقرب من قبر والدتها، وذلك بعد ستة أشهر من مرضها بالكُلى.. وطلب ابنها «محمد إسحاق» أن توصيهم فقالت بصوت رفيع، وقد ساءت حالتها:

أوصيكم بقول لا إله إلا الله، محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفهمها، والعمل بمقتضاها، فهي أكبر مُلْكٍ وثروةٍ في الدنيا والآخرة، أدُّوا حقَّها، واقدُروها حقَّ قدرِها ما دمتم أحياء، احيوا عليها وموتوا عليها، واختاروا الأولياء والأصدقاء الصالحين من المصلِّين فإنهم يساعدونكم في الحسنات[٢].

(١) «لحظات قبل الموت» ص (٣٢٥).

(٢) «نفسه» ص (٣١٢).

ذكر بعض أخبار من خانه قلبه ولسانه عند حضور الموت فحيل بينه وبين الشهادة - عياذًا بالله - من سوء الخاتمة

- السلطان عضد الدولة البويهي الذي تملَّك بفارس ثم كثرت بلادُه واتسعت ممالكُه، كان بطلًا شجاعًا، أديبًا نحويًا، جبارًا عسوفًا، يقول الشعر، بينها أبيات كفرية، وكان شيعيًّا جَلْدًا، أقام شعار الرفض. كان حسابُ ممالكه في العام أزيد من (٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠) درهم.. وكان يتطلع إلى أن يصير مليون درهم في اليوم!

مات بعلة الصَّرْع سنة (٣٧٢هـ)، ونُقل أنه لما احتُضِرَ ما انطلق لسانه إلا بقوله - تعالى -: ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴾ [الحاقة: ٢٨، ٢٩][(١)].

- الشاعر الحِمْيَري إسماعيل بن محمد شاعر شيعي معروف، أفرط في النيل من بعض الصحابة وأزواج النبي - صلى الله عليه وسلم -، وكان يتعصب لبني هاشم تعصبًا شديدًا، وأكثر شعره في مدحهم وذم غيرهم.

ذكر صاحب (الأغاني): أن أبا داود وإسماعيل بن الساحر حضراه عند وفاته بواسط سنة (١٧٣هـ)، وقد أصابه كرب شديد، فجلس ثم قال: اللهم أهكذا جزائي في حُبِّ آلِ محمد؟![(٢)].

وقال أبو ريحانة: كان السيد لما حضرته الوفاة جاءنا وليُّه فقال: «هذا وإن كان مُخْلِطًا فهو من أهل التوحيد، وهو جارُكم، فادخلوا عليه فلقِّنوه الشهادة» قال: فدخلنا إليه وهو يجود بنفسه، فقلنا له: قل: لا إله إلا الله.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٦/ ٢٤٩).

(٢) انظر: «الأغاني» (٧/ ٢٩٦).

قال: فاسودَّ وجهه، وفتح عينيه ثم قال: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ [سبأ: ٥٤] فخرجنا، ومات من ساعته[(١)].

- قال الحافظ ابن رجب الحنبلي - رحمه الله -: قال عبد العزيز بن أبي رواد: حضرت رجلًا عند الموت يُلَقَّنُ الشهادةَ: لا إله إلا الله، فقال في آخر ما قال: «هو كافر بما تقول»، ومات على ذلك. قال: فسألت عنه، فإذا هو مدمن خمر. وكان عبد العزيز يقول: اتقوا الذنوب فإنها هي التي أوقعته[(٢)].

- وقيل لبعض المحتضَرين: قل: لا إله إلا الله، فقال: آه! آه! لا أستطيع أن أقولها.

- وقيل لآخر ذلك فقال: وما ينفعني ما تقول، ولم أدَعْ معصيةً إلا ركبتُها، ثم قضى، ولم يقلها.

- وقيل لآخر ذلك، فقال: وما يغني عنِّي، وما أعرف أني صلَّيْتُ لله صلاةً، ولم يقلها.

- وقيل لآخر ذلك، فقال: هو كافر بما يقول، وقضى.

- وقيل لآخر ذلك، فقال: كلَّما أردتُ أن أقولها فلساني يُمسِكُ عنها.

- ولقن رجل من الصالحين شخصًا يُحتضر شهادة أن لا إله إلا الله، قال: فكان الرجل يحرك رأسه يمينًا وشمالًا وهو لا يتكلم وكأنه يقول له: لا لن أقولها.

---

(١) «الوافي بالوفيات» (٩/ ١٢٢).

(٢) «جامع العلوم والحكم» ص (٥٠).

ـ وقيل لآخر: قل: لا إله إلا الله، فقال:

يع قّغ نعاثغ يوهع ونف غلغغ   نيذ عهكقينّ عهو فهعى ههفعغ[1]

ثم قضى.

ـ قال محمد بن داود بن الجراح في أخبار مطيع بن إياس الكناني: إنه كان يُرمى بالزندقة. وروي أنه لما حضرته الوفاة أحاط به أهلُ بيته، فأقبلوا يقولون له: قل يا مطيع، قل لا إله إلا الله. فلا يقول، حتى إذا صارت نفسُه في ثغرتِه كرَّ يتنفَّس، ثم أهوى إلى الكلام، فقالوا له: قل لا إله إلا الله. فتكلم كلامًا ضعيفًا، فتسمعوا له، فإذا هو يقول:

همذّ منقيد لهو عهقهعي وني ظيى   قهعه فمغهيّ عاقعهة

فيه فعظ عهقغيلوعقغنغهة عهكيذ   نثة وكعغ عهكيظ وعهقيفعة

ـ ومرَّ أبو علي الروذباري ببادية فرأى حَدَثًا يجود بروحه، فقال له: قل: لا إله إلا الله. فأنشأ يقول:

ظيعهّه هيق هيهه وعه لقغهي غف   ويعهّه عهههنهغيهع هعهةهةفف

ـ قال عبد الحق: وقيل لآخر ممن أعرفه: قل: لا إله إلا الله، فجعل يقول: «الدار الفلانية أصلحوا فيها كذا، والبستان الفلاني افعلوا فيه كذا».

وقال ابن القيم: «وأخبرني بعض التجَّار عن قرابة له أنه احتُضِر، وهو عنده، فجعلوا يلقِّنونه: لا إله إلا الله، وهو يقول: هذه القطعة رخيصة، هذه مشترى جيّد، هذه كذا، حتى قضى.

(١) ولهذا البيت قصة انظرها في «الجواب الكافي» ص (٣٨٧، ٣٨٨) طبعة دار عالم الفوائد.

ـ وقيـل لآخر: قـل: لا إله إلا الله، فجعل يهـذي بالغناء ويقـول: تاننا تنتنا، حتى قَضَى.

وقيل لآخر: قل: لا إله إلا الله، فقال: «شاه، رُخّ، غلبتُك». ثم قضى.

وأخبرنـي مَن حضر بعضَ الشـحَّاذين عند موته، فجعل يقول: لله فِلْس، لله فلس، حتى قضى»[1].

(١) انظر: «الجواب الكافي» ص (٢١٧).

لا إله إلا الله

(٣١) أثقل شيء في الميزان

عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال: سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: «**إن الله سيخلِّص رجلًا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشرُ عليه تسعةً وتسعين سِجلًّا، كل سِجِلٍّ مثلُ مَدِّ البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئًا؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفلك عُذْر؟ فيقول: لا يارب، فيقول: «بلى، إن لك عندنا حسنةً، وإنه لا ظلم عليك اليوم، فيخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، فيقول: احضَرْ وزنَك، فيقول: ياربِّ! ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فقال: فإنك لا تُظلم، قال: فتوضع السجلات في كِفَّة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلاتُ وثقلت البطاقة، ولا يثقل مع اسم الله ـ تعالى ـ شيء**»[(١)].

قال الشاعر:

همهع غننقغ ني قهوغي   فسغ لهو نهغي عفغقعنه
هنهه يهكني هميغي   غقنق هع فعظ ني عهغكعنه

ولا ريب أنَّ هذا قد قام بقلبه من الإيمان ما جعل بطاقته التي فيها لا إله إلا الله تطيش بتلك السِجلَّات، إذ الناس متفاضلون في الأعمال بحسب ما يقوم بقلوبهم من الإيمان، وإلا فكم من قائل لا إله إلا الله لا يحصل له مثل هذا لضعف إيمانه بها في قلبه، فقد ورد في الصحيحين من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «**يخرج من النار من**

---

(١) رواه الإمام احمد (٢/ ٢١٣)، والترمذي رقم [٢٦٣٩] وحسَّنه، وابن ماجة رقم [٤٣٠٠]، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم [٨٠٩٥].

قال **لا إله إلا الله** وفي قلبه وزن شعيرةٍ من خير، ويخرج من النار من قال **لا إله إلا الله** وفي قلبه وزن بُرَّة من خير، ويخرج من النار من قال **لا إله إلا الله** وفي قلبه وزن ذرة من خير»[(١)]، فدلَّ ذلك على أن أهل **لا إله إلا الله** متفاوتون فيها بحسب ما قام في قلوبهم من إيمان.

وعن عبد الله بن عمرو، قال: كنا عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجاء رجل من أهل البادية عليه جبة سيجان مزرورة بالديباج فقال: ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس ابن فارس، قال: يريد أن يضع كل فارس ابن فارس، ويرفع كل راع ابن راع، قال: فأخذ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمجامع جبته وقال: **«أَلا أَرَى عَلَيْكَ لِبَاسَ مَنْ لا يَعْقِلُ؟!»** ثم قال: **«إنَّ نبيَّ الله نُوحًا لما حَضرتهُ الوَفاةُ قال لابْنِه: إنِّي قاصٌّ عليك الوَصيَّة آمُرُك باثْنتينِ، وأنهاكَ عن اثْنتيْنِ: آمرُك بلا إله إلا الله فإنَّ السَّمواتِ السَّبعَ والأرضينَ السَّبعَ لو وُضِعَتْ في كِفَّةٍ ووُضِعَتْ لا إله إلا الله في كِفةٍ رَجَحَتْ بهنَّ لا إله إلا الله، ولو أن السَّمواتِ السَّبعَ والأرضينَ السبعَ كُنَّ حَلْقَةً مُبْهَمةً[(٢)] قصمتْهُنَّ[(٣)] لا إله إلا الله وسبحان الله وبحمده، فإنها صلاةُ كُل شيءٍ، وبها يُرزَقُ الخَلْقُ، وأنهاك عن الشِّرك والكِبْرِ»** قال: قلت ـ أو قيل ـ: يا رسول الله، هذا الشرك عرفنا، فما الكبر؟ قال: أيكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شِراكان حسنان؟ قال: «لا» قال: أيكون لأحدنا حُلَّةٌ يلبسها؟ قال: «لا»، قال: الكبر هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها؟

---

(١) رواه البخاري [٤٤] ومسلم [١٩٣].

(٢) **مُبهمة**: المبهم من الأجسام: المُصْمَت.

(٣) **قَصمتْهُن**: وفي رواية: فصمتهن بالفاء، **والقصم**: كسر الشيء وإبانته، وبالفاء: كسره من غير إبانته.

قال: «لا»، قال: أفهو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟ قال: «لا» قيل: يا رسول الله! فما الكِبْر؟ قال: «**سَفَهُ الحقِّ وغَمْصُ**[١] **الناسِ**»[٢].

وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ، عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «**قال موسى: ياربِّ، علمني شيئًا أذكرك به، وأدعوك به. قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله. قال: يارب، كل عبادك يقول هذا. قال: قل: لا إله إلا الله. قال: إنما أريد شيئًا تخصني به، قال: يا موسى، لو أن أهل السماوات السبع والأرضين السبع في كفةٍ، ولا إله إلا الله في كفةٍ، مالت بهم لا إله إلا الله**»[٣].

وعن أبي سلمى راعي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**بخٍ بخٍ**[٤] **ـ وأشار بيده لخمس ـ ما أثقلهن في الميزان! سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، والولد الصالح يُتوفى للمرء المسلم فيحتسبه**»[٥].

---

(١) **غَمْص الناس**: احتقارهم.

(٢) رواه الإمام أحمد (٢/ ١٦٩)، والبخاري في «الأدب المفرد» [٥٤٨]، والبيهقي في «الأسماء والصفات» [٦٦]، وقال الهيثمي: «ورجال أحمد ثقات» اهـ. من «مجمع الزوائد» (٤/ ٢٢٠)، وقال الألباني: «سنده صحيح» كما في «السلسلة الصحيحة» رقم [١٣٤].

(٣) أخرجه النسائي في «اليوم والليلة» [٨٣٤]، [١١٤١]، وابن حبان في «صحيحه» رقم [٦٢١٨]، والحاكم (١/ ٥٢٨)، وصححه، ووافقه الذهبي، وكذا صححه الحافظ في «الفتح» (١١/ ٢٠٨)، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: «إسناده ضعيف»اهـ. من «تحقيق الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان» (١٤/ ١٠٢).

(٤) **بخ بخ**: هي كلمة تقال عند المدح والرضى بالشيء، وتُكرر للمبالغة، وهي مبنية على السكون، فإن وَصَلْتَ جررتَ ونونتَ فقلت: بَخٍ بَخٍ، وربما شُدِّدَتْ. وبَخْبَخْتَ الرجل، إذا قلت له ذلك. ومعناها: تعظيم الأمر وتفخيمه.

(٥) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٧/ ٤٣٣)، وابن حبان [٢٣٢٨]، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم [١٢٠٤].

لا إله إلا الله

(٣٢) نجاة من النار

عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لمعاذ ـ وهو رديفه على الرَّحْل ـ: «**يا معاذ**»، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك، قالها ثلاثًا، قال: «**ما من أحدٍ يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ـ صدقًا من قلبه ـ إلا حرَّمه الله ـ تعالى ـ على النار**»، قال: يا رسول الله، أفلا أخبر به الناس فيستبشروا؟ قال: «**إذَنْ يتكلوا**»، فأخبر بها معاذٌ عند موته تأثمًا[١].

وعن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: أخبرني من شهد معاذ بن جبل حين حضرته الوفاة قال: اكشفوا عني سجف القبة، حتى أخبركم بحديث سمعته من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: «**من شهد أن لا إله إلا الله مخلصًا من قلبه لم تمسَّه النار**»[٢].

وعن عِتبان بن مالك ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «**إن الله حرَّم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله**»[٣].

وفي رواية عنه ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**لن يُوافيَ عبْدٌ يوم القيامة يقُولُ: لا إله إلا الله يبتغي به وجه الله؛ إلا حرم الله عليه النار**»[٤].

---

(١) رواه البخاري (١/ ٤١)، ومسلم رقم [٣٢].

(٢) رواه الإمام أحمد (٥/ ٢٣٦)، وابن حبان في «صحيحه» (١/ ٢٠٠)، وابن نعيم في «الحلية» (٧/ ٣١٢).

(٣) رواه البخاري (١١/ ٥١٨)، ومسلم (١/ ٤٥٦/ ح٢٦٤).

(٤) رواه الإمام أحمد [١٦٥٢٩]، والبخاري [٦٤٢٣].

وعنه ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «لا يشهد أحد أنه لا إله إلا الله، وأني رسول الله، فيدخل النار، أو تطعمه»[1].

وعن جابر ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «المُوجبتان: من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، ومن مات يُشرك بالله شيئًا دخل النار»[2].

وعن حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «يَدْرُسُ الإسلامُ كما يَدْرُسُ وَشْيُ الثوب، حتى لا يُدْرَى ما صيامٌ، ولا صلاةٌ، ولا نُسُكٌ، ولا صدقةٌ، وَلَيُسْرى على كتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في ليلةٍ، فلا يبقى في الأرض منه آية، وتبقى طوائفُ من الناس: الشيخ الكبيرُ والعجوزُ، يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة (لا إله إلَّا الله)، فنحن نقولها».

قال صلة بن زفر لحذيفة: «ما تغني عنهم لا إله إلا الله، وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة؟»

فأعرض عنه حذيفة، ثم ردها عليه ثلاثًا، كل ذلك يُعرض عنه حذيفة، ثم أقبل عليه في الثالثة فقال: «يا صلة! تنجيهم من النار». . ثلاثًا[3].

وعن أبي هريرة وأبي سعيد ـ رضي الله عنهما ـ، أنهما شهدًا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «إذا قال العبد: لا إله إلا الله، والله أكبر، قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: صدق عبدي، لا إله إلا أنا، وأنا أكبر، وإذا قال العبد: لا إله إلا الله وحده، قال: صدق عبدي، لا إله إلا أنا وحدي، وإذا قال: لا إله إلا الله

---

(١) رواه الإمام أحمد (٥/ ٤٤٩)، ومسلم (١/ ٤٥).

(٢) رواه مسلم [٩٣][١٥١].

(٣) انظر تخريجه ص (٢٩٥).

لا شريك له، قال: صدق عبدي، لا إلٰه إلا أنا، ولا شريك لي، وإذا قال: لا إلٰه إلا الله، له الملك، وله الحمد، قال: صدق عبدي، لا إلٰه إلا أنا، لِيَ الملك، ولِيَ الحمد، وإذا قال: لا إلٰه إلا الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، قال: صدق عبدي، لا إلٰه إلا أنا، ولا حول ولا قوة إلا بي، من رُزِقَهُنَّ عند موته لم تمسَّه النار»(١).

وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ، قال: كنا مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في غزاة، فقلنا: يا رسول الله! إن العدو قد حضر وهم شِباع، والناس جياع؟! فقالت الأنصار: ألا ننحر نواضحنا فنطعمها الناس؟! فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «من كان معه فضل طعام، فليجئ به». فجعل يجيء بالمُدِّ والصاع، وأكثر وأقل، فكان جميع ما في الجيش بضعًا وعشرين صاعًا، فجلس النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى جنبه، ودعا بالبركة، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ «**خذوا، ولا تنتهبوا**». فجعل الرجل يأخذ في جرابه وفي غرارته وأخذوا في أوعيتهم؛ حتى إن الرجل ليربط كُمَّ قميصه فيملأه، ففرغوا والطعام كما هو! ثم قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**أشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأني رسول الله، لا يأتي بهما عبدٌ مُحِقٌّ إلا وقاه الله حرَّ النار**»(٢).

وعن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «**من شهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمدًا رسول الله حَرَّمَ الله عليه النار**»(٣).

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يُغير إذا طلع الفجر، وكان يستمع الأذان؛ فإن سمع أمسك، وإلا أغار. فسمع

(١) انظر تخريجه ص (٣١١).

(٢) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (١/ ١٩٩، ٢٠٠)، (١/ ٢٣٠)، وقوَّاه الألباني بشواهده في «السلسلة الصحيحة» رقم [٣٢٢١].

(٣) رواه مسلم [٢٩].

رجلًا يقول: «الله أكبر، الله أكبر»، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**على الفطرة**»، ثم قال: «أشهد أن لا إلٰه إلا الله، أشهد أن لا إلٰه إلا الله»، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**خرجتَ من النار**»، فنظر، فإذا هو راعي غنم[1].

وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: كان غلام يهودي يخدم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فمرض فأتاه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعوده فقعد عند رأسه فقال له: «**أَسْلِمْ**» فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له: أطع أبا القاسم ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأسلم، فخرج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يقول: «**الحمدُ لله الذي أنقذهُ من النار**»[2].

عه هه ظنه ظفهكغ نيكعلغن ... نعههي ظكهل ني قفهغن
وعههع يثل هي ظههي نف لئ ﴿ ظنننذإن ني وففغن

ـ اللهم إنا أطعناك في أحبِّ الأشياء إليك أن تُطاعَ فيه: الإيمانِ بك والإقرار بك، ولم نعصِك في أبغض الأشياء أن تُعصى فيه: الكفر والجَحْد بك، اللهم فاغفر لنا ما بينهما، وأنت قلت: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨]، ونحن نقسمُ بالله جهد أيماننا لتبعثنَّ من يموتُ، أفتراك تجمعُ بين أهل القَسَمَيْنِ في دارٍ واحدة؟!

يع قغ عه لهغ قهوغي نغقغ ... نهنف لههغ غظه لنون ظللهة
عه نعه ﴿ يقفون ﴾ع ههفقه ... نهه عهقي يفلو ويقفو عههفقه
ظفلون يع قغ نهع ظهقغ غ إلع ... نعقع قففغ نهه قع يقفه
هع هي عهين وقيهغ ع﴾ عهقفع ... وفهيه لنون غه عهي هقهه

---

(١) رواه مسلم [٣٨٢].

(٢) رواه البخاري [١٣٥٦].

فائـدة: قال العلامة الألباني ـ رحمه الله ـ:

«هـذا وقد اختلفوا في تأويل حديث الباب[1] ومـا في معناه من تحريم النار على من قال لا إله إلا الله، على أقوال كثيرة، ذكر بعضها المنذري في (الترغيب) (٢/ ٢٣٨)، وتـرى سـائرها فـي (الفتح). والـذي تطمئن إليه النفس وينشـرح له الصدر، وبه تجتمع الأدلة، ولا تتعارض أن تُحملَ على أحوال ثلاثة:

الأولى ـ من قام بلوازم الشهادتين من التزام الفرائض والابتعاد عن الحرمات، فالحديث حينئذٍ على ظاهره فهو يدخل الجنة وتحرم عليه النار مطلقًا.

الثانية ـ أن يموت عليها، وقد قام بالأركان الخمسة، ولكنه ربما تهاون ببعض الواجبات، وارتكب بعض المحرمات، فهذا ممن يدخل في مشيئة الله ويغفر له كما في الحديث الآتي بعد هذا[2] وغيره من الأحاديث المكفِّرات المعروفة.

الثالثـة ـ كالذي قبله، ولكنه لم يقـم بحقها، ولـم تحجزه عن محارم الله كما فـي حديـث أبي ذر المتفـق عليه: «وإن زني وإن سـرق...» الحديث، ثم هو إلى ذلـك لـم يعمل من الأعمال ما يسـتحق به مغفـرة الله، فهذا إنما تحـرم عليه النار التـي وجبـت على الكفار، فهـو وإن دخلها، فلا يخلد معهم فيهـا، بل يخرج منها بالشـفاعة أو غيرها ثم يدخل الجنة ولابد، وهذا صريح في قوله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ: «**من قال لا إله إلا الله نفعته يومًا من دهره، يصيبه قبل ذلك ما أصابه**». وهو حديث صحيح. . والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم»[3]اهـ.

---

(١) وهو حديث أبي موسـى ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «**أبشـروا، وبَشِّروا مَن وراءكم، أنه من شهد أن لا إله إلا الله صادقًا دخل الجنة**»، وهو في «السلسلة الصحيحة» رقم [٧١٢].

(٢) ونصه: «**من لقي الله لا يشـرك به شـيئًا، يصلي الصلوات الخمس، ويصوم رمضان غفر له**» وهو في «الصحيحة» برقم [١٣١٥].

(٣) «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٣/ ٢٩٩، ٣٠٠).

فائدة: الإيمان المطلق يمنعُ دخولَ النار، ومطلق الإيمان يمنع الخلودَ فيها:

قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ:

«الإيمـان المطلـق لا يُطْلَـق إلا علـى الكامل الكمـال المأمور بـه، ومطلق الإيمان يُطلق على الناقص والكامل»[1]اهـ.

(١) انظر شرحه في «بدائع الفوائد» (٤/ ١٣٢٣-١٣٢٧).

لا إله إلا الله

(٣٣) نجاة من الخلود في النار

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «من قال: **لا إله إلا الله، أنجته يومًا من دهره، أصابه قبل ذلك ما أصابه**»[(١)].

والموحِّدون ـ وإن أُدخِلوا النار بذنوبهم التي ماتوا ولم يتوبوا منها ـ لكنهم لا يخلدون فيها، ويخرجون منها إلى الجنة.

قال الإمام الطحاوي ـ رحمه الله ـ: «وأهل الكبائر من أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في النار لا يخلدون إذا ما ماتوا وهم مُوَحِّدون، وإن كانوا غيرَ تائبين، بعد أن لقوا الله عارفين، وهم في مشيئته وحكمه، إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله كما ذكر ـ عزَّ وجلَّ ـ في كتابه: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]، وإن شاء عذبهم في النار بعدله، ثم يخرجهم منها برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته، ثم يبعثهم إلى جنته، وذلك بأن الله تولى أهل معرفته، ولم يجعلهم في الدارين كأهل نكرته، الذين خابوا مِن هدايته، ولم ينالوا مِن وَلايته»[(٢)].اهـ.

وفي حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ في الشفاعة في آخره قال صلى الله عليه وسلم: «.... **ثُمَّ أَعُودُ الرَّابعةَ فأحمدُه بتلك المحامدِ ثم أَخِرُّ له ساجدًا، فَيُقالُ: وَعِزَّتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأُخرجنَّ منها من قال: لا إله إلا الله**»[(٣)].

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٤٦)، والبيهقي في «الشعب» (١/ ٥٦)، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم [١٩٣٢].

(٢) «شرح الطحاوية» ص (٣٧٠).

(٣) رواه البخاري رقم [٧٥١٠]، ومسلم [١٩٣].

وفي حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «... ويُضرَبُ الصراطُ بين ظهرَيْ جهنم فأكون أنا وأمتي أوَّل من يُجيزها ولا يتكلم يومئذٍ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سلِّم سلِّم، وفي جهنم كلاليبُ مثلُ شوكِ السَّعْدَانِ. هل رأيتم السَّعْدانَ؟ قالوا: نعم يا رسول الله! قال: فإنها مثل شوك السَّعدانِ غير أنه لا يعلم ما قَدْرُ عِظَمِها إلا الله تَخْطَفُ النَّاسَ بأعمالهم فمنهم المُوبَقُ بعمله، أو المُوَثَّقُ بعمله، ومنهم المُخردَلُ أو المُجازَى أو نحوه ثم يتجلى حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يُخرجَ برحمته مَن أراد مِن أهل النار أمر الملائكة أن يُخرِجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئًا ممن أراد الله أن يرحمه ممن يشهد أن لا إله إلا الله فيعرفونهم في النار بأثر السجود تأكلُ النارُ ابنَ آدم إلا أثَرَ السجودِ، حرَّم الله على النار أن تأكل أثر السجود، فيخرجون من النار قد امتُحِشوا فَيُصَبُّ عليهم ماءُ الحياة فينبُتون تحته كما تَنْبُتُ الحِبَّةُ في حَميلِ السَّيْلِ»(1).

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خيرٍ، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن بُرَّةٍ من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرَّةٍ من خير»(2).

وعن أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: «يوضَعُ الصراطُ بين ظهري جهنم عليه حَسَكٌ كحسك السَّعْدانِ، ثم يَستجيزُ الناسُ فناجٍ مُسَلَّمٌ، ومَجْروحٌ به، ثم ناجٍ ومُحْتَبَسٌ به، فمَنكُوسٌ فيها، فإذا فرغ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من القضاء بين العباد، يفقد المؤمنون رجالًا كانوا معهم في الدنيا

(١) رواه البخاري رقم [٧٤٣٧]، ومسلم [١٨٢].
(٢) رواه البخاري [٤٤]، ومسلم [١٩٣].

يُصَلون بصلاتهم، ويُزَكون بزكاتهم، ويصومون صيامَهم، ويحجون حَجَّهم، ويغزون غزوهم، فيقولون: أي ربَّنا عبادٌ من عبادِكَ كانوا معنا في الدنيا يصلون صلاتنا، ويزكون زكاتنا، ويصومون صيامنا، ويحجون حَجَّنا، ويغزون غزونا لا نراهم، فيقول: اذهبوا إلى النار، فمن وجدتم فيها منهم فأخرجوه، قال: فيجدونهم قد أخذتهم النارُ على قدر أعمالهم، فمنهم من أخَذَتْهُ إلى قدميه، ومنهم من أخذته إلى نصف ساقيه، ومنهم من أخذته إلى ركبتيه، ومنهم من أَزَّرَتْهُ، ومنهم من أخذته إلى ثدييه، ومنهم من أخذته إلى عنقه، ولم تَغْشَ الوجوهَ، فيستخرجونهم منها، فيُطرَحون في ماء الحياة» قيل: يا رسول الله! وما الحياة؟ قال: «غُسْلُ أهل الجنة، فينبتون نباتَ الزَّرْعةِ ـ وقال مرةً فيه: كما تنبت الزرعة ـ في غُثاءِ السيل، ثم يَشْفَعُ الأنبياء في كل من كان يشهد أن لا إله إلا الله مخلصًا، فَيُخرجونهم منها، قال: ثم يتحنَّنُ الله برحمته على من فيها، فما يترك فيها عبدًا في قلبه مثقالُ حَبةٍ من إيمان إلا أخرجه منها»[(١)].

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: حدثني نبي الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «إني لَقائمٌ أنتظرُ أُمتي تعبر على الصراط، إذ جاءني عيسى، فقال: هذه الأنبياء قد جاءتك يا محمدُ يشتكون ـ أو قال: يجتمعون إليك ـ ويَدْعُونَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يفرِّقَ جَمْعَ الأمم إلى حيث يشاء الله لِغَمِّ ما هم فيه، فالخلق مُلْجَمون في العَرَقِ، فأما المؤمنُ فهو عليه كالزُّكْمَةِ، وأما الكافر فيتغشاه الموت» قال: قال: «عيسى! انتظِرْ حتى أرجعَ إليك، قال: فذهب نبي الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى قام تحت العرش، فلقي ما لم يلق مَلَكٌ مصطفًى ولا نبيٌّ مرسلٌ، فأوحى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إلى جبريلَ: أنِ اذهبْ إلى محمدٍ، فقل له: ارفع رأسَك سَلْ تُعطَ، واشفع تُشَفَّعْ، قال: فشَفَعْتُ في أمتي: أن أَخْرِجْ من كلِّ تسعةٍ وتسعين إنسانًا،

(١) رواه الإمام أحمد [١١٠٨١]، وغيره، وقال محققو «المسند»: «إسناده حسن»اهـ. (١٧/ ١٤٣).

واحـدًا، قـال: فمـا زلت أترددُ على ربـي ـ عزَّ وجلَّ ـ فـلا أقوم مقامًا إلا شَـفَعْتُ، حتى أعطانـي الله ـ عـزَّ وجـلَّ ـ مـن ذلك أن قـال: يا محمـدُ! أدخِل مِن أمتـك مِن خلق الله ـ عزَّ وجلَّ ـ مَن شهد أنه لا إله إلا الله يومًا واحدًا مخلصًا، ومات على ذلك»[(١)].

وعنـه ـ رضـي الله عنـه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسـلـم ـ قال: «يقول الله ـ عـزَّ وجلَّ ـ: وعزتـي وجلالـي وكبريائـي وعظمتـي، لأخرجـن منها مـن قـال: لا إله إلا الله»[(٢)].

وعن جابر بن عبد الله: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «إن ناسًا من أمتي يُعذبون بذنوبهم فيكونون في النار ما شاء الله أن يكونوا، ثم يُعَيِّرُهُمْ أهل الشرك، فيقولون: ما نرى ما كنتم فيه من تصديقكم وإيمانكم نفعكم، فلا يبقى مُوَحِّد إلا أخرجه الله»، ثـم قرأ رسـول الله ـ صلى الله عليه وسـلـم ـ: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ [الحجر:٢][(٣)].

وعـن أبـي موسـى ـ رضـي الله عنـه ـ قـال: قـال رسـول الله ـ صلـى الله عليـه وسـلـم ـ: «إذا اجتمـع أهـل النار فـي النار، ومعهم من شـاء الله من أهـل القِبلة، قـال الكفـارُ للمسـلمين: ألـم تكونـوا مسـلمين؟ قالـوا: بلى. قالـوا: فما أغنـى عنكم الإسـلام! فقـد صرتـم معنـا فـي النـار؟ قالـوا: كانـت لنا ذنـوب فأخذنـا بها. فسـمع الله مـا قالـوا، فأمـر بمَـن كان فـي النار مـن أهل القبلـة فأُخرِجـوا، فلمـا رأى ذلك من بقـى مـن الكفـار قالـوا: يـا ليتنـا كنـا مسـلمين فنخـرج كمـا خرجـوا». قال: ثـم قرأ

(١) رواه الإمـام أحمد [١٢٨٢٤]، وقال محققـوه: «رجاله رجال الصحيح، وفي متن هذا الحديث غرابة» اهـ. (٢٠/ ٢٠٩)، وابن خزيمة في «التوحيد» (٢/ ٦١٦، ٦١٧).

(٢) رواه البخاري (٨/ ٢٠٠-٢٠٢)، ومسلم (١/ ١٨٤) [١٩٣].

(٣) قـال الهيثمي: «رواه الطبراني في الأوسـط، ورجاله رجال الصحيح، غير بسـام الصيرفي، وهو ثقة» اهـ. من «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٧٩).

رسـول الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ: أعوذ بالله من الشـيطان الرجيم ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾[1].

يع هه يفعق عهنمه نيـ نفقغن   وغكهغ عهمنق فهو كعلغن

ظقنقهي عطغه وهنههي   كفوغ غعبحهعه نيـ قفهغن

عه هه ظنه ظفهكغ نيـ كعلغن   نعههي ظكهل نيـ قفهغن

وعههع يننننثل هي ظههي   نف لعة؛ ﴾ ظنذإن نيـ وففغن

---

(١) رواه الحاكم (٢/ ٢٤٢)، وقال: «صحيح الإسـناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، وأخرجه ابن أبي عاصم في «السُّنة» (٢/ ٤٠٥) رقم [٨٤٣]، وصححه الألباني.

(٣٤) مغفرة للذنوب، وكفارة للخطايا

قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٤٨].

وقال ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ ﴾ الآية [الأنفال:٣٨].

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدًا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [البقرة:٥٨].

«عن قتادة والحسن في قوله: ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾ أي: احطُطْ عنا خطايانا[(١)].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾ قال: مغفرة.

وعنه ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾ قال: لا إله إلا الله.

وعن عكرمة: ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾ قال: قولوا: «لا إله إلا الله»[(٢)].

وعن ابن شِماسة أنَّ عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ قال: لمَّا ألقى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في قلبي الإسلامَ، قال: أتيتُ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليبايعني، فبسط يده إليَّ، فقلت: لا أُبايعُك يا رسول الله حتى تغفر لي ما تقدَّم من ذنبي. قال: فقال لي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**يا عمرو، أما عَلِمْتَ أن الهجرةَ تجُبُّ ما قبلها من الذنوب، يا عمرو، أما علمت أن الإسلام يَجُبُّ ما كان قبلَه من الذنوب؟**»[(٣)].

---

(١) **الحَطُّ**: إنزال الشيء من عُلُوٍّ، والمعنى: حُطَّ عنا ذنوبنا، انظر: «المفردات» للأصبهاني ص (٢٤٢).

(٢) انظر: «الدر المنثور» (١/ ٣٧٧-٣٧٩).

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» رقم [١٧٨٢٧]، وقال محققوه: «إسناده صحيح على شرط مسلم».

وعن عمرو بن عبسة ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء رجل إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ شيخٌ كبير يَدَّعِمُ[1] على عصًا له، فقال: يا رسول الله، إن لي غَدَرَاتٍ وفَجَراتٍ فهل يُغفر لي؟ قال: «**ألستَ تشهَدُ**[2] **أن لا إله إلا الله**؟» قال: بلى، وأشهد أنك رسول الله، قال: «**قد غُفِرَ لك غَدَراتُكَ وفَجَراتُكَ**»[3].

ويشهد لهذا الحديث ما رواه ثابت عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء رجل إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فقال: ما تركتُ من حاجة ولا داجَّة[4] إلا أتيتُ، قال: «**أليس تشهدُ أنْ لا إله إلا اللهُ وأنَّ محمدًا رسول الله؟**» قالها ثلاث مرات. قال: نعم. قال: «**فإن ذلك يأتي على ذلك**»[5].

ويشهد له أيضًا ما رواه أبو طويل شطب الممدود ـ رضي الله عنه ـ، أنه أتى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فقال: أرأيتَ رجلًا عمل الذنوبَ كلَّها، فلم يترك منها شيئًا، وهو مع ذلك لم يترك حاجة ولا داجة إلا أتاها، فهل لذلك من توبة؟ قال: «**أليس قد أسلمت؟**» قال: أما أنا فأشهدُ أن لا إله إلا الله وحدَه

---

(١) **يَدَّعِم**: يتكئ.

(٢) أي: أما أسلمتَ بعد ذلك؟

(٣) رواه الإمام أحمد رقم [١٩٤٣٢]، وقال محققوه: «حديث صحيح بشواهده».

(٤) قال الحافظ: قوله: من حاجة ولا داجة، حكى فيها الخطابي وجهين، فأما التخفيف؛ فالحاجة ظاهرة، والداجة إتْباع فيما يظهر، وأما التشديد، فروى البغويُّ من طريق مبشّر بن عبيد قال: **الحاجَّة**: الذي يقطع الطريق على الحاج إذا ذهبوا، **والداجَّة**: الذي يقطع عليهم الطريق إذا رجعوا. قال الحافظ: ورواية التشديد لائقة بالحديث الثاني دون الأول، والله أعلم. انتهى. من «الأمالي المطلقة» ص (١٤٤).

(٥) رواه أبو يعلى [٣٤٣٣]، وابن خزيمة في «التوحيد» [٣٤٢]، والطبراني في «الصغير» [١٠٢٥]، وقال الهيثمي: «رجاله رجال الصحيح» اهـ. من «المجمع» (١٠/ ٨٦)، وصححه محقق «المطالب العالية» (١٢/ ٢٧١).

لا شـريك له، وأن محمدًا رسـول الله. قال: «**نعم، تفعلُ الخيراتِ، وتتركُ السيئاتِ، فيجعلُهُنَّ اللهُ لك حسناتٍ كُلَّهنَّ**». قال: وغَدَراتي وفَجَراتي؟! قال: «**نعم**»[(١)].

وعـن عبـد الله بـن عمـرو ـ رضـي الله عنهمـا ـ قال: سـمعتُ رسـول الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ يقول: «**من لَقِيَ الله وهو لا يُشْـرِكُ به شيئًا دخل الجنة، ولم تَضُرَّهُ معه خطيئة**[(٢)]**، كما لو لقيه وهو مشركٌ به دخل النار، ولم تنفَعْه معه حسنة**»[(٣)].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أن رسـول الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ قـال: «**مـن قـال: لا إله إلا الله وحده لا شـريك له، له الملك ولـه الحمد وهو على كل شـيء قدير، في يومٍ مائة مرة كانت له عَدْلَ عَشْـرِ رقابٍ، وكُتِبَ له مائةُ حسنةٍ، ومُحِيَتْ عنـه مائـةُ سـيئة، وكانت له حِـرْزًا من الشـيطان يومَه ذلك، حتى يُمسـيَ ولـم يأتِ أحدٌ بأفضلَ مما جاء إلا رجلٌ عَمِلَ أكثرَ منه**»[(٤)].

وعنـه ـ رضـي الله عنه ـ أن رسـول الله ـ صلـى الله عليه وسـلم ـ قال: «**من سـبَّح الله فـي دُبُـر كل صلاةٍ ثلاثًـا وثلاثين، وحَمِـدَ الله ثلاثًا وثلاثين، وكبَّـر الله ثلاثًا**

---

(١) أخرجـه ابـن أبـي عاصم فـي «الآحـاد والمثانـي» [٢٧١٨]، والبـزار [٣٢٤٤] فـي «الزوائد»، والطبراني في «الكبير» [٧٢٣٥]، وقال الهيثمي في «المجمع»: «رجال البزار رجال الصحيح غير محمـد بـن هـارون وهـو ثقـة» اهـ. (١٠/ ٨٦)، وقـال الحافظ فـي «الأمالـي المطلقـة» ص (١٤٤): «هذا حديث حسن صحيح غريب».

(٢) (قوله: «**ولم تضره خطيئة**» معناه: أن الخطايا لا تحول بينه وبين دخول الجنة، وإن مسَّه العذاب بسـببها قبـل ذلـك، يوضحه حديثُ أبي هريـرة مرفوعًا عند ابـن حبـان [٣٠٠٤]، والبزار [٣]: «**لقِّنُـوا موتاكـم لا إله إلا الله، فإن مـن كان آخر كلمته لا إله إلا الله عند الموت، دخل الجنة يومًا من الدهر، وإن أصابه قبل ذلك ما أصابه**». ـ لفظ ابن حبان ـ، وهو حديث صحيح). اهـ. من «تحقيق المسند» (١١/ ١٥٧).

(٣) رواه الإمام أحمد [٥٦٨٦]، وقال محققوه: «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

(٤) رواه البخاري [٦٤٠٣]، ومسلم [٢٦٩١].

وثلاثين، فتلك تِسعةٌ وتسعون. وقال تمام المائة: لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير غُفِرت خطاياه وإن كانت مثلَ زَبَدِ البحر»[1].

وعن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «من قال حين يسمع المؤذن: أشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، رضِيتُ بالله ربًّا وبمحمدٍ رسولًا وبالإسلام دينًا غُفِر له ذنبه»[2].

وعن شداد بن أوس ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «سيد الاستغفار أن يقول: اللهم أنت ربي لا إلٰه إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعتُ، أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوبَ إلا أنت، قال: من قالها من النهار موقنًا بها فمات من يومه قبل أن يُمسيَ فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو مُوقِنٌ بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة»[3].

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخذ غُصْنًا فنفضه فلم ينتفض، ثم نفضه فلم ينتفض، ثم نفضه فانتفض، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «إن سبحان الله والحمد لله ولا إلٰه إلا الله والله أكبر تَنْفُضُ الخطايا كما تَنْفُضُ الشجرةُ ورقَها»[4].

---

(١) رواه مسلم [٢٦٩١].

(٢) رواه مسلم [٣٨٦].

(٣) رواه البخاري [٦٣٠٦].

(٤) رواه الإمام أحمد (٣/ ١٥٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» [٦٢٤]، والطبراني في «الدعاء» [١٦٨٨]، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٧/ ٥٠١، ٥٠٢).

ورُويَ عن يعلى بن شداد قال: حدثني أبي شدادُ بنُ أوس ـ وعبادةُ بنُ الصامت حاضِرٌ يُصَدِّقُه ـ قال: كنا عند النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فقال: «**هَلْ فِيكُم غَريبٌ؟**» يعني أهلَ الكتاب. فقلنا: لا يا رسول الله. فأمر بغلق الباب، وقال: «**ارفعوا أيدَيكم، وقولوا: لا إلٰه إلا الله**» فرفعنا أيدينا ساعة، ثم وضع رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يده، ثم قال: «**الحمدُ لله، اللهُمَّ بعثتني بهذه الكلمة، وأمرتَني بها، ووعدتَني عليها الجنة، وإنَّك لا تُخلف الميعاد**» ثم قال: «**أبشروا، فإن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد غفر لكم**»[1].

ورُويَ عن أم هانئ ـ رضي الله عنها ـ؛ قالت: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**لا إلٰه إلا الله، لا يَسبقُها عملٌ، ولا تتركُ ذنبًا**»[2].

ورُؤي بعض السلف بعد موته في المنام، فسُئِل عن حاله، فقال: «ما أبقت **لا إلٰه إلا الله** شيئًا»[3].

(١) رواه الإمام أحمد [١٧١٢١]، وقال محققوه: «إسناده ضعيف» (٢٨/ ٣٤٨)، وحسَّن إسناده المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢/ ٤١٥).

(٢) «ضعيف ابن ماجة» رقم [٨٢٧]، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (٣/ ٣٠٣).

(٣) «الكلام المنتقى» لابن حجي ص (٧١).

(٣٥) سبب لاستحقاق الشفاعة

إن التوحيد المتضمنَ إخلاصَ العبادة لله ـ تعالى ـ هو أعظم سبب تُنال به الشفاعة يوم القيامة:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قيل: يا رسول الله! من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**لقد ظننتُ يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحدٌ أولُ منك لِما رأيتُ من حرصِك على الحديث: أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه أو من نفسه**»(١).

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عام غزوة تبوك قام من الليل يصلي، فاجتمع وراءه رجال من أصحابه يحرسونه، حتى إذا صلى وانصرف إليهم، فقال لهم: «**لقد أُعْطِيتُ الليلةَ خمسًا ما أُعْطِيَهُنَّ أحدٌ قبلي**» الحديث، وفيه: «**والخامسة هيَ ما هيَ، قيل لي: سَلْ، فإن كلَّ نبيٍّ قد سأل، فأخَّرتُ مسألتي إلى يوم القيامة، فهي لكم ولمن شهد أن لا إله إلا الله**»(٢).

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**لكل نبيٍّ دعوة مستجابة، فتعجَّل كل نبيٍّ دعوته، وإني اختبأتُ دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا**»(٣).

---

(١) رواه البخاري [٩٩].

(٢) رواه الإمام أحمد رقم [٧٠٦٨]، وصححه المنذري في «الترغيب» (٤/ ٤٣٢)، وقال الهيثمي في «المجمع»: «رواه أحمد، ورجاله ثقات» (١٠/ ٣٦٧)، وحسنه محقق «المسند» (١١/ ٦٣٩).

(٣) رواه مسلم [١٩٩] (١/ ١٨٩)، والإمام أحمد (٢/ ٤٢٦).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «بل الشفاعة: سببها توحيد الله، وإخلاص الدين والعبادة بجميع أنواعها له، فكل مَن كان أعظمَ إخلاصًا كان أحق بالشفاعة، كما أنه أحق بسائر أنواع الرحمة، فإن الشفاعة: مِن الله مبدؤها، وعلى الله تمامُها، فلا يشفع أحد إلا بإذنه، وهو الذي يأذن للشافع، وهو الذي يقبل شفاعته في المشفوع له، وإنما الشفاعة سبب من الأسباب التي يرحم الله بها مَن يرحم مِن عباده، وأحق الناس برحمته: هم أهل التوحيد والإخلاص له، فكل من كان أكمل في تحقيق إخلاص «لا إله إلا الله» علمًا وعقيدة، وعملًا وبراءةً، وموالاةً ومعاداةً: كان أحق بالرحمة»[1].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٤١٤).

لا إله إلا الله

(٣٦) سبب دخول الجنة

عن عمرو بن دينار قال: سمعت جابر بن عبد الله يقول: أنا من شهد معاذاً حين حضرته الوفاة يقول: اكشفوا عني سَجْفَ[١] القبة أحدثكم حديثًا سمعته من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال مَرَّة: أخبركم بشيء سمعته من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يمنعني أن أحدثكموه إلا أن تتكلوا، سمعته يقول: «**من شهد أن لا إله إلا الله مخلصًا من قلبه، أو: يقينًا من قلبه لم يدخل النار، أو: دخل الجنة، وقال مَرَّة: دخل الجنة، ولم تَمَسَّهُ النارُ**»[٢].

وعن جابر ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «**المُوجِبتانِ: من مات لا يُشرك بالله شيئًا دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئًا دخل النار**»[٣].

وعن أبي بكر بن أبي موسى، عن أبيه، أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**أبشروا وبَشِّروا الناسَ: من قال: لا إله إلا الله صادِقًا بها دخل الجنة**»، فخرجوا يبشرون الناس فلقيهم عمر ـ رضي الله تعالى عنه ـ فبشَّروه، فردَّهم، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**مَن ردَّكم؟**» قالوا: عمر، قال: «**لِمَ رددتَهم يا عمر؟**» قال: إذن يتَّكِلُ الناسُ يا رسول الله»[٤].

---

(١) **السَّجْف أو السِّجْف**: أحد السِّتْرين المقرونين، بينهما فُرْجَة، يقال: سَجَفَ البيت سَجْفًا: أرسل عليه السِّجْف.

(٢) رواه الإمام أحمد (٥/ ٢٣٦)، والحميدي [٣٦٩]، والطبراني (٢٠/ ٦٣)، وابن حبان [٢٠٠].

(٣) رواه مسلم [٩٣]، [١٥١].

(٤) رواه الإمام أحمد (٤/ ٤١١)، وصححه الألباني على شرط مسلم في «الصحيحة» رقم [٧١٢].

وعن أبي أمامة بن سهل بن حنيف ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**بَشِّر الناس أنه من قال: لا إله إلا الله وجبت له الجنة**»[1].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا قُعودًا حولَ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ معنا أبو بكر وعمر في نفر. فقام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بين أظهرنا فأبطأ علينا وخَشِينا أن يُقْتَطعَ دوننا، وفزِعنا فقمنا فكنت أولَ من فزع، فخرجتُ أبتغي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى أتيتُ حائطًا للأنصار لبني النجار، فَدُرْتُ به هل أجدُ له بابًا، فلم أجد، فإذا ربيعٌ يدخل في جوف حائط من بئرٍ خارجةٍ ـ والربيعُ الجَدْوَلُ ـ فاحتفزتُ كما يحتفز الثعلب، فدخلتُ على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: «**أبو هريرة؟**» فقلت: نعم يا رسول الله، قال: «**ما شأنك؟**» قلت: كنتَ بين أظهرِنا فقمتَ فأبطأتَ علينا فخشينا أن تُقتطع دوننا ففزعنا، فكنتُ أولَ من فزع، فأتيتُ هذا الحائط فاحتفزت كما يحتفز الثعلبُ، وهؤلاء الناس ورائي، فقال: «**يا أبا هريرة!**» وأعطاني نعليه، قال: «**اذهب بنعليَّ هاتين فمن لقيتَ من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبُه فبشره بالجنة**» فكان أولَ من لقيتُ عمرُ، فقال: ما هاتان النعلان يا أبا هريرة؟ فقلت: هاتان نعلا رسولِ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعثني بهما من لقيتُ يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه، بشرته بالجنة، فضرب عمر بيده بين ثدييَّ فخررتُ لاسْتي، فقال: ارجع يا أبا هريرة، فرجعتُ إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: فأجهشتُ بكاءً وركبني عمر، فإذا هو على أَثَري، فقال لي رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**ما لك يا أبا هريرة؟**» قلت: لقيتُ عمرَ فأخبرتُه بالذي بعثتني به فضرب بين ثديي ضربةً خررتُ لاستي قال:

(١) رواه النسائي في «الكبرى» [١٠٩٥١].

ارجع، فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**يا عُمَرُ! ما حملك على ما فعلتَ؟**» قال: يا رسول الله! بأبي أنت وأمي أبعثتَ أبا هريرة بنعليك، من لقي يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه بشَّرَه بالجنة؟ قال: «**نعم**» قال: فلا تفعل، فإني أخشى أن يتكلَ الناسُ عليها فَخَلِّهِمْ يعملون، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**فَخَلِّهِمْ**»[(١)].

وعن أبي صالح عن أبي هريرة ـ أو عن أبي سعيد شك الأعمش ـ قال: لما كان غزوة تبوك، أصاب الناسَ مجاعةٌ. قالوا: يا رسول الله! لو أَذِنْتَ لنا فنحرنا نواضِحَنا فأكلنا وادَّهَنَّا، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**افعلوا**»، قال: فجاء عمر، فقال: يا رسول الله! إن فعلتَ قلَّ الظهرُ، ولكن ادْعُهُمْ بفضلِ أزوادِهم، ثم ادْعُ اللهَ لهم عليها بالبركة. لعل الله أن يجعلَ في ذلك. فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**نعم**» قال: فدعا بِنِطَعٍ فبسطه، ثم دعا بفضل أزوادهم قال: فجعل الرجل يجيء بكفِّ ذُرة، قال: ويجيء الآخرُ بكفِّ تَمْر، قال: ويجيء الآخرُ بكِسْرَةٍ حتى اجتمع على النِّطَع من ذلك شيءٌ يسير، قال: فدعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليه بالبركة. ثم قال: «**خذوا في أوعيتِكم**» قال: فأخذوا في أوعيتهم، حتى ما تركوا في العسكر وِعاءً إلا مَلَأُوه. قال: فأكلوا حتى شَبِعوا وفَضِلَتْ فَضْلَةٌ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقى اللهَ بهما عبدٌ غيرَ شاكٍّ فيُحْجَبَ عن الجنة**»[(٢)].

وعن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**إذا قال المؤذن: الله أكبر الله أكبر، فقال أحدكم: الله أكبر الله أكبر، ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله، قال: أشهد أن لا إله إلا الله، ثم قال: أشهد أن محمدًا**

(١) رواه مسلم [٣١].

(٢) رواه مسلم [٢٧].

رسـول الله، قال: أشـهد أن محمدًا رسول الله، ثم قال: حَيَّ على الصلاة، قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: حَيَّ على الفلاح، قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: الله أكبـر الله أكبـر، قال: الله أكبـر الله أكبر، ثم قال: لا إلٰه إلا الله، قـال: لا إلٰه إلا الله من قلبه دخل الجنة»[1].

وعـن عبـادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ قال رسـول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «من شهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسـى عبدُ الله ورسـولُه، وكلمتُه ألقاها إلى مريـمَ ورُوحٌ منه، والجنةُ حـقٌّ والنارُ حقٌّ أدخله الله الجنةَ على ما كان من العمل»[2].

وفي رواية: «أدخله الله الجنة مِن أي أبواب الجنة الثمانية شاء».

وعن العرباض بن سـارية ـ رضي الله عنه ـ أنهم حين نزلوا خيبر، قال النبي ـ صلى الله عليه وسـلم ـ: «يا بنَ عوف! اركبْ فرسَـك، ثم نادِ: إن الجنة لا تحل إلا لمؤمن»[3] الحديث.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ في قصة الذي قتل نفسـه في الغزو ـ وفيها أن رسـول الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ قال: «يا بلالُ! قُم فأَذِّن: لا يدخلُ الجنةَ إلا مؤمنٌ، وإن الله ليُؤيِّد هذا الدينَ بالرجلِ الفاجرِ»[4].

---

(١) رواه مسلم [٣٨٥].

(٢) رواه البخاري [٣٤٣٥]، ومسلم [٢٨].

(٣) أخرجه أبو داود (٢/ ٤٥)، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» رقم [٨٨٢].

(٤) رواه البخاري (١١/ ٤٣٦)، ومسلم [١١١].

لا إله إلا الله

(٣٧) مفتاح الجنة

إن شهادة أن «لا إله إلا الله» هي عُنوان دخول المرء في دين الإسلام، وهي ـ بمقتضياتها وتوابعها ولوازمها ـ مفتاح الجنة في الآخرة.

رُوي عن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**مفاتيح الجنة: شهادة أن لا إله إلا الله**»(١).

وعن أمير المؤمنين عمر ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**ما منكم من أحدٍ يتوضأ فيُبلغ ـ أو: فيُسبغُ ـ الوضوء، ثم يقول: (أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله)، إلا فُتحت له أبوابُ الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء**»(٢).

وعن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، وأن الله يبعث من في القبور، فُتِحَتْ له ثمانيةُ أبوابِ الجنة يدخل من أيها شاء**»(٣).

ورُويَ في حديث عبد الرحمن بن سمرة ـ رضي الله عنه ـ في قصة منامه الطويل أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**ورأيتُ رجلًا من أمتي انتهى إلى أبواب**

---

(١) رواه الإمام أحمد [٢٢١٠٢]، ورواه البزار في «مسنده» [٢٦٦٠]، والطبراني في «الدعاء» [١٤٧٩]، وابن عدي في «الكامل» (٤/ ١٣٥٦)، وقال محققو «المسند»: «إسناده ضعيف».

(٢) رواه مسلم (١/ ٢١٠)، وهو في «صحيح سنن النسائي» (١/ ٣٣)، و«صحيح سنن ابن ماجة» (١/ ٧٨).

(٣) أخرجه البخاري (٦/ ٣٤٢)، ومسلم [٢٨].

الجنة فأُغلقت الأبوابُ دونَه، فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله فَتَحَتْ له الأبوابَ، وأدخلتْه الجنة»[1].

قد يغفل بعض الناس عن حقيقة التوحيد وشرط النجاة، ويغترُّ بكلمة يديرها على لسانه، دون أن يفقه معناها، يظنُّها مفتاحًا للجنة، بمجرد نطقها باللسان، غافلًا عن شروطها التي ينبغي أن تتحقق، ومقتضياتها التي ينبغي أن يعمل بها، لتكون مفتاحًا صالحًا لفتح أبواب الجنة الثمانية.

وشهادة التوحيد هذه، سببٌ لدخول الجنة، والنجاة من النار، ومقتضٍ لذلك، ولكن المقتضِيَ لا يعملُ عملَه إلا باستجماع شروطه وانتفاء موانعه، فقد يتخلَّف عنه مقتضاه لفواتِ شرطٍ من شروطه، أو لوجود مانعٍ من الموانع؛ وهذا قول الحسن البصري ووهب بن منبِّه، رحمهما الله.

- قال الحسن البصري - رحمه الله - للفرزدق وهو يدفن امرأته: ما أعددتَ لهذا اليوم؟ قال: شهادةَ أن لا إله إلا الله منذ سبعين سنة، قال الحسن: «نِعْمَ العُدَّة! إن لـ(لا إله إلا الله) شروطًا، فإياك وقذفَ المحصنات»، ورُوِيَ أنه قال للفرزدق «هذا العمودُ فأين الطنب»[2].

الشاهد في قول الحسن (إن للا إله إلا الله شروطًا) مما يدل على أن عبارة (شروط لا إله إلا الله) عبارة سلفية سنية، وليست خلفية بدعية.

---

(١) عزاه السيوطي إلى الحكيم الترمذي والطبراني، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» رقم [٢٠٨٥].

(٢) رواه بنحوه ابن أبي شيبة في «المصنف» رقم [٣٦٧٤٣]، وابن سعد في «الطبقات»، **والطُّنبُ**: حبل يُشد به الخباء والسرادق ونحوهما.

ـ قيل للحسن البصري: إن ناسًا يقولون: من قال لا إلٰه إلا الله دخل الجنة قال: «من قال: لا إلٰه إلا الله فأدى حقَّها وفرضَها دخل الجنة»[1].

وحقها وفرضها هي شروط لا إلٰه إلا الله والشروط من حقها وفرضها.

ـ قال وهب بن منبه لمن سأله: أليس لا إلٰه إلا الله مفتاح الجنة؟ قال: «بلى ولكن ليس مفتاحٌ إلا له أسنان، فإن جئتَ بمفتاحٍ له أسنان فتح لك، وإلا لم يفتح لك»[2].

والأسنان والشروط بمعنًى واحدٍ.

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في قصيدته النونية، مشيرًا إلى أسنان هذا المفتاح، الذي تُفتح به أبواب الجنة، وهي العمل بشرائع الإسلام، وتحقيق شروطها:

دقعنخ ونغف عهغعغ هيق غههنه ي ✻ ع غهنغعف ي اهو ظقهعي

هنغعفه غجعفغ عطف ✻ كوعهغو ✻ فيفنخ غهن جعفغ عطيهعه

ظقهعهه عالمهعهنخ وهي إعلت عهذ ✻ عق هنخ وعههنغعف غعاقهعه

✻ غهليه دقع عههغعهه ننهن غه ✻ هه فهعثعه هقيعهلقنعه مخلى محـ[3]

وقد نظم الشيخ حافظ حكمي ـ رحمه الله ـ شروط «لا إلٰه إلا الله» في «سُلم الوصول»، فقال:

وغتذاوك قغلغ نف نيفغ ✻ وني هكوك عهوفيد فنغ وقفغ

(١) «كلمة الإخلاص وتحقيق معناها» لابن رجب ص (٣٦٤).

(٢) رواه البخاري تعليقًا في «الجنائز» (١/ ٤١٧)، ووصله في «تاريخه الكبير» (١/ ٩٥) رقم [٢٦١]، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٦٦).

(٣) «الكافية الشافية» (٣/ ٩٢٥) ط. دار عالم الفوائد ـ مكة المكرمة.

[illegible]

ـ ونظمها أحدهم بقوله:

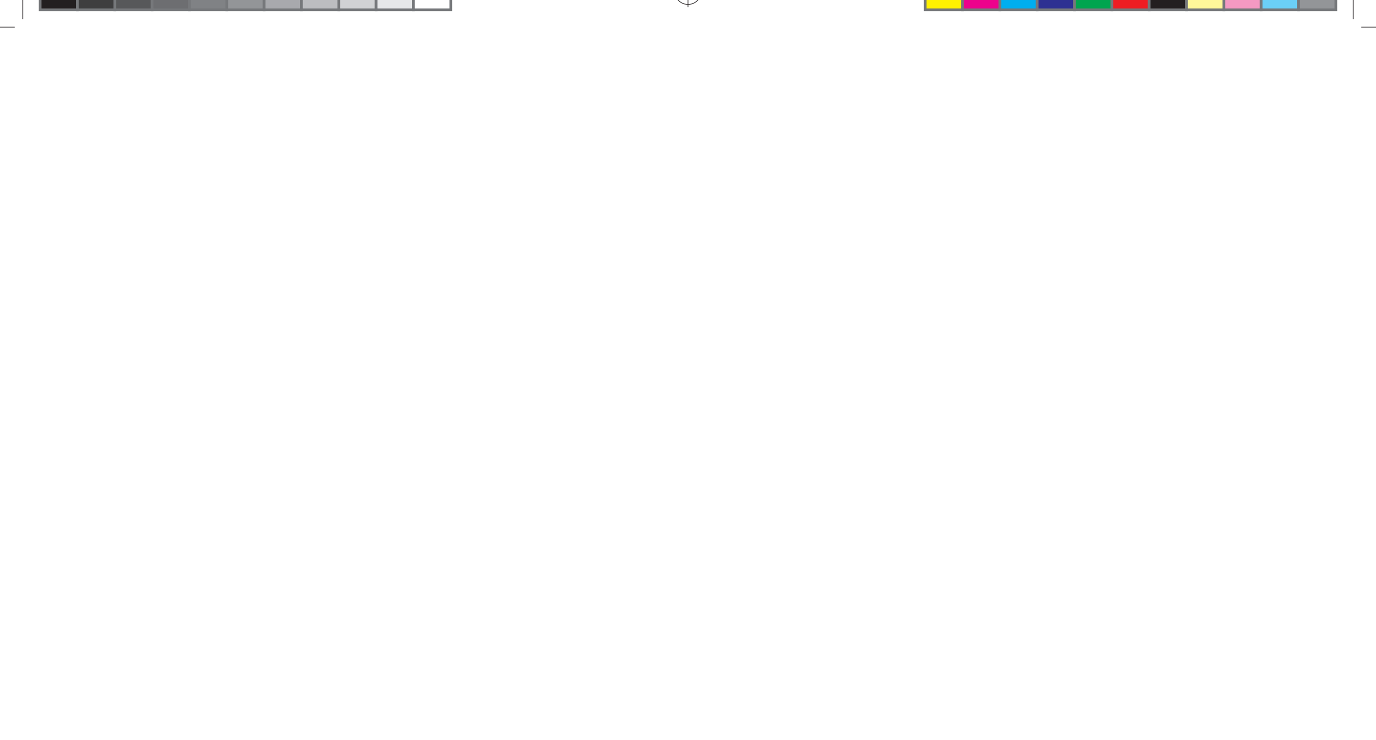
[illegible]

ـ كما نظمها أحدهم في نظم قال فيه:

[illegible]

(١) «معارج القبول» (٢/ ٤١٨، ٤١٩) ط. دار ابن القيم ـ الدمَّام.

(٢) انظر: «شرح شروط لا إله إلا الله» للشيخ خالد الغامدي ص (٣٠-٣٢).



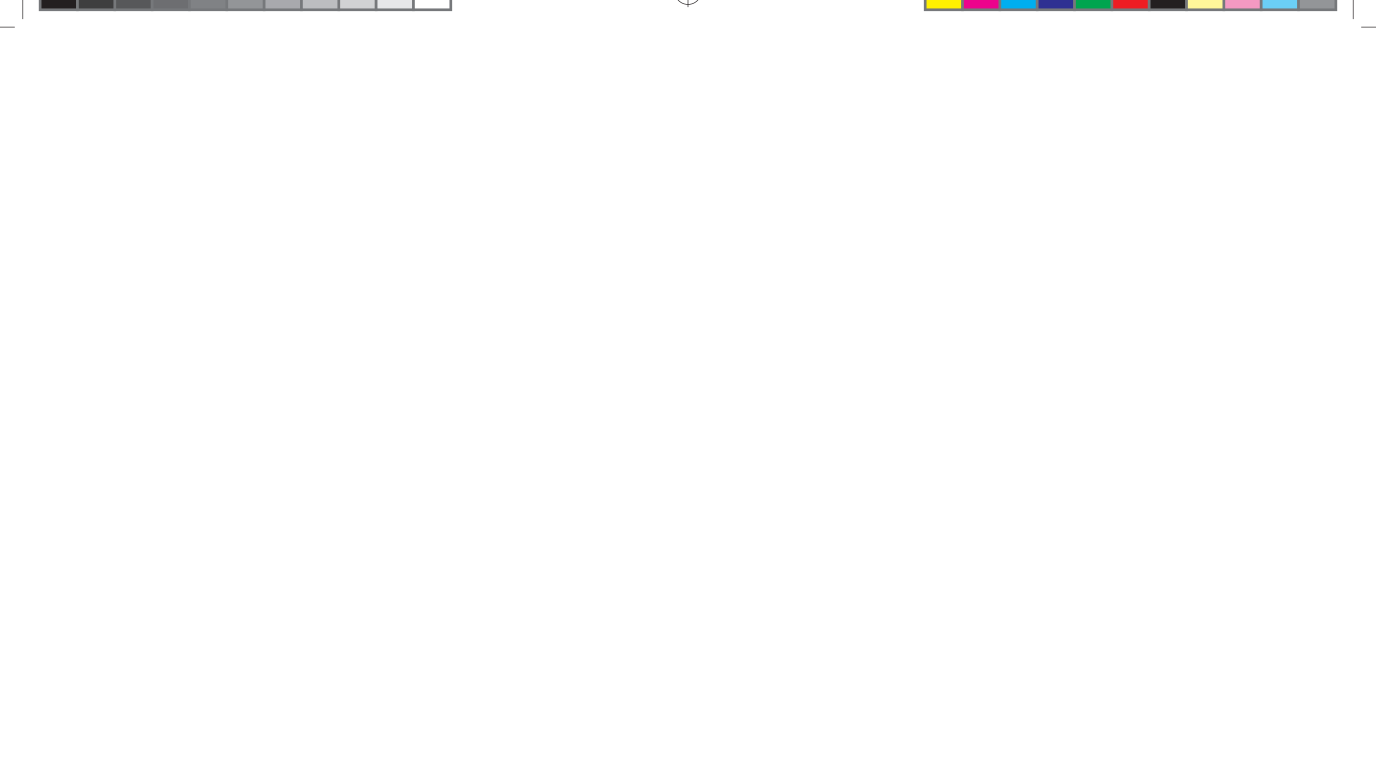
أسماء كلمة

لا إله إلا الله

إنَّ كلمةَ لا إلهَ إلّا اللهُ كلمةٌ مباركةٌ تنوّعت نواحيها، وكثُرت معانيها، ولذلك تعدّدت أساميها وفي هذا القسم نحاولُ تتبُّعَ ما أُطلق عليها من أسماءٍ شريفةٍ مستمدّةٍ من كتابِ اللهِ[1] تعالى - وهو الأغلبُ -، أو من سُنّةِ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّمَ

(١) علمًا بأنني لم أقصد استيعاب كل ما جاء في تفسير الآيات من أقوال، ولكنني في الغالب اقتصرت على ذكر قول مَن ذَهَبَ إلى أن المقصودَ من عبارة «كذا» هو كلمة «لا إله إلا الله» أو معناها، لأن هذا هو الملائم لمقصود هذا القسم.

مع أن اختلاف أئمة التفسير في هذا إنما هو اختلاف تنوع، وليس اختلاف تضاد، وكيف يكون اختلاف تضاد و«لا إله إلا الله» أعلى وأفضل وأشرف أركان الإسلام وشعب الإيمان، بل هي شرط في صحة سائر الشعب والأركان؟!



لا إله إلا الله

(١) الطيب من القول

قال الله ـ تعالى ـ في شأن المؤمنين: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [الحج:٢٤]

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿وَهُدُوٓاْ﴾ أُلهِمُوا.

قال ابن جرير: «وقولُه: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾. يقولُ ـ تعالى ـ ذكرُه: وهَداهم ربُّهم في الدنيا إلى شهادة أن لا إله إلا الله.

كما حدَّثني يونسُ، قال: أخبَرنا ابنُ وهبٍ، قال: قال ابنُ زيدٍ في قوله: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾. قال: هُدُوا إلى الكلامِ الطيبِ؛ لا إله إلا الله، واللهُ أكبرُ، والحمدُ للهِ، قال اللهُ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠]»[١].

وقال الرازي: «وأي كلمة توجد أطهر وأطيب من هذه الكلمة؟! وقد قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة:٢٨]. ثم إن النجاسة الحاصلة بسبب كفر سبعين سنة تزول بسبب ذكر هذه الكلمة مرة واحدة.

..... والطيب المطلق هو: معرفة ألا إله إلا الله، وذكر لا إله إلا الله، والاستغراق في أنوار جلال لا إله إلا الله، فلهذا السبب قال ـ تعالى ـ: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾. والمراد منه: كلمة لا إله إلا الله.

(١) «تفسير الطبري» (١٦/ ٥٠٢) ط.دار هجر.

والألف واللام في لفظة «الطيب» للاستغراق كأنه ـ تعالى ـ ينبه إلى أنه لا لذيذ ولا طيب إلا هذا، وذلك هو الحر لالالاق، لأنا بينَّا أن أطيب المحسوسات بالنسبة إلى طِيب هذه الحالة[1] عدم محض، فلذلك بَيَّن بحرف الاستغراق أن كل طيب ليس إلا ذلك»[2].

وقال السعدي: «وهُدوا إلى الطيب من القول الذي أفضلُه وأطيبه كلمة الإخلاص، ثم سائر الأقوال الطيبة التي فيها ذكر الله، أو إحسان إلى عباد الله»[3].

---

(١) أي حالة إدراك القوى العقلية لما يلائمها من جلال الله وقدسه وعظمته وعزته، وهو إدراك يفوق إدراك القوى الحساسة للمُحَسَّات.

(٢) «عجائب القرآن» ص (٨٠، ٨١).

(٣) «تفسير السعدي» ص (٤٨٥).

لا إله إلا الله

(٢) القول الثابت

قال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم:٢٧].

قال الطبري ـ رحمه الله ـ: «يعني ـ تعالى ـ ذكرُه بقولِه: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾: يحقِّقُ اللهُ أعمالَهم وإيمانَهم ﴿ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾. يقولُ: بالقولِ الحقِّ، وهو فيما قيل: شهادةُ ألَّا إله إلا اللهُ، وأن محمدًا رسولُ اللهِ»[(١)].

وعن طاوسٍ، عن أبيه: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ قال: لا إله إلا اللهُ، ﴿ وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾: المسألةُ في القبر[(٢)].

وعن البَراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**إذا أُقعد المؤمنُ في قبره أتاه آتٍ ثم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله فذلك قوله** ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾»[(٣)].

وعن أبي سعيدٍ الخدريِّ ـ رضي الله عنه ـ قال: شهِدْتُ مع رسولِ اللهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ جِنازةً فقال: «**يا أيُّها الناسُ، إنَّ هذه الأمةَ تُبتلَى في قُبورِها، فإذا الإنسانُ دُفِنَ فتفَرَّق عنه أصحابُه، جاءه ملَكٌ في يدِه مِطراقٌ فأقعَده، قال: ما تقولُ في هذا الرجلِ؟ فإنْ كان مؤمنًا قال: أشهَدُ أن لا إله إلا اللهُ وأن محمدًا عبدُه ورسولُه.**

---

(١) «جامع البيان» (١٣/ ٦٥٧).

(٢) «نفسه» (١٣/ ٦٦٦).

(٣) رواه البخاري (١٣٦٩، ٤٦٩٩)، ومسلم [٢٨٧١].

فيقولُ: صدَقْتَ. ثم يُفْتَحُ له بابٌ إلى النارِ، فيقولُ: هذا كان منزِلَك لو كفَرْتَ بربِّكَ، فأمَّا إذ آمنْتَ فهذا مَنْزِلُك. فيُفْتَحُ له بابٌ إلى الجنةِ، فَيُريدُ أن ينهَضَ إليه، فيقولُ له: اسْكُنْ. ويُفْسَحُ له في قبرِه، وإن كان كافرًا أو مُنافقًا، يَقولُ له: ما تقولُ في هذا الرجلِ؟ فيقولُ: لا أدْرِي، سَمِعْتُ الناسَ يقولون شيئًا. فيقولُ: لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ[1] ولا اهْتَدَيْتَ. ثم يُفْتَحُ له بابٌ إلى الجنةِ، فيقولُ: هذا مَنْزِلُك لو آمنْتَ بربِّك، فأما إذْ كَفَرْتَ به، فإن اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ أبدلَك به هذا. ويُفْتَحُ له بابٌ إلى النارِ، ثم يَقْمَعُه قَمْعَةً بالمِطْراقِ، يسمَعُها خلْقُ اللهِ كلُّهم غيرَ الثَّقَلَيْنِ». فقال بعضُ القومِ: يا رسولَ اللهِ، ما أحدٌ يقومُ عليه مَلَكٌ في يدِه مِطراقٌ إلا هِيلَ[2] عندَ ذلك. فقال رسولُ اللهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾»[3].

وعن عكرمةَ، عن ابنِ عباسٍ في قولِه: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾. قال: الشهادةُ؛ يُسألون عنها في قبورِهم بعدَ موتِهم. قيل لعكرمةَ: ما هو؟ قال: يُسألون عن إيمانٍ بمحمدٍ ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمرِ التوحيدِ. قال: ﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾. قال: عن تلك الشهادةِ، فلا يَهتدون أبدًا[4].

---

(١) «لا دَرَيتَ ولا ائْتَلَيْتَ» قال ابن الأثير: أي: ولا استطعتَ أن تدري، يقال: ما آلوه، أي: ما أستطيعه، وهو افتعلت منه، والمحدِّثون يروونه: «لا دريت ولا تليت»، والصواب الأول»اهـ. من «النهاية» (١/ ٦٢، ٦٣)، وانظره: (١/ ١٩٥).

(٢) هيل: رأى تهاويل ففزع منها. «اللسان» (هـ ي ل).

(٣) أحمد (١٧/ ٣٢-٣٤) [١١٠٠٠]، وابن أبي عاصم [٨٦٥]، والبزار [٨٧٢ - كشف]، وابن جرير (١٣/ ٦٥٩، ٦٦٠)، والبيهقي [٤١]. وقال محققو المسند: «حديث صحيح، وهذا إسناد حسن».

(٤) رواه البيهقي في «عذاب القبر» [١٤].

وقال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: «وتحت هذه الآية كنز عظيم، من وُفِّق لمظنته وأحسن استخراجَه واقتناءَه وأنفق منه، فقد غنم، ومن حُرِمه فقد حُرم.

وذلك أن العبد لا يستغني عن تثبيت الله له طرفة عين، فإن لم يثبته، وإلا زالت سماء إيمانه وأرضه عن مكانهما، وقد قال ـ تعالى ـ لأكرم خلقه عليه عبده ورسوله: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٤]، وقال ـ تعالى ـ لأكرم خلقه: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال: ١٢]، وقال ـ تعالى ـ لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [هود: ١٢٠].

فالخلق كلهم قسمان: موفق بالتثبيت، ومخذول بترك التثبيت.

ومادة التثبيت أصله ومنشؤه من القول الثابت، وفعل ما أُمر به العبد، فبهما يثبت الله عبده، فكل من كان أثبتَ قولًا وأحسنَ فعلًا كان أعظم تثبيتًا، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ [النساء: ٦٦].

فأثبت الناس قلبًا: أثبتهم قولًا.

والقول الثابت: هو القول الحق والصدق، وهو ضد القول الباطل الكذب.

فالقول نوعان: ثابت له حقيقة، وباطل لا حقيقة له.

وأثبتُ القول: كلمةُ التوحيد ولوازمها، فهي أعظم ما يثبِّت الله بها عبده في الدنيا والآخرة؛ ولهذا ترى الصادقَ مِن أثبت الناس وأشجعهم قلبًا، والكاذب من أمهن الناس وأخبثهم وأكثرهم تلونًا، وأقلهم ثباتًا، وأهل الفراسة يعرفون صدق الصادق من ثبات قلبه وقت الاختبار وشجاعته ومهابته، ويعرفون كذب الكاذب بضد ذلك، ولا يخفى ذلك إلا على ضعيف البصيرة.

وسئل بعضهم عن كلام سمعه من متكلم به، فقال: (والله ما فهمت منه شيئًا، إلا أني رأيت لكلامه صولة ليست بصولة مُبْطِل).

فما مُنح العبدُ مِنحة أفضلَ من منحه القولَ الثابت، ويجد أهل القول الثابت ثمرته أحوج ما يكونون إليه في قبورهم، ويوم معادهم، كما في صحيح مسلم من حديث البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**إن هذه الآية نزلت في عذاب القبر**»[1] اهـ.

وقال الرازي: «وعلة التسمية من وجوه:

الأول ـ أن المذكور المعلوم ثابت واجب الثبوت لذاته، ممتنع العدم لذاته. والقول والاعتقاد يتبعان المقول والمعتقد، فلما كان المقول والمعتقد واجبَ الثبوت لذاته، كان القول والاعتقاد كذلك، فلهذا سماه الله بالقول الثابت.

الثاني ـ أن هذا القول ثابت لا يؤثر الذنب فيه، بل هو مؤثر في إزالة الذنب، لأن الموحد وإن عظمت ذنوبه، إلا أنه ترجى له المغفرة، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨]. والكافر وإن عظم كفره إذا رجع من الكفر إلى التوحيد هَدَمَ التوحيدُ كفرَه.

الثالث ـ أن هذه الكلمة ثابتة في الآخرة، لا ترتفع عن العبيد، وذلك لأن أهل الجنة يشتغلون في الجنة بذكر التوحيد. ألا ترى أن الله أخبر عنهم بقوله: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر:٣٤]. ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر:٧٤]. ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف:٤٣].

---

(١) «إعلام الموقعين عن رب العالمين» (١/ ٢٣٠، ٢٣١).

الرابع ـ أنها ثابتة لأن أصلها محكم، وذلك لأن أول من شهد هذه الشهادة هو الله ـ تعالى ـ، بدليل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [آل عمران:١٨]. فشهادة جميع الشاهدين بتوحيد الله ـ تعالى ـ فرع على شهادة الله، وشهادة الله هي الأصل، فكل شهادة أصلها شهادة الله فهي ثابتة في الدنيا والآخرة»[(١)] اهـ.

---

(١) «عجائب القرآن» ص (٨٣ – ٨٥) بتصرف.

(٣) القول الصواب

قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبأ:٣٨].

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: في قولِه: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾. يقولُ: إلا مَن أذِن له الربُّ بشهادةِ ألا إله إلا الله، وهي مُنْتَهَى الصوابِ[١].

وعن أبي صالح، وعكرمة: ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ قال: «لا إله إلا الله»[٢].

وقال ابن كثير: ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾، أي: حقًّا، ومن الحق: «لا إله إلا الله»[٣].

---

(١) «جامع البيان» (٢٤/ ٥١).

(٢) «نفسه» (٢٤/ ٥٢).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٨/ ٢٨٢).

(٤) القول السديد

قال ـ سبحانه ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾.

[الأحزاب:٧٠]

روى الطبري بسنده عن عكرمةَ في قولِ اللهِ: ﴿وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ قولوا: «لا إله إلا الله»[(١)].

وأخرج البيهقيُّ في «الأسماءِ والصفاتِ»، من طريقِ عكرمةَ، عن ابنِ عباسٍ في قولِه: ﴿وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾. قال: قولَ: «لا إله إلا الله»[(٢)].

وقال الرازي: «قيل في تفسيره: الفعيل قد يكون بمعنى الفاعل، كالسميع بمعنى السامع، وقد يكون بمعنى المفعول، كالقتيل بمعنى المقتول، والجريح بمعنى المجروح، فإذا جعلته بمعنى الفاعل كان معناه: أنه يسد على صاحبه أبواب جهنم، وإذا حملته على معنى المفعول كان معناه: أنه يسد عن أن يضيره شيء من الذنوب.

وأيضًا فإن ذا القرنين بنى السد دفعًا لضرر يأجوج ومأجوج، والله ـ تعالى ـ جعل الإيمان سدًّا لضرر الشياطين من الجن والإنس»[(٣)].

---

(١) «جامع البيان» (١٩/ ١٩٦).

(٢) «الأسماء والصفات» ص (٢٠٥)، وضعف المحققون سنده.

(٣) «عجائب القرآن» ص (٩٥، ٩٦).

لا إله إلا الله

(٥) كلمة التوحيد

تدور مادة (وحد) على الانفراد والاختصاص، فتوحيد الله ـ تعالى ـ معناه: إفراده بما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات[(١)].

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «التوحيد هو العلم بأن الله واحد»[(٢)].

ومعنى العلم بأنه ـ تعالى ـ واحد: أنه المنفرد الذي لا يشبهه شيء، ولا نظير له، ولا مثيل.

والتوحيد شامل لانفراد الله ـ تعالى ـ بالأسماء الحسنى والصفات العليا التي لا يماثله فيها مخلوق أبدًا، وبأفعاله المتعدية كالخلق والرزق والتدبير، وباستحقاقه للعبادة وحده دون من سواه[(٣)].

---

(١) وذكر بعض العلماء أن التوحيد هو جعل الشيء واحدًا، وهذا لا يصح أن يقال في توحيد الله ـ تعالى ـ، لأن وحدانية الله ـ سبحانه ـ ذاتية ليست بجعل جاعل.
وقال السفاريني ـ رحمه الله ـ: «والتوحيد: تفعيل للنسبة كالتصديق والتكذيب لا للجعل، فمعنى وحَّدتُ الله: نسبتُ إليه الوحدانية، وليس: جعلتُه واحدًا، فإن وحدانية الله ـ تعالى ـ ذاتية له، ليست بجعل جاعل» اهـ. من «لوامع الأنوار البهية» ص (٥٦، ٥٧).

(٢) «فتح الباري» (١٣/ ٣٤٥).

(٣) وقد جمع الأنواعَ الثلاثة من التوحيد قولُه ـ تعالى ـ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥].
واعلم أن أقسام التوحيد الثلاثة مأخوذة من استقراء نصوص القرآن الكريم، فهذا التقسيم حقيقة شرعية مستمدة من كتاب الله ـ تعالى ـ، وليس أمرًا اصطلاحيًّا أنشأه بعض العلماء.
قال الشيخ العلامة بكر أبو زيد ـ رحمه الله ـ: «هذا التقسيم الاستقرائي لدى متقدمي علماء السلف أشار إليه ابن منده وابن جرير الطبري وغيرهما، وقرَّره شيخا الإسلام ابن تيمية =

وهـذه المعانـي إذا نظرنـا إليها مـن جهة فعل العبـد، نجد أن منهـا ما يتعلق باعتقاده القلبي، ومنها ما يتعلق بأعمال الجوارح، فالأول: علمي خبري اعتقادي، والثانـي: عملي قصدي طلبي، وهذه المعاني متفق على حقيقتها عند أهل السُّـنة والجماعة، وأدلتها مسـتفيضة في القرآن والسُّـنة وحياة الرسـول ـ صلى الله عليه وسلم ـ العملية.

وقـد عبَّر عن هذه المعاني أهلُ السُّـنة والجماعة بذكرهم لأقسـام التوحيد، وقد اختلف تقسيمهم لهذه المعاني لا لاختلافهم في التوحيد نفسِه.

وهـذه التعبيـرات المختلفة ليسـت متباينة بل هـي متوافقة، وهـي كما يعبِّر الصادقـون عـن المعنـى الحقيقـي الصحيـح حيـث تختلـف عباراتهـم، وتتفـق معانيها.

والمشـهور عنـد أهل العلـم أنهم يقسـمون التوحيد إلى ثلاثة أقسـام وهي: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسـماء والصفات[1] أو إلى قسمين وهما: توحيد المعرفة والإثبات، وتوحيد القصد والطلب.

= وابن القيم، وقرَّره الزبيدي في «تاج العروس»، وشيخنا الشنقيطي في «أضواء البيان» في آخرين، رحم الله الجميع، وهو استقراء تام لنصوص الشرع، وهو مطرد لدى أهل كلِّ فنٍّ، كما في استقراء النحاة كلام العرب إلى اسـم وفعل وحرف، والعرب لم تَفُهْ بهذا، ولم يعتب على النحاة في ذلك عاتب، وهكذا من أنواع الاستقراء»اهـ. من «التحذير من مختصرات الصابوني» ص (٣٠).

(١) فـإن قـال قائـل: إن كلمـة «لا إله إلا الله» لا وجود فيهـا للفظة (رب)، فكيف تـدل على توحيد الربوبية؟ والجواب: هو أن عبارة «لا إله إلا الله» تسـتلزم عقلًا سَـبْق الإيمان بأنه لا رب إلا الله، فعبـارة «لا إله إلا الله» تتضمَّـنُ باللزوم الفكري الإعلانَ بأَنَّهُ لَا ربَّ إلا الله، وهذا نظير مَنْ أعلَنَ أنـه ابْـنُ فاطِمَةَ بنتِ رسـولِ الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ، فـإن كلَامَهُ هذا يتَضَمَّـنُ الإعلانَ بأنَّهُ حَفِيـدُ رسـول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، إنَّ هـذا يُفْهَمُ باللُّزُوم العقلي حَتْمًا، فلا حاجـةَ =

وهذا التقسيم صحيح بنوعيه ولا خلاف بينهما، فإن الناظر إلى التوحيد من جهة ما يتعلق بالله ـ تعالى ـ يقسمه إلى ثلاثة أقسام: (ربوبية الله، وألوهيته، وأسمائه وصفاته)، أما من جهة ما يتعلق بالعبد فيقسمه إلى: (المعرفة والإثبات، والقصد والطلب).

إن إعلان المرء شهادته بأنه «لا إله إلا الله» تعبير عن إيمانه:

١ ـ بالله رَبًّا لَا شَرِيكَ لهُ في رُبُوبيته، إذ لَا رَب في الوجود غيرُ الله ـ جَلَّ جَلالُه ـ، لا على سبيل الانْفِرَاد، ولا على سبيل المشاركة.

فالإيمان بأنَّ الرَّبَّ في الوجود واحِدٌ هو الله ـ عزَّ وجَلَّ ـ، اعْتِرافٌ بالحقِّ، وإذعانٌ له.

وإسْنادُ الرُّبوبيَّةِ كُلِّها أو جُزْءٍ منها إلى غير الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أَمْرٌ باطل، وهو في الحقيقة كُفْرٌ بالله، ومِنْ هذا الكُفْرِ اعْتِقَادُ تَأْثير الأسْبابِ تأثيرًا ذاتيًّا في مُسبَّبَاتها، من دُونِ خَلْقِ الله وقضائِهِ وقَدَرِه.

= إلى التصريح به، والتصريح به فُضُولٌ مِنَ القول. انظر: «توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية» للأستاذ عبد الرحمن الميداني ص (١٧-١٩).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «وشهادة أن لا إله إلا الله فيها الإلهيات، وهي الأصول الثلاثة: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات، وهذه الأصول الثلاثة تدور عليها أديان الرسل وما أُنزل إليهم، وهي الأصول الكبار التي دلَّت عليها وشهدت بها العقول والفطر».

وأمَّا وجه دلالة هذه الكلمة العظيمة على أقسام التوحيد الثلاثة فظاهر تمامًا لمن تأملها، فقد دلَّت على إثبات العبادة لله ونفيها عمن سواه، كما دلَّت أيضًا على توحيد الربوبية؛ فإنَّ العاجز لا يصلح أن يكون إلهًا، ودلَّت على توحيد الأسماء والصفات؛ فإنَّ مسلوب الأسماء والصفات ليس بشيء بل هو عدم محض، كما قال بعض العلماء: المشبِّه يعبد صنمًا، والمعطِّل يعبد عدمًا، والموحِّد يعبد إله الأرض والسماء، وانظر: «التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية» للشيخ عبد العزيز بن ناصر الرشيد ص (٩).

والحاصل: أن «لا إله إلا الله» دلت على توحيد الألوهية بالمطابقة، وعلى توحيدَيْ الربوبية والصفات بالتضمن والملازمة، والله أعلم.

٢ ـ بـأن الله ـ عـزَّ وجلَّ ـ هُو وَحدَهُ الإله المسْـتَحِقُّ للعبـادة، لأنَّهُ هُو وَحدَهُ الرَّبُّ المتصرفُ في الكائناتِ ابتداءً ودَوامًا حتى غايات آجالها في الوجود.

وهـذه القاعـدة مبنيَّـةٌ بناءً عقْليًّـا مَنْطِقيًّا علـى القاعدة الأولـى، فَهي تُمثل الـلازم الفكـرِيَّ الأوَّل لكـونِ الله ـ جـلَّ جَلالُـه ـ هُـو الرَّب الـذي لا رَبَّ في الوجودسـواه.

وإذْ لا يُوجـدُ أحَـدٌ فـي الوجـود كُلـه يشـارك الله ـ تبارك وتعالـى ـ في كل عناصر رُبُوبيتِهِ أو في بَعضها، مهمَا قلَّتْ وضَؤُلَتْ، فإنه لَا يُوجَدُ أحَدٌ سِـوَى الله ـ عز وجَل ـ يَستَحِقُّ أن يكون إلهًا يُعبَدُ، لا على سَبيلِ الانفراد، ولا على سـبيل المشاركة لله سُبحانهُ في إلهيَّته، لأنه هو المالك الأوحد لمخلوقاته، وهو المالك ذو الأمر والنهي والسلطان.

هذه قضيَّةٌ عقليَّةٌ لَا يُخالف فيها إلَّا جاهِلٌ، أوْ ضالٌّ[(١)].

وعندمـا نتأمـل في معنـى التوحيـد فإننا نلمـس أن هناك أمـورًا خاصة بالله ـ تعالى ـ لا يجوز أن يشاركه فيها غيره، وهذه الخصائص إذا اعتقد العبد أنها لله ـ تعالى ـ دون غيره حصل منه (التوحيد).

وينبغـي أن يعلم أن التوحيـد لا يتحقق إلا بنفي الحكم عما سـوى الموحَّد وإثباتـه له، وذلـك أن النفي المحض تعطيل محض، والإثبـات المحض لا يمنع مشاركة الغير في الحكم.

قـال الـرازي في سـياق ذكـر سـبب تسـمية «لا إله إلا الله» كلمـة التوحيد: «وذلك لأنها تدل على نفي الشرك على الإطلاق. وفائدة قولنا: على الإطلاق، أنه ـ تعالى ـ لما قال: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة:١٦٣]. أمكن أن يخطر ببال أحد أن

(١) انظر: «توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية» للأستاذ عبد الرحمن الميداني ص (١٧-٢٠).

يقول: إن إلهنا واحد، فلعل إله غيرنا مغاير لإلهنا. فالله ـ تعالى ـ أزال هذا التوهم ببيان التوحيد المطلق، فقال ـ بعد قوله ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ مباشرة: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾. وذلك لأن قولنا: لا رجل في الدار، يقتضي نفي الماهية، ومتى انتفت الماهية، انتفى جميع أفرادها، إذ لو حصل فرد من أفراد تلك الماهية لحصلت تلك الماهية، لأن كل فرد من أفراد الماهية يشتمل على الماهية، وإذا وجدت الماهية فذلك يناقض نفي الماهية، فثبت أن قولنا: لا رجل في الدار، يفيد النفي العام الشامل، فإذا قيل بعد ذلك: إلا زيدًا، أفاد التوحيد العام الكامل»[1].

وقد شاع في السُّنة النبوية الشريفة استعمال الفعل (وحَّد) بمعنى أتى بشهادة أن لا إله إلا الله، فقد روى مسلم بسنده عن أبي مالك عن أبيه؛ أنه سمع النبيَّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: «**من وَحَّد الله، وكفر بما يُعبد من دون الله، حَرُمَ مالُه ودمُه، وحسابُه على الله**»[2] الحديث.

وفي رواية: «**من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله**»[3] الحديث.

وروى مسلم بسنده عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**بُني الإسلام على خمسة: على أن يُوَحَّد الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، والحج**»[4].

وفي حديث عمرو بن عبسة ـ رضي الله عنه ـ أنه سأل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: آلله أرسلك؟، قال: «**نعم**»، قلت: بأي شيء أرسلك؟ قال: «**بأن يُوَحَّدَ الله، ولا يُشْرَكَ به شيء، وكسرِ الأوثان، وصلةِ الرحم**» الحديث[5].

(١) «عجائب القرآن» ص (٦٩).
(٢) رواه مسلم [٣٨، ٣٩].
(٣) رواه مسلم [٣٧].
(٤) رواه مسلم [١٩].
(٥) رواه الإمام أحمد رقم [١٧٠١٩]، وقال محققوه: «إسناده صحيح على شرط مسلم».

وفي حديث خُفاف بن إيماء بن رَحَضَة الغِفاري ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ «نصب أصبعه السبابة يُوَحِّد بها ربه ـ عزَّ وجلَّ ـ»، وفيه أيضًا: «أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان إذا صلى يصنع ذلك ـ أي نصب أصبعه السبابة في الصلاة ـ فكان المشركون يقولون: إنما يصنع هذا محمد بأصبعه يسحرها، وكذبوا إنما كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصنع ذلك، يوحِّد بها ربه ـ عزَّ وجلَّ ـ»[1].

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن العاص بن وائل نذر في الجاهلية أن ينحر مائة بدنة، وإن هشام بن العاص نحر حصته خمسين بدنة، وإن عَمْرًا سأل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن ذلك، فقال: «**أما أبوك فلو كان أقرَّ بالتوحيد، فَصُمْتَ، وتصدَّقْتَ عنه، نفعه ذلك**»[2].

وعن أبي رافع ـ رضي الله عنه ـ قال: ضحَّى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بكبشين أملحين مَوْجِيَّيْنِ خصِيَّيْنِ، فقال: «**أحدهما عمن شهد بالتوحيد، وله بالبلاغ، والآخر عنه وعن أهل بيته**»، قال: فكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد كفانا[3].

وفي حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «فيذبح أحدهما عن أمته ممن أقر بالتوحيد، وشهد له بالبلاغ، ويذبح الآخر عن محمد وآل محمد»[4].

(١) رواه الإمام أحمد رقم [١٦٥٧٢]، وضعَّفه محققوه لإبهام الراوي عن خُفاف بن إيماء.

(٢) رواه الإمام أحمد رقم [٦٧٠٤]، وقال محققوه: «إسناده حسن».

(٣) رواه الإمام أحمد رقم [٢٣٨٦٠]، وقال محققوه: «إسناده ضعيف».

(٤) رواه الإمام أحمد رقم [٢٥٨٤٣]، وقال محققوه: «صحيح لغيره».

(٦) الدين الخالص

قال ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [الزمر: ٢، ٣][١].

وروى الطبري عن قتادة: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ قال: «شهادة أن لا إله إلا الله»[٢].

(١) وقد ورد إخلاص الدين لله ـ عزَّ وجلَّ ـ في عدة مواضع من سورة الزمر كهذه الآية، وكقوله ـ عز وجل ـ: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الزمر: ١١]، وقوله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴾ [الزمر: ١٤]، حتى سماها بعضهم اجتهادًا: سورة الإخلاص الكبرى.

(٢) «جامع البيان» (٢٠/ ١٥٦).

لا إله إلا الله

(٧) كلمة الإخلاص

عن عبد الرحمن بن أبزى قال: «كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا أصبح قال: «**أصبحنا على فطرةِ الإسلام، وكلمةِ الإخلاص، ودين نبينا محمدٍ ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وملةِ أبينا إبراهيمَ، حنيفًا مسلمًا، وما كان من المشركين**»، وإذا أمسى قال: «**أمسينا على فطرة الإسلام**» الحديث[١]. وفي لفظ: «كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعلمنا إذا أصبحنا: أصبحنا على فطرة الإسلام..» الحديث وفي آخره «وإذا أمسينا مثل ذلك»[٢].

وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول في دُبُر الصلاة: «**لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون**»[٣].

إن أول ما أمر الله ـ تعالى ـ به الناس في القرآن الكريم هو ما تضمنه قوله ـ تعالى ـ في سورة البقرة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:٢١].

وهو أمر بإخلاص العبادة لله وحده، إذ الإخلاص هو الدين الذي بعث الله به رسله أجمعين، فكان محورَ دعوتهم ولُبَّها، قال ـ عزَّ وجلَّ ـ : ﴿ وَمَآ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٤٠٦، ٤٠٧)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (١، ٢، ٣، ٣٤٣)، وابن السُّني في «عمل اليوم والليلة» [٣٣]، والدارمي (٢/ ٢٩٢)، وحسنه الحافظ ابن حجر، والسيوطي، وصححه الهيثمي، والنووي، والعراقي، والألباني.

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائده» (٥/ ١٢٣)، بسند ضعيف جدًا.

(٣) رواه مسلم [٥٩٤]، [١٣٩].

أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ الآية [البينة:٥]، وقال جل وعلا: ﴿ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ ﴾ [الزمر:٢، ٣]. فحصر الخضوع لله، ودل على أنه لا إله سواه، ولا معبود بحق إلا إياه، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الزمر:١١]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ١٤ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾ [الزمر:١٤، ١٥].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر:٦٥].

قال سعيد بن جبير ـ رحمه الله ـ: إذا قرأت ﴿ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [غافر:١٤] فقل: لا إله إلا الله، وقل على أثرها: «الحمد لله رب العالمين» ثم قرأ هذه الآية: ﴿ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [1].

وقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ ﴾ [البقرة:١٣٩].

ومدار الإخلاص في كتب اللغة على الصفاء والتميز عن الأوشاب التي تخالط الشيء، يقال هذا الشيء خالص لك: أي لا يشاركك فيه غيرك.

والخالص كالصافي إلا أن الخالص هو ما زال عنه شَوْبُه بعد أن كان فيه، والصافي قد يُقال لما لا شَوْبَ فيه، ويقال: خلَّصْتُه فَخَلَص، ولذلك قال الشاعر:

[illegible] [2]

---

(١) «جامع البيان» (٢٤/ ٨١) ـ واللفظ له ـ، ورواه الحاكم عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ (٢/ ٤٣٨)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، ولم يُخرجاه».

(٢) «المفردات» للراغب الأصفهاني ص (٢٩٢) مادة (خلص).
والفِدام: ما يوضع على الفم سِدادًا له، وما يُشَدُّ على فم الإبريق ونحوه لتصفية ما فيه.

والخِلاص في لغة العرب: ما أخلصَتْه النار من الذهب والفضة.

وكل شـيء يُتصور أن يشـوبه غيره، فإذا صفا عن شـوبه، وخلص لله، سُمِّي خالصًا، وسُمِّيَ الفعلُ إخلاصًا.

ويقولون: خالصه في العشرة: صافاه.

وقـال ـ تعالـى ـ : ﴿نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا﴾ [النحل:٦٦]. أي لا يخالطه دم ولا رَوْثٌ.

وقـال ـ عزَّ وجـلَّ ـ في إخوة يوسـف: ﴿خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ﴾ [يوسـف:٨٠]. أي: انفردوا، وتميزوا عمن سواهم.

وقـال ـ تعالـى ـ فيمـا حـكاه عـن المشـركين: ﴿خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا﴾ [الأنعام:١٣٩]. أي: لا يشركهم الإناث.

وقـال ـ سـبحانه ـ: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ [الأعـراف:٣٢]. أي: لا يشركهم فيها الكفار.

فالإخـلاص يهـدف إلـى تخليص القصـد المتوجه إلـى الله ـ تعالـى ـ من الأوشاب والأخلاط والفساد الذي يزاحمه ويخالطه؛ بحيث يتصفى القصد لله ـ عزَّ وجلَّ ـ دون سواه في جميع العبادات(١).

وحقيقة الإخلاص: التبرِّي عن كل ما دون الله ـ تعالى ـ(٢).

---

(١) «مقاصد المكلفين» ص (٣٥٩، ٣٦٠).

(٢) «المفرادات» (٢٩٣).

ويُقصد به أن يتوجه المكلف بأعماله كلها القلبية والظاهرة لله وحده دون سواه.

قال أبو القاسم القشيري: «الإخلاص: إفراد الحق ـ سبحانه وتعالى ـ في الطاعات بالقصد، وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله ـ تعالى ـ دون شيء آخر من تصنع لمخلوق، واكتساب محمدة عند الناس، أو محبة مدح من الخلق، أو معنى من المعاني سوى التقرب إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ»[(١)] اهـ.

وقال الحارث المحاسبي: «الإخلاص إخراج الخلق عن معاملة الرب»[(٢)].

وقال سهل بن عبد الله: «الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله ـ تعالى ـ خاصة»[(٣)].

والإخلاص في تحقيق كلمة التوحيد أن تصفو العبادة لله وحده، وأن تخلص من كل شوائب الإشراك مع الله ـ تعالى ـ، قال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾ [البقرة:١٣٩]، فإخلاص المسلمين أنهم قد تبرؤوا مما يدعيه اليهود من التشبيه، والنصارى من التثليث[(٤)].

---

(١) «الرسالة القشيرية» ص (٩٥).

(٢) «الإحياء» للغزالي (٤/ ٣٨١).

(٣) «الإحياء» للغزالي (٤/ ٣٨١).

(٤) «المفردات» ص (٢٩٢).

وقال ـ تعالى ـ في المنافقين: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء:١٤٥، ١٤٦].

عن عثمان ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: «**إني لأعلم كلمة لا يقولها عبدٌ حقًّا من قلبه إلا حُرِّم على النار**»، فقال له عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنا أحدثك ما هي؟ هي **كلمة الإخلاص** التي ألزمها الله ـ تبارك وتعالى ـ محمدًا وأصحابه، وهي **كلمة التقوى** التي ألاص عليها نبي الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عمَّه أبا طالب عند الموت: شهادة أن «لا إله إلا الله»[١].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**أسعد الناس بشفاعتي من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه أو من نفسه**»[٢].

وعن عِتبان بن مالك ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**إن الله حرَّم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ**»[٣].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**ما من عبد قال: لا إله إلا الله مخلصًا إلا فُتِحت لها أبواب السماء حتى تفضي إلى العرش**»[٤].

---

(١) انظر تخريجه ص (٤١٩).

(٢) رواه البخاري (١/ ١٩٣)، (١١/ ٤١٨).

(٣) انظر تخريجه ص (٣٣٢).

(٤) تقدم تخريجه ص (٨٠).

ولأجل هذا كان الإخلاص شـرطًا لانتفاع قائل «لا إلٰه إلا الله» بها في الدنيا والآخرة[1].

وقـال الفخر الرازي: «كلمة لا إلٰه إلا الله، مسـماة بكلمة الإخلاص، وذلك أن الأصـل في هذه الكلمـة عمل القلب، وهو كون الإنسـان عارفًا بقلبه وحدانية الله ـ تعالـى ـ، وهـذه المعرفـة الحاصلة بالقلب مسـتحيل أن يؤتى بها لغرض آخر سـوى طاعة الله وحبه وعبوديته، فهذه المعرفة إن طُلبت ظلت لوجه الله ـ تعالى ـ، لا لغـرضٍ آخـرَ البتة، بخلاف سـائر الطاعات البدنية، فإنها كمـا يُؤتىٰ بها لتعظيم الله، قد يؤتى بها لسائر الأغراض العاجلة من الدنيا، وطلب المدح والثناء، فلهذا السبب سميت هذه الكلمة بكلمة الإخلاص»[2].

ننقغ نيه ءعق عهففيه وفقءع   يعويهغءه وغ فيه هءعك
نفلوغ قغيه ظه فيق وقيهغيه   يوه عههلعف جءفغ عطفك

(١) انظر: «معارج القبول» (٢/ ٤٢٣).

(٢) «عجائب القرآن» ص (٧٣).

لا إله إلا الله

(٨) كلمة الشهادة

الشهادة: قول صادر عن علمٍ حصل بمشاهدةِ بصيرةٍ أو بصر[١].

ومن معاني الشهادة في اللغة:

١ ـ الإخبار بالخبر القاطع، ومنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ﴾ أي ما أَخبرْنا ﴿إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ [يوسف:٨١].

٢ ـ الإقرار، ومنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة:١٧]، أي: مُقِرِّين، فإن الشهادة على النفس هي الإقرار، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ﴾ الآية [النور:٦]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ [فصلت:٢١].

وتطلق «الشهادة» على كلمة التوحيد، وهي قولنا: «لا إله إلا الله» وتسمى عبارة: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله» بالشهادتين.

ومعناهما هنا متفرع عن مجموع المعنيين (الإخبار والإقرار)، فإن معنى الشهادة هنا هو الإعلام والبيان لأمر قد عُلِمَ، والإقرار: الاعتراف به، وقد نص ابن الأنباري على أن المعنى هو: «أعلم أن لا إله إلا الله. وأبيِّن أن لا إله إلا الله، وأعلم وأبيِّن أن محمدًا مُبَلِّغٌ للأخبار عن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ».

وسُمِّي النطق بالشهادتين بالتشهد، وهو صيغة (تفعُّل) من الشهادة.

---

(١) «بصائر ذوي التمييز» (٣/ ٣٥٠)، وانظر: «المفردات» للراغب ص (٤٦٥-٤٦٨)، و«النهاية» لابن الأثير (٢/ ٥١٢-٥١٥).

وقد يُطلق (التشهُّد) علَّى (التحيَّات) التي تُقرأ في آخر الصلاة.

جاء في حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يعلمهم التشهد كما يعلمهم القرآن»[1].

قوله ـ تعالى ـ: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٨، ١٩].

قوله: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ ﴾: الشهادة قد تكون بالقول، وقد تكون بالفعل. وشهادة الله ـ سبحانه وتعالى ـ لنفسه انفراده بالألوهية هنا، كشهادته لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه أنزل عليه الكتاب بقوله: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ﴾ [النساء: ١٦٦]؛ فقد شهد ـ عزَّ وجلَّ ـ هو وملائكته لنفسه بالوحدانية، ولنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالرسالة، والشهادة في الموضعين قولية.

وأما الشهادة الفعلية ففيما يُظهره الله ـ سبحانه وتعالى ـ من آياته؛ فكل الكائنات تشهد لله ـ عزَّ وجلَّ ـ بالوحدانية بلسان الحال، وكذلك تأييده لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالنصر، وجعل العاقبة له، هو شهادة له بأنه رسول الله حقًّا.

قال الإمام المحقق ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ في تفسير هذه الآية الكريمة: «تضمنت هذه الآية الكريمة: إثبات حقيقة التوحيد، والرد على جميع هذه الطوائف ـ التي فصل عقائدها الباطلة قبل هذا ـ والشهادة ببطلان أقوالهم

(١) رواه البخاري (١١/ ٥٦).

ومذاهبهـم، وهذا إنما يتبين بعد فهم الآية، ببيان ما تضمنته من المعارف الإلهية، والحقائق الإيمانية.

فتضمنـت هـذه الآية: أجلَّ شـهادةٍ وأعظمَها، وأعدلَهـا وأصدقَها، من أجلِّ شاهدٍ، بأجلِّ مشهود.

وعبارات السلف في «شهد» تدور على: الحكم والقضاء، والإعلام والبيان والإخبار.

قال مجاهد: حَكَمَ وقضى. وقال الزجاج: بيَّن. وقالت طائفة: أعلم وأخبر.

وهذه الأقوال كلها حق، لا تنافي بينها، فإن الشـهادة تتضمن كلام الشـاهد، وخبره وقوله، وتتضمن إعلامه وإخباره وبيانه. فلها أربع مراتب:

فأول مراتبها ـ علم ومعرفة، واعتقاد لصحة المشهود به وثبوته.

وثانيهـا ـ تكلمـه بذلك ونطقه بـه. وإن لَم يُعْلِمْ به غيرَه، بـل يتكلم هو به مع نفسه، ويذكرها وينطق بها، أو يكتبها.

وثالثها ـ أن يُعْلِمَ غيرَه بما شهد به، ويخبره به، ويبينه له.

ورابعها ـ أن يلزمه بمضمونها، ويأمره به.

فشـهادة الله ـ سـبحانه ـ لنفسـه بالوحدانية، والقيام بالقسـط: تضمنت هذه المراتب الأربعة: علمَ الله ـ سـبحانه ـ بذلك، وتكلمَه به، وإعلامَه وإخبارَه خلقَه به، وأمرَهـم وإلزامَهم به.

١ـ **أمـا مرتبـة العلـم**: فـإن الشـهادة بالحـق تتضمنهـا ضـرورة، وإلا كان الشـاهد شـاهدًا بمـا لا علـم له به. قال الله ـ تعالـى ـ: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ

﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف:٨٦]. وقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**على مثلها فاشهد**»[1] وأشار إلى الشمس.

٢ ـ **وأما مرتبة التكلم والخبر**: فمن تكلم بشيء وأخبر به فقد شهد به، وإن لم يتلفظ بالشهادة، قال ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾ [الأنعام:١٥٠]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف:١٩]. فجعل ذلك منهم شهادة، وإن لم يتلفظوا بلفظ الشهادة، ولم يؤدوها عند غيرهم. قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**عَدَلَتْ شهادةُ الزور الإشراكَ بالله**». وشهادة الزور: هي قول الزور، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ﴾ [الحج:٣٠، ٣١]، وعند هذه الآية قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**عُدِلَتْ شهادةُ الزور بالإشراك بالله**»[2]. فسمّى قولَ الزور شهادة.

وسمى الله ـ تعالى ـ إقرار العبد على نفسه شهادة، قال ـ تعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ [النساء:١٣٥]. فشهادة المرء على نفسه: هي إقرار المرء على نفسه. وفي الحديث الصحيح في قصة ماعز: «فلما شهد على نفسه أربع مرات رجمه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ». وقال ـ تعالى ـ: ﴿ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام:١٣٠].

---

(١) انظر: «كشف الخفاء» للعجلوني (٢/ ٧١) [١٧٨١].

(٢) رواه الترمذي [٢٣٠٠]، [٢٣٠١]، وأبو داود [٣٥٩٩]، وابن ماجة [٢٣٧٢]، وضعفه الألباني.

وهذا وأضعافه يدل على أن الشاهد عند الحاكم وغيره، لا يشترط في قبول شهادته أن يتلفظ بلفظ الشهادة، كما هو مذهب مالك وأهل المدينة، وظاهر كلام أحمد، ولا يعرف عن أحد من الصحابة والتابعين اشتراط ذلك. وقد قال ابن عباس: «شهد عندي رجال مَرْضِيُّون ـ وأرضاهم عندي عمر ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نهى عن الصلاة بعد صلاة الصبح حتى تطلع الشمس، وبعد العصر حتى تغرب الشمس»(١)؛ ومعلوم أنهم لم يتلفظوا بلفظ الشهادة، والعشرة الذين شهد لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالجنة: لم يتلفظ في شهادته لهم بلفظ الشهادة، بل قال: «**أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة**»(٢) الحديث.

وأجمع المسلمون على أن الكافر إذا قال: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» فقد دخل في الإسلام، وشهد شهادة الحق، ولم يتوقف إسلامه على لفظ الشهادة. وقد دخل في قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**حتى يشهدوا: أن لا إله إلا الله**»، وفي اللفظ الآخر: «**حتى يقولوا: لا إله إلا الله**» فدل على أن قولهم: «لا إله إلا الله» شهادة منهم، وهذا أكثر من أن تُذكر شواهده في الكتاب والسُّنة، فليس مع من اشترط لفظ الشهادة دليل يعتمد عليه، والله أعلم.

٣ ـ **وأما مرتبة الإعلام والإخبار**: فنوعان: إعلام بالقول، وإعلام بالفعل، وهذا شأن كل مسلم معلِّم لغيره بأمر؛ تارة يعلمه بقوله، وتارة بفعله، ولهذا كان من جعل دارًا مسجدًا وفتح بابها لكل من دخل إليها، وأذن بالصلاة فيها؛ مُعْلِمًا أنها

---

(١) رواه البخاري [٥٨١]، ومسلم [٨٢٦].

(٢) رواه الإمام أحمد [١٦٧٥]، والترمذي [٣٧٤٧]، والنسائي في «الكبرى» [٨١٩٤]، وابن حبان [٧٠٠٢]، وقال محقق «المسند»: «إسناده قوي على شرط مسلم».

وقف، وإن لم يتلفظ به. وكذلك من وُجد متقربًا إلى غيره بأنواع المسارِّ مُعْلِمًا له ولغيره: أنه يحبه، وإن لم يتلفظ بقوله، وكذلك بالعكس.

وكذلك شهادة الرب ـ جل جلاله ـ وبيانه وإعلامه: يكون بقوله تارة، وبفعله تارة أخرى.

فالقول: هو ما أرسل به رسله، وأنزل به كتبه، مما قد عُلِمَ بالاضطرار: أن جميع الرسل أخبروا عن الله أنه شهد لنفسه بأنه لا إلٰه إلا هو، وأخبر بذلك، وأمر عباده أن يشهدوا به.

وشهادته ـ سبحانه ـ: ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ معلومة مِن جهة كلِّ مَن بلَّغ عنه كلامه.

وأما بيانه وإعلامه بفعله: فهو ما تضمنه خبره ـ تعالى ـ عن الأدلة الدالة على وحدانيته التي تُعلم دلالتُها بالعقل والفطرة.

وهذا أيضًا يُستعمل فيه لفظ الشهادة، كما يستعمل فيه لفظ الدلالة والإرشاد والبيان، فإن الدليل يبين المدلول عليه ويظهره، كما يبينه الشاهد والمخبر، بل قد يكون البيان بالفعل أظهر وأبلغ، وقد يسمى شاهد الحال نطقًا وقولًا له وكلامًا، لقيامه مقامه، وأدائه مؤداه. كما قيل:

ونعهغ عهليهعى قهيع وكعلغ   وفيقغغ غعهفيق هغع يغنغ

ويسمى هذا شهادة أيضًا، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة:١٧]. فهذه شهادة منهم على أنفسهم بما يفعلون من أعمال الكفر وأقواله، فهي شهادة بكفرهم، وهم شاهدون على أنفسهم بما شهدت به عليهم.

والمقصود: أنه ـ سبحانه ـ يشهد بما جعل آياته المخلوقة دالة عليه. فإن دلالتها إنما هي بخلقه وجعله، ويشهد بآياته القولية الكلامية المطابقة لما شهدت به آياته الخلقية، فتطابقت شهادة القول وشهادة الفعل، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت:٥٣]. أي: أن القرآن هو الحق، فأخبر أنه يدل بآياته الأفقية والنفسية على صدق آياته القولية الكلامية.

وهذه الشهادة الفعلية: قد ذكرها غير واحد من أئمة العربية والتفسير.

قال ابن كيسان: شهد الله بتدبيره العجيب، وأموره المحكمة عند خلقه: أنه لا إله إلا هو.

٤ ـ **وأما المرتبة الرابعة**: وهي الأمر بذلك والإلزام به، وإن كان مجرد الشهادة لا يستلزمه، لكن الشهادة في هذا الموضع تدل عليه، وتتضمنه، فإنه ـ سبحانه ـ شهد به شهادة من حكم به، وقضى وأمر، وألزم عباده به كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]. وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النحل:٥١]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥]، والقرآن كله شاهد بذلك.

ووجه استلزام شهادته ـ سبحانه ـ لذلك: أنه إذا شهد: «أنه لا إله إلا هو»، فقد أخبر وبيَّن وأعلم وحكم وقضى: أن ما سواه ليس بإله، وأن إلهية ما سواه أبطل الباطل، وإثباتها أظلم الظلم. فلا يستحق العبادة سواه، كما لا تصلح الإلهية لغيره. وذلك يستلزم الأمر باتخاذه وحده إلهًا، والنهي عن اتخاذ غيره معه إلهًا، وهذا يفهمه المخاطب من هذا النفي والإثبات، كما إذا رأيت رجلًا يستفتي، أو يستشهد، أو يستطب مَن ليس أهلًا لذلك، ويدع مَن هو أهل، فتقول له: هذا ليس

بمفت، ولا شاهد، ولا طبيب، المفتي فلان، والشاهد فلان، والطبيب فلان، فإن هذا أمر منك ونهي.

وأيضًا: فإن الآية دلت أنه وحده هو المستحق للعبادة، فإذا أخبر أنه وحده المستحق للعبادة تضمن هذا الإخبارُ أمرَ العباد، وإلزامهم بأداء ما يستحقه الرب - تعالى - عليهم، وأن القيام بذلك هو خالص حقه عليهم، فإذا شهد - سبحانه - أنه لا إله إلا هو تضمنت شهادته الأمر والإلزام بتوحيده.

وأيضًا: فلفظ الحكم والقضاء يستعمل في الجمل الخبرية، ويقال للجمل الخبرية: قضية وحكم، وقد حكم فيها بكيت وكيت. قال - تعالى - : ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الصافات:١٥١-١٥٤]، لكن هذا حكم لا إلزام معه، والحكم والقضاء بأنه لا إله إلا هو: متضمن للإلزام، والله - سبحانه - أعلم.

* * *

وقوله - تعالى - : ﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران:١٨].

«القسط» هو: العدل. فشهد - سبحانه - أنه قائم بالعدل في توحيده، وبالوحدانية في عدله، والتوحيد والعدل: هما جماع صفات الكمال. فإن التوحيد يتضمن تفرده - سبحانه - بالكمال والجلال، والمجد والتعظيم الذي لا ينبغي لأحد سواه. والعدل يتضمن وقوع أفعاله كلها على السداد والصواب، وموافقة الحكمة.

فهذا توحيد الرسل وعدلهم: إثبات حقائق الأسماء والصفات على ما يليق بالرب - سبحانه -، والأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وإثبات القدر، والحِكم

والغايات المحمودة بفعله وأمره، لا توحيد الجهمية والمعتزلة والقدرية، الذي هو إنكار الصفات، وحقائق الأسماء الحسنى، وعدلهم، الذي هو التكذيب بالقدر، أو نفي الحكم والغايات، والعواقب الحميدة التي يفعل الرب لأجلها ويأمر.

وقيامه ـ سبحانه ـ بالقسط في شهادته يتضمن أمورًا:

أحدها ـ أنه قائم بالقسط في هذه الشهادة التي هي أعدل شهادة على الإطلاق، وإنكارها وجحودها أظلم الظلم على الإطلاق، فلا أعدل من توحيد الرسل، ولا أظلم من الشرك. فهو ـ سبحانه ـ قائم بالعدل في هذه الشهادة قولًا وفعلًا، حيث شهد بها وأخبر، وأعلم عباده وبَيَّن لهم تحقيقها وصحتها، وألزمهم بمقتضاها، وحكم به، وجعل الثواب والعقاب عليها، وجعل الأمر والنهي من حقوقها وواجباتها.

فالدين كله من حقوقها، والثواب كله عليها، والعقاب كله على تركها. وهذا هو العدل الذي قام به الرب ـ تعالى ـ في هذه الشهادة.

فأوامره كلها تكميل لها، وأمر بأداء حقوقها، ونواهيه كلها صيانة لها عما يهدمها ويضادها، وثوابه كله عليها، وعقابه كله على تركها، وترك حقوقها، وخلقه السماوات والأرض وما بينهما كان بها ولأجلها.

وهي الحق الذي خلقت به المخلوقات، وضدها هو الباطل والعبث الذي نزَّه الله نفسه عنه، وأخبر أنه لم يخلق به السماوات والأرض.

قال ـ تعالى ـ ردًّا على المشركين المنكرين لهذه الشهادة: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٢٧].

وقـال ـ تعالـى ـ : ﴿ حمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ٢ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ ﴾ [الأحقاف:١-٣]. وقـال ـ تعالـى ـ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس:٥]، وهذا كثير في القرآن.

والحق الذي خُلقت به السماوات والأرض، ولأجله: هو التوحيد وحقوقه؛ مـن الأمـر والنهـي، والثـواب والعقـاب، والشـرع والقـدر، والخلـق. والثواب والعقاب: قائم بالعدل، والتوحيد صادر عنهما، وهذا هو الصراط المستقيم الذي عليه الرب ـ سـبحانه وتعالى ـ: قال ـ تعالى ـ حكاية عن نبيه هود أنه قال: ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هـود:٥٦]. فهـو ـ سـبحانه ـ علـى صراط مسـتقيم في قولـه وفعله. فهو يقـول الحق ويفعـل العـدل: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الأنعـام:١١٥]. ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الأحزاب:٤].

فالصراط المسـتقيم الـذي عليه ربنا ـ تبارك وتعالـى ـ: هو مقتضى التوحيد والعدل.

والمقصـود: أن قوله ـ تعالى ـ : ﴿ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ [آل عمران:١٨]، هو كقوله: ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود:٥٦].

***

قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران:٦].

ذكر محمد بن جرير الطبري أنه قال: الأولى[1] وصف وتوحيد. والثانية: رسم وتعليم، أي قولوا: لا إله إلا هو.

ومعنى هذا: أن الأولى تضمنت أن الله ـ سبحانه ـ شهد بها وأخبر بها. والتالي للقرآن إنما يُخبر عن شهادة الله، لا عن شهادته هو؛ وليس في ذلك شهادة من التالي نفسِه، فأعاد ـ سبحانه ـ ذكرها مجردة ليقولها التالي؛ فيكون شاهدًا هو بها أيضًا.

وأيضًا: فالأولى خبر عن الشهادة بالتوحيد، والثانية خبر عن نفس التوحيد. وختم بقوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:٦]، فتضمنت الآيات توحيده وعدله، وعزته وحكمته.

فالتوحيد يتضمن ثبوت صفات كماله، ونعوت جلاله، وعدم المماثل له فيها، وعبادته وحده لا شريك له.

والعدل يتضمن وضعه الأشياء موضعها، وتنزيلها منازلها، وأنه لم يخص شيئًا منها إلا بمخصِّصٍ اقتضى ذلك، وأنه لا يعاقب من لا يستحق العقوبة، ولا يمنع من يستحق العطاء، وإن كان هو الذي جعله مستحقًّا.

والعزة تتضمن كمال قدرته، وقوته وقهره.

والحكمة تتضمن كمال علمه وخبرته، وأنه أَمَرَ ونهى، وخَلَقَ وقَدَّرَ، لما له في ذلك من الحكم والغايات الحميدة التي يستحق عليها كمال الحمد.

---

(١) أي قوله ـ تعالى ـ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الآية [آل عمران:١٨].

فاسـمه (العزيز) يتضمن الملك، واسـمه (الحكيم) يتضمـن الحمد، وأول الآية يتضمن التوحيد، وذلك حقيقة «لا إله إلا الله وحده لا شـريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير».

وذلك أفضل ما قاله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والنبيون من قبله[1].

و(الحكيم) الذي إذا أمر كان المأمور به حسنًا في نفسه، وإذا نهى عن شيء كان المنهـي عنه قبيحًا في نفسـه، وإذا أخبر بخبر كان صدقًـا، وإذا فعل فعلًا كان صوابًا؛ وإذا أراد شيئًا كان أولى بالإرادة من غيره.

وهذا الوصف على الكمال: لا يكون إلا لله وحده.

فتضمنت هذه الآية وهذه الشهادة: وحدانيته المنافية للشرك، وعدلَه المنافيَ للظلم، وعزته المنافية للعجز، وحكمته المنافية للجهل والعيب.

ففيها: الشـهادة له بالتوحيد والعدل والقوة، والعلم والحكمة، ولهذا كانت أعظم شهادة.

ولا يقـوم بهذه الشـهادة علـى وجهها من جميـع الطوائف؛ إلا أهلُ السُّـنة، وسائر طوائف أهل البدع لا يقومون بها.

قـد فُسِّـرت شـهادة أولـي العلـم: بالإقـرار، وفسـرت بالتبييـن والإظهـار. والصحيح أنها تتضمن الأمرين. فشهادتهم إقرار وإظهار وإعلام، وهم شهداء لله على الناس يوم القيامة. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣].

---

(١) انظر تحقيقه ص (٦٩).

استشهد ـ سبحانه ـ بأولي العلم على أجل مشهود عليه، وهو توحيده فقال: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ [آل عمران:١٨]، وهذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه:

أحدها ـ استشهادهم دون غيرهم من البشر

والثاني ـ اقتران شهادتهم بشهادته.

والثالث ـ اقترانها بشهادة ملائكته.

والرابع ـ أن في ضمن هذا تزكيتهم وتعديلَهم، فإن الله لا يستشهد من خلقه إلا العدول، ومنه الأثر المعروف عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **(يحمل هذا العلمَ من كل خَلَفٍ عُدولُه ينفون عنه تحريفَ الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين)**[1]»[2].

---

(١) حديث صحيح أخرجه جمع من الحفاظ، وصححه الإمام أحمد ـ رضي الله عنه ـ، كما ذكر الخطيب البغداي ـ رحمه الله ـ في «شرف أصحاب الحديث». حديث رقم [٢٨].

(٢) «مفتاح دار السعادة» (٥٢، ٥٣).

(تنبيه): قد فصَّل شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ القول في تفسير هذه الآية الكريمة كما في «تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية» جمع الأستاذ/ إياد القيسي (٢/ ٣٩-٥٤)، فراجعه، فإنه نفيس.

(٩) كلمة الله العليا

قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٤٠].

قال شيخ المفسرين الطبري ـ رحمه الله ـ:

«يقولُ ـ تعالى ـ ذكرُه: فأنزَل اللهُ طُمَأنينتَه وسُكونَه على رسولِه. وقد قيل: على أبي بكرٍ. ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾. يقولُ: وقوَّاه بجنودٍ مِن عندِه من الملائكةِ لم تروْها أنتم، ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: وهي كلمةُ الشِّرْكِ، ﴿ٱلسُّفْلَىٰ﴾: لأنها قُهِرَت وأُذِلَّت، وأبطَلَها اللهُ ـ تعالى ـ، ومَحَق أهلَها، وكلُّ مَقْهورٍ ومَغْلوبٍ فهو أسْفلُ مِن الغالبِ، والغالبُ هو الأعلى، ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾. يقولُ: وديـنُ اللهِ وتوحيدُه وقولُ لا إلٰه إلا اللهُ، وهي كلمتُه، ﴿هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾: على الشِّرْكِ وأهلِه، الغالِبةُ.

كما حدَّثني المُثَنَّى، قال: ثنا أبو صالحٍ، قال: ثني معاويةُ، عن عليٍّ، عن ابنِ عباسٍ قولَه: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ﴾: وهي الشِّرْكُ باللهِ، ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾: وهي لا إلٰه إلا اللهُ.

وقولُـه: ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾. خبـرٌ مبتدأ، غيرُ مردودٍ على قولِه: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ﴾؛ لأن ذلـك لو كان معطوفًا على الكلمةِ الأولى لكان نَصْبًا[1].

وأمَّا قولُه: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، فإنـه يعني: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ في انتقامِه مِـن أهلِ الكفـرِ به، لا يَقْهَـرُه قاهِرٌ، ولا يَغْلِبُـه غالبٌ، ولا يَنْصُرُ مَـن عاقَبه ناصرٌ، ﴿حَكِيمٌ﴾ في تَدْبيرِه خَلْقَه، وتَصرِيفِه إياهم في مَشِيئتِه»[2]اهـ.

وعن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء رجلٌ إلى النبيِّ ـ صلى الله عليه وسـلم ـ، فقال: الرجلُ يُقاتِلُ شـجاعةً، ويُقاتِلُ حَمِيَّةً، ويُقاتِلُ رياءً، فأيُّ ذلك في سبيل اللهِ؟ قال: «**مَن قاتَل لتكونَ كلمةُ اللهِ هي العليا، فهو في سبيلِ اللهِ**»[3].

---

(١) فالرفع في «وكلمةُ الله» يعطي معنى التقرير، لأن كلمة الله هي العليا طبيعة وأصلًا، بدون تصيير متعلق بحادثة معينة.

(٢) «جامع البيان» (١١/ ٤٦٧).

(٣) رواه البخـاري (١٢٣، ٢٨١٠، ٣١٢٦، ٧٤٥٨)، ومسـلم [١٩٠٤]، وأبـو داود [٢٥١٧، ٢٥١٨]، والترمذي [١٦٤٦]، والنسائي [٣١٣٦].

لا إله إلا الله

(١٠) الكلمة الطيبة

قال الله - تعالى -: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٦].

«أخرج ابنُ جريرٍ، وابنُ المنذرِ، وابنُ أبي حاتمٍ، والبيهقيُّ في «الأسماء والصفات»، عن ابنِ عباسٍ في قولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾: شهادةُ أن لا إله إلا اللهُ، ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾، وهو المؤمنُ، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾. يقولُ: لا إله إلا اللهُ ثابتٌ في قلبِ المؤمنِ، ﴿وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ يقول: يُرفع بها عملُ المؤمنين إلى السماء»[١].

قال ابن القيم - رحمه الله -: «فشبه - سبحانه وتعالى - الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة؛ لأن الكلمة الطيبة تثمر العمل الصالح، والشجرة الطيبة تثمر الثمر النافع، وهذا ظاهر على قول جمهور المفسرين: الكلمة الطيبة: هي شهادة أن لا إله إلا الله، فإنها تثمر جميع الأعمال الصالحة، الظاهرة والباطنة، فكل عمل صالح مُرضٍ لله فهو ثمرة هذه الكلمة.

وفي تفسير علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾: شهادة أن لا إله إلا الله، ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾: وهو المؤمن. ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾

---

(١) «الدر المنثور» (٨/ ٥٠٩، ٥١٠).

قول: لا إله إلا الله في قلب المؤمن ﴿وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾. يقول: يُرفَع بها عمل المؤمن إلى السماء.

وقال الربيع بن أنس: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾: هذا مثل الإيمان، فالإيمان: الشجرة الطيبة، وأصلها الثابتُ الذي لا يزول: الإخلاص فيه، ﴿وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾: خشية الله.

والتشبيه على هذا القول أصح وأظهر وأحسن، فإنه ـ سبحانه ـ شبه شجرة التوحيد في القلب بالشجرة الطيبة الثابتة الأصل، الباسقة الفرع في السماء علوًّا، التي لا تزال تؤتي ثمرتها كل حين.

وإذا تأملت هذا التشبيه رأيته مطابقًا لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب، التي فروعها من الأعمال الصالحة صاعدة إلى السماء.

ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت، بحسب ثباتها في القلب، ومحبة القلب لها، وإخلاصه فيها، ومعرفته بحقيقتها، وقيامه بحقوقها، ومراعاتها حق رعايتها، فمن رسخت هذه الكلمة في قلبه بحقيقتها التي هي حقيقتها، واتصف قلبه بها، وانصبغ بها بصبغة الله التي لا أحسن صبغة منها، فعرف حقيقة الإلهية التي يثبتها قلبه لله، ويشهد بها لسانه، وتصدِّقها جوارحه، ونفى تلك الحقيقة ولوازمها عن كل ما سوى الله، وواطأ قلبه لسانه في هذا النفي والإثبات، وانقادت جوارحه لمن شهد له بالوحدانية طائعة سالكة سُبُل ربه ذُللًا، غير ناكبة عنها ولا باغية سواها بدلًا، كما لا يبتغي القلب سوى معبوده الحق بدلًا، فلا ريب أن هذه الكلمة من هذا القلب على هذا اللسان لا تزال تؤتي ثمرتها

مـن العمـل الصالح الصاعد إلـى الرب ـ تعالـى ـ، وهذه الكلمـة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل الصالح إلى الرب ـ تعالى ـ.

وهـذه الكلمة الطيبة تثمر كَلِمـًا كثيرًا طيبًا، يقارنه عمل صالح، فيرفع العمل الصالـح الكلـم الطيب، كمـا قـال ـ تعالـى ـ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]. فأخبـر ـ سـبحانه ـ أن العمـل الصالـح يرفع الكلم الطيب، وأخبر أن الكلمة الطيبة تثمر لقائلها عملًا صالحًا كل وقت.

والمقصود: أن كلمة التوحيد إذا شـهد بها المؤمـن عارفًا بمعناها وحقيقتها نفيًا وإثباتًا، متصفًا بموجبها، قائمًا قلبه ولسـانه وجوارحه بشـهادته، فهذه الكلمة الطيبـة هي التي رفعت هذا العمل من هذا الشـاهد، أصلها ثابت راسـخ في قلبه، وفروعها متصلة بالسماء، وهي مُخْرِجةٌ ثمرتَها كلَّ وقت»[1] اهـ.

قـال صاحـب الظلال ـ رحمـه الله تعالـى ـ: «إن الكلمة الطيبـة ـ كلمة الحق ـ لكالشـجرة الطيبة، ثابتة سـامقة مثمرة.. ثابتة لا تزعزعهـا الأعاصير، ولا تعصف بها رياح الباطل، ولا تقوى عليها معاول الطغيان ـ وإن خُيِّلَ للبعض أنها معرضة للخطـر الماحـق فـي بعـض الأحيـان ـ سـامقة متعالية، تطـل على الشـرِّ والظلم والطغيـان مـن عَلٍ ـ وإن خيـل إلى البعض أحيانًا أن الشـر يزحمها فـي الفضاء ـ مثمرة لا ينقطع ثمرها، لأن بذورها تنبت في النفوس المتكاثرة آنـًا بعد آن.

وإن الكلمـة الخبيثـة ـ كلمة الباطل ـ لكالشـجرة الخبيثة، قـد تهيج وتتعالى وتتشابك، ويخيل إلى بعض الناس أنها أضخم من الشجرة الطيبة وأقوى. ولكنها

---

(١) «أعلام الموقعين» (١/ ١٧٢، ١٧٣).

تظل نافشة هشة، وتظل جذورها في التربة قريبة حتى لكأنها على وجه الأرض.. وما هي إلا فترة ثم تُجتث من فوق الأرض، فلا قرار لها ولا بقاء.

ليس هذا وذاك مجردَ مَثَلٍ يُضْرَب، ولا مجرد عزاء للطيبين وتشجيع. إنما هو الواقع في الحياة، ولو أبطأ تحققه في بعض الأحيان»[(١)].

صح في الحديث عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن الشجرة الطيبة هي النخلة: فقد روى الشيخان في (صحيحيهما) عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**إن من الشجر شجرةً لا يسقط ورقُها، وإنها مثل المسلم، فحدِّثوني ما هي؟**» فوقع الناس في شجر البوادي، قال عبد الله: ووقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييت، ثم قالوا: حدِّثنا ما هي يا رسول الله؟ فقال: «**هي النخلة**» الحديث[(٢)].

وفي رواية للبخاري: فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**إن من الشجر لَمَا بركته كبركة المسلم**»[(٣)].

وروى الترمذي وغيره عن شعيب بن الحبحاب قال: كنا عند أنس، فأتينا بطبق عليه رطب، فقال أنس ـ رضي الله عنه ـ لأبي العالية: «كل يا أبا العالية، فإن هذا من الشجرة التي ذكر الله في كتابه ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ قال: هكذا قرأها يومئذ أنس»[(٤)].

---

(١) «في ظلال القرآن» (٤/ ٢٠٩٨، ٢٠٩٩).

(٢) رواه البخاري [١/ ٣٨]، ومسلم (٤/ ٢١٦٤).

(٣) رواه البخاري (٣/ ٤٤٤).

(٤) رواه الترمذي رقم [٣٣٣٨]، والطبري في تفسيره رقم [١٨٨٣٥]، واللفظ له، وصححه الألباني موقوفًا في «صحيح سنن الترمذي» رقم [٢٤٩٤].

وروى الطبراني في (الكبير) عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعًا: «**مثل المؤمن مثل النخلة ما أخذتَ منها من شيء نفعك**»[(١)].

تنبيـه: قد فصَّل جمع من العلماء في مصنفاتهم وشـروحهم أوجه الشبه بين المؤمـن والنخلة، ومن أجمع ما كُتب في ذلك كتاب «تأملات في مماثلة المؤمن للنخلـة»[(٢)] للشـيخ عبـد الرزاق بن عبد المحسـن البـدر ـ حفظهمـا الله تعالى ـ، فَراجعه فإنه نفيس.

(١) «المعجم الكبير» (١٢/ رقم ١٣٥١٤)، وصححه الحافظ في «الفتح» (١/ ١٤٧).

(٢) طبعته دار ابن عفان ـ الخبر ـ السعودية ـ (١٤١٩هـ - ١٩٩٨م).

لا إله إلا الله

(١١) كلمة الاستقامة

قال ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ٣١ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت:٣٠-٣٢].

ذهب فريق من المفسرين إلى أن المقصود: الذين أقروا بربوبية الله وتوحيده وما يقتضيه من عمل الصالحات، ثم ثبتوا على ذلك حتى الممات، ولم يلبسوا هذا التوحيد والإيمان بشرك ينقضه ويقدح فيه.

فقد أخرَج البيهقيُّ في «الأسماء والصفات» عن ابنِ عباسٍ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾: «قال: على شهادةِ أن لا إله إلا اللهُ»[1].

«وأخرَج عبدُ بنُ حميدٍ عن ابنِ عباسٍ، أنه سُئِلَ: أيُّ آيةٍ في كتابِ اللهِ أرجَى؟ قال: قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾: على شهادةِ أن لا إله إلا اللهُ. قيل له: فأين قولُه ـ تعالى ـ : ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر:٥٣]. فقال ابنُ عباسٍ: زِدْ، اقْرَأ: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر:٥٤]. فيها، علَّقه، أي: اعملُوا.

وأخرج عبدُ بنُ حميدٍ عن إبراهيمَ، ومجاهدٍ في قولِه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾. قالا: قالوا: لا إله إلا اللهُ، لم يُشْرِكُوا بعدَها باللهِ شيئًا حتى يَلْقَوه.

---

(١) «الأسماء والصفات» ص (٢٠٥).

وأخرَج ابنُ المباركِ، وعبدُ الرزاقِ، والفريابيُّ، وسعيدُ بنُ منصورٍ، ومُسدَّدٌ، وابنُ سعدٍ، وعبدُ بنُ حميدٍ، وابنُ جريرٍ، وابنُ المنذرِ، وابنُ أبي حاتم، من طريقِ سعيدِ بنِ نِمْرانَ، عن أبي بكرٍ الصديق في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾. قال: الاستقامةُ أن لا تُشْرِكُوا بالله شيئًا.

وأخرج ابنُ راهُويَه، وعبدُ بنُ حميدٍ، والحكيمُ الترمذيُّ في «نوادرِ الأصولِ»، وابنُ جريرٍ، والحاكمُ وصحَّحه، وابنُ مَرْدُويَه، وأبو نعيم في «الحليةِ» من طريقِ الأسودِ بن هلالٍ، عن أبي بكرٍ الصديقِ، أنه قال: ما تَقولُون في هاتين الآيتين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾، و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ [الأنعام:٨٢]. قالُوا: الذين قالوا ربُّنا اللهُ، ثم عمِلوا بها واستقاموا على أمرِه فلم يُذنِبوا، ﴿وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾: لم يُذْنِبُوا. قال: لقد حَمَلْتُموها على أمرٍ شديدٍ؛ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾. يَقولُ: بشرك، و﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾: فلم يَرْجِعُوا إلى عبادةِ الأوثانِ»[1].

(١) «الدر المنثور» (١٣/ ١٠٣-١٠٥).

(١٢) كلمة النجاة

سبق أن بيَّنَّا أن «لا إله إلا الله» تُنجي قائلَها من سوء الخاتمة والعياذ بالله، ومن وحشة القبور، وأهوال يوم النشور، كما أنها تنجيه من دخول النار، فإن عوقب بمعاصيه التي مات دون أن يتوب منها وأُدخِل النار، فإن «لا إله إلا الله» تنجيه من الخلود في النار.

وقد قص الله ـ تعالى ـ في كتابه المجيد قول مؤمن آل فرعون: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ٤١ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾ [غافر:٤١-٤٢].

ولاشك أن النجاة في الإتيان بالركن الأعظم من الإسلام وهو شهادة أن لا إله إلا الله، إذ بها ينجو المؤمن من عذاب الله وعقوبته، عن مجاهد قال: ﴿مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ الإيمانُ بالله[(١)].

فكان يدعوهم إلى النجاة من النار، وهم يدعونه إلى النار.

وقال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]. وهذا يدل على أن النجاة لا تحصل بدون الإيمان بـ«لا إله إلا الله»، وتحصل مع الإيمان بها.

ولأنها «كلمة النجاة» فزع إليها الكفار حين رأوا بأس الله قد نزل بهم، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ

---

(١) «جامع البيان» (٢٠/ ٣٣١).

مُشۡرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

وتشبث بها فرعون كما قصَّ الله عنه: ﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ [يونس: ٩٠، ٩١].

فآمن حيث لا ينفعه الإيمان، لأن الإيمان وقت الغرغرة وحلول العذاب إيمان اضطراري لا عبرة به، كالذين قال الله في حقهم: ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ١٢]، فهذا يقين اضطراري في دار الجزاء، والعبرة باليقين الإرادي الاختياري في دار العمل والابتلاء.

قال الرازي: «اعلم أن هذا الذكر لما كان من أفضل الأذكار فالعدو لما جاءته المحنة فزع إليه، والولي لما جاءته المحنة فزع إليه.

أما العدو فإن فرعون لما قرب من الغرق قال: ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ [يونس: ٩٠]. والمعنى: أنه لا إله يقدر أن يجعل النار راحة كما في حق إبراهيم، ولا الماء عذابًا كما في حق فرعون، إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل.

وأما الولي فكما في حق يونس: قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. والمعنى:

لا إله إلا أنت، فإنك أنت الذي تقدر على حفظ الإنسان حيًّا في بطن الحوت، ولا قدرة لغيرك على هذا الحال.

فإن قيل: كل واحد منهما نادى، فلماذا قبل نداء أحدهما ولم يقبل نداء الآخر؟

قلنا: الفرق من وجوه:

الأول ـ أن يونس ـ عليه السلام ـ كان قد سبقت له المعرفة مع هذه الكلمة، فسبقُ المعرفة إعانة على قبولها منه. وأما فرعون فقد تقدم له سبق الكفر، وذلك لأن الذي تقدم له (هو) النداء إلى نفسه كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات:٢٣، ٢٤]. وأما يونس ـ عليه السلام ـ فقد كان ينادي الله. قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾ [القلم:٤٨]. وأيضًا قال: ﴿ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ [الصافات:١٤٣، ١٤٤]. وهذا ينبهك على أن من حفظ الله في الخلوات يحفظه في الفلوات.

الثاني ـ أن يونس ـ عليه السلام ـ إنما ذكر هذه الكلمة مع الحضور فقال: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ ﴾ فكان في الحضور والشهود. وأما فرعون فإنه قالها في الغيبة، فقال: ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ [يونس:٩٠]. فأحال العلم بحقيقة هذه الكلمة على الغير.

الثالث ـ أن فرعون ذكر هذه الكلمة على سبيل التقليد لبني إسرائيل، فقال: ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ [يونس:٩٠]. وأما يونس ـ عليه السلام ـ فإنه إنما ذكرها على سبيل الاستدلال مع العجز والانكسار بسبب تلك الكلمات. ثم قال بعده: ﴿ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٧].

فحصل له العجز والانكسار بسبب الذلة، فلما كانت هذه مسبوقة بالعجز والانكسار ملحوقة بهما لا جرم صارت مقبولة، لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ [النمل:٦٢].

الرابع ـ أن فرعون إنما ذكر هذه الكلمة لا للعبودية، بل لطلب الخلاص من الغرق، بدليل قوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ ﴾ [يونس:٩٠]. وأما يونس ـ عليه السلام ـ فهو إنما قالها لما حصل له من الانكسار بسبب التقصير في الطاعة والعبودية، بدليل قوله بعده: ﴿ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾»[1] اهـ.

(١) «عجائب القرآن» ص (٥٣ – ٥٥).

لا إله إلا الله

(١٣) كلمة الفلاح

من معانـي «الفلاح» لغةً[١]: الظفر، والفوز بالبغيـة. وذلك ضربان: دنيوي، وأُخرويٌّ.

فالدنيوي: نيل الأسباب التي بها تطيب الحياة. وهي البقاء، والغِنى، والعِز، وإياه قصد الشاعر بقوله:

ظنهف غهعع؛ ننف يفقن غعهٔذ   ذ×تند ونف يفـفلد عاقيغ

والأخروي: أربعة أشياء: بقاء بلا فناء، وغنىً بلا فقر، وعز بلا ذل، وعلم بلا جهل، لذلك قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة»**.

وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت:٦٤].

وقولـه: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ [طه:٦٤] يحتمل الأخروي والدنيوي وهو أقرب.

وقـول المـؤذن: «حيَّ على الفـلاح»: أي هلموا إلى سـبب البقاء في الجنة، والفـوز بهـا، وهو الصلاة فـي الجماعة، لأن الفـلاح: البقاء والفـوز والظفر، مِن أفلح، كالنجاح من أنجح.

ومنـه حديث الخيل: **«من ربطها عُدَّةً في سـبيل الله فإن شِـبَعَها وجُوعَها وَرِيَّها وظمأها وأرواثها وأبوالها فَلاحٌ في موازينه يوم القيامة»** أي: ظفر وفوز.

---

(١) انظـر: «مفـردات ألفاظ القرآن» للراغب ص (٦٤٤)، و«النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٣/ ٤٦٩)، و«بصائر ذوي التمييز» للفيروز أبادي (٢/ ١٨٠)، (٤/ ٢١٣).

ومنه حديث السَّحور: «حتى خشينا أن يفوتنا الفلاح» سُمِّيَ بذلك لأن بقاء الصوم به».

وفي حديث أبي الدحداح:

*** بَشَّرَكَ اللهُ بخيرٍ وفَلَحْ ***

أي: بقاء وفوز، وهو مقصور من الفلاح.

وفي حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «إذا قال الرجل لامرأته: (استفلِحي بأمرِكِ)، فقبلته، فواحدة بائنة» أي: فُوزي بأمرك واستبِدِّي به.

* * *

وقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون:١]، وركن الإيمان الأعظم هو شهادة أن لا إله إلا الله.

وقال ـ عزَّ وجلَّ ـ في المؤمنين ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة:٢٢].

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [الأعلى:١٤]. ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس:٩] وتزكية النفس بلا إله إلا الله أعظم التزكية كما تقدم بيان ذلك[1].

وقال ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٢].

ونفى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الفلاح عمن استكبروا عن شهادة التوحيد، فقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون:١١٧].

وقال حكاية عن أصحاب الكهف: ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف:٢٠].

---

(١) راجع ص (٥٠)، وما بعدها.

وعن ربيعة بن عِبَاد الدِّيلي وكان جاهليًّا أسلم، فقال: رأيتُ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بصرَ عيني بسوق ذي المَجَاز يقولُ: «**يا أَيُّها النَّاسُ قولوا: لا إلٰه إلا الله، تُفْلِحُوا**» ويدخُلُ في فجاجها، والناسُ مُتَقَصِّفونَ[1] عليه، فما رأيتُ أحدًا يقولُ شيئًا، وهو لا يسكتُ يقولُ: «**أيُّها النَّاسُ قولوا: لا إلٰه إلا الله، تفلِحُوا**» إلا أنَّ وراءه رجلًا أحولَ وضيءَ الوجه ذا غديرتين يقولُ: إنه صابئ كاذب. فقلتُ: من هذا؟ قالوا: محمدُ بنُ عبد الله وهو يذكر النبوَّةَ، قلتُ: من هذا الذي يُكَذِّبه؟ قالوا عمُّه أبو لهب. قلتُ: إنك كنتَ يومئذٍ صغيرًا! قال: لا والله إني يومَئذٍ لأَعقِلُ[2].

وعن شيخ من بني مالك بن كِنانة، قال: رأيتُ رسولَ اللهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ بسُوق ذي المَجاز يتخلَّلُها يقول: «**يا أَيُّها النَّاسُ قُولُوا: لا إلٰه إلَّا الله تُفْلِحُوا**». قال: وأبو جَهْلٍ يَحْثي عليه التُّرابَ، ويقول: يا أيُّها النَّاسُ، لا يَغُرَّنَّكُم هذا عن دينكم، فإنَّما يُريدُ لتتركوا آلِهَتكم، وتتركوا الَّلاتَ والعُزَّى، قال: وما يلتفِتُ إليه رسولُ اللهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ، قال: قُلنا: انْعَتْ لنا رسولَ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، قال: بينَ بُرْدَينِ أحْمَرَين، مربوعٌ كثيرُ اللَّحم، حَسَنُ الوَجْهِ، شديدُ سَوَادِ الشَّعرِ، أبيضُ شديدُ البياض، سابغُ الشَّعْرِ[3].

وعن عِمران بن حُصَين، قال: كانتِ العَضْباءُ لرجلٍ من بني عُقَيل، وكانت من سوابقِ الحاجِّ، فأُسِرَ الرجلُ، وأُخِذَتِ العَضْباءُ معه، قال: فمَرَّ به رسول الله

---

(١) **مُتَقَصِّفونَ عليه**: أي مجتمعون عليه تعجبًا مما يقول.

(٢) «المسند» (٢٥/ ٤٠٤، ٤٠٥) رقم [١٦٠٢٣]، وقال محققوه: «صحيح لغيره».

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» رقم [١٦٦٠٣]، وقال محققوه: «إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين» (٢٧/ ١٤٨).

ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو في وَثاقٍ ورسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على حِمار عليه قَطِيفةٌ، فقال: يا محمَّدُ، تأخُذوني وتَأخذونَ سابقةَ الحاجِّ؟ قال: فقال رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**نَأْخُذُكَ بِجَرِيرةِ حُلَفائِكَ ثَقِيفٍ**» قال: وقد كانت ثقيفٌ قد أَسَرُوا رجلينِ من أصحابِ النبيِّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وقال فيما قال: وإني مُسلِمٌ. فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**لو قُلْتَها وأنتَ تَملِكُ أمرَكَ أفلَحْتَ كلَّ الفَلاحِ**»[1] قال: ومَضَى رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، قال: فقال: يا محمدُ، إني جائعٌ فأطعِمْني، وإني ظَمْآنُ فاسقِني. قال: فقال رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**هذِه حاجَتُكَ!**» ثمَّ فُدِيَ بالرجلين، وحبس رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ العضباءَ لرَحْلِه[2].

وفي قصة هرقل التي رواها البخاري في أول صحيحه في كتاب بدء الوحي: «ثمَّ كتبَ هِرقلُ إلى صاحبٍ لهُ برومية، وكانَ نظيرَهُ في العلمِ، وسارَ هرقلُ إلى حمصَ، فلمْ يَرِمْ حمصَ حتى أتاهُ كتابٌ منْ صاحبِهِ يوافقُ رأيَ هرقلَ على خروجِ النبيِّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنهُ نبيٌّ. فأذنَ هرقلُ لعظماءِ الرُّومِ في دَسْكَرةٍ لهُ بحمصَ، ثمَّ أمرَ بأبوابِها فغُلِّقتْ، ثمَّ اطَّلعَ فقالَ: يا معشرَ الرُّومِ، هل لكمْ في الفلاحِ والرُّشدِ، وأن يثبتَ مُلكُكمْ فتُبايِعُوا هذا النبيَّ؟ فحاصُوا حَيْصةَ حُمُرِ الوحشِ إلى الأبوابِ فوجدُوها قدْ غُلِّقَتْ، فلمَّا رأى هرقلُ نَفْرَتَهُمْ وأَيِسَ من

(١) يعني لو قلت كلمة الإسلام قبل الأسر حين كنت مالكَ أمرك أفلحت كل الفلاح؛ لأنه لا يجوز أسرك لو أسلمت قبل الأسر، فكنت قد أفلحت بالإسلام وبالسلامة من الأسر ومن اغتنام مالك، واما إذا أسلمت بعد الأسر فيسقط الخيار في قتلك، ويبقى الخيار بين الاسترقاق والمَنِّ والفداء.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» رقم [١٩٨٦٣]، وقال محققوه: «إسناده صحيح على شرط مسلم».

الإيمـانِ قالَ: رُدُّوهـمْ عليَّ، وقال: إنِّي قُلـتُ مقالتيِ آنِفًا أختَبِرُ بهَا شـدَّتكُمْ على دِينكُمْ، فقد رأيتُ. فسجدُوا لهُ ورضُوا عنهُ، فكانَ ذلكَ آخرَ شأنِ هرَقْلَ»(١).

وعن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**قد أفلح من آمن، ورُزق كَفافًا، وقَنَّعه الله به**»(٢).

وعنه ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**قد أفلح من أسلم، ورُزق كَفافًا، وقنَّعه الله بما آتاه**»(٣).

(١) رواه البخاري (١/ ٧١، ٧٢) ط. طيبة ـ الرياض.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» رقم [٦٦٠٩]، وقال محققوه: «صحيح».

(٣) رواه الإمام أحمد [٦٥٧٢]، ومسلم [١٠٥٤]، والترمذي [٢٣٤٨]، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والكَفاف: ما لا فضل فيه.

لا إله إلا الله

(١٤) الكلمة الباقية

قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف:٢٦-٢٨].

قال ابن جرير ـ رحمه الله ـ: «وقوله: ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ ﴾. يقول جلَّ ثناؤه: وجعل قولَه ﴿ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾. ـ وهو قولُ: لا إله إلا اللهُ ـ كلمةً باقيةً في عقبِه، وهم ذُرِّيتُه، فلم يزلْ في ذُرِّيتِه مَن يقولُ ذلك مِن بعده.

وقد اختلَف أهلُ التأويلِ في معنى الكلمةِ التي جعلَها خليلُ الرحمن باقيةً في عقبِه؛ فقال بعضُهم بنحوِ الذي قلنا في ذلك.

قنقّ هه نعه قهن

حدَّثنا ابنُ بشارٍ، قال: ثنا عبدُ الرحمنِ، قال: ثنا سفيان، عن ليث عن مجاهدٍ: ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ ﴾. قال: لا إله إلا الله.

حدَّثنا بشرٌ، قال: ثنا يزيدُ، قال ثنا سعيدٌ، عن قتادةَ: ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ ﴾. قال: شهادةَ أنَّ لا إله إلا اللهُ، والتوحيدَ، لم يَزَلْ في ذريته مَن يقولُها مِن بعدِه.

حدَّثنا ابـنُ عبـدِ الأعلى، قال: ثنـا ابنُ ثورٍ، عـن معمرٍ، عن قتـادةَ في قولِه: ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ ﴾. قـال التوحيـدَ والإخلاصَ، ولا يـزالُ في ذُرِّيته من يُوَحِّدُ اللهَ ويعبدُه.

حدَّثنا محمدٌ، قال: ثنا أحمدُ، قال: ثنا أسـباطُ، عن السُّدِّيِّ: ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ ﴾. قال: لا إله إلا اللهُ.

وقال آخرون: الكلمةُ التي جعَلها باقية في عقبِه اسمُ الإسلامِ.

قنقة هه نعه قهن

حدَّثني يونسُ، .قال: أخبرَنا ابنُ وهبٍ، قال: قال ابنُ زيدٍ في قولِه: ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ ﴾. قال:الإسلامُ، وقرأ: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [البقرة:١٣١]. قال: جعَل هذه كلمةً باقيةً في عَقبِه، وقال: الإسلامُ، وقرَأ: ﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ [الحج:٧٨]. وقرأ: ﴿ وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ [البقرة:١٢٨][1].

وقـال الحافـظ ابـن كثيـر ـ رحمـه الله ـ: «يقـول ـ تعالى ـ مخبـرًا عن عبده ورسـوله وخليله إمام الحنفاء، ووالدِ مَن بُعِثَ بعده من الأنبياء الذي تنتسـب إليه قريـش فـي نسـبها ومذهبها: أنه تبـرأ من أبيه وقومه فـي عبادتهم الأوثـان، فقال: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ ﴾، أي: هذه الكلمة، وهي عبادة الله ـ تعالى ـ وحده لا شريك له، وخلع ما سـواه مـن الأوثـان، وهـي «لا إله إلا الله»، أي: جعلها دائمة فـي ذريته يقتدي بـه فيها مـن هداه الله من ذريـة إبراهيم ـ عليـه السـلام ـ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾، أي: إليهـا. وقـال عكرمة، ومجاهد، والضحـاك، وقتادة، والسـدي، وغيرهم في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ ﴾، يعني: لا إله إلا الله، لا يزال في ذريته

(١) انظر: «جامع البيان» (٢٠/ ٥٧٦، ٥٧٧).

من يقولها. ورُوي نحوه عن ابن عباس. وقال ابن زيد: كلمة الإسلام. وهو يرجع إلى ما قاله الجماعة»[(١)]اهـ.

وقال الإمام المحقق ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ: «أي: جعل هذه الموالاة لله والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية في عقبه يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض وهي كلمة: لا إله إلا الله، وهي التي ورَّثها إمامُ الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة»[(٢)].

وقال الرازي ـ رحمه الله ـ: «رُوي عن كثير من المفسرين أنهم قالوا في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾: إنها قول: لا إله إلا الله، ويدل عليه وجوه:

الأول ـ مقدمة هذه الآية، وهي قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ وكان معنى قوله: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ﴾. نفي الإلهية عن الأشياء التي كانوا يعبدونها، ثم قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾. فكان فيه إثبات الإلهية للذي فطره، فإذا حصل هذان المعنيان كان مجموعهما هو قول: لا إله إلا الله. ثم قال: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ فثبت أن المراد من الكلمة الباقية قول: لا إله إلا الله.

الثاني ـ أنه ـ تعالى ـ قال في سورة القصص: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨]. فبين أن كل شيء هالك إلا هو، فإنه واجب الدوام، والبقاء، والسرمدية. وقد عرفتَ أن القول تبع المقول،

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٧/ ٢٢٦).

(٢) «بدائع التفسير» (٢/ ٤٣٧).

والاعتقـاد تبـع المعتقد، فـكان صدق لا إلٰه إلا الله، وحقيقـة لا إلٰه إلا الله واجِبَيْ الثبوت والبقاء والدوام، وذلك هو المراد بكونها باقية.

الثالث ـ أنا بينا أن التوحيد لا يزول بسبب المعصية، والمعصية تزول بسبب التوحيد[1]، وأيضًا التوحيد يبقى مع أهل الجنة، وسائر الطاعات لا تبقى...»[2].

(١) لعله يشير إلى ما تقدم ص (٣٤٣) من كون «لا إلٰه إلا الله» مغفرة للذنوب، وكفارة للخطايا.

(٢) «عجائب القرآن» ص (٨٧).

لا إله إلا الله

(١٥) كلمة التقوى

قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح:١٨]، ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الفتح:٢٦].

قال السيوطي ـ رحمه الله ـ: «قولُه ـ تعالى ـ : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾.

أخرَج الترمذيُّ، وعبدُ اللهِ بنُ أحمدَ في زوائدِ (المسندِ)، وابنُ جرير، والدارَقطنيُّ في (الأفرادِ)، وابنُ مَردُويه، والبيهقيُّ في (الأسماء والصفات)، عن أُبيِّ بنِ كعبٍ، عن النبيِّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾. قال: «لا إله إلا الله»[١].

وأخرَج ابنُ مَرْدُويه عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ في قولِ اللهِ: ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾. قال: «لا إله إلا الله».

وأخرج ابن مَردُويه عن سلمةَ بن الأكوع، عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في قول الله: ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾. قال: «لا إله إلا الله».

---

(١) رواه الترمذي رقم [٣٢٦٥]، وهو في «صحيح سنن الترمذي» رقم [٢٦٠٣].

وأخرَج عبدُ الـرزاقِ، والفريابيُّ، وعبدُ بنُ حميدٍ، وابنُ جريرٍ، وابنُ المنذر، وابـنُ أبي حاتـمٍ، والحاكمُ، وصحَّحـه، والبيهقيُّ في (الأسـماءِ والصفات)، عن عليِّ ابنِ أبي طالبٍ: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾. قال: لا إله إلا الله.

وأخـرَج ابـنُ جريـرٍ، وأبـو الحسـينِ بـنُ بِشْـرانَ فـي «فوائـده»، عـن عليٍّ: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾. قال: لا إله إلا الله، واللهُ أكبرُ.

وأخـرَج أحمدُ، وابـنُ حبانَ، والحاكمُ عن حُمْرانَ، أنَّ عثمانَ قال: سـمعتُ النبيَّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقولُ: «**إني لأعلمُ كلمةً لا يَقولُها عبدٌ حقًّا من قلبِه إلا حرَّمه الله على النارِ**». فقال عمرُ بنُ الخطابِ: أنا أُحَدِّثُكم ما هي، كلمةُ الإخلاصِ التي ألزَمها اللهُ محمدًا وأصحابَه، وهي كلمةُ التقوى التي أَلاصَ[1] عليها نبيُّ اللهِ عمَّه أبا طالبٍ عندَ الموتِ؛ شهادةُ أنْ لا إله إلا الله[2].

وأخرَج ابنُ جريرٍ، وابنُ المنذرِ، وابنُ أبي حاتمٍ، وابنُ مَردُويَه، والبيهقيُّ في «الأسـماء والصفات»، عن ابنِ عباسٍ: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ قال: شهادةَ أن لا إله إلا الله، وهي رأسُ كلِّ تَقْوَى.

وأخـرج عبدُ الرزاقِ، وسـعيدُ بنُ منصـورٍ، وابنُ جريرٍ، وابـنُ المنذرِ، وابنُ مردُويه والبيهقيُّ، عن عليٍّ الأزديِّ قال: كنتُ مع ابنِ عمرَ بين مكةَ ومنىً، فسـمع النـاسَ يقولُـون: «لا إله إلا الله، واللهُ أكبـرُ». فقال: هي هـي. فقلتُ: ما هي هي؟ قال: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾.

---

(١) ألاص: أي أداره عليها، وراوده فيها. «النهاية» (٤/ ٢٧٦).

(٢) رواه الإمـام أحمـد (١/ ٤٩٩) [٤٤٧]، وابن حبان [٢٠٤]، والحاكـم (١/ ٣٥)، وقال محققو المسند: «إسناده قوي».

وأخـرج ابن أبي حاتم، والدارقطني، في «الأفراد»، عن المسـور بن مخرمة ومـروان بـن الحكـم: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ قـالا: لا إله إلا الله وحـده، لا شريك له.

وأخـرَج ابـنُ جريـر، من طريـقِ ابنِ جريـجٍ، عن مجاهـدٍ وعطاءٍ فـي قوله: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾. قـال أحدُهمـا: الإخـلاصُ. وقـال الآخـرُ: كلمـةُ التقـوى: لا إله إلا اللهُ وحدَه، لا شـريك له، لـه الملكُ، وله الحمدُ، وهو على كل شيء قديرٍ.

وأخـرج ابنُ جريرٍ عـن مجاهـدٍ: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ قـال: كلمةَ الإخلاصِ.

وأخرَج ابنُ جريرٍ عن عمرِو بنِ ميمونٍ: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾. قال: لا إله إلا اللهُ.

وأخـرج عبـد بـن حميد، وابـن جريـر، عـن عكرمـة: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ قال: لا إله إلا الله.

وأخـرَج عبدُ بنُ حميـدٍ، عن مجاهدٍ، والحسـن، وقتادةَ، وإبراهيـمَ التيميِّ، وسعيد بنِ جبيرٍ، مثلَه.

وأخـرَج عبـدُ بـنُ حميـدٍ، وابنُ جريـرٍ، عن عطـاءٍ الخراسـانيِّ: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾. قال: لا إله إلا الله، محمدٌ رسولُ اللهِ.

...وأخرج ابن جرير عن قتادة: ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾: وكان المسلمون أحقَّ بها، وكانوا أهلَها»[1].

---

(١) «الدر المنثور» (١٣/ ٥٠٨ - ٥١١).

وروى أبو إسحاق السبيعي، عن عمرو بن ميمون قال: ما تكلَّمَ الناس بشيء أفضل من لا إله إلا الله، فقال سعد بن عياض: «أتدري ما هي يا أبا عبد الله؟ هي والله كلمة التقوى ألزمها الله أصحاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وكانوا أحقَّ بها وأهلَها، رضي الله عنهم»[1].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور الرمادي، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني الليث، حدثني عبد الرحمن بن خالد، عن ابن شهاب، عن سعيد ابن المسيب، أن أبا هريرة ـ رضي الله عنه ـ أخبره، أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**أُمِرْتُ أن أقاتلَ الناسَ حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله**»، وأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في كتابه، وذكر قومًا فقال ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الصافات:٣٥]، وقال الله جل ثناؤه: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ وهي: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، فاستكبروا عنها، واستكبر عنها المشركون يوم الحديبية، وكاتبهم رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على قضية المدة[2].

وقال الإمام المحقق ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ: «لما كانت حمية الجاهلية توجب من الأقوال والأعمال ما يناسبها، جعل الله في قلوب أوليائه السكينة تقابل حمية الجاهلية، وفي ألسنتهم كلمة التقوى مقابلة لما توجبه حمية الجاهلية من كلمة الفجور؛ فكان حظ المؤمنين السكينة في قلوبهم، وكلمة التقوى على ألسنتهم، وحظ أعدائهم حمية الجاهلية في قلوبهم، وكلمة

---

(١) رواه الطبراني في «الدعاء» (٣/ ١٥٣٣).

(٢) قال الحافظ ابن كثير: «وكذا رواه بهذه الزيادات ابن جرير من حديث الزهري، والظاهر أنها مدرجة من كلام الزهري، والله أعلم»اهـ. «تفسير القرآن العظيم» (٧/ ٣٤٨).

الفجور والعدوان على ألسنتهم، فكانت هذه السكينة وهذه الكلمة جندًا من جند الله أيَّدَ بها رسولَه والمؤمنين في مقابلة جند الشيطان الذي في قلوب أوليائه وألسنتهم»[١].

قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ وكلمة التقوى هي الكلمة التي يُتقى الله بها، وأعلى أنواع هذه الكلمة هي قول: لا إله إلا الله، ثم كل كلمة يُتقى الله بها بعدها فهي من كلمة التقوى، وقد أخبر ـ سبحانه ـ أنه ألزمها عباده المؤمنين فجعلها لازمة لهم لا ينفكون عنها، فبإلزامه التزموها، ولولا إلزامه لهم إياها لما التزموها، والتزامها فعل اختياري تابع لإرادتهم واختيارهم فهو المُلزِم وهم الملتزمون»[٢].

وقال العلامة العثيمين ـ رحمه الله ـ: «﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ وهي «لا إله إلا الله» وحقوقها، ألزمهم القيام بها فالتزموها، وقاموا بها ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا﴾ من غيرهم ﴿وَ﴾ كانوا ﴿أَهْلَهَا﴾ الذين استأهلوها لما يعلم الله عندهم وفي قلوبهم من الخير، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾»[٣].

وقال الرازي ـ غفر الله له ـ: «قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾. وفي سبب هذه التسمية وجوه:

الأول ـ أنه لما اتقى صاحب هذه الكلمة أن يصف ربه بما وصفه به المشركون وُصِفَتْ هذه الكلمة بأنها كلمة التقوى، ورأس التقوى اتقاءٌ لكلمة الكفر.

ثم في هذه الآية إشارة وبِشارة.

---

(١) «إعلام الموقعين» (٤/ ٢٥٤، ٢٥٥).

(٢) «شفاء العليل» ص (٦٠).

(٣) «تفسير القرآن الكريم» (٩/ ٨٣٧).

أما الإشارة: فهي أنه ـ تعالى ـ سمى نفسه ﴿أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ فقال: ﴿هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ [المدثر:٥٦]، وسَمَّى الموحِّدين أهلَ كلمةِ التقوى، فقال: ﴿وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ الآية، وكأنه ـ تعالى ـ يقول: أنا أهل أن أكون مذكورًا بهذه الكلمة، وأنت أهل لذكر هذه الكلمة، فما أعظم هذا الشرف!

وأما البِشارة: فهي أنه ـ تعالى ـ قال: ﴿وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَا﴾ فأثبت أن الموحدين أحق الخلق بهذه الكلمة، وهم أهل هذه الكلمة، وأنه كريم لا ينزع الحق عن مستحقه، فهذا يدل على أنه لا ينزع الإيمان من قلب المؤمن.

الثاني ـ في بيان أنه: لم سُمِّيَتْ هذه الكلمةُ بكلمة التقوى؟ هو أن هذه الكلمة واقية لبدنك من السيف، ولِمالِكَ من الاستغنام، ولذمتك من الجزية، ولأولادك من السبي، فإن انضاف القلب إلى اللسان صارت واقية لقلبك عن الكفر، وإن انضم التوفيق إليه صارت واقية لجوارحك عن المعاصي، ثم قال: ﴿وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ . أي: نحن ألزمناهم بهذه الكلمة التي هي المفتاح لباب الجنة، فنحن أردناهم أولًا، وهم ما أرادونا[1]. فلنا المنة عليهم في فتح هذا الباب، وتقريره بقوله ـ تعالى ـ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات:١٧]»[2].

---

(١) وذلك لأن توبة الله على العباد تسبق توبتهم إليه، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة:١١٨].

(٢) «عجائب القرآن» ص (٨٥، ٨٦).

(١٦) كلمة الصدق

قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [الزمر:٣٣، ٣٤].

ذكر الطبري أن من المفسرين من قال: «الذي جاء بالصدقِ رسولُ اللهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ. قالوا: والصدقُ الذي جاء به: لا إلٰه إلا اللهُ، والذي صدَّق به أيضًا، هو رسولُ اللهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

قنقة هةه نعه قهن

حدَّثني عليٌّ، قال: ثنا أبو صالحٍ، قال: ثنى معاويةُ، عن عليٍّ، عن ابنِ عباسٍ قولَه: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ ﴾. يقول: مَن جاء بـ «لا إله إلا الله»، ﴿ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾. يعني رسولَه»[(١)].

وبعد أن ذكر اختلاف المفسرين في ذلك، قال ـ رحمه الله ـ: «والصوابُ مِن القولِ في ذلك أن يقالَ: إن اللهَ ـ تعالى ـ ذكره عنَى بقولِه: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾. كلَّ من دَعا إلى توحيدِ اللهِ، وتصديقِ رسولِه، والعملِ بما ابتُعِث به رسولُه ـ صلى الله عليه وسلم ـ؛ مِن بينِ رسولِ اللهِ وأتباعِه والمؤمنين به، وأن يقالَ: الصدقُ هو القرآنُ، وشهادةُ أن لا إلٰه إلا اللهُ، والمُصَدِّقُ به المؤمنون بالقرآنِ، مِن جميعِ خلقِ اللهِ كائنًا مَن كان مِن نبيِّ اللهِ وأتباعِه.

وإنما قلنا ذلك أَولى بالصوابِ؛ لأن قولَه ـ تعالى ـ ذكرُه: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ عَقِيبَ قولِه: ﴿ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ

---

(١) «جامع البيان» (٢٠/ ٢٠٤).

بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓ﴾ [الزمر:٣٢]، وذلك ذمٌّ مِن اللهِ المُفْتَرِين عليه، المُكذِّبين بتنزيلِه ووَحْيِه، الجاحِدين وحدانيتَه، فالواجبُ أن يكونَ عقيبَ ذلك مدحُ مَن كان بخلافِ صفةِ هؤلاء المذْمومِين، وهم الذين دَعَوهم إلى توحيدِ اللهِ، ووصَفه بالصفةِ التي هو بها، وتصديقِهم بتنزيلِ اللهِ ووَحيِه، والذين هم كانوا كذلك يومَ نزلَت هذه الآيةُ؛ رسولُ اللهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابُه ومَن بعدَهم، القائمون في كلِّ عصرٍ وزمانٍ بالدعاءِ إلى توحيدِ اللهِ، وحكمِ كتابِه؛ لأن اللهَ ـ تعالى ـ ذكره، لم يخُصَّ وصفَه بهذه الصفةِ التي في هذه الآيةِ، على أشخاصٍ بعينِهم، ولا على أهلِ زمانٍ دونَ غيرِهم، وإنما وصَفهم بصفةٍ، ثم مدَحهم بها، وهي المجيئُ بالصدقِ والتصديق به، فكلُّ من كان ذلك وصفَه، فهو داخلٌ في جملة هذه الآيةِ، إذا كان مِن بني آدمَ»[١].

إلى أن قال: «وقولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾. يقولُ جلَّ ثناؤه: هؤلاء الذين هذه صفتُهم، هم الذين اتَّقَوا اللهَ، بتوحيدِه والبراءةِ من الأوثانِ والأندادِ، وأداءِ فرائضِه، واجتنابِ معاصِيه، فخافوا عقابَه.

كما حدَّثني عليٌّ، قال: ثنا أبو صالح، قال: ثنى معاويةُ، عن عليٍّ، عن ابن عباسٍ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾. يقولُ: اتَّقَوا الشركَ»[٢].

إن ما يعبده المشركون من دون الله مجرد أسماء سمَّوها هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان، فهم آلهة في نفوس المشركين بهم وليسوا آلهة في نفس الأمر، ولهذا قال إبراهيم ـ عليه السلام ـ لقومه: ﴿مَاذَا تَعۡبُدُونَ ۝٨٥ أَئِفۡكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات:٨٥، ٨٦].

(١) «جامع البيان» (٢٠/ ٢٠٤-٢٠٧).

(٢) «نفسه» (٢٠/ ٢٠٨).

وقال أيضًا: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت:١٧].

وقال أصحاب الكهف: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الكهف:١٥].

وقال هود لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود:٥٠].

وذكر ـ عزَّ وجلَّ ـ صفة أهل الشرك الذي هو كذب عليه في قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ ثم ثنَّى بمدح أهل التوحيد الذي هو الصدق فقال بعده: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾، والموحد صادق في شهادته أن لا إله إلا الله، وكلما كرَّر ذلك تحقق قلبه بالتوحيد والإخلاص[١].

ولأن قول «لا إله إلا الله» كلمة الصدق، يُصَدِّق الله ـ سبحانه ـ عبده المؤمن إذا قالها:

عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ وأبي هريرة ـ رضي الله عنهما ـ قالا: قال رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«إذَا قالَ العبدُ: لَا إلهَ إلَّا اللهُ، واللهُ أكْبَرُ، صَدَّقهُ ربُّهُ. قالَ: صدقَ عبدي، لَا إلهَ إلَّا أنَا، وأنَا أكبَرُ، وإذا قالَ: لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدهُ، صَدَّقهُ ربُّهُ، قال: صدقَ عبدِي لَا إلهَ إلَّا أنا وحدِي. وإذا قالَ: لَا إلهَ إلَّا اللهُ لَا شريكَ لهُ، صدَّقهُ ربُّهُ قال: صدقَ عبدِي، لَا إلهَ إلَّا أنا لا شريكَ لِي، وإذا قال: لَا إلهَ إلَّا اللهُ لهُ المُلْكُ، صدَّقهُ ربُّهُ قال: صدقَ عبدِي، لَا إلهَ إلَّا أنا، لِي المُلْكُ ولي**

---

(١) انظر: «قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات» لشيخ الإسلام ابن تيمية ص (٣٤).

الحَمـدُ، وإذا قـال: لا إلٰه إلَّا اللهُ، لَا حَـولَ ولَا قُـوَّةَ إلَّا باللهِ، صَدَّقَهُ رَبُّـهُ، وقالَ: صَدَقَ عَبدِي، لَا إلٰه إلَّا أنَا، ولا حول ولا قوة إلَّا بي»[1].

---

(١) أخرجـه الترمـذي [٣٤٣٠]، والنسـائي في «عمل اليـوم والليلـة» [٣٠]، [٣١]، [٣٤٨]، وابن ماجة [٣٧٩٤]، وابن حبان [٨٥١]، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: «إسناده قوي».

لا إله إلا الله

(١٧) كلمة السواء

قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

قال إمام المفسرين الطبري ـ رحمه الله ـ: «يعني بذلك جل ثناؤه: ﴿قُلْ﴾ يا محمدُ لأهلِ الكتابِ، وهم أهلُ التوراةِ والإنجيلِ: ﴿تَعَالَوْا۟﴾: هَلُمُّوا ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ﴾ يعني: إلى كلمةٍ عَدلٍ بيننا وبينكم. والكلمةُ العَدْلُ هي أن نُوَحِّدَ اللهَ فلا نعْبُد غيرَه، ونَبرَأ مِن كل معبودٍ سواه، فلا نُشْرِكَ به شيئًا.

وقولُه: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا﴾ يقولُ: ولا يَدِينُ بعضُنا لبعضٍ بالطاعةِ فيما أمَر به من مَعاصِي اللهِ، ويُعَظِّمُه بالسجودِ له، كما يَسْجُدُ لربِّه، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾. يقولُ: فإن أعرَضوا عما دعوْتَهم إليه مِن الكلمةِ السواءِ التي أمرتُك بدعائِهم إليها، فلم يُجيبوك إليها، ﴿فَقُولُوا۟﴾ أيها المؤمنون للمُتَولِّين عن ذلك ﴿ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾»[1].

إلى أن قال ـ رحمه الله ـ: وقال آخرون: هو قولُ لا إله إلا اللهُ.

قنق هه نعه قهن

حدَّثني المثنى، قال: ثنا إسحاقُ، قال: ثنا ابنُ أبي جعفرٍ، عن أبيه، عن الربيع قال: قال أبو العاليةِ: كلمةُ السواءِ لا إله إلا اللهُ.

---

(١) «جامع البيان» (٥/ ٤٧٣).

وأما قولُه: ﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ . فإن «أن» في موضعِ خفضٍ، على معنى: تعالَوْا إلى ألَّا نَعبُدَ إلَّا اللهَ»[1].

وقال السيوطي في «الدر»: «وأخرج عبدُ بنُ حميدٍ، وابنُ المنذرِ، عن مجاهدٍ: ﴿تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ﴾. قال: لا إله إلا الله»[2].

وقال الطبري: «وأما قولُه: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا﴾. فإن اتخاذَ بعضِهم بعضًا ما كان بطاعةِ الأتْباعِ الرؤساءَ فيما أمَروهم به مِن مَعاصِي اللهِ، وتَرْكِهم ما نَهَوْهم عنه من طاعةِ اللهِ، كما قال جل ثناؤُه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا﴾ [التوبة:٣١].

كما حدَّثنا القاسمُ، قال: ثنا الحسينُ، قال: ثنى حجاجٌ، قال: قال ابنُ جريج: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، يقولُ: لا يُطِعْ بعضُنا بعضًا في معصيةِ اللهِ، ويقالُ: إن تلك الربوبيةَ أن يُطيعَ الناسُ سادتهم وقادتَهم في غيرِ عبادة، وإنْ لم يُصَلُّوا لهم.

..وأما قولُه: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾. فإنه يعْني: فإن تَولَّى الذين تَدعُونهم إلى الكلمةِ السواءِ عنها وكفَروا، فقولوا أنتم أيُّها المؤمنون لهم: اشهَدوا علينا بأنا بما توَلَّيتُم عنه؛ مِن توحيدِ اللهِ، وإخلاصِ العُبوديةِ له، وأنه الإلهُ الذي لا شَريكَ له، ﴿مُسۡلِمُونَ﴾، يعني: خاضِعون لله به، مُتذَلِّلون له بالإقرار بذلك، بقلوبنا وألسنتِنا»[3].

(١) «نفسه» (٥/ ٤٧٩).

(٢) «الدر المنثور» (٣/ ٦١٥).

(٣) «جامع البيان» (٥/ ٤٨٠).

وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ومن جرى مجراهم: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾، والكلمة تطلق على الجملة المفيدة كما قال ها هنا، ثم وصفها بقوله: ﴿سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾، أي: عدل ونَصَف، نستوي نحن وأنتم فيها، ثم فسَّرها بقوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾؛ لا وثنًا، ولا صنمًا، ولا صليبًا، ولا طاغوتًا، ولا نارًا، ولا شيئًا. بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له. وهذه دعوة جميع الرسل؛ قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]. ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ قال ابن جريج: يعني يطيع بعضنا بعضًا في معصية الله، وقال عكرمة: يعني يسجد بعضنا لبعض. ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، أي: فإن تولوا عن هذا النَّصَف وهذه الدعوة فأشهدوهم أنتم على استمراركم على الإسلام الذي شرعه الله لكم. وقد ذكرنا في شرح البخاري، عند روايته من طريق الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة بن مسعود، عن ابن عباس، عن أبي سفيان، في قصته حين دخل على قيصر، فسألهم عن نسب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعن صفته ونعته وما يدعو إليه، فأخبره بجميع ذلك على الجلية. مع أن أبا سفيان كان إذ ذاك مُشركًا لم يسلم بعد، وكان ذلك بعد صلح الحديبية وقبل الفتح، كما هو مصرح به في الحديث، ولأنه لما قال: هل يغدر؟ قال: فقلت: لا، ونحن منه في مُدة لا ندري ما هو صانع فيها. قال: ولم يُمكنِّي كلمة أزيد فيها شيئًا سوى هذه. والغرض

أنه قال: ثم جيء بكتاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقرأه، فإذا فيه: «**بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقلَ عظيمِ الروم، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد، فأسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيِّين**، و: ﴿ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾»[1].

وقال الرازي ـ غفر الله له ـ: «قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ ﴾ قال أبو العالية الرياحي: هي كلمة «لا إله إلا الله». والدليل عليه أنه ـ تعالى ـ قال بعده: ﴿ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا ﴾. ولا معنى لهذه الآية إلا ما هو المراد من قول: «لا إله إلا الله». فثبت أن المراد من كلمة السواء هو كلمة «لا إله إلا الله»»[2].

تنبيه خطير: تستر كثير من العصرانيين في موقفهم المنحرف في قضية ما يُسمى «الحوار بين الأديان» وراء هذه الآية الكريمة، حيث حَرَّفوا معنى الدعوة إلى ﴿ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ ﴾ فيها عن مدلولها الإسلامي العقدي القاطع إلى مضامين أخرى، قال الدكتور أحمد بن عبد الرحمن القاضي في كشف زيف هذا التأويل الفاسد: «إن الأصل في باب مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، هو آية آل عمران: ﴿ قُلۡ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٦٠، ٦١).

(٢) «عجائب القرآن» ص (٨٩).

ﭐشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤]. قال ابن جرير ـ رحمه الله ـ في تفسيرها: «قل يا محمد لأهل الكتاب، وهم أهل التوراة والإنجيل: تعالوا: هلموا إلى كلمة سواء، يعني إلى كلمة عدلٍ بيننا وبينكم، والكلمة العدل: هي أن نوحد الله فلا نعبد غيره، ونبرأ من كل معبودٍ سواه، فلا نشرك به شيئًا... ولا يدين بعضنا لبعضٍ بالطاعة فيما أمر به من معاصي الله، ويعظمه بالسجود له كما يسجد لربه»[1].

وهو معنى واضح بيِّن بحمد الله، بل هو تفسير القرآن بالقرآن، حيث فسر الكلمة السواء بما بعدها. ولكن الذين في قلوبهم زيغ يحرفون الكلم عن مواضعه، ويخرجون النص عن مقاصده، ويزعمون معاني مُدَّعاة ليست مراد الله في هذه الآية، فقد عطلوا النص أولًا عن دلالته الصحيحة، وحرفوه ثانيًا إلى دلالات مزعومة.

وأولى صور التحريف لمعنى الآية المحكمة: الإيهام أن الكلمة السواء هي القدر الجامع المشترك، المتحقق وجوده فعلًا، لا أنه يُطلب الالتقاء عليه، كما هو صريح النداء والدعوة في قوله: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ ﴾، فيفسرون ﴿ سَوَآءِۭ ﴾ أي: نحن وإياكم متساوون في هذه القضايا، لا فرق بيننا وبينكم!

ومن شواهد ذلك:

ـ موقف محمد حسين فضل الله:

الذي قال: «وقد نلاحظ أن هناك أكثر من قضية مشتركة يلتقي فيها المسلمون والمسيحيون في كل الساحات، وهي الكلمة السواء في التوحيد ورفض الشرك، ووحدة الإنسانية، ورفض الاستكبار والاستعباد الإنساني، وهو

---

(١) «جامع البيان» (٥/ ٤٧٣، ٤٧٤).

الـذي طرحـه القـرآن الكريم على أهـل الكتاب فـي قوله ـ تعالـى ـ : ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، فيتحـرك الجميـع لمواجهـة المادية الملحدة، والشـرك العبادي، والاسـتكبار العالمـي، لينطلق الإيمان بالدين بشـكلٍ عام قويًّا في سـاحة الفكر، ويتحرك المسـتضعفون في مواقع القوة في مواجهة المسـتكبرين؛ الأمر الذي قد يتيح للشعوب المستضعفة أن تكتشف في الدين الحركي معنى الحرية والعدالة، فتلتقـي بالإيمان به من خلال جهاده السياسـي في خـط المواجهة للظلم العالمي كله، ليقف المسـلم ضد المسـتكبر حتى لو كان مسـلمًا، ويقف المسـيحي ضده حتى لو كان مسيحيًّا»[١].

وفـي موضع آخر يقول: «... إن القرآن الكريـم عندما أطلق الجو الحواري مـع أهل الكتاب، تمسـك بالكلمة السـواء التي تنفتح على خطيـن لا يبتعدان عن حركة الواقع:

الخط الأول ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ٦٤]، أن نوحد الله ـ تعالى ـ ، ولا نعبد كل القوى الظالمة والمستكبرة والطاغية، لتكون في موقع الشريك لله ـ تعالى ـ .

(١) «في آفاق الحوار الإسلامي المسيحي» ـ المقدمة.

الخط الثاني ـ ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:٦٤]، الرفض القاطع لأن يكون الإنسان مستعليًا ومستكبرًا على أخيه الإنسان، فيكون في موضع الرب لهذا الإنسان»[(١)].

إن من يقارن هذا التفسير الحادث لمعنى الكلمة السواء، بالتفسير القرآني الأثري الذي ذكره الطبري، يدرك بُعْدَ الشُّقَّة، وطول النقلة التي يتجشمها هؤلاء العصرانيون في تعطيل آي الكتاب عما نزلت فيه، وحملها على محامل متعسفة مستكرهة، فإذا بالنداء التوحيدي الصريح الذي يدعو القوم إلى نبذ عقيدة التثليث، ودعوى ربوبية المسيح، واتخاذ أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، يتحول إلى خطابٍ ثوري مسكونٍ بشعارات سياسية خاصة، ويُفَرَّغ من محتواه العقدي الأصيل، ليُضَمَّن دعواتٍ إنسانية عامة يتشدق بها كل أحد، ولا يتميز بها أحدٌ عن أحد.

ومنه أيضًا:

ـ **موقف د. يوسف الحسن:**

حيث قال: «وهدف الحوار مع المسيحية هو الوصول إلى (كلمة سواء) لعمل الصالحات والنافعات للبشرية، ولمواجهة الطغيان، وتحقيق معرفة كل طرفٍ بالآخر، وإزالة سوء الفهم، والتعاون على البر والتقوى.

وتنادي الرؤية الإسلامية، بضرورة الجهر بالحق في المسائل التي تهم الناس، والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة... وتحرص على ألا ينشغل الحوار بمسائل الاعتقاد، بل ينطلق من احترام كل طرفٍ لعقيدة الآخر، والتسليم بمبدأ الاختلاف، ومبدأ حرية الاختيار، ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾»[(٢)].

---

(١) «نفسه» (٤٦، ٤٧).

(٢) «الحوار الإسلامي المسيحي الفرص والتحديات» ص (٤٣، ٤٤).

إن المرء ليعجب أشد العجب من تخوِّض هؤلاء الكُتَّاب في آيات الله دون رادع...عن أن يقولوا على الله ما لا يعلمون، بل ما يعلم من له أدنى معرفة باللغة أنه خلاف مراد الله، فمضمون الكلمة السواء مضمون عقدي خالص؛ عبادة الله وحده، ونبذ الشرك، وعدم اتخاذ الأرباب من دون الله، ثم يزعم الكاتب أن الرؤية الإسلامية تحرص على ألا ينشغل الحوار بمسائل الاعتقاد!! ليس هذا فقط، بل ينطلق من احترام كل طرفٍ لعقيدة الآخر والتسليم بمبدأ الاختيار، وكأن ذلك معنى: ﴿ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:٦٤]، أو معنى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ [الكافرون:٦].

إن في هذا الطرح استهتارًا بعقول القراء، وتغييبًا للأمة عن الحقيقة الجلية واستدراجها إلى سبيل غير سبيل المؤمنين.

... إن العقيدة الإسلامية، والشريعة الإسلامية، تملكان من فرص التواصل مع البشرية، وآفاق التعاون ما لا تملكه أيديولوجية أخرى، ولكن وفق معاييرهما لا معايير الآخرين. إن الإسلام انفتاح واتصال وحركة دؤوب، وهو أبعد ما يكون عن الانغلاق والانكفاء والعنصرية، قال ـ تعالى ـ: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [آل عمران:١١٠]، ولكن لنأتِ البيوتَ من أبوابها، ولنفتح القلوب بمفاتيحها»[٣]اهـ.

(٣) انظر: «دعوة التقريب بين الأديان» (٢/ ٧٢٥-٧٣٦).

لا إله إلا الله

(١٨) كلمة العدل

قـال الله ـ عـزَّ وجـلَّ ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

قـال الإمـام الطبري ـ رحمه الله ـ: «يقول ـ تعالى ذكرُه ـ إن الله يأْمُرُ في هذا الكتـابِ الـذي أنزَله إليك يا محمـدُ ﴿بِٱلۡعَدۡلِ﴾، وهو الإنصـافُ، ومن الإنصافِ الإقرارُ بمَن أنْعَم علينا بنعمته، والشـكرُ له على أفضالِه، ونُولِي الحمدَ أهلَه، وإذا كان ذلك هو العدلَ، ولم يَكُنْ للأوثانِ والأصنامِ عندَنا يدٌ تَسْـتَحِقُّ الحمدَ عليها؛ كان جهـلًا بنـا حمدُها وعبادتُها، وهي لا تُنْعِمُ فتُشْـكَرَ، ولا تَنْفَعُ فتُعْبَدَ، فلزِمنَا أن نشْـهَدَ أن لا إله إلا اللهُ وحـدَه لا شـريكَ لـه، ولذلك قال مَن قـال: العدلُ في هذا الموضعِ: شهادةُ أن لا إله إلا اللهُ.

قنقة هه نعه قهن

حدَّثني المثنى وعليُّ بن داودَ، قالا: ثنا عبدُ اللهِ بنُ صالحٍ، قال: ثني معاويةُ، عـن عليٍّ، عن ابن عباسٍ قولَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾. قال: شـهادةُ أن لا إله إلا الله.

وقولُه: ﴿وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾. فإن الإحسانَ الذي أمَر به ـ تعالى ـ ذكرُه ـ مع العدلِ الـذي وصَفْنـا صفتَه ـ الصبرُ للهِ علـى طاعتِه فيما أمَر ونهَى، في الشـدةِ والرخاءِ، والمَكْرَهِ والمَنْشَطِ، وذلك هو أداءُ فرائضِه.

كمـا حدثني المثني وعليُّ بـنُ داودَ، قالا: ثنا عبد اللهِ، قال: ثني معاويةُ، عن عليٍّ عن ابنِ عباسٍ: ﴿وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾. يقولُ: أداءِ الفرائضِ»[1]اهـ.

وجاء تفسير كلمة السـواء في قوله ـ تعالـى ـ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ الآية [آل عمران: ٦٤]؛ بأنها العدل.

قال السيوطي في «الدر»: «أخرج ابنُ جريرٍ، وابنُ المنذرِ، عن قتادةَ: ﴿تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ﴾ قال: عَدْلٍ»[2].

وأخرج الطَّسْتي في «مسائله» عـن ابن عباس ـ رضـي الله عنهما ـ أن نافع ابن الأزرق سـأله عن قوله: ﴿سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾. قال: عَدْلٍ. قال: وهل تعرِفُ العربُ ذلك؟ قال: نعم، أَمَا سَمِعتَ قولَ الشاعرِ:

غ﴾نٓيهع نٓعٓقتننجهع قٓوعظ وهنهٖ فقٓ له فعه غفعه

وأخرج ابنُ جريرٍ، وابنُ أبي حاتمٍ، عن أبي العاليةِ قال: كلمةُ السَّـواءِ: لا إلٰه إلا اللهُ[3].

(١) «جامع البيان» (١٤/ ٣٣٤،٣٣٥)، وانظر: «عجائب القرآن» للرازي ص (٧٨،٧٩).

(٢) «الدر المنثور» (٣/ ٦١٤).

(٣) «الدر المنثور» (٣/ ٦١٥).

لا إله إلا الله

(١٩) العروة الوثقى

قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٥٦].

قال شيخ المفسرين الطبري ـ رحمه الله ـ: «الصوابُ من القولِ عندي في الطاغوتِ أنه كلُّ ذي طُغيانٍ طغى على اللهِ فعُبِد من دونِه، إمَّا بقَهْرٍ منه لمن عبَده، وإما بطاعةٍ ممن عبَده له؛ إنسانًا كان ذلك المعبودُ، أو شيطانًا، أو وثنًا، أو صَنَمًا، أو كائنًا ما كان من شيءٍ.

وأرى أن أصلَ الطاغوتِ: الطَّغَوُوتُ، من قولِ القائلِ: طغَا فلانٌ يَطْغُو. إذا عدَا قَدْرَه، فتجاوَز حدَّه، كالجَبَروتِ من التَّجبُّرِ، والخَلَبُوتِ من الخَلْبِ[1]، ونحوِ ذلك من الأسماءِ التي تأتي على تقديرِ (فَعَلُوت) بزيادةِ الواوِ والتاءِ، ثم نُقِلَتْ لامُه ـ أَعْنِي لامَ الطغَوُوتِ ـ فجُعلَتْ له عينًا، وحُوِّلَتْ عَينُه، فجُعِلَت مكانَ لامِه، كما قيل: جَبَذ وجَذَب، وجابِذٌ وجاذِبٌ، وصاعِقةٌ وصاقِعةٌ، وما أَشبه ذلك من الأسماءِ التي تأتي على هذا المثالِ.

فتأويلُ الكلام إذن: فمن يَجْحَدْ رُبوبيَّةَ كلِّ معبودٍ من دونِ اللهِ، فيَكْفُرْ به ﴿ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ ﴾ يقولُ: ويُصدِّقْ بالله أنه إلهُه وربُّه ومعبودُه دون غيرِه، ﴿ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ ﴾ يقولُ: فقد تمسَّك بأَوثقِ ما يَتَمَسَّكُ به مَنْ طلَب الخلاصَ لنفسِه مِنْ عذابِ اللهِ وعقابِه.

---

(١) **خلبه يخلبه خَلْبًا**: خدعه، وهو خَلَبُوت أي: خدَّاع، كما في «القاموس المحيط» (خ ل ب).

كما حدثني أحمدُ بنُ سعيد بنِ يعقوبَ الكنديُّ، قال: ثنا بَقِيَّةُ بنُ الوليدِ، قال: ثنا ابنُ أبي مريمَ، عن حُميدِ بنِ عُقبةَ، عن أبي الدَّرْداءِ، أنه عاد مريضًا من جِيرتِه، فوجَده في السَّوْقِ وهو يُغَرْغِرُ، لا يَفْقَهون ما يريدُ، فسألهم: يريدُ أن يَنْطِقَ؟ قالوا: نعم، يريدُ أن يقولَ: آمنْتُ باللهِ، وكفَرْتُ بالطاغوتِ. قال أبو الدَّرْداءِ: وما عِلْمُكم بذلك؟ قالوا: لم يَزَلْ يُرَدِّدُها حتى انكسَر لسانُه، فنحن نعلمُ أنه إنَّما يريدُ أن يَنْطِقَ بها. فقال أبو الدَّرْداءِ: أفلح صاحبُكم، إن الله يقولُ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

القولُ في تأويلِ قولِه جل ثناؤه: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾

والعُرْوةُ في هذا المكانِ مَثَلٌ للإيمانِ الذي اعْتَصَم به المؤمنُ، فشَبَّهه في تَعَلُّقِه به وتَمَسُّكِه، بالمُتَمَسِّكِ بعُروةِ الشيءِ الذي له عُروةٌ يُتَمَسَّكُ بها[1]، إذ كان كلُّ ذي عُروةٍ فإنَّما يَتَعَلَّقُ مَن أرادَه بعُروتِه.

وجعَل جل ثناؤه الإيمانَ الذي تَمَسَّكَ به الكافرُ بالطاغوتِ المؤمنُ باللهِ، مِن أَوْثَقِ عُرَى الأشياءِ بقولِه: ﴿ٱلْوُثْقَىٰ﴾.

و(الوُثْقَى) فُعْلَى، مِن الوَثاقةِ، يقالُ في الذكَرِ: هو الأَوْثَقُ. وفي الأنثى: هي الوُثْقَى. كما يقالُ: فلانٌ الأفضلُ، وفلانة الفُضْلَى.

وبنحوِ ما قلْنا في ذلك قال أهلُ التأويلِ في قولِه: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾.

---

(١) «العروة: طرف الحبل إذا رُبط على هيئة الحلقة، يمسك بها من ينزل في بئر أو يصعد منها، والمراد بها هنا: وسيلة النجاة، والوثقى: شديدة الربط، لا أوثق منها. ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ أي: لا انحلال لها، فلا يَهْلِكُ المتعلقُ بها، بل يصل بتمسكه بها إلى الجنة، ولا ينقطع عن الجنة إلا من لم يتمسَّكْ بها». اهـ. من «زبدة التفسير من فتح القدير» للأشقر ـ رحمه الله ـ ص (٥٣).

حدَّثني محمدُ بنُ عمرو، قال: ثنا أبو عاصمٍ، عن عيسى، عن ابنِ أبي نَجيحٍ، عن مجاهدٍ في قولِه: ﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾. قال: الإيمانُ.

حدَّثني المثنَّى، قال: حدَّثنا أبو حذيفةَ، قال: حدَّثنا شِبْلٌ، عن ابنِ أبي نَجيحٍ، عن مجاهدٍ مثلَه.

حدَّثني موسى، قال: حدَّثنا عمروٌ، قال: ثنا أسباطُ، عن السديِّ، قال: العُرْوةُ الوُثْقَى هو الإسلامُ.

حدَّثنا أحمدُ بنُ إسحاقَ، قال: ثنا أبو أحمدَ، قال: ثنا سفيانُ، عن أبي السوداءِ، عن جعفرٍ - يَعْنِي ابنَ أبي المغيرةِ - عن سعيدِ بنِ جُبيرٍ قولَه: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ قال: لا إله إلا الله.

حدثنا ابنُ بَشَّارٍ، قال: ثنا عبدُ الرحمنِ، قال: ثنا سفيانُ، عن أبي السوداءِ النَّهدِيِّ، عن سعيدِ بن جُبيرٍ مثلَه.

حدَّثني المثنَّي، قال: ثنا إسحاقُ، قال: ثنا أبو زُهيرٍ، عن جُويبرٍ، عن الضَّحَّاكِ: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ قال: لا إله إلا الله.

القولُ في تأويل قولِه جل ثناؤُه: ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾

يعني جل ثناؤُه بقولِه: ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾: لا انكسارَ لها، والهاءُ والألفُ في قولِه: ﴿لَهَا﴾ عائدةٌ على (العُروةِ).

ومعنى الكلام: «فمن يَكْفُرْ بالطاغوتِ ويؤمنْ باللهِ، فقد اعتصَم مِن طاعةِ اللهِ بما لا يُخْشَى - مع اعتصامِه به - خِذْلانُه إيَّاه، وإسلامُه عندَ حاجتِه إليه في أهوالِ الآخرةِ، كالمُسْتَمْسِك بالوثيقِ مِن عُرَى الأشياءِ التي لا يُخشَى انكسارُ عُراها، وأصل الفَصْم: الكَسْرُ...».

حدَّثني موسى بنُ هارونَ، قال: ثنا عمروٌ، قال: ثنا أسباطُ، عن السديِّ: ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ قال: لا انقطاعَ لها»[1].

***

وقال - تبارك وتعالى -: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان:٢٢].

قال الطبري - رحمه الله - في تأويل هذه الآية: «يقولُ - تعالى - ذكرُه: ومَن يُعَبِّد وَجْهَه مُتَذلِّلًا بالعبودةِ، مُقِرًّا له بالأُلوهة، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾. يقولُ: وهو مُطيعٌ للهِ في أمرِه ونهيِه؛ ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾. يقولُ: فقد تمسَّك بالطَّرَفِ الأوثقِ الذي لا يَخافُ انقطاعَه مَن تَمَسَّك به، وهذا مَثَلٌ[2]. وإنما يعني بذلك أنه قد تمسَّك مِن رضا الله بإسلامِه وجهَه إليه وهو مُحسِنٌ - ما لا يَخافُ معه عذابَ اللهِ يومَ القيامةِ».

وبنحوِ الذي قلْنا في ذلك قال أهلُ التأويلِ.

---

(١) «جامع البيان» (٤/ ٥٥٨-٥٦٢).

(٢) «وهذا تمثيل لحال من أسلم وجهه إلى الله بحال من أراد أن يترقى إلى شاهق جبل، فتمسَّك بأوثق عُرى حبلٍ مُتَدلٍّ منه»اهـ. من «فتح القدير» للشوكاني (٤/ ٢٤٢).

قنقة هةه نعه قهن

حدَّثنا ابنُ وكيعٍ، قال: ثنا أبي، عن سـفيانَ، عن أبي السَّـوداءِ، عن جعفرِ بنِ أبي المغيرةِ، عن سـعيدِ بـنِ جُبَيرٍ، عن ابنِ عبـاسٍ: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾. قال: «لا إله إلا الله»[1].

وقال السـيوطي ـ رحمه الله ـ: «وأخرَج ابنُ أبي شـيبةَ في «المصنفِ»، وابنُ أبـي حاتمٍ، عن أنـسِ بنِ مالكٍ فـي قولِـه: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾. قال: القرآنِ».

وأخرَج سفيانُ بنُ عيينةَ، وعبدُ بنُ حميدٍ، وابنُ جريرٍ، وابنُ المنذرِ، وابنُ أبي حاتمٍ، عن مجاهدٍ في قولِه: ﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾. قال: الإيمانِ. ولفظُ سـفيانَ قال: كلمةِ الإخلاصِ.

وأخرَج البخاريُّ، ومسـلمٌ[2]، عن عبدِ اللهِ بنِ سـلامٍ قـال: رأيتُ رؤْيَا على عهدِ رسولِ اللهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ؛ رأيتُ كأنِّي في رَوْضَةٍ خضراءَ، وسَطَها عمـودُ حديدٍ، أسـفلُه في الأرضِ وأعلاه في السـماءِ، في أعلاه عُـرْوةٌ، فقيل لي: اصعَدْ عليه. فصعِدتُ حتى أخذتُ بالعروةِ، فقال: استمسِكْ بالعروةِ. فاستيقظتُ وهـي فـي يدِي، فقصصتُها على رسـولِ اللهِ ـ صلى الله عليه وسـلم ـ، فقال: «**أمَّا الروضـةُ؛ فروضـةُ الإسـلامِ، وأما العمودُ؛ فعمـودُ الإسـلامِ، وأما العروةُ؛ فهـي العروةُ الوُثْقى**[3]**، أنت على الإسلام حتى تموت**»[4].

---

(١) «جامع البيان» (١٨/ ٥٦٩).

(٢) «رواه البخاري» [٣٨١٣]، [٧٠١٠]، [٧٠١٤]، ومسلم [٢٤٨٤].

(٣) وفـي رواية مسـلم: «**وأما العروة فهي عُروة الإسـلام**» [٢٤٨٤]، وانظر: «تفسـير القرآن العظيم» لابن كثير (١/ ٦٨١، ٦٨٢).

(٤) «الدر المنثور» (٣/ ٢٠١).

والحاصل أن المفسرين اختلفوا في تفسير ﴿بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾؛ فقيل: المراد بالعروة: الإيمان، وقيل: الإسلام، وقيل: لا إله إلا الله، ولا مانع من الحمل على الجميع»، لأنه اختلاف تنوع لا تضاد.

لا إله إلا الله

(٢٠) المثل الأعلى

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [النحل: ٦٠].

قال الطبري ـ رحمه الله ـ:

«وهـذا خبرٌ من اللهِ جلَّ ثناؤه أن قولَه: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾. والآيةَ التي بعدَها مثلٌ ضرَبه لهؤلاء المشركين الذين جعَلوا للهِ البناتِ، فبيَّن بقولِه: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾: أنه مَثَلٌ، وعنَى بقولِه جلَّ ثناؤُه: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾: للذيـن لا يصدِّقـون بالمعَادِ والثـوابِ والعقابِ من المشـركين ﴿ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ﴾. وهـو القبيحُ من المثلِ، وما يسـوءُ مَن ضُرب له ذلك المثلُ، ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾. يقولُ: وللهِ المثلُ الأعلى، وهو الأفضلُ والأطيبُ، والأحسنُ والأجملُ، وذلك التوحيدُ والإذعانُ له بأنه لا إلٰهَ غيرُه.

وبنحوِ الذي قلنا في ذلك قال أهلُ التأويلِ.

حدَّثنـا محمدُ بنُ عبدِ الأعلى، قال: ثنا محمدُ بن ثورٍ، عن معمرٍ، عن قتادةَ: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾. قال: شهادةُ ألا إلٰه إلا اللهُ.

حدَّثنا بشـرٌ، قال: ثنا يزيدُ، قال: ثنا سـعيدٌ، عن قتادةَ قولَه: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾: الإخلاصُ والتوحيدُ»[١] اهـ.

---

(١) «جامع البيان» (١٤/ ٢٥٨).

فالمثل الأعلى هو الوصف الكامل، وأعظم وصف لله ـ تعالى ـ هو أنه لا إله إلا هو، كما جاء في صدر أعظم آية في القرآن الكريم آية الكرسي: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ الآية.

قال الرازي: «قال قتادة في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾: معناه قول: «لا إله إلا الله»... واعلم أن معنى المثل هنا الصفة، كذا قال أهل اللغة، ونظيره قوله ـ تعالى ـ: ﴿ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾ [الرعد:٣٥]، أي: صفتها. فصار المراد من قوله: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ عين المراد من قوله: ﴿ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَا ﴾»[1].

وقال الإمام المحقق ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ: «وصف الله ـ سبحانه ـ نفسه في هذه الآية بأن له المثلَ الأعلى، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [الروم:٢٧]. فجعل مثل السوء المتضمن للعيوب والنقائص وسلب الكمال للمشركين وأربابهم.

وأخبر أن المثل الأعلى المتضمن لإثبات الكمالات كلها له وحده؛ ولهذا كان المثل الأعلى وهو أفعل تفضيل، أي: أعلى من غيره، فكيف يكون أعلى وهو عدم محض، ونفي صِرْف، وأي مثل أدنى من هذا؟! ـ تعالى ـ الله عن قول المعطلين علوًّا كبيرًا.

(١) «عجائب القرآن» ص (٨٩).

فمثل السـوء لعادم صفـات الكمال؛ ولهذا جعله مثـل الجاحدين لتوحيده، وكلامـه، وحكمتـه؛ لأنهم فقدوا الصفـات التي من اتصف بهـا كان كاملًا، وهي الإيمـان، والعلم، والمعرفـة، واليقين، والعبادة لله، والتـوكل عليه، والإنابة إليه، والزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، والصبر، والرضا، والشكر، وغير ذلك من الصفات التي اتصف بها من آمن بالآخرة.

فلما سُلبت تلك الصفاتُ عنهم، وهي صفات كمال؛ صار لهم مثل السوء.

فمن سـلب صفـاتِ الكمال عـن الله، وعلوه على خلقـه، وكلامه، وعلمه، وقدرتـه، ومشـيئته، وحياته، وسـائر ما وصف به نفسـه، فقد جعل له مثل السـوء ونزَّهـه عن المثل الأعلى، فإن مثل السـوء هو العدم، وما يسـتلزمه، وضده المثل الأعلـى وهو الكمـال المطلـق، المتضمن للأمـور الوجودية والمعانـي الثبوتية، التـي كلما كانت أكثر في الموصوف وأكمـل كان أعلى من غيره، ولما كان الرب -تعالـى- هـو الأعلى، ووجهه الأعلى، وكلامه الأعلى، وسـمعه الأعلى وبصره وسائر صفاته عليا؛ كان له المثل الأعلى، وكان أحق به من كل ما سواه.

بل يسـتحيل أن يشـترك فـي المثـل الأعلى اثنـان؛ لأنهما إن تكافـآ لم يكن أحدهمـا أعلى مـن الآخر، وإن لـم يتكافآ فالموصـوف بالمثل الأعلـى أحدهما وحده، ويستحيل أن يكون لمن له المثل الأعلى، مثل، أو نظير.

وهـذا برهـان قاطع علـى إثبـات صفات الكمـال وعلـى اسـتحالة التمثيل والتشبيه، فتأمله فإنه في غاية الظهور، والقوة.

ونظير هذا: القهر المطلق، مع الوحدة، فإنهما متلازمان فلا يكون القهار إلا واحدًا، إذ لو كان معه كفؤ له؛ فإن لم يقهره لم يكن قهارًا على الإطلاق، وإن قهره

لم يكن كفؤًا، وكان القهار واحدًا، فتأمل كيف كان قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]. وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الروم:٢٧]، من أعظم الأدلة على ثبوت صفات كمالِه ـ سبحانه ـ.

فإن قلت: قد فهمت هذا وعرفته، فما حقيقة المثل الأعلى؟

قلت: قد أشكل هذا على جماعة من المفسرين، واستشكلوا قول السلف فيه، فإن ابن عباس وغيره قالوا: ﴿مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾: العذاب والنار، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾: شهادة أن لا إله إلا الله.

وقال قتادة: هو الإخلاص والتوحيد.

وقال الواحدي: هذا قول المفسرين في هذه الآية، ولا أدري لم قيل للعذاب: مثل السوء، وللإخلاص: المثل الأعلى؟ قال: وقال قوم: المثل السوء، الصفة السوء من احتياجهم إلى الولد، وكراهتهم للإناث، خوف العيلة، والعار، ولله المثل الأعلى، الصفة العليا من تنزهه وبراءته عن الولد، قال: وهذا قول صحيح، فالمثل كثيرًا يرد بمعنى: الصفة، قاله جماعة من المتقدمين.

وقال ابن كيسان: مثل السوء ما ضرب الله للأصنام وعبدتها من الأمثال، والمثل الأعلى نحو قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ الآية [النور:٣٥]. وقال ابن جرير: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾. نحو قوله: هو الأطيب والأفضل والأحسن والأجمل، وذلك التوحيد والإذعان له بأنه لا إله غيره»[1] اهـ.

---

(١) انظر: «الصواعق المرسلة» (٣/ ١٠٣٠-١٠٣٦).

لا إله إلا الله

(٢١) شهادة الحق

قـال الله ـ تعالـى ـ: ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف:٨٦].

عـن مجاهـد قـال: «﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾: كلمـة الإخـلاص، ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾: أن الله حق».

وقال ابن جرير: «وشهادته بالحق هو إقراره بتوحيد الله، وإنما يعني بذلك: إلا من آمن بالله، وهم يعلمون حقيقة توحيده»[(١)]اهـ.

وقال البغوي: «أراد بشهادة الحق قوله: لا إله إلا الله كلمة التوحيد»[(٢)]اهـ.

وذلك لأن معنى (لا إله إلا الله): لا معبود بحقٍّ[(٣)] إلا الله.

فـإن خبـر (لا) النافية للجنس هنا محـذوف كما هو الشـائع إذا كان معلومًا لدى السامع.

قال ابن مالك في (الألفية):

و٨لنيقعهغعغعقنعكعهفغق　　　عقع عههقعف هلإ قنوكه لمق

---

(١) «جامع البيان» (٢٠/ ٦٦٢).

(٢) «معالم التنزيل» (٧/ ٢٢٤).

(٣) وذلـك خلافًـا لأهل الكلام المذموم الذين قدروا خبـر (لا) بـ(موجود) أو (في الوجود) لأنهم فسروا كلمة (الإله) بالرب.

وسبب إسقاط كلمة (حق) في قولنا: (لا إله حق إلا الله) أن المشركين لم ينازعوا في وجود إلهٍ مع الله ـ عزّ وجلّ ـ، وإنما نازعوا في أحقية الله ـ سبحانه ـ بالعبادة دون غيره، وأن غيره لا يستحق العبادة.

قال ـ تعالى ـ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ [الحج:٦٢]، فقرن بين أحقية الله للعبادة، وبطلان عبادة ما سواه.

لا إله إلا الله

(٢٢) دعوة الحق

قال ـ تعالى ـ: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ [الرعد:١٤].

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّ﴾ قال: «لا إله إلا الله»(١) أو قال: «شهادة أن لا إله إلا الله»(٢).

وعن أمير المؤمنين علي ـ رضي الله عنه ـ: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّ﴾ قال: «التوحيد؛ لا إله إلا الله»(٣).

وعن قتادة قال: «لا إله إلا الله»(٤).

وعن ابن زيد قال: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّ﴾: «لا إله إلا الله، ليست تنبغي لأحد غيره، لا ينبغي أن يقال: فلانٌ إلهُ بني فلان»(٥).

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ:

«قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّ﴾ [الرعد:١٤]، إنه ـ تعالى ـ صاحب دعوة الحق لذاته وصفاته، فهو أهل أن يعبد وحده، ويُدعى وحده، ويُقصد ويُشكر

---

(١) «جامع البيان» (١٣/ ٤٨٥).

(٢) «نفسه» (١٣/ ٤٨٦).

(٣) «نفسه» (١٣/ ٤٨٦)، «الدر المنثور» (٨/ ٤١٢).

(٤) «جامع البيان» (١٣/ ٤٨٦).

(٥) «جامع البيان» (١٣/ ٤٨٦).

ويُحمد، ويُحب ويُرجى ويُخاف، ويتوكل عليه، ويستعان به، ويستجار به، ويُلجأ إليه، فتكون الدعوة الإلهية الحق له وحده.

ومن قام بقلبه هذا ـ معرفة وذوقًا وحالًا ـ صح له مقام التبتل والتجريد المحض.

وقد فسر السلف «دعوة الحق»؛ بالتوحيد والإخلاص فيه، والصدق، ومرادهم هذا المعنى.

فقال علي ـ رضي الله عنه ـ: «دعوة الحق: التوحيد».

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «شهادة أن لا إله إلا الله».

وقيل: الدعاء بالإخلاص، والدعاء الخالص لا يكون إلا لله، ودعوة الحق دعوة الإلهية وحقوقها وتجريدها وإخلاصها»[(١)]اهـ.

وقال العلامة محمد بن صالح العثيمين ـ رحمه الله ـ: «﴿لَهُۥ﴾ أي: لله وحده ﴿دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّ﴾ وهي: عبادته وحده لا شريك له، وإخلاص دعاء العبادة ودعاء المسألة له ـ تعالى ـ. أي: هو الذي ينبغي أن يصرف له الدعاء، والخوف والرجاء، والحب، والرغبة، والرهبة، والإنابة؛ لأن ألوهيته هي الحق، وألوهية غيره باطلة»[(٢)]اهـ.

قال الفخر الرازي: «واعلم أن قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّ﴾ يفيد الحصر، ومعناه: له الدعوة لا لغيره، كما أن قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون:٦]، معناه: لكم دينكم لا لغيركم، ولي ديني، وتحقيق الكلام في إثبات

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٩،٣٠).

(٢) «تفسير القرآن الكريم» (٥/ ٢٨٢،٢٨٣).

هـذا الحصر: أن الحق نقيض الباطل، فالحق هو الموجود والباطل هو المعدوم، فلما كان الحق ـ سبحانه وتعالى ـ حقًّا في ذاته وبذاته وصفاته، وكان ممتنع التغير في حقيقته، كانت معرفته هي المعرفة الحقة، وذكره هو الذكر الحق، والدعوة إليه هي الدعوة الحقة.

أما كل ما سواه فهو ممكن لذاته، ولا يكون حقًّا لذاته، فلا تكون معرفته واجبة التحقيق، ولا ذكره ولا الدعوة إليه. وإذا ثبت هذا ظهر تحقيق قوله ـ تعالى ـ: ﴿له دعوة الحق﴾.

واعلم أن دعوة الحق تارة تكون من الحق للخلق إلى الحق، وتارة تكون من الخلق للخلق إلى الحق.

أما الأول فنقول: أما أن دعوة الحق تكون من الحق فلأنه ـ تعالى ـ هو الذي دعا القلوب إلى حضرته، فلولا دعوته إلى تلك الحضرة، وتوفيقه في ذلك ما كان الوصول، وإلا فمن أين يتمكن العقل البشري من الوصول إلى حضرة الله ـ تعالى ـ. وأيضًا فلأن مبادئ الحركات، وأوائل المحدثات تنتهي إلى قدرة الله ـ تعالى ـ وقضائه وقدره، ولهذا المعنى قال الله ـ تعالى ـ: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم:٤]. وأما أن تلك الدعوة للخلق فلقوله ـ تعالى ـ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر:١٦]، وأما الانتهاء إلى الحق فلقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم:٤٢].

وأما أن دعوة الحق تارة تكون من الخلق فلقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فصلت:٣٣]. ولقوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ﴾ [آل عمران:١٩٣]»[١]اهـ.

---

(١) «عجائب القرآن» ص(٧٦، ٧٧).

(٢٣) العهد

قال الله ـ سبحانه ـ: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ [مريم:٨٥-٨٧].

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «هذا استثناء منقطع، بمعنى: لكن من اتخذ عند الرحمن عهدًا، وهو شهادة أن لا إله إلا الله، والقيام بحقها»[١]اهـ.

عن ابن عباس في قوله: ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾. قال: «شهادة أن لا إله إلا اللهُ، وتَبْرَأُ من الحولِ والقوةِ، ولا ترجو إلا الله»[٢]، وعنه أيضًا ـ في تفسير هذا العهد ـ قال: «من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة»[٣].

قال الرازي: «يدل على صحة هذا القول وجوه:

الأول ـ أن قوله: ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ نكرة في طرف الثبوت، وذلك لا يفيد إلا عهدًا واحدًا، فهذه الآية تدل على أن تلك الشفاعة تحصل بسبب عهد واحد، ثم أجمعنا على أن ما سوى الإيمان فإن الواحد منه، بل مجموعه لا يفيد تلك الشفاعة ألبتة، فوجب أن يكون العهد الواحد الذي يفيد تلك الشفاعة هو الإيمان، وهو قول: «لا إله إلا الله».

والثاني ـ أن جماعة من المفسرين قالوا في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ [البقرة:٤٠]، هو عهد الإيمان، بدليل أن لفظ العهد مجمل،

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٥/ ٢٧٣).
(٢) «جامع البيان» (١٥/ ٦٣٣).
(٣) «الدر المنثور» (١٠/ ١٣٩).

فلما أعقبه بقوله: ﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ ﴾ [البقرة:٤١]، علمنا أن المراد من ذلك العهد هو الإيمان، وهو قول: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

والثالث ـ أن أول ما وقع في العهد قوله ـ تعالى ـ: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف:١٧٢]. وذلك في الحقيقة هو قول: «لا إله إلا الله»، فكأن لفظ العهد محمول عليه.

والرابع ـ أنه ـ تعالى ـ قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ﴾ الآية [التوبة:١١١]، فكان العهد من جانبك عهد الإقرار بالعبودية، ومن جانب الحق ـ سبحانه وتعالى ـ عهد الكرم والربوبية، فثبت بهذه الوجوه: أن المراد من قوله: ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ هو قول: لا إله إلا الله.

الخامس ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا ﴾ [البقرة:٨٠] أي: قلتم: لا إله إلا الله»[١]اهـ.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «لما قالت اليهود ما قالت[٢]، قال الله لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا ﴾ يقول: أدَّخرتم عند الله عهدًا. يقول: أقلتم: لا إله إلا الله. لم تُشركوا، ولم تكفروا به، فإن كنتم قُلتموها فارجُوا بها، وإن كنتم لم تقولوها فلِمَ تقولون على الله ما لا تعلمون؟»[٣].

---

(١) «عجائب القرآن» ص(٩٢،٩٣).

(٢) أي: ما جاء في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ [البقرة:٨٠].

(٣) «جامع البيان» (٢/ ١٧٧).

لا إله إلا الله

(٢٤) الإحسان

قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾ [الرحمن:٦٠].

«خرَّج عبدُ بن حميدٍ عن عكرمةَ: ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾. قال: هل جزاءُ مَن قال: لا إله إلا اللهُ إلا الجنةُ؟

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن، مثله.

وأخرَج ابنُ مَردُويه عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ قال: قال رسولُ اللهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ في هذه الآية: ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾. قال: «**هل جزاءُ من أنعَمْنا عليه بالإسلام إلا أن أُدخِلَه الجنةَ**».

وأخرج عبدُ بن حميد، وابنُ المنذرِ، وابنُ أبي حاتمٍ، وابنُ مَردُويه، عن ابنِ عباسٍ في قولِه: ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾. قال: هل جزاءُ من قال: لا إله إلا اللهُ في الدنيا إلا الجنةُ في الآخرة»[(١)].

وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ [يونس:٢٦].

رُوي عن أُبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ أنه سأل رسولَ اللهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن قولِ اللهِ ـ تعالى ـ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾. قال: «الذين أحسَنُوا: أهلُ التوحيدِ، والحسنى: الجنةُ، والزيادةُ: النظرُ إلى وجْهِ اللهِ»[(٢)].

---

(١) انظر: «الدر المنثور» (١٤/ ١٥١).

(٢) أخرجه ابن جرير (١٢/ ١٦٢)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٤٤)، وابن مردويه ـ كما في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ١٢٥) ـ واللالكائي [٧٨٠]. وقال محققه: «إسناده ضعيف».

«وأخرَج ابنُ مردُويه عن ابنِ عمرَ، عن رسولِ اللهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ في قولِه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾. قال: «أحسَنوا: شهادةُ أن لا إله إلا اللهُ، والحسنى: الجنةُ، وزيادةٌ: النظرُ إلى اللهِ»[1].

ورُوي أيضًا في حديث أخرجه أبو الشيح: «فالحسنى: لا إله إلا الله»[2].

وأخرَج ابنُ مردُويه، والبيهقيُّ في «الأسماءِ والصفات»، من طريقِ عكرمةَ، عن ابنِ عباسٍ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾. قال: قولُ: لا إله إلا اللهُ، والحسنى: الجنةُ، والزيادةُ: النظرُ إلى وجهِ الكريمِ[3].

وأخرَج ابنُ جريرٍ، وابنُ المنذرِ، وابنُ أبي حاتمٍ، والبيهقيُّ، من طريقِ عليٍّ، عن ابْنِ عباس: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾. قال: للذين شهِدوا أن لا إله إلا اللهُ، ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾: الجنة[4].

وأخرَج أبو الشيخِ عن قتادةَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾. قال: شهادةُ أن لا إله إلا اللهُ، ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾. قال: الجنةُ، ﴿وَزِيَادَةٌ﴾. قال: النظرُ إلى وجهِ اللهِ[5].

قال الرازي: «ويدل على صحة هذه التسمية القرآن والخبر والمعقول.

---

(١) «الدر المنثور» (٧/ ٦٥٤).

(٢) «نفسه» (٧/ ٦٥٥).

(٣) «نفسه» (٧/ ٦٥٦).

(٤) «نفسه» (٧/ ٦٥٧).

(٥) «نفسه».

أما القرآن فآيات:

إحداها ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾. قال المفسرون: المراد من قوله: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ ﴾: هل جزاء الإيمان. والتحقيق فيه: أن عليك عهدَ العبودية، وعلى كرمه عهدَ الربوبية، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ [البقرة:٤٠]، وعهد عبوديتك: أن تكون عبدًا له لا لغيره. ثم كمال هذه الدرجة: أن تعرف أن كل ما سوى الله فهو عبد لله، كما قال: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم:٩٣]. ومن أتى بالفعل على أحسن الوجوه كان محسنًا فيه. وقوله: لا إله إلا الله، يدل على اعترافه بأن كل ما سواه فهو عبده ومربوبه. فثبت أن قول: لا إله إلا الله، إحسان من العبد، فقوله: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ أي: هل جزاء من أتى بقول: لا إله إلا الله إلا أن أجعله في حماية لا إله إلا الله».

والثانية ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس:٢٦]. والمراد من قوله: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ﴾ هو: قول لا إله إلا الله باتفاق أهل التفسير، وبدليل أنه لو قال ذلك ومات، ولم يتفرغ لعمل آخر دخل الجنة[١].

---

(١) كما روى البراء قال: جاء رجل من بني النبيت ـ قبيل من الأنصار ـ فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك عبده ورسوله، ثم تقدم فقاتل حتى قُتل، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**عمل هذا يسيرًا وأُجِرَ كثيرًا**» مسلم [١٩٠٠].

وفي قصة عمرو بن أُقَيْش: «لما لحق بالمسلمين في أحد، فلما رآه المسلمون قالوا: إليك عنا يا عمرو، قال: إني قد آمنت، فقاتل حتى جُرح فحُمِل إلى أهله جريحًا، فجاءه سعد بن معاذ فقال لأخته: سليه: حميةً لقومك أو غضبًا لهم أم غضبًا لله؟ قال: بل غضبًا لله ولرسوله، فمات، فدخل الجنة، وما صلى لله صلاة» أخرجه أبو داود [٢٥٣٧]، والحاكم (٢/ ١٢٤)، وحسنه الحافظ في «الإصابة» (٤/ ٦٠٩)، والألباني في «صحيح سنن أبي داود» [٢٢١٢].

وثالثها - قوله: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ [فُصِّلَتْ :٣٣]، واتفقوا على أن هذه الآية نزلت في فضيلة الأذان، وما ذاك إلا لاشتمال الأذان على كلمة لا إله إلا الله، وأيضًا فإنه - تعالى - قال في صفة الكافرين: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ [العنكبوت:٦٨]، فكما أنه لا قبيح أقبح من كلمة الكفر، لا حسن أحسن من كلمة التوحيد، ولهذا قال - تعالى - في أول سورة المؤمنين: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون:١]. وقال في آخر السورة: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المؤمنون:١١٧].

ثم إنه لما كان قول المُوَحِّدِ حسنًا كان مقيلُه حسنًا، كما قال - تعالى -: ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ [الفرقان:٢٤]، ولما كان قول الكافر قبيحًا كان مَقيلُه أيضًا مظلمًا، قال - تعالى -: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ [البقرة:٢٥٧].

ورابعها - قوله - تعالى -: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ [الزمر:١٨]. ولا شك أن أحسن القول: لا إله إلا الله.

وخامسها - قوله - تعالى -: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ [النحل:٩٠]. قيل: العدل: الإعراض عما سوى الله - تعالى -، والإحسان: الإقبال على الله - تعالى -.

وسادسها - قوله - تعالى -: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ [الإسراء:٧]. ولا شك أن الإحسان قول: لا إله إلا الله.

وأمـا الخبـر فمـا روى أبـو موسـى الأشـعري قـال: قـال رسـول الله ـ صلـى الله عليـه وسـلم ـ: «**للذيـن أحسـنوا الحسـنى وزيـادة**»: للذيـن قالـوا: لا إلٰه إلا الله الحسنى، وهي الجنة، والزيادة هي: النظر إلى وجهه الكريم[1].

وأمـا المعقـول فهـو: أنـه كلمـا كان الفعـل حسـنًا كان فاعله أكثر إحسـانًا، ولا شـك أن أحسـن الأذكار ذكـر لا إلٰه إلا الله[2]، وأحسـن المعـارف معرفـة لا إلٰه إلا الله، وإذا كان كذلك كانت هذه المعرفة وهذا الذكر إحسانًا»[3]اهـ.

(١) قـال السـيوطي ـ رحمه الله ـ: أخرج ابن جريـر، وابن أبي حاتم، والدارقطني فـي «الرؤية»، وابن مردويـه عـن أبي موسـى الأشـعري ـ رضي الله عنـه ـ عن رسـول الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ: «**إن الله يبعـث يـوم القيامـة مناديـا ينادي: يا أهـلَ الجنة ـ بصوت يسـمعه أولهم وآخرهـم ـ إن الله وعدكم الحسـنى وزيادة، فالحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الرحمن**»اهـ. من «الدر المنثور» (٧/ ٦٥٣)، ونحوه أيضًا (٧/ ٦٥٦).
وانظر: «شـرح أصول اعتقاد أهل السُّنة» للالكائي (٣/ ٤٥٨، ٤٥٩)، وتفسير «الزيادة» بالنظر إلـى الله ـ تبـارك وتعالى ـ قد اسـتفاض واشـتهر فيما بيـن الصحابة والتابعين، كمـا ذكر ذلك البيهقـي فـي كتاب «الرؤيـة»، وانظر: «دلالـة القرآن والأثر علـى رؤية الله ـ تعالـى ـ بالبصر» للدكتور/ عبد العزيز بن زيد الرومي ص (٧٤).

(٢) راجع ص(٦٨).

(٣) «عجائب القرآن» ص(٧٣-٧٥).

(٢٥) الحسنة

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩].

قال الطبري ـ رحمه الله ـ: «يقول ـ تعالى ـ ذكره: من جاء الله بتوحيده والإيمان به، وقول: لا إله إلا الله مُوقنًا بها قلبُه، فله من هذه الحسنة عند الله خير[1] يوم القيامة، وذلك الخير أن يُثيبه الله منها الجنة، ويؤمِّنه من فزع الصيحة الكبرى، وهي النفخ في الصور، ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ يقول: ومن جاء بالشرك به يوم يلقاه، وجحودِ وحدانيته: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ في نار جهنم»[2].

---

(١) ذهب عامة المفسِّرين إلى أن (أل) في «الحسنة» للعهد لا للجنس، أي: الحسنة المعهودة المعينة وهي (لا إله إلا الله)، وأن (مِن) في قوله: (منها) سببية، أي فله خيرٌ وثواب بسببها، فـ(خير) هنا ما يقابل الشر، لأنه لا شيء خير من (لا إله إلا الله).

وأما من قال إنها للجنس، فقد فسَّر قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ [القصص: ٨٤] بقوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وبحديث: «**إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة**» الحديث، وقالوا: إن قوله: ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ هو للتفضيل لأنها أفضل بالمضاعفة، ولذلك قال ابن زيد: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ [النمل: ٨٩]: «أعطاه الله بالواحدة عشرًا، فهذا خير منها» أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ١٤٤).

ويرد على هذا الأخير ما رواه الشعبي قال: «كان حذيفة جالسًا في حَلَقة فقال: ما تقولون في هذه الآية: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ۝٨٩ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ فقالوا: نعم يا حذيفةُ، من جاء بالحسنة ضُعِّفت له عشر أمثالها، فأخذ كفًّا من حصًى فضرب به الأرض، وقال: تبًّا لكم ـ وكان حديدًا ـ وقال: من جاء بـ: لا إله إلا الله وجبت له الجنة، ومن جاء بالشرك وجبت له النار» انظر: «الدر المنثور» (١١/ ٤١٨).

(٢) «جامع البيان» (١٨/ ١٣٩).

(عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ هي: لا إله إلا الله.

وكذا قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «من جاء بـ: لا إله إلا الله».

وعن مجاهد وقتادة قالا: «كلمة الإخلاص».

وعن عكرمة قال: «شهادة أن لا إله إلا الله».

وعن إبراهيم أنه كان يحلف ما يستثني أن: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ قال: لا إله إلا الله، ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ قال: الشرك.

أما قوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ فمعناه: له منها وبسببها ثواب.

قال عكرمة: «﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾: ليس شيء خيرًا من لا إله إلا الله، ولكن: له منها خير».

وقال زُرعة بن إبراهيم: «لا إله إلا الله خير، ليس شيء أَخْيَرَ من لا إله إلا الله».

وقال ابن جُريج: «له منها خير، فأما أن يكون له خير من الإيمان فلا، ولكن (منها خير): يصيب منها خيرًا».

وعن ابن عباس: ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾: «فمنها وصَل إليه الخيرُ»، وعنه قال: ﴿خَيۡرٞ﴾ ثوابٌ. وعن الحسن قال: «من جاء بلا إله إلا الله، فله منها خير»)[1].

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن شِمْر بن عطية، عن أشياخه عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت يا رسول الله، أوصني. قال: «**إذا عملت سيئة فأتْبِعها حسنةً تمْحُها**». قال: قلت: يا رسول الله، أَمِنَ الحسناتِ: لا إله إلا الله؟ قال: «**هي أفضل الحسنات**»[2].

(١) انظر هذه الآثار في «جامع البيان» (١٨/ ١٤٠-١٤٣)، و«الدر المنثور» (١١/ ٤١٦-٤١٩).

(٢) قال محققو «المسند»: «حسن لغيره»اهـ. من «تحقيق المسند» (٣٥/ ٣٨٥،٣٨٦) حديث رقم [٢١٤٨٧].

لا إله إلا الله

(٢٦) الحسنى

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الليل: ٥-٧].

فسَّر بعضهم ﴿ بِالْحُسْنَىٰ ﴾: بأنها الخَلَف أو الجنة، أو موعود الله على نفسه، وقال آخرون: بل معنى ذلك: وصدَّق بأن الله واحد لا شريك له.

روى الطبري بسنده إلى أبي عبد الرحمن: ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴾ قال: بلا إله إلا الله[1].

وروى بسنده عن الضحاك قال: ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴾: بلا إله إلا الله[2].

وروى بسنده إلى ابن عباس قال: «يقول: صدَّق بلا إله إلا الله»[3].

وعن أبي عبد الرحمن السلمي: ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴾ قال: بلا إله إلا الله[4].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [الليل: ٨-١٠]

روى ابن جرير بسنده عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وعن الضحاك ﴿ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴾: وكَذَّبَ بـ«لا إله إلا الله»[5].

---

(١) «جامع البيان» (٢٤/ ٤٦٣).

(٢) نفس المرجع، ونفس الموضع.

(٣) «نفسه» (٢٤/ ٤٦٤).

(٤) «نفسه» (٢٤/ ٤٦٣).

(٥) «نفسه» (٢٤/ ٤٦٨).

قال الإمام المحقق ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ:

«السبب الثالث: التصديق بالحسنى وفُسِّرت بـ«لا إلٰه إلا الله»، وفسرت بالجنة، وفسرت بالخَلَف، وهي أقوال السلف. واليسرى صفة لموصوف محذوف، أي: الحالة والخَلَّة اليسرى، وهي فُعْلى من اليُسْر، والأقوال الثلاثة ترجع إلى أفضل الأعمال، وأفضل الجزاء.

فمن فسَّرها بـ«لا إلٰه إلا الله»، فقد فسَّرها بمفرد يأتي بكل جمع: فإن التصديق الحقيقي بـ«لا إلٰه إلا الله» يستلزم التصديقَ بشُعَبها وفروعها كلِّها، وجميع أصول الدين وفروعه من شُعَب هذه الكلمة؛ فلا يكون العبد مُصَدِّقًا بها حقيقة التصديق حتى يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه، ولا يكون مؤمنًا بأن الله إلٰه العالمين حتى يؤمن بصفات جلاله ونعوت كماله، ولا يكون مؤمنًا بأنه «لا إلٰه إلا هو» حتى يَسْلُبَ خصائصَ الإلهية عن كل موجودٍ سواه، ويسلبها عن اعتقاده وإرادته، كما هي مَنفية في الحقيقة والخارج، ولا يكون مصدقًا بها من نفى الصفات العُلَىٰ، ولا من نفى كلامه وتكليمه، ولا من نفى استواءه على عرشه، وأنه يصعد إليه الكلم الطيب والعملُ الصالح، وأنه رفع المسيح إليه، وأسرى برسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليه، وأنه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض، ثم يعرج إليه، إلى سائر ما وصف به نفسه ووصفه به رسولُه ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

ولا يكون مؤمنًا بهذه الكلمة مصدقًا بها على الحقيقة مَنْ نفى عمومَ خَلْقِه لكل شيء، وقدرته على كل شيء، وعلمِه بكل شيء، وبعثه للأجساد من القبور ليوم النشور، ولا يكون مصدقًا بها من زعم أنه يترك خلقه سُدى، لم يأمرهم ولم ينههم على ألسنة رسله.

وكذلـك التصديـق بهـا يقتضـي الإذعـان والإقـرار بحقوقها، وهي شـرائع الإسلام التي هي تفصيل هذه الكلمة.

فالتصديـقُ بجميـع أخبـاره وامتثـال أوامره، واجتنـاب نواهيه، هـو تفصيل «لا إله إلا الله»، فالمصـدق بهـا علـى الحقيقة الذي يأتي بذلـك كله، وكذلك لم تحصـل عصمـة المال والدم ـ على الإطلاق ـ إلا بهـا وبالقيام بحقها، وكذلك لا تحصـل النجاة من العـذاب ـ على الإطلاق ـ إلا بها وبحقهـا، فالعقوبة في الدنيا والآخرة على تركها، أو ترك حقها.

ومن فسر «الحُسْنى» بالجنة فسرها بأعلى أنواع الجزاء وكماله.

ومن فسرها بالخَلَفِ ذكر نوعًا من الجزاء، فهذا جزاء دنيوي، والجنة الجزاء في الآخرة، فرجع التصديق بالحسـنى إلى التصديـق بالإيمان وجزائه، والتحقيق أنها تتناول الأمرين»[1]اهـ.

* * *

وهـذا آخـر ما تيسـر جمعه من مادة هـذا الكتاب، ونسـأل الله ـ تعالى ـ كما وفقنـا إلـى شـهادة أن «لا إله إلا الله» أن يَمُـنَّ علينـا بالتوفيق لأداء حقهـا، وإيفاء شـروطها، والثبات عليها حتـى الممات، وأن يرزقنا خاتمة السـعادة، وأن يجعل آخر كلامنا في الدنيا الشهادة.

وصلـى الله وسـلم وبـارك علـى عبده ورسـوله محمـد وعلى آلـه وصحبه أجمعين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن:

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ

(١) «التبيان في أيمان القرآن» ص (٩١-٩٣).

فهرس الموضوعات

الموضـوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع | الصفحة

الدليل الأول:

الدليل الثاني:

الدليل الثالث:

الدليل الرابع:

الدليل الخامس:

الموضـوع	الصفحة

الموضـوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

أسماء كلمة

لا إله إلا الله

الموضوع	الصفحة



